



# كتاب الكتاب

مجلة إسلامية فكرية

الكتاب (١) ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

سلسلة كتب ثقافية تصدر عن مركز الدراسات والبحوث الإسلامية في دورة الإمام القائم العظمى

## ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين الاتصال والتقاطع أم الانفصال والقطيعة؟!

علي علي آل موسى

# **ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين**

الاتصال والتقاطع أم الانفصال والقطيعة؟!

## مُحْفَوظَةٌ جَمِيعُ حَقُوقِ

لمركز الدراسات والبحوث الإسلامية  
في حوزة الإمام القائم (عج) العلمية

الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م

### سعر الكتاب

■ لبنان ٣٠٠٠ ل.ل	■ البحرين دينار	■ ألمانيا ١٠ ماركات
■ سوريا ٦٥ ل.س	■ قطر ١٠ ريالاً	■ سويسرا ١٠ فرنكات
■ مصر ٣ جنيهات	■ عمان ريال ونصف	■ هولندا ١٠ فلورنات
■ الأردن دينار	■ السودان ٢٢٠٠ جنيه	■ إيطاليا ٥٠٠٠٠ ليرة
■ السعودية ١٠ ريالاً	■ المغرب ٢٠ درهماً	■ أمريكا ٥ دولارات
■ الكويت دينار ونصف.	■ تونس دينار	■ كندا ٤ دولارات
■ الإمارات العربية ١٥ درهماً	■ الجزائر ١٨ ديناراً	■ أستراليا ٦ دولارات
■ اليمن ٢٥٠ ريال	■ إيران ١٠٠٠٠ ريال	■ الدول الأوربية
■ العراق ١٠٠٠ دينار	■ بريطانيا جنيهان ونصف	■ والأمريكية الأخرى ٥
■ ليبيا دينار	■ فرنسا ٣٠ فرنكاً	■ دولارات

لبنان - بيروت - الحمراء ص.ب. ١١٣/٦١٥٩

P.O.Box 113/6159 Hamra -Beirut-Lebanon

E-mail: albasaer@gawab.com

التوزيع خارج لبنان: الفلاح للنشر والتوزيع

لبنان - بيروت ص.ب. ١١٣/٦١٥٩

فاكس: ٨٥٦٦٧-١-٩٦١

كتاب

مجلة إسلامية فكرية

# ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين

## الاتصال والتقاطع أم الانفصال والقطيعة؟!

علي علي آل موسى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا  
إِضْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ  
لَنَا بِهِ، وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا، أَنْتَ مَوْلَانَا، فَانصُرْنَا عَلَى  
الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾.

## الإهداء

إلى من أغدق عليّ من معينه الزلال..

إلى من علمني أن أمتشق القلم..

إلى الوردتين الفوّاحتين اللتين اخترمهما الموت نضرتين،

فلم يستطع أن يحجب شذاهما المعطار..

إلى أستاذيّ الكريمين:

الشيخ عبد اللطيف علي الشبيب،

والشيخ حسين صالح آل الشيخ.

أهدي هذا الزرع الذي بذراه وسقياه.



## المحتويات

ثقافة الإسلام.. التصحيح وإبداع الكاتب .....	٩
المقدمة .....	١٥
الفصل الأول:	
الفكر والثقافة قراءة مفهومية .....	١٩
الفصل الثاني:	
ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين .....	٣٧
الفصل الثالث:	
المسبقات الفكرية وعملية التوظيف .....	٩٣
الفصل الرابع:	
نحو ثقافة حية .....	١٣٣
الفصل الخامس:	
الثابت والمتحوّل .....	١٨٥
الفصل السادس:	
التعارض بين العقل والنقل .....	٢٠٧



الفصل السابع:

التنوع المعرفي وثقافة البعد الواحد ..... ٢٤٥

الفصل الثامن:

ثقافة الحياة.. الثقافة الغائبة..... ٣٠٥

الفصل التاسع:

التبادل الثقافي والغزو الثقافي ..... ٣٢٥

## ثقافة الإسلام.. التصحيح وإبداع الكاتب

كثيرة هي الكتابات التي تعالج مواضيع ثقافية وفكرية، لكن القليل منها الذي يبحث في الإشكاليات الرئيسة التي يساهم تحليلها ونقدها إلى تغير مسار التفكير العام وبالأخص ما يطال فكر جماهير الأمة، لأن التطرق إلى المواضيع المهمة ومعالجتها يحتاج إلى العديد من العوامل بعضها يتعلق بالكاتب والبعض الآخر يتعلق بالموضوع وأخيراً بالمنهج الذي يتبعه الكاتب في التحليل والنقد الفكري والثقافي، ولعل أهم العوامل التي تتعلق بالموضوع هو كونه يطال ما تفكر فيه الأمة وما يحدثه هذا التفكير من تغيير في مسار الوعي العام، ليخلق خيارات جديدة في التغيير ويعطي فرصاً مهمة في إنجاح عملية التغيير أو تصحيح مسارها.

وأهم ما يتعلق بالكاتب هو تمتعه بثلاث سمات أساسية:

- 1- القرب والاستلهام من مصادر المعرفة اليقينية.
- 2- معرفة هموم الأمة من خلال التواجد الحقيقي في المجتمع.
- 3- روح الإبداع والقدرة على التحليل والنقد.

وبما أن الثقافة تمثل مدخلاً مهماً لتغيير وتصحيح مسار العقلية العربية والإسلامية فإن ما تطرحه هذه الثقافة وما تثيره من إشكالات وتساؤلات تشكل مادة مهمة لنقد وتحليل الظواهر الاجتماعية العامة

ولفهم الخلل الذي يكتنف عقلية الأمة، وهنا تكمن أهمية المثقف المطلع على تلك الثقافة وما تطرحه من إشكاليات وتساؤلات، والذي يعي بالدقة موضع الخلل بها، مع قدرته ليس على وضع الحلول للأزمات فحسب بل الإبداع في إنتاج الحلول ووضع الاستراتيجيات الفكرية، لإيمانه أن الدفاع فقط دلالة ضعف وعجز، والمواجهة الثقافية في زمن العولمة تستبطن الحاجة لخطط وحلول واستراتيجيات شاملة تطرح بدائل حقيقية وواقعية، لا أن تكتفي بالنقد والرفض فقط.

ولعل ما يميز التيارات الفكرية والثقافية التي اتخذت من بصائر الوحي منطلقاً هو تلك الحالة، أي النقد وتشخيص الخلل فقط، أو مع كل ذلك وضع خطط وإستراتيجية واضحة المعالم لمواجهة كل عوامل التخلف والجمود في عقلية الأمة، وما يزيدنا حاجة لمثل هذه المدرسة الفكرية التي تشخص الخلل وتضع منهج التصحيح هو أهمية المسألة الثقافية وكونها المدخل الأساس لعقلية واعية منفتحة قادرة على قيادة نهضة الأمة والخروج بها من أزمتها.

والأمر الآخر الذي يجعلنا نشعر بالحاجة الماسة لمثل هذه المدرسة هو العولمة الثقافية، التي لم تكتف بعرض ثقافة الآخر فقط، بل مارست عملية واسعة من تشويه ثقافتنا، كما أنها عرضت بدائل عديدة وحلولاً متعددة لأزماتنا وما نعيشه من تخلف في كل الميادين، ولعل ما يساعد ثقافة العولمة على النفوذ والقبول والانتشار لدى قطاعات واسعة من أبناء الأمة ما يلي من العوامل:

١- الأزمة التي تعاني منها بعض التيارات الإسلامية في فهم الإسلام، وما يؤدي ذلك من عرض مشوه لصورة واقعية وحقيقية عنه، كالحركات السلفية التي لا تملك تصوراً واضحاً لحقيقة الأزمة، وتعرض الدين على أنه مجموعة التزامات ظاهرية فقط، ويعد هذا الفهم السلفي مظهراً لأزمة أمة ذات حضارة عريقة، بل الفهم السلفي وما تمارسه تياراته أحد أبرز عوامل التأزم.

٢- عدم قدرة التيارات الفكرية المعتدلة داخل الأمة على خلق تواصل حقيقي مع بعضها، فالحوار والتواصل المعرفي بين جميع

المشارب الفكرية وبالأخص المختلفين مرجعياً (المرجعية الفكرية، كالسنة والشيعية، والعلمانيين والإسلاميين) مهم جداً، لأن التواصل المعرفي بين هذه الأطياف يساهم في خلق وعي متعدد الرؤى، خصوصاً وأن العولمة تستبطن رؤى متعددة مما يعني الحاجة لعقول قادرة على قبول هذا التعدد والتفاعل معه إيجابياً.

٣- غياب ثقافة وفكر مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) عند الكثير من التيارات الفكرية التي تشتغل بالعمل الثقافي، وبالأخص الإسلامية السنية، والتي لم تستطع مواجهة إرث الإعلام الإقصائي الذي أنتجته عصور التخلف والجمود، ف وقعت في شرك ثقافة الإقصاء، وهذا الأمر يناقض روح العولمة التي تسود العالم اليوم، ويؤدي ذلك بالضرورة إلى تشوه ما يفترض كونه حلاً لأزمة الأمة، وينقص القدرة على إنتاج ووضع إستراتيجية ثقافية متكاملة وشاملة.

٤- تعدد وسائل التواصل المعرفي للعولمة الغربية، فهي تمتلك تصوراً واضحاً عما تريد، وعن آليات تحقيق الإرادة، كما أنها تمتلك آلة إعلامية ضخمة يمارس من خلالها الفكر الغربي صياغة عقلية وثقافة تابعة له، فالعولمة تمارس التوجيه الثقافي في كل وقت ومكان، وبكل الوسائل، وبشكل مغري وجذاب يبهر العقول، ويمكن القول أنها تطرح بدائل فكرية وثقافية متعددة الأمر الذي يجعلها أكثر تأثيراً وأشد خطراً على عقلية الأمة، لكن الحل يكمن بالتواصل معها وتنقية ما تنتجه وتوجهه لنا، لأن التعامي والتغافل ليس حلاً بل عجزاً وهروباً من متطلبات الواقع.

من كل ما سبق نلاحظ أن الأزمة التي تعاني منها الأمة تكمن في خلل منهجي في التعامل مع النص مما أنتج فكراً سلفياً منحرفاً مال في العديد من أزماته إلى القشور، وخلل في العلاقة مع الآخر المختلف الداخلي والخارجي، وخلل في التعاطي الثقافي والفكري مع مدرسة الوحي والإمامة، وسيطرة ثقافية غربية واسعة.

ومن خلال هذا التشخيص لأزمة الأمة في جانبها الثقافي، انطلقت حركة ثقافية وفكرية واسعة عملت على استدعاء النص من

خلال منهج الانفتاح على بصائر الوحي، واستلهاهم رؤى الحياة، وجعلت التعاطي الثقافي مع الآخر من خلال الانفتاح على نتاجه وسيلة لزيادة رصيدها من التنوع المعرفي، كما أن العترة الطاهرة عليهم السلام بما تمثله من مدرسة فكرية ومعرفية متكاملة كانت منطلق التأسيس والإنتاج والتعاطي مع كل التيارات المعرفية داخلياً وخارجياً، وبسبب كل هذه المميزات استطاعت هذه المدرسة الفكرية أن ترسم لها ملامح مختلفة عن العديد من التيارات المعرفية المشتغلة بالمسألة الثقافية، وخرجت مفكرين قاموا بجهد كبير في تطوير وإثراء الحقل الثقافي العربي والإسلامي، ولهم إسهاماتهم المميزة التي كان هدفها التصحيح للمنهج ولل فكر وللتقافة وللعقلية العربية والإسلامية.

وكانت مجلة البصائر من أولى الدوريات التي صدرت في العالم العربي وكان منطلقها بصائر الوحي واهتمامها بالإنسان بغض النظر عن لونه أو بلده أو انتمائه، وهدفها الإسهام في تصحيح الفكر وإصلاح عقلية الأمة، ونجحت في الوصول للقارئ العربي رغم العديد من العقبات التي اعترضت طريقها، وها نحن نشق طريقنا نحو زيادة في العطاء والإسهام الثقافي من خلال كتاب البصائر، والذي يعد هذا الكتاب «ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين: الاتصال والتقاطع أم الانفصال والقطيعة» الأول في سلسلة ننوي أن نتواصل في الصدور لترصد مسيرة الثقافة ولنتواصل مع أكثر عدد من قراء المجلة.

وقبل الحديث عن الكتاب نلقي نظرة على مؤلفه وهو سماحة الشيخ علي آل موسى الذي تميزت مسيرته الفكرية بالجمع بين منهجين في التعاطي مع التيارات المعرفية، منهج الحوزة بكل ما يحمل من عمق وعراقة ودقة في التحليل والنقد والإنتاج، ومنهج الجامعة بمكوناته الحديثة والمنفتحة على الفضاءات الثقافية الأكاديمية، ويمكن القول أن كاتبنا تميز بالمميزات السالفة الذكر وهي القرب من مصادر المعرفة اليقينية، ومعرفته بهوموم الناس من خلال التواجد الحقيقي في المجتمع من خلال أداء دوره كعالم دين منفتح ومثقف ولملم بمنهج الحوزة والجامعة مع شعوره بضرورة التصحيح والإصلاح، ومميزته الأخرى والمهمة هي روح الإبداع والقدرة على التحليل والنقد، وهذه الأمور

تضفي مع موضوع الكتاب وعمقه وأسلوبه الراقي أهمية أخرى، لتجعل من الكتاب لبنة مهمة تضاف في صرح الثقافة العربية والإسلامية.

أما الكتاب فهو كعنوانه يحمل هم الإصلاح والتصحيح والإبداع، إصلاح عقلية الأمة في بعدها الثقافي من خلال إيضاح مكامن الخطأ والخلل، ومن ثم اقتراح مجموعة من الحلول والبدائل، وتصحيح ما اعوج من فكر وما التبس من مفاهيم ومصطلحات وما تحمله تلك المفاهيم والمصطلحات من دلائل قيمة، ويمثل الكتاب بفصوله التسعة منهجاً يسهم في تكوين عقلية قادرة على نقد ووعي ما تبتثه التيارات الفكرية والثقافية في زمن العولمة، لأنه يركز على العديد من الأسس التي تمثل منطلقات في حركة الثقافة.

«ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين: الاتصال والتقاطع أم الانفصال والقطيعة» هو كتاب يضم بين دفتيه فكراً رسالياً يحمل هم الأمة والنهوض، يناقش فيه الكاتب رؤى فكرية متعددة، ينتقد ويحلل ويؤسس وكل ذلك بروح علمية أكاديمية مسؤولة، لا يقف عند حاجز من العرف أو ما هو مسكوت عنه ما دام الأمر يدخل ضمن التأسيس لوعي نهضوي يسهم من خلاله الكاتب في التشكيل لعقل عربي خال من أوهام التاريخ أو الأعراف والتقاليد.

نسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين والصلاة على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

زكريا داوود



## المقدمة

عندما كنتُ أدرس في سورية عزمْتُ على تأليف كتاب أبحث فيه عن الثقافة الحية وملاحمها، ومناقشة بعض الاتجاهات الفكرية في محاولة لتلمس توافر ذلك فيها، ثمَّ دراسة مدى التقاطع أو القطيعة بين ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين في السياقين التاريخي القديم والفكري المعاصر.

وقد شجَّع على الأمر ما تزخر به تلك الساحة من اتجاهات فكرية مختلفة، بما تضمه من مجلات وأقنية معرفية أخرى، وتجاور مكاني يتيح لها التقارب والتمايز والاختلاف.

بيد أنَّ الصورة المرتسمة للكتاب في ذهني كانت تقنعني بصعوبة إنجازها دفعة واحدة، لا سيما مع أجواء الدراسة الدينية وما تتطلبه من تفرُّغ وجهد...؛ فكان ذلك دافعاً إلى تجزئ الكتاب على شكل فصول تُكتب بين فينة وأخرى كلما سنحت الفرصة.

ولئلا يبقى حبيس الرفوف، أو يأكله الغبار، وحتى يلاحق حركة الزمن قررتُ نشر كلِّ ما يُنجز منفرداً، وقد احتضنت مجلة (البصائر) الموقرة جلَّ تلك الدراسات، في حين نُشر بعضها الآخر في مجلة (المعرفة) - الصادرة عن وزارة التربية والتعليم السعودية -.

وبعد الانتهاء من كتابتها شرعتُ في جمعها بين دفتي مؤلِّف واحد، فبدت الحاجة إلى التغلب على الأثر الذي تركه التباعد الزمني



بين فترات كتابتها، وإلى الجمع بين أفكارها المتقاربة، وإضافة الجديد لها، ومحاولة ردم الهوة بين ما جاء منها تنظيراً وما جاء تطبيقاً، ونشأت الضرورة إلى القيام بعمل تنقيح وتعديل؛ لأنَّ صورة الكلِّ المتجانس تختلف عنه حين كان أجزاء مبعثرة متباعدة، فالكلُّ يختلف عن مجموع الأجزاء».

ومن هنا زيد فيها.. وأُنقص، وعُيِّر.. ونُقِّح، ونُقلت بعض فقراتها من مكان لآخر..

وتراءت لي - بعد ذلك كلّه - أنَّها تحتاج إلى تقويم يُجري عليها مقاييسه، في محاولة للاستفادة من علوم وعقول ذوي الرأي والمعرفة، فكان للنقد الرائع الذي قدّمه الأخوة الأعزاء: عادل محمد عابدين، ومحمد حسن آل زايد، ومحمد حسن زين الدين، والشيخ ناجي أحمد آل زايد - فضل كبير في ظهور البحث بصورته هذه، فلهم مني جزيل الشكر ووافر الامتنان، وجعل الله ذلك في ميزان أعمالهم.

كما كان لابن خالي المخلص فؤاد علي المشيخص دور مشكور في رفق الكتاب بالأرقام والإحصائيات فيما يتصل بظاهرة (نزيف الأدمغة)، فلم يألُ جهداً أن يجمع منها مادة كبيرة من بين بطون الجرائد والمجلات والكتب والإنترنت.

وفي الختام - ومن باب التوثيق - أحبُّ أن أسجِّل اسم الأماكن التي نُشرت فيها تلك الدراسات وزمانها، وقد آثرت ترتيبها حسب الفصول الواردة في الكتاب، لا حسب تاريخ النشر:

- ١- الفكر والثقافة قراءة مفهومية: لم يُنشر.
- ٢- ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين: مجلة (البصائر)، العدد ٢٧، السنة الرابعة عشرة، ربيع ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص ١١٢- ١٤٤.
- ٣- المسبقات الفكرية وعملية التوظيف: مجلة (البصائر)، العدد ١٩، السنة التاسعة، ربيع ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص ٣٠- ٥٣.
- ٤- نحو ثقافة حية: مجلة (البصائر)، العدد ٢٦، السنة الثالثة

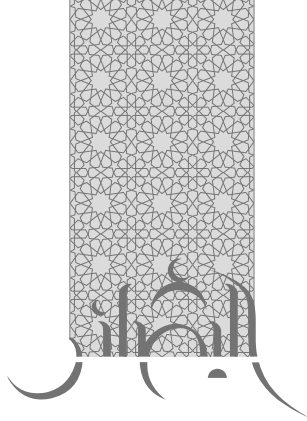
- عشرة، شتاء ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م، ص ٧٥- ١١٠.
- ٥- الثابت والمتحوّل: مجلة (المعرفة)، العدد ٥٦، ذو القعدة ١٤٢٠هـ / فبراير ٢٠٠٠م، ص ١١٨- ١٢١.
- ٦- التعارض بين العقل والنقل: مجلة (البصائر)، العدد ٢٩، السنة الرابعة عشرة، خريف ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م، ص ٢٣- ٤٧.
- ٧- التنوّع المعرفي وثقافة البعد الواحد: مجلة (البصائر)، العدد ٣٣، السنة الخامسة عشرة، خريف ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.
- ٨- ثقافة الحياة.. الثقافة الغائبة: مجلة (البصائر)، العدد ١٦- ١٧، السنة الثامنة، صيف وخريف ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ص ٣٤- ٤٥.
- ٩- التبادل الثقافي والغزو الثقافي: نُشر منه (المنع أم المناعة؟)، في مجلة (المعرفة)، العدد ٦٤، رجب ١٤٢١هـ / أكتوبر ٢٠٠٠م، ص ١٣٦- ١٣٩، تحت عنوان (المناعة أجدى).
- ونُشر كاملاً في: مجلة (البصائر)، العدد ٣٢، السنة الخامسة عشرة، صيف ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ٩٠- ١٠٦.

علي علي آل موسى

السعودية/ القطيف/ العوامية

٥ / ٤ / ١٤٢٥هـ





## الفكر والثقافة قراءة مفهومية

- (الفكر).. قراءة مفهومية:
  - \* الفكر.. تأسيس مفهومي.
  - \* الفكر: الألة والعملية والنتاج.
- الثقافة والمثقف.. المصطلح والظلال:
  - \* الثقافة.
  - \* (المثقف) بين العرف والتربية.
  - \* الفكر والثقافة في القرآن الكريم.



## (الفكر).. قراءة مفهومية

### الفكر.. تأسيس مفهومي:

من أهم القدرات المودعة في العقل: قدرة الفكر والتفكير... والفكر «إعمال الخاطر في الشيء»<sup>(١)</sup>، «إعمال النظر في الشيء»<sup>(٢)</sup>، «إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول»<sup>(٣)</sup>، «استعداد عقلي وذهن يقظ يُعين على توارد المعاني، والتأمل، والمحاكمة، وهو نظرة عميقة توصل صاحبها إلى رأي عميق يختلف عن آراء الآخرين»<sup>(٤)</sup>.

ف(الفكر) - في مرجعيّتها اللغوية - كلمة تُطلق على معنيين «أحدهما: القوة المودعة في مقدّمة الدماغ. وثانيهما: أثرها، أعني ترتب أمور في الذهن يُتوصل بها إلى مطلوب يكون علماً أو ظناً»<sup>(٥)</sup>.

ويعرّفه علماء المنطق بأنّه: «إجراء عملية عقلية في المعلومات الحاضرة؛ لأجل الوصول إلى المطلوب»<sup>(٦)</sup>، وبتعبير آخر أدق: «حركة

(١) ابن منظور، لسان العرب ١٠/ ٣٠٧.

(٢) مجد الدين الفيروزآبادي، القاموس المحيط ٢/ ١٥٩.

(٣) إبراهيم أنس وآخرون، المعجم الوسيط ٢/ ٦٩٨.

(٤) الدكتور محمد التونجي، المعجم المفصّل في الأدب ٢/ ٦٩٠.

(٥) فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين ٣/ ٤٤٤.

(٦) الشيخ محمد رضا المظفر، المنطق/ ٢٣.

العقل بين المعلوم والمجهول»<sup>(٧)</sup>، وهو مطابق لبعض التعريفات اللغوية السابقة.

فحين يواجه الإنسان المشكل يشكّل ذلك تحدياً للعقل يستفزّه ليفهمه ويهضمه، ثم يمضي العقل نحو المعلومات السابقة علّه يجد جواباً، فيبدأ بالتطواف والجهد.. بالبحث والاستقصاء، فإما أن يجد حلاً يشفي الغليل، وإما أن يبقى قلقاً متطلّعاً إلى الرّي الذي يزيل ظمأه المعرفي، وإذا وجد جوابه قفل راجعاً نحو المشكل للتعامل معه.

وبهذا يكون العقل قد مرّ بخطوات ذهنية خمس، هي بريق وومض خاطف، لشدة سرعته لا يكاد يدرك المرء أنّها خطوات تصاعديّة أو تكاملية، وأنّ كلاً منها يمكن فرزه عن الآخر، وهذه الخطوات هي:

- ١- مواجهة المشكل / (المجهول).
  - ٢- معرفة نوع المشكل / (التعرّف).
  - ٣- حركة العقل من المشكل - إلى المعلومات المخزونة عنده / (الحركة الذاتية).
  - ٤- حركة العقل بين المعلومات للفحص عنها، وتأليف ما يناسب المشكل، ويصلح لحلّه / (الحركة الدائرة).
  - ٥- حركة العقل من المعلوم الذي استطاع تأليفه مما عنده إلى المطلوب / (الحركة الراجعة).
- وهذه الأدوار الثلاثة الأخيرة (الحركات) هي الفكر والنظر، ومعنى «حركة العقل بين المعلوم والمجهول»<sup>(٨)</sup>.
- وقد زهبت الاتجاهات الفلسفية إلى تفسيرات كثيرة لمصطلح (الفكر/ التفكير)، منها:

(٧) المصدر/ ٢٣.

(٨) المصدر/ ٢٣-٢٤.

أ - الأفلاطونية: هو حوار في النفس يتضمن كلمات ذهنية تشير إلى أشكال وإلى أفراد. وعلى هذا فإنَّ التفكير نشاط روحي.

ب- الأرسطية: هو فعل من أفعال العقل يُظهر ماهية الشكل أو صورته العقلية.

ج - التصورية: هو نشاط لإبراز المفاهيم أو الأفكار أمام العقل، وهو إما نظري، أو يتشكّل من تجريدات الخبرات الحسيّة.

د - التخيلية: هو نتيجة صور تخيلية ترتبط ببعض العادات نتيجة ميول العقل إلى التحرك من صورة إلى صورة.

هـ - النزعة الاسمىة السيكولوجية: هو حوار داخلي في النفس يستخدم الصور اللفظية أو الكلمات الذهنية التي تشير إلى الأشياء أو فئاتها<sup>(٩)</sup>.

ويرى بعض التربويين أنّ الفكر (التفكير) في أبسط تعريف له عبارة عن «سلسلة من النشاطات العقلية التي يقوم بها الدماغ عندما يتعرض لمثير يتم استقباله عن طريق واحدة أو أكثر من الحواس الخمس: اللمس، والبصر، والسمع، والشم، والذوق»<sup>(١٠)</sup>.

وأنّ التفكير - بمعناه الواسع - «عملية بحث عن معنى في الموقف أو الخبرة. وقد يكون هذا المعنى ظاهراً حيناً، وغامضاً حيناً آخر، ويتطلبّ التوصل إليه تأملاً وإمعان نظر في مكوّنات الموقف أو الخبرة التي يمرُّ بها الفرد»<sup>(١١)</sup>.

## الفكر: الآلة والعملية والنتائج:

حين نلاحظ النصوص التي تعرّف مصطلح (الفكر)، وتحدّث

(٩) معهد الإنماء العربي، الموسوعة الفلسفية العربية ١/ ٦٥٣.

(١٠) فتحي عبد الرحمن جروان، (تعليم التفكير.. تعليم الإبداع)، مجلة (المعرفة)، العدد ٨٣، صفر ١٤٢٣هـ/ مايو ٢٠٠٢م، ص ١٦.

(١١) المصدر/ ١٦.



عنه - ضمن منظومتها اللغوية، أو المنطقية، أو الفلسفية، أو التربوية - نجده فيها يُطلق على الدماغ والذهن، وهو بذلك يعني (آلة التفكير).

ويُطلق ثانية على العملية العقلية والنشاط الذهني أو النفسي، أي ترتيب أمور في الذهن أو النفس منها (تتولد) معرفة جديدة، أو تؤدي إلى تعميق وتوسيع معرفة قديمة، فهو موازٍ لمصطلح (عملية التفكير).

ويُطلق ثالثة، ويُراد به: الناتج من تلك العملية... ما تمّ التوصل إليه منها، فنقول: الفكر الديني، الفكر المسيحي، الفكر الإسلامي، الفكر العلماني، الفكر المادي، فكر هيغل، فكر ماركس، و...، ونقصد به ما توصل إليه هؤلاء بعد قيامهم بعملية التفكير.

فهو - هنا - مساوق لمصطلح (ناتج التفكير)، و(الأفكار) التي هي عبارة عن «الخاطرة التي تطرأ على الإنسان، والتصوّر الذهني لمعالجة قضية منبعثة من العالم الخارجي، وأساسها العقل المحكم»<sup>(١٢)</sup>، وينطبق على «الأفكار والمناهج والمعلومات التي يتشكّل منها ويقوم بها مذهب أو فلسفة أو دين»<sup>(١٣)</sup>.

وهذا المعنى الثالث هو الذي غلب استعمال لفظ (الفكر) فيه في العصور الأخيرة، ولعلّه دخل العربية من الاستعمالات الأوروبية<sup>(١٤)</sup>.

(١٢) المعجم المفصل في الأدب، مصدر سابق ٦٩١/٢.

(١٣) المعاني الثلاثة ملخصة من: الأستاذ خليل عبد العلي آل حمادة، تطبيقات النظرية الصدرية على المشروع الإحيائي لكتاب (أفكار هادفة) / ٤. ٥.

(١٤) المصدر / ٥.

## الثقافة والمثقف.. المصطلح والظلال

### الثقافة:

إنَّ التحديد المفهومي للمصطلح يخلق حالة من الوضوح المعرفي والعملي، والضبابية المفهومية تخلق إرباكاً معرفياً وتطبيقياً، وهذا ما نشهده جزئاً عدم وضوح كثير من المفاهيم للمصطلحات؛ مما يجعل شخصاً يؤمن بالمفهوم ويحارب المصطلح، والعكس!!

إنَّ كلمة (ثقف) - في معناها المرجعي في اللغة العربية - تشعُّ بدلالات «الحذر، والحذق، وسرعة التعلم، والفتنة. يُقال: (رجل ثقف)، إذا كان ضابطاً لما يحويه، قائماً به»<sup>(١٥)</sup>، و«التدريب، والتعهد، والتقويم»<sup>(١٦)</sup>، و«اكتساب الحذق والفهم. يُقال: (عمرو امرؤٌ ثَقِفَ)، أي: فطين وذكي، بمعنى أنه واثق من معرفته لما يفعل أو لما يحتاج إليه»<sup>(١٧)</sup>.

وقد استخدمه الجاحظ [١٦٣-٢٥٥هـ]، [٧٧٩ - ٨٦٨م] بمعنى: التدرّب على احتراف عمل من الأعمال، والتمرس بكفاءة من الكفاءات المختلفة<sup>(١٨)</sup>.

(١٥) لسان العرب، مصدر سابق ١١٢/٢.

(١٦) الدكتور ميشال عاصي، والدكتور إميل يعقوب، المعجم المفصل في اللغة والأدب ٤٧٦/١.

(١٧) الموسوعة الفلسفية العربية، مصدر سابق ٣١٠/١.

(١٨) المعجم المفصل في اللغة والأدب، مصدر سابق ٤٧٦/١.

غير أنّ المصطلح - وعبر مساره التاريخي - تجاوز هذه المعاني الضيقة عند القدماء، بحيث غدت دلالاته الراهنة شمولية، واكتسب سعة في المعنى، واختلف علماء التربية وغيرهم في تعريف (الثقافة)؛ تبعاً لاختلاف تخصصاتهم، ووجهات نظرهم.

ومن تلك التعريفات:

١- يقول (تيلور) في مطلع كتابه (الثقافة البدائية) الذي صدر عام ١٨٧١م:

«إنّ الثقافة أو الحضارة - بمعناها الواسع - هي ذلك الكلّ المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفنّ والأخلاق والقانون والعرف، وكلّ المقدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع»<sup>(١٩)</sup>.

ويعدّ هذا التعريف أقدم تعريف علمي للثقافة، كما يبدو فيه توسيع مفهومها بحيث أصبح يدل على الجوانب المادية وغير المادية في الحياة البشرية، وأنّه - حسب المعتاد عند الغرب - يستعمل لفظتي: الثقافة/ الحضارة بمعنى واحد.

وبنفس السعة عند (تيلور) يأتي استخدام (رونالد فيديريكو) حينما يذهب إلى «أنّ مفهوم الثقافة قد يُستخدم للإشارة إلى بعض الخصائص السكانية مثل: القيم، والمعتقدات، والسلوك، والأدوات، التي يحافظ عليها المجتمع، وتنتقل من جيل إلى جيل، ومن ثمّ فإنّ مفهوم الثقافة يتضمن كلّ جوانب الحياة الإنسانية - من مادية وغير مادية - التي يتعلمها، ويشارك فيها المجتمع»<sup>(٢٠)</sup>.

٢- ويرى (مافيس بيسانز) و(جون بيسانز): أنّ مفهوم الثقافة (CULTURE) يختلف عن مفهوم ثقافة ما.. (CULTURE A). فال مفهوم الأول يشير إلى الجزء الذي نتعلمه من السلوك الإنساني. أما المفهوم الثاني فيشير إلى طرق الحياة المميّزة لهذا المجتمع<sup>(٢١)</sup>.

(١٩) الدكتور طلعت إبراهيم لطفي، مدخل إلى علم الاجتماع/٦٣.

(٢٠) المصدر/٦٤.

(٢١) المصدر/٦٣.

ويؤكد هذه النظرة ما ذهب إليه (ماكيفر) و(بيدج) من أنَّ مفهوم (الثقافة) يشير إلى مجمل التراث الاجتماعي للبشرية، بينما يشير مفهوم (ثقافة ما...) إلى التراث الاجتماعي لمجتمع معيَّن<sup>(٢٢)</sup>.

أي أنَّ (الثقافة) حين تُطلق يُراد بها: ما تشترك فيه الإنسانية جمعاء، أما (ثقافة ما...)، فهي ثقافة مقيدة تختص بمجتمع دون سواه، كما نقول: الثقافة العربية، الثقافة الأمريكية، الثقافة الروسية.

٣- ويذهب (فيليبس) إلى أنَّها: «نسق من المعايير والقيم»<sup>(٢٣)</sup>، ويوافقه في هذا (هوبل) حين يعرفها بأنَّها: «ذلك الكل المتكامل من أنماط السلوك المتعلِّمة التي تميِّز أفراد المجتمع، والتي لا تنتج عن العوامل الوراثية البيولوجية»<sup>(٢٤)</sup>.

ويظهر من هذين التعريفين أنَّهما يقصران مفهوم الثقافة على الأفكار وأنماط السلوك دون الأشياء المادية.

٤- ويعتقد (ردفيلد): «أنَّ الثقافة تبدو في طريقة العمل والصناعة، ولكنَّها لا تتكوَّن من العمل والصناعة»<sup>(٢٥)</sup>.

أي أنَّها مجموعة من الأفكار يجرِّدها العالم من ملاحظته للواقع المحسوس الذي يشتمل على أشكال السلوك المكتسب الخاص بمجتمع أو بجماعة معيَّنة<sup>(٢٦)</sup>.

٥- ويرى (تيرنر) أنَّها «نسق من الرموز التي لها دلالة أو معنى، والتي يكوِّنها ويحافظ عليها أفراد المجتمع من أجل تنظيم شؤون حياتهم»<sup>(٢٧)</sup>.

وفي السياق نفسه يأتي تعريف (هوايت) الذي يرى أنَّها: «الأشياء

(٢٢) المصدر/٦٣.

(٢٣) المصدر/٦٣.

(٢٤) المصدر/٦٣-٦٤.

(٢٥) المصدر/٦٤.

(٢٦) المصدر/٦٤.

(٢٧) المصدر/٦٥.

والأفعال ذات المعاني والتي تُدرَس في إطار غير شخصي»<sup>(٢٨)</sup>.

وقول (لسلي) «أنَّ الثقافة عبارة عن «تنظيم لأنماط السلوك، والأدوات، والآلات، والأشياء، والأفكار، والمعتقدات، والمعارف، والمشاعر (الاتجاهات والقيم) التي تعتمد على استخدام الرموز»<sup>(٢٩)</sup>.

ويظهر جلياً في هذه التعريفات الثلاثة اهتمامهما بالجانب الرمزي، وتأكيدهما «أنَّ الثقافة بدأت عندما استخدم الإنسان الرموز التي ساعدت في نقل الثقافة من جيل لآخر، بطريقة أسهل منه عندما كان يعتمد على المحاكاة والتقليد»<sup>(٣٠)</sup>.

٦- ويرى (كلباتريك) أنَّها: «كلُّ ما صنعه يد الإنسان من أشياء، ومن مظاهر في البيئة الاجتماعية»<sup>(٣١)</sup>.

وقوله «ما صنعه يد الإنسان» يُدخل في الثقافة كلُّ ما هو بشري، لكنَّه يُقصي عنها كلُّ ما هو إلهي؛ لأنَّه ليس من صنع يد الإنسان، وبهذا لا يرى (كلباتريك) أنَّ الدين والوحي جزء من الثقافة.

٧- ويعرِّفها (كلكهون) بأنَّها: «وسائل الحياة المختلفة التي توصل إليها الإنسان عبر التاريخ المسافر منها، والمتضمَّن العقلي واللاعقلي، التي توجد في وقت معيَّن، والتي تكون وسائل إرشاد موجَّه لسلوك الأفراد الإنسانيين في المجتمع»<sup>(٣٢)</sup>.

٨- ويعرِّفها (لنتون) بـ«أنَّها تنظيم للسلوك المكتسب، وبناتج ذلك السلوك يشترك في مكوَّناتها الجزئية أفراد مجتمع معيَّن، وتنتقل عن طريق هؤلاء الأفراد»<sup>(٣٣)</sup>.

ويشير (لنتون) في تعريفه هذا إلى أنَّ الثقافة أمر مكتسب،

(٢٨) المصدر/ ٦٥

(٢٩) الدكتور إبراهيم ناصر، التربية وثقافة المجتمع/ ٧٥.

(٣٠) المصدر/ ٧٥.

(٣١) الدكتور إبراهيم ناصر، مقدمة في التربية/ ١٢٤.

(٣٢) التربية وثقافة المجتمع، مصدر سابق/ ٧٤.

(٣٣) المصدر/ ٧٥.

وليس ذاتياً مع الإنسان، ولا ينتقل عبر الوراثة.

٩- وفي تعريف (جيلين) للثقافة أنَّها «مفهوم يقدّم للفرد عدداً كبيراً من أنواع التكيّف المعدّة من قبل، وما على الفرد إلا أن يتعلّمها، فهي تحدّه بمجموعة كاملة من المشكلات التي وجدت لها الحلول»<sup>(٢٤)</sup>.

١٠- ويرى (ميتيو أرنولد) أنَّها: «عملية تراقٍ نحو الكمال الإنساني تتمّ بتمثّل أفضل الأفكار التي عرفها العالم، وبتطوير الخصائص الإنسانية المميّزة»<sup>(٢٥)</sup>.

١١- ويعرّفها (جون ديوي) بأنّها: «حصيلة التفاعل بين الإنسان وبيئته»<sup>(٢٦)</sup>.

١٢- ويرى (هنري لاوست): «أنّ الثقافة هي: مجموعة الأفكار والعادات الموروثة التي يتكوّن فيها مبدأ خُلقي لأمة ما..، ويؤمن أصحابها بصحتها، وتنشأ منها عقلية خاصة بتلك الأمة تمتاز عن سواها»<sup>(٢٧)</sup>.

١٣- ويعرّفها (أرنست باركر) بـ «أنّها ذخيرة مشتركة لأمة من الأمم تجمّعت لها وانتقلت من جيل إلى جيل خلال تاريخ طويل، وتغلب عليها بوجه عام عقيدة دينية هي جزء من تلك الذخيرة المشتركة من الأفكار والمشاعر واللغة»<sup>(٢٨)</sup>.

١٤- وذهب (ماثيو أرنولد) إلى أنّها «محاولتنا الوصول إلى الكمال الشامل عن طريق العلم بأحسن ما في الفكر الإنساني، مما يؤدي إلى رقيّ البشرية،...، والدين من العناصر التي استعان بها الإنسان في محاولته الوصول إلى الكمال»<sup>(٢٩)</sup>.

(٢٤) المصدر / ٧٥.

(٢٥) الموسوعة الفلسفية العربية، مصدر سابق / ١ / ٣١٢.

(٢٦) المصدر / ١ / ٣١٢.

(٢٧) الدكتوراة نادية شريف العمري، أضواء على الثقافة الإسلامية / ١٤.

(٢٨) المصدر / ١٤.

(٢٩) المصدر / ١٤ - ١٥.

١٥- ولعلَّ من أبسط التعريفات وأكثرها وضوحاً تعريف أحد علماء الاجتماع المحدثين، وهو (روبرت بيرستد): «إنَّ الثقافة هي ذلك الكلُّ المركب الذي يتألف من كلِّ ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملَّكه كأعضاء في مجتمع»<sup>(٤٠)</sup>.

«ويبرز هذا التعريف الصيغة التأليفية للثقافة لتصبح ظاهرة مركبة تتكوَّن من عناصر: بعضها فكريٌّ، وبعضها سلوكيٌّ، وبعضها ماديٌّ»<sup>(٤١)</sup>.

١٦- ويميل علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيون للأخذ بمفهوم شامل يرى الثقافة على أنَّها: «تشير إلى النمط الكليِّ لحياة شعب ما... والعلاقات الشخصية بين أفرادها، وكذلك توجهاتهم»<sup>(٤٢)</sup>.

١٧- بينما يسود بين علماء السياسة «أنَّها تتكوَّن من القيم والمعتقدات، والمعايير، والتفسيرات العقلية، والرموز، والإيديولوجيات، وما شاكلها من المنتجات العقلية»<sup>(٤٣)</sup>.

١٨- وينقل مالك بن نبي [١٣٢٣-١٣٩٣هـ] [١٩٠٥م - ١٩٧٣م] أنَّ «الغرب يعرِّفون الثقافة على أنَّها (تراث الإنسانية)، بمعنى أنَّ مشكلتها ذات علاقة وظيفية بالإنسان، والثقافة - على رأيهم - هي: (فلسفة الإنسان).

وفي البلاد الاشتراكية - حيث يطبع تفكير ماركس كلَّ القيم - عرَّف (يادانوف) الثقافة... على أنَّها ذات علاقة وظيفية بالجماعة، فالثقافة هي: (فلسفة المجتمع)»<sup>(٤٤)</sup>.

ثمَّ ينتقد ابن نبي هذين التعريفين بأنَّهما «يُعدَّان - من الوجهة

(٤٠) مجموعة من المؤلفين، نظرية الثقافة، صفر ١٤١٨هـ/ يوليو (تموز) ١٩٩٧م، سلسلة عالم المعرفة (٢٢٣)، ص٩-١٠.

(٤١) المصدر/ ١٠.

(٤٢) المصدر/ ٣١.

(٤٣) المصدر/ ٣١.

(٤٤) مالك بن نبي، شروط النهضة/ ٨٨.

التربوية - مشتملين على ( فكرة عامة ) عن الثقافة، دون تحديد لمضمونها القابل لأن يدخله التعليم في سلوك الفرد وأسلوب الحياة»<sup>(٤٥)</sup>.

وبعد ذلك يعرف الثقافة على أنها: «مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد منذ ولادته، كرأس مال أولي في الوسط الذي وُلد فيه، والثقافة - على هذا - هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته.

... فهي المحيط الذي يعكس حضارة معينة، والذي يتحرك في نطاقه الإنسان المتحضر. وهكذا نرى أن هذا التعريف يضم بين دفتيه: فلسفة الإنسان، وفلسفة الجماعة، أي (معطيات) الإنسان، و(معطيات) المجتمع، مع أخذنا في الاعتبار ضرورة انسجام هذه المعطيات في كيان واحد تحدثه عملية التركيب التي تجريها الشرارة الروحية عندما يؤذن فجر إحدى الحضارات»<sup>(٤٦)</sup>.

١٩- ويعرفها أحمد ناصر بأنها: «المعارف التي تعطي الإنسان بصيرة في الحياة، ونوراً يمشي به في الناس»<sup>(٤٧)</sup>.

٢٠- ويعرفها جواد كاظم بـ«المعرفة التي تؤثر في عقيدة البشر وسلوكه»<sup>(٤٨)</sup>.

٢١- ويعرفها السيد محمد تقي المدرسي على أنها «منظومة من الرؤى والأفكار المؤثرة في حياة الإنسان والتي تحدد مسار سلوكه وطبيعة مواقفه»<sup>(٤٩)</sup>.

٢٢- ولعلنا بعد هذا التطواف لا نريد أن نسهب في المناقشة المفهومية للمصطلح، ولا الغوص في محاولة الكشف عن الخيط الرفيع المميز بين التعريفات والاتجاهات، وإنما نريد أن نخرج بمفهوم عام

(٤٥) المصدر/ ٨٨.

(٤٦) المصدر/ ٨٩ - ٩٠.

(٤٧) أحمد ناصر، الثقافة الرسالية/ ٩٩.

(٤٨) جواد كاظم، القيادة الإسلامية/ ١٢٠.

(٤٩) السيد محمد تقي المدرسي، الإسلام ثقافة الحياة/ ٣.



شامل للثقافة بأنها: « ذلك النسيج الكلي المعقد من الأفكار، والمعتقدات، والعادات، والتقاليد، والاتجاهات، والقيم، وأساليب التفكير والعمل، وأنماط السلوك، وكل ما يبقى عليه من تجديديات أو ابتكارات أو وسائل في حياة الإنسان، مما ينشأ في ظلّه كلّ عضو من أعضاء الجماعة، ومما ينحدر إلينا من الماضي، ونأخذ به كما هو أو نطوّره في ضوء ظروف حياتنا وخبراتنا»<sup>(٥٠)</sup>.

### (المثقف) بين العرف والتربية:

مَنْ هو المثقف؟، وماذا نقصد بهذا المصطلح عند إطلاقه؟

إنّ هذا المصطلح - هو الآخر - ذو تجليات مفهومية متباينة؛ تبعاً لاختلاف المرجعية التي يُفسَّر ضمن منظومتها.

### (الثقافة) في الاصطلاح العرفي:

لقد اعتاد الناس (العرف) أن يطلقوا لفظ (المثقف) على:

#### ١- المؤدّب:

فيُراد به أحياناً: كلُّ شخص لديه عادات سلوكية ممتازة، فيُحسّن التصرف بما لا يجرح كرامة الآخرين وشعورهم، ومَنْ يملك أخلاقاً جيّداً توظيفها لدى التعامل.

والثقافة - هنا -: الأدب.

#### ٢- صاحب التحصيل العلمي:

فهو - هنا - لمن حصل على شهادة علمية عالية، واستطاع أن يتخصّص في ميدان من ميادين المعرفة، كالتطبّ والهندسة.

والثقافة - هنا - تعني: التحصيل العلمي.

(٥٠) التربية وثقافة المجتمع، مصدر سابق/ ٧٧- ٧٨.

### ٣- المتعلم:

وقد يُطلق على «كل شخص يمتلك قدرات فكرية متفوّقة»<sup>(٥١)</sup>، أي هو مَنْ عنده معلومات تشكّل له حالة تميّز معرفي.

والثقافة - هنا -: التعليم والنتاج العلمي.

### ٤- المستهلك والمنتج للأفكار:

وقد يُراد به: «من مهنته استهلاك المواد الفكرية، والمساهمة في إنتاجها ونشرها»<sup>(٥٢)</sup>.

والثقافة - هنا -: استهلاك الأفكار، وإنتاجها.

وقد يُوسّع هذا المفهوم؛ ليصبح عنواناً مفتوحاً أوسع من سابقه ينطبق على «منتجي الأفكار، ومستهلكيها، وناشريها، وعلى العلماء والفنانين والأدباء، وعلى حملة الشهادات الجامعية، والسياسيين، والإعلاميين»<sup>(٥٣)</sup>.

### (الثقافة) في الاصطلاح التربوي:

بيد أنّ علماء التربية يرون أنّ المثقف ليس هو المؤدّب، أو المتعلم، أو مَنْ حصل على شهادة علمية عالية، أو مستهلك الأفكار ومنتجها؛ لأنّ ما يميّز المثقف - بالمعنى التربوي - عن غيره من الناس في أي مجتمع من المجتمعات هو أن يتصف بصفتين أساسيتين هما:

### أ- الوعي الاجتماعي:

.. الوعي الذي يمكّن الفرد من رؤية المجتمع وقضاياها من زاوية شاملة، ومن تحليل هذه القضايا على مستوى نظري متماسك.

(٥١) الشيخ زكي الميلاد، محنة المثقف الديني مع العصر/ ٢٦.

(٥٢) الدكتور محمد عابد الجابري، وجهة نظر/ ١٩٨.

(٥٣) زينب إبراهيم، (المثقف والسيروية الاجتماعية: قراءة في المهمة والمستلزمات)، مجلة المنطلق، الصادرة عن الاتحاد اللبناني للطلبة المسلمين. العدد ٩٩، شعبان - رمضان ١٤١٣هـ/ فبراير (شباط) - مارس (آذار) ١٩٩٣م، ص ٤٣.

## ب - الدور الاجتماعي:

.. الدور الذي يمكنه وعيه الاجتماعي من لعبه، بالإضافة إلى القدرات الخاصة التي يضيفها عليه اختصاصه المهني، أو كفاءاته الفكرية<sup>(٥٤)</sup>.

فالعلم - ولو كان جامعياً - لا يضيف على الفرد صفة (المثقف) بصورة آلية، فما هو إلا اكتساب موضوعي (اكتساب مهارة)، ولا يشكّل ثقافة في حدّ ذاته، ولكنّه يصبح ثقافة - بالمعنى الشامل - إذا ما توفر لدى المتعلم الوعي الاجتماعي الذاتي الذي من خلاله يصبح الفرد مثقفاً يقوم بنشاط اجتماعي.

وبهذا نخلص - تربوياً - إلى أنّ المثقف هو صاحب الوعي الذاتي، والدور الاجتماعي، لا صاحب الكمّ المعرفي الأكثر، أو الشهادة، أو الأدب الخلفي الأصفى، أو المستهلك والمنتج للأفكار.

كما نصل إلى عدم التلازم والترابط بين هذه المداليل، فيمكن أن يكون المرء مثقفاً، وهو أُمي لا يعرف القراءة والكتابة، ويمكن ألا يكون مثقفاً، وهو يحمل في يديه أرقى الشهادات العلمية!!

وليس هو مَنْ يقرأ الجرائد والمجلات والكتب، ربّما إلى حدّ الزحام الفكري (الترافيك الفكري)، فكلُّ أعضاء المجتمع المتحدّثين بلغته، الواعين بدورهم الاجتماعي، القائمين بالدور، هم مثقفون، والحصول على الثقافة واكتسابها يأتي عبر المشاركة في حياة المجتمع، لا النخبة والصفوة.

## بين الفكر والثقافة:

يحلو لبعض الناس أن يستعمل مصطلحي (الفكر) و (الثقافة) كمترادفين لفظيين، ينطبق كلُّ منهما تمام الانطباق على معنى الآخر ويمدّد ذات الظلال.

لكن... - ومما ذكرنا - يتضح أنّ بين المصطلحين تغييراً وافترقاً، فالفكر عملية تأملية، تستبطن فكرة تولد بعد مخاض داخلي، وتحريك العقل في حركة دائرة تطرق أبواب العقل محاولة التوصل إلى ناتج،

(٥٤) التربية وثقافة المجتمع، مصدر سابق/ ٧٣.

وليس من الضرورة أن يكون ذلك التأمل في أمر عملي له صداه التطبيقي في الواقع الخارجي، فربما يكون تأملاً نظرياً لا صدقاً تطبيقي له، أو تأملاً مجنحاً في دنيا الخيال والوهم.

أما الثقافة فهي التكريس العملي، ثقافة كل هي ما ينصبغ على أعماله وحركاته وسكناته، فالذين يحملون في أذهانهم الزحام العلمي أو (الترافيك الفكري) ربّما هم أبعد الناس عن واقع الحياة والثقافة.

فالمثقف هو من يكون «ضابطاً لما يحويه، قائماً به»، تتوفر به صفتا الوعي والدور الاجتماعي؛ إذ مجرد حمل الأفكار النظرية في الذهن لا يعني أنّ صاحبها قادر على تطبيقها، ولا على أنّه عامل بها، فمعرفة قواعد النحو واللغة لا تكفي وحدها لتصون اللسان من الخطأ واللحن، إذا لم يتبعها تطبيق عملي لتلك القواعد، ومراعاة لها أثناء النطق أو الكتابة، وكذلك الحال بالنسبة للسباحة، فمجرد الإمام والإتقان النظري لكيفيتها لا يصنع من صاحبه سباحاً، إذا لم يتبعها إتقان عملي، وكثير هم أولئك المشبعون بتفاصيل الأفكار حتى التخمّة دون أن يعملوا بشيء منها.

## الفكر والثقافة في القرآن الكريم:

وفي حين نجد العديد من آيات القرآن الكريم تتحدث عن الفكر والتفكير ضمن مشتقات هاتين الكلمتين، لا نجد كلمة (الثقافة) ولا مشتقاتها واردة فيه إلا بمعنى (وجدتموهم أدركتموهم)، وذلك في ست آيات قرآنية منها: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾<sup>(٥٥)</sup>، غير أنّنا يمكن أن نجد بعض المعاني لكلمة (الثقافة) ضمن عناوين آخرين، هما:

### ١- البصيرة:

(البصيرة) هي الفكر المؤثر في السلوك، و (البصائر)، هي «الرؤى، أو الأفكار والتصورات والمفاهيم التي تمثل الأرضية لنمو

(٥٥) سورة البقرة/ ١٩١.

سائر الأفكار والسلوكيات والقيم»<sup>(٥٦)</sup>، وهو ما يوازي (الثقافة) - في معناها التربوي -.

## ٢- العلم:

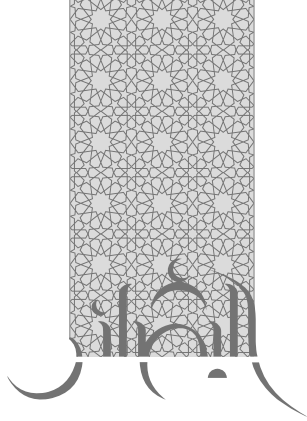
أما (الثقافة/ المثقف) بمعناها العرفي، وخصوصاً في معانيها الثلاثة الأخيرة: (صاحب التحصيل العلمي، أو المتعلم، أو المستهلك والمنتج للأفكار)، فلعلَّ المصطلح القرآني المقارب لها هو (العلم/ العالم).

«والحقيقة: أنَّ صفة (العالم) التي يعطيها الدين للإنسان هي أعلى درجة، وأرفع مرتبة، وأكثر قيمة من صفة (المثقف)، وهذا ما يتبادر إلى الذهن حينما يُقال عن إنسان: إنَّه عالم، وعن آخر: إنَّه مثقف.

وكلُّ ما يصدق على المثقف يصدق على العالم، والعنصر الأساسي المشترك بينهما: هو الارتباط بالمعرفة كسباً ونتاجاً وإبداعاً، وما تفرضه العلاقة من وظائف ومهام وأدوار على أصعدة المجتمع والأمة كافة، والتي تتأكد بصورة أكبر في المنظور الإسلامي الذي من عناصر رؤيته للعلم: أنَّه ليس للكسب الذاتي، وإنَّما هو حقٌّ ينبغي أن يُشاع، وقد أكد الفقهاء على عدم جواز احتباس العلم واحتكاره»<sup>(٥٧)</sup>.

(٥٦) الإسلام ثقافة الحياة، مصدر سابق / ١٦٨.

(٥٧) محنة المثقف الديني مع العصر، مصدر سابق / ٦٣ - ٦٤.



## ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين

- \* الأصيل والدخيل.
- \* عوامل التأثر بالدخيل.
- \* مراحل امتزاج الدخيل بالأصيل.
- \* مراحل ثقافة المسلمين.
- \* منتج الإسلام ومنتج المسلمين.
- \* بين التقاطع والتطية.
- \* أسباب التباين بين ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين.
- \* اكتشاف المنهج أم استيراده؟
- \* الثقافات.. ونتاجها.



## ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين

### الأصيل والدخيل:

حين نزل الإسلام في الجزيرة العربية على النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم [ ٥٣ ق هـ - ١١هـ ]، [ ٥٧٠م - ٦٣٢م ]، وكان يبيده للمسلمين كان له مصدران مشعان هما: القرآن الكريم، والسنة المباركة، فكان المسلمون يسمعون آيات الله تترى عليهم بلغتهم، وتجب على احتياجاتهم، ويساعد على فهمها ورسوخها الأحداث الخارجية التي نزلت فيها فيما نسميه بـ(أسباب النزول).

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوضح القرآن والدين بأقواله وأفعاله وتقريراته فيما اصطلح عليه بـ(السنة).

وهذان المصدران يمثلان النبع الصافي للفكر الأصيل.

بيد أنه - ومنذ الزمن الأول لعصر الوحي - نلحظ بعض تأثيرات هنا وهناك بموروث فكري وبفكر وافد، فالمسلمون الذين نقلهم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من مستنقعات الجاهلية إلى حياض الإسلام المترعة كانوا حديثي عهد وقريبي صلة بالوثنية الجاهلية، فضلاً عن وجود العنصر اليهودي بينهم.

وهكذا نشهد تسرب شيء من ذلك الدخيل، وسعيه للولوج إلى حياة المسلمين لولا أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان يقف في وجهه بالمرصاد.



ولعلَّ أولى مظاهر ذلك التأثير كانت من قِبَل الخليفة عمر بن الخطاب [٤٠ هـ - ٢٣ هـ]، [٥٨٤ م - ٦٤٤ م]، الذي «أتى النبي ﷺ بكتاب [التوراة] أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه النبي ﷺ، فغضب، فقال: أمتهوكون [أمتحيرون] فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدّقوا به، والذي نفسي بيده، لو أنّ موسى عليه السلام كان حيّاً ما وسعه إلا أن يتبعني»<sup>(١)</sup>.

ونلاحظ تأثراً بالفكر الجاهلي حين يمضي الرسول ﷺ لمعركة حنين، فيرى المسلمون شجرة شاهقة يعلق عليها الجاهليون أسلحتهم، ويذبحون عندها، وحين استقر المنظر في قلوب البعض واستولى عليها، ومروا بسدرة خضراء عظيمة، تنادوا من بين جنبات الطريق: «يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط!!»، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ، قَلْتُمْ - وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ - كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسَى ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ: إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، إِنَّهَا السَّنَنُ، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»<sup>(٣)</sup>.

وبين فينة وأخرى تفرغ الجاهلية فمها لتخرج شيئاً من روائحه النتنة بين المسلمين، فيرفض غنيٌّ ثريٌّ مسلم أن يزوّج معدماً فقيراً أو أسود يوافقه العقيدة، أو يقع حدث هامشي، فيتفاعل ويتعمق، وتكاد تطفح سيول الدماء.

ففي غزوة بني المصطلق «كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار [ضرب بيده أو بصدر قدمه دبر الآخر]، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك النبي ﷺ، فقال: ما بال دعوى الجاهلية ... دعواها فإنها منتنة»<sup>(٤)</sup>.

(١) الإمام أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٣٧٦ - ٣٧٧، (مسند جابر بن عبد الله)، الحديث ١٤٧٣٦.

(٢) سورة الأعراف/ ١٣٨.

(٣) ابن هشام، سيرة النبي ﷺ ٤/ ٧٠ - ٧١.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مصدر سابق ٤/ ٣٨٦ - ٣٨٧، (مسند جابر بن عبد الله)، الحديث ١٤٨٠١.

وإذا كان ذلك اللهب الجاهلي قابلاً للاستعار في أية لحظة بين المهاجرين والأنصار، فروحه المقيتة كانت مخيِّمة بجناحها العالك على الأنصار أنفسهم فيما بينهم، فهاهم يجلسون متآخين في المسجد، فيأتي من يشعل فيهم أوار نار خلافاتهم الراقدة كيوم (بعث)، فيغضب الفريقان - الأوس والخزرج -، وينتضون أسلحتهم للقتال، مما جعل النبي ﷺ يهبُّ مسرعاً؛ ليقطع دابر النزاع والشقاق، ويهتف فيهم: «يا معشر المسلمين، الله.. الله، أيدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستتدكم به من الكفر!»<sup>(٥)</sup>.

ويتكرَّر الموقف بين الحيين - الأوس والخزرج - في حادثة الإفك «حتى هموا أن يقتلوا، ورسول الله ﷺ قائمٌ على المنبر!»، ولم يزل رسول الله يخفِّضهم (أي يهدِّثهم) حتى سكتوا»<sup>(٦)</sup>.

وبأفعاله الحكيمة يسعى ﷺ جهده لإذابة الإسفين الذي يدقُّ بين القلوب: فيزوِّج موله زيداً بن حارثة [ت ٨هـ / ٦٢٩م] من ابنة عمته القرشية النجبية زينب بنت جحش [٣٣ ق هـ - ٢٠ هـ]، [٥٩٠ م - ٦٤١م]. ويزوِّج فاطمة بنت قيس الفهرية [ت نحو ٥٠هـ / ٦٧٠م] من أسامة بن زيد بن حارثة [٧ ق هـ - ٥٤هـ]، [٦١٥ - ٦٧٤م]، ويزوِّج بلال بن رباح [ت ٢٠هـ / ٦٤١] بأخت عبد الرحمن بن عوف [٤٤ق هـ - ٣٢هـ]، [٥٨٠ - ٦٥٢م]، ويزوِّج هو ﷺ مطلَّقة وعجوزاً؛ حتى يقتل هذه العادات الجاهلية لا بالفكر والقول وحدهما، بل.. بالتطبيق العملي أيضاً.

ودأب ﷺ على إبقاء مصدري الدين نزيهين عن كلِّ شائبة، فكان ﷺ يقرأ القرآن على المسلمين، ويطلب منهم قراءته عليه، ويحثُّهم على كتابته وحفظه.

ويحثُّ على تدوين السنة المباركة «فَيَدِّوْا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ»<sup>(٧)</sup>.

(٥) السيرة النبوية، مصدر سابق ٥٥٥/١.

(٦) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري ١١٩/٥، باب (غزوة بني المصطلق).

(٧) ابن شعبة الحرَّاني، تحف العقول/ ٣١.

ويردُّ على الحجج التي يبتكرها البعض للحيلولة دون ذلك، وقد سمع صحابته منه ذلك مباشرة في حياته.

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص [ ٧ ق هـ - ٦٥ هـ ]، [ ٦١٦ م - ٦٨٤ م ]:

«كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَنَهَيْتَنِي قَرِيْشٌ، وَقَالُوا: تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا؛ فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكُتَابَةِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَوْمَأَ بِإصْبَعِهِ إِلَيَّ فِيهِ، وَقَالَ: اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلَّا حَقٌّ»<sup>(٨)</sup>.

وما كان ذلك الحرص منه على نزاهة هذين المصدرين إلا ليبعد عنهما يد التحريف، ويقطع الطريق أمام الكذابة والوَضَاعَةَ الَّذِينَ كَانَ يَعْلَمُ عِلْمَ الْيَقِينِ بِدَوْرِهِمُ الضَّخْمَ فِي زَمَانِهِ الْمُبَارَكِ، وَمَا اخْتَلَقُوهُ وَبَثُّوهُ بَيْنَ النَّاسِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدُ لَا يَزَالُ حَيًّا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ!!، كَمَا يَعْلَمُ بِدَوْرِهِمُ الْمُسْتَقْبَلِي الَّذِي سَيَقْلَبُ كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ رَأْسًا عَلَى عَقْبٍ:

«أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ الْكُذَابَةُ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مَتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»<sup>(٩)</sup>.

وبهذا وصل القرآن الكريم إلينا يداً بيد، وعلى سبيل التواتر إلى اليوم، سالماً من التحريف، لم تدخله زيادة ولا نقصان ولا تغيير، وكان من الصحابة من يحفظ ويدوّن السنة المباركة.

وهكذا انتهى عصر رسول الله وقد خَلَفَ ﷺ بَيْنَ ظَهْرَانِهِمُ مَصْدَرَيْنِ نَزِيهَيْنِ يَشْكُلَانِ الْمُرْتَكِزَ الْأَسَاسَ لِفِكْرٍ وَثِقَافَةِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ مِمَّا يَصْغُبُ عَمَلِيَةَ التَّحْرِيفِ نَوْعًا مَّا.. فِيهِمَا أَنَّ الَّذِينَ سَمِعُوهُمَا

(٨) أبو داود السجستاني، سنن أبي داود ٢/ ١٢٦. الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين ١/ ١٠٥-١٠٦. الإمام أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٠٧، ٢١٦.

(٩) العلامة المجلسي، البحار ٢/ ٢١٤، والمتقي الهندي، كنز العمال ١٠/ ٢٩٥.

شفاهاً من رسول الله ﷺ ما زالوا أحياء، وما زال ذلك مستقراً في قلوبهم وعقولهم.

وإلى جانب هذين المصدرين النظريين، ترك رسول الله ﷺ مصدراً آخر يقوم بعملية التوضيح لهما، ويتمثل التطبيق الأرشدي لهما في المستوى الفردي والجمعي معاً؛ ليحمل اللواء، ويرفد مسيرة الرسالة، ويحرسها عن لوث كل شائبة... وهو عترته الطاهرة، التي راح يجذرها في القلوب إلى آخر حياته «إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به - فحث على كتاب الله، ورغّب فيه، ثم قال - وأهل بيتي»<sup>(١٠)</sup>.

## عوامل التأثير بالدخيل:

### ١ - منع تدوين الحديث:

غير أنّ الخطوة التي قام بها البعض في زمن الرسول ﷺ من منع تدوين الحديث الشريف، ومواجهة من يسعون لكتابته بالصد والتثبيط - كتلك التي حكاها عبد الله بن عمرو بن العاص -، والتي واصلها الخلفاء بعد وفاته ﷺ<sup>(١١)</sup>؛ خوفاً من اختلاطه والتباسه بالقرآن - كما قيل - تمثل الخطوة الأولى للتأثير بالدخيل؛ لأنها تقطع الطريق أمام المصدر الأصيل، وتوفر المناخ المناسب ومنطقة فراغ مثلى ستملاً فيما بعد بالفكر الأجنبي المختلف.

وبعبارة أخرى: هي حين أدخلت المكان من المصدر الأصيل مثلت الأرضية والقابلية الممهدة؛ ليدخل الفكر الدخيل ويستقرّ ويترعّر.

(١٠) الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، المجلد ٤، الجزء ٧، ص ١٢٢-١٢٣، (باب من فضائل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه).  
(١١) كالخليفة أبي بكر (المتقي الهندي، كنز العمال ٢٣٧/٥)، (والذهبي، تذكرة الحفاظ ٥/١)، والخليفة عمر (تذكرة الحفاظ ٦/١-٧)، والخليفة عثمان (مسند أحمد بن حنبل ١/٣٦٣).

## ٢ - إقصاء أهل البيت:

.. ويأتي إقصاء أهل البيت (عليهم السلام) عن سدة الأداء الفعلي في الجوانب السياسية والإدارية والتشريعية للأمة، وتكميم أفواههم حين تشرع الأبواب على مصراعيها للتيارات المباينة.

ويبلغ هذا الأمر ذروته حين يلي معاوية، فيكتب «إلى عمّاله في جميع الآفاق: ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي [٢٣ق هـ - ٤٠هـ]، [٦٠٠-٦٦١م] وأهل بيته شهادة»<sup>(١٢)</sup>.

ويإقصاء أهل البيت (عليهم السلام) يكون المصدران النزيهان (النظري والتطبيقي) قد أبعدا عن سدة التأثير الفعلي في حياة المسلمين.

## ٣ - أحاديث بديلة:

والخطوة الثالثة في هذا المجال هي السماح لأمثال تميم الداري [ت ٤٠هـ / ٦٦١م]، وكعب الأحمار [ت ٣٤هـ / ٦٥٥م]، أن يبثوا أحاديثهم كيف يشاؤون بين المسلمين، وكان الأول راهباً نصرانياً، والثاني حبراً يهودياً، وأعلننا إسلامهما.

وعلى يدي هذين نفذت الروايات الإسرائيلية إلى الحديث النبوي، واختلط الحابل بالنابل<sup>(١)</sup>، «وقد خصّص الخليفة عمر للأول ساعة في كل أسبوع يتحدّث فيها قبل صلاة الجمعة بمسجد الرسول، وجعلها عثمان [٤٧ق هـ - ٣٥هـ]، [٥٧٧-٦٥٦م] على عهده ساعتين في يومين.

أما كعب أحمار اليهود، فكان عمر، وعثمان، ومعاوية [٢٠ق هـ - ٦٠هـ]، [٦٠٢م - ٦٨٠م] يسألونه عن مبدأ الخلق وقضايا المعاد وتفسير القرآن، إلى غير ذلك.

وروى عنهما صحابة أمثال أنس بن مالك [١٠ق هـ - ٩٣هـ]، [٦١٢-٧١٢]، وأبي هريرة [٢١ق هـ - ٥٩هـ]، [٦٠٢-٦٧٩م]، وعبد الله بن عمر بن الخطاب [١٠ق هـ - ٧٣هـ]، [٦١٣-٦٩٢م]، وعبد

(١٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٣/٥٩٥.

اللَّهُ بن الزبير [١- ٧٣هـ]، [٦٢٢- ٦٩٢م]، ومعاوية، ونظرائهم من الصحابة والتابعين»<sup>(١٣)</sup>.

وزاد الطين بلة معاوية حين أمر بطمس كثير من الأحاديث خصوصاً التي تتثنى على خصومه من أهل البيت (عليهم السلام)، ووضع أحاديث أخرى تمجده، وتنسجم مع طموحاته وآماله، وتغرق في النيل من أعدائه، والثناء على مناوئهم.

فقد «كتب إلى عمّاله في الآفاق: (أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل بيته والذين يرون فضائله ومناقبه، فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرمهم، واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته).

ثم كتب إلى عمّاله: (أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خيراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إليّ وأقرّ لعيني، وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشدُّ إليهم من مناقب عثمان وفضله).

فقرئت كتبه على الناس، فزويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكتاتيب، فعلموا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله.

... فظهر حديث كثير موضوع، وبهتان منتشر، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ...

وقد روى ابن عرفة المعروف بـ (نفطويه) (٢٤٤- ٣٢٣هـ)، [٨٥٨ - ٩٣٥م] - وهو من أكابر المحدثين وأعلامهم - في تاريخه ما

(١٣) السيّد مرتضى العسكري، معالم المدرستين ٤٩/٢.

يناسب هذا الخبر وقال: إِنَّ أَكْثَرَ الْأَحَادِيثِ الْمَوْضُوعَةَ فِي فِضَائِلِ الصَّحَابَةِ افْتَعَلَتْ فِي أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةَ، تَقَرُّباً إِلَيْهِمْ بِمَا يَظُنُّونَ أَنََّّهُمْ يَرِغْمُونَ بِهِ أَنْوْفَ بَنِي هَاشِمٍ»<sup>(١٤)</sup>.

وتلاحقت الخطوات فيما بعد لملأ الفراغ على نحو ما نراه من عبد الكريم بن أبي العوجاء [ت ١٥٥هـ/ ٧٧٣م] الذي اعترف عندما أريد قتله قائلاً: «أما والله، لئن قتلتموني، لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرم فيها الحلال، وأحل فيها الحرام، والله.. لقد فطرتكم يوم صومكم، وصومتمكم يوم فطركم»<sup>(١٥)</sup>.

ونشهده واسعاً لدى سيف بن عمرو التميمي [ت ٢٠٠هـ/ ٨١٥م]، واختلاقه شخصيات وأحداثاً ومعارك، وتزيقها في النسيج الإسلامي.

#### ٤ - حركة الترجمة:

وكانت حركة الترجمة في العصر الأموي ذات نطاق ضيق «لا يعدو ما يُذكر من أنه تُرجمت لخالد بن يزيد بن معاوية [ت ٩٠هـ / ٧٠٨م] بعض كتب في الصنعة والطب والنجوم، وأنَّ عمر بن عبد العزيز [٦١- ١٠١هـ]، [٦٨١- ٧٢٠م] أمر بترجمة كُتُب في الطب لأهرن بن أعين، وأنَّ كتاباً في تاريخ الساسانيين ونظمهم السياسية تُرجم لهشام بن عبد الملك [٧١- ١٢٥هـ]، [٦٩٠- ٧٤٣م]»<sup>(١٦)</sup>.

وفي العصر العباسي استمرت الترجمة، ودعمها الخلفاء منذ الإطلالة الأولى لدولتهم كالمنصور [٩٥- ١٥٨هـ]، [٧١٤- ٧٥٥م] الذي تُرجمت له الكتب عن الفارسية مثل: (كليلة ودمنة) - الذي استقاه الفرس بدورهم من الهندية -، وعن الهندية ك(الهند سند) في الفلك، وعن اليونانية ك(المجسطي) لبطليموس، و(الأرثماطقي) و(كتاب أوقليدس).

(١٤) شرح نهج البلاغة، مصدر سابق ٣/ ٥٩٦- ٥٩٧.

(١٥) الطبري، تاريخ الطبري ٣/ ٣٧٦، وابن الأثير، الكامل في التاريخ ٦/ ٣.

(١٦) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول/ ١٠٩.

وتعاظمت وقويت شوكتها في عهد الرشيد [١٤٩- ١٩٣هـ]، [٧٦٦- ٨٠٩ م] لا سيما مع وله وتشجيع وزرائه البرامكة لذلك، ومع إنشاء (دار الحكمة)، أو (خزانة الحكمة)، وتوظيف طائفة من المترجمين بها، وجلب الكتب إليها من بلاد الروم، فأعيدت ترجمة بعض الكتب، وتُرجمت أخرى في مقدّماتها (ألف ليلة وليلة) المأخوذ عن (هزار أفسانة) الفارسي.

لكنّها تبلغ ذروتها «لما استظهر (غلب) المأمون [١٧٠- ٢١٨هـ]، [٧٨٦- ٨٣٣ م] على ملك الروم [و] كتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدّخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلم صاحب (بيت الحكمة)، وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله، فنقل»<sup>(١٧)</sup>.

وحمل اللواء، وجدّ في المسير مترجمون كثيرون من أبرزهم: آل ماسرجويه (يهود)، وآل ثابت (صابئة)، وآل بختيشوع (من السريان النسطوريين)، واسطفان بن باسيل (نسطوري)، وشيخ المترجمين حنين بن إسحاق [١٩٤- ٢٦٠هـ]، [٨١٠- ٨٧٣ م] وأولاده (مسيحيون)، وقسطا بن لوقا (مسيحي)، وحبيش بن الأعسم (مسيحي)، ومتى ابن يونس (مسيحي)، والذي انتهى به عصر الترجمة.

وقد «أمعن المهدي [١٢٧- ١٦٩هـ]، [٧٤٤- ٧٨٥ م] في قتل الملحدين والمداهنين في الدين لظهورهم في أيامه، وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني [٢١٥- ٢٧٦ م]، وابن ديسان ومرفيون، مما نقله [ترجمه] عبد الله بن المقفع [١٠٦- ١٤٢هـ]، [٧٢٤- ٧٥٩] وغيره، وترجمه من الفارسية والفهولية إلى العربية، وما صنّف من ذلك ابن أبي العوجاء، وحمام عجرد [ت ١٦١هـ/ ٧٧٨ م]، ويحيى بن زياد [نحو ١٦٠هـ/ ٧٧٦ م]، ومطيع بن إياس [ت ١٦٦هـ/ ٧٨٣ م].. من تأييد المذاهب المنانية [المانوية] والديسانية والمرفيونية،

(١٧) النديم، الفهرست/ ٣٣٩. وانظر للتفصيل: شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، مصدر سابق/ ١٠٩- ١١٧.



فكثرت بذلك الزنادقة، وظهرت آراؤهم في الناس»<sup>(١٨)</sup>.

وعلى هذا مضت الترجمة على مدى مفتوح، وغدت رافداً هداراً للفكر الوافد، أدخل إشراقات التصوف الهندي والفارسي، والفكر اليوناني الإغريقي، هذه الفلسفات التي استقرت في قلب المسلمين، وراحت تنافس المصادر الأصيلة، وتحكم وتوجه تفسيرها، وتعلل بمبادئها كثيراً من الأمور العقدية والأحكام الفقهية، وتساهم في بناء وتشكيل منظومة القيم والأخلاق والمعارف، كما خطت منهجاً للتفكير تفاعل مع كثير من عقول الفقهاء والفلاسفة والمتكلمين المسلمين، وصاغ أفكارهم وعباراتهم، وقاد أعمالهم ومواقفهم.

ومع الجوّ العام الذي أتاحتها حركة الترجمة للتفاعل مع المختلف، ظهرت في أوساط المسلمين قوى تتبنى فكر ماني وتروّج له بأسلوب طرح فكري نظري يرى فيه نبياً يدعو إلى ثنائية الإله على نحو ما هو موجود لدى المجوس، وينكر نبوة محمد صلوات الله عليه وآله، وأخرى تتبنى مزدك [٤٨٧-٥٢٣م] بشكل تحلل جنسي يدعو إلى حياة المجون والمشاعية في المال والنساء!!

## ٥- الواقع .. والتجربة:

وإذا كان المسلمون قد اتصلوا بروافد نظرية أثرت في فكرهم، فقد خاضوا في واقعهم العملي تجارب هي الأخرى ساهمت في صوغ فكرهم وبلورته.

لقد صادفتهم تجارب عدّة فيما يتصل بالحياة، ونظام الحكم والإدارة، وكانت أمامهم صور تطبيقية منتزعة من واقعهم العملي، أو من الأمم التي تداخلوا معها كالفرس والروم وغيرهم.

## ٦- إغلاق باب الاجتهاد:

وتأتي عملية إغلاق باب الاجتهاد، وقصرها عند البعض على أشخاص معدودين؛ لتشكّل السدّ المنيع أمام التجديد وإعادة البناء

(١٨) المسعودي، مروج الذهب ٤ / ٢٤٢.

والإنتاج، وإضفاء صورة الثابت المطلق على الاجتهادات الزمنية، يعكف المتأخرون على دراستها والاستلهاً منها كما يعكفون على النصّ الديني، وبلغ الأمر ذروته لما «انتقل التقويم إلى المذاهب وإلى كتاب الإنسان [فقه المذاهب] بعد كتاب الله..»<sup>(١٩)</sup>.

لقد حدّ - إن لم نقل منع - إغلاق باب الاجتهاد من القيام بعملية مراجعة نقدية لمناهج الاستدلال والاستنباط وقواعده، فإذا بسدّ الذرائع والاستحسان والقياس والمصالح المرسلّة والتوحيد بين الفلسفي والشرعي و.... تصبح من الثابت الذي تُبنى عليه المسائل التفريعية بشكل تلقائي.

بل.. أوضحت المسائل الفقهية التفصيلية هي الأخرى من الثابت عند كثيرين لا يقبلون فيه مراجعة رأي المذهب الفقهي، فضلاً عن مشروعية ترك رأي الفقيه المتبّع إلى فقيه آخر، فضلاً عن تخطّئه وإبداع الجديد.

وهكذا.. عُضّ بالنواجذ على المنتج البشري الزمني، وما رافقه من تسرب للفلسفة اليونانية والقناعات الذاتية وغيرها..، واتخذ سبباً للحجر على العقول، وإيجاد تراتبية في المستوى العقلي والعلمي وتصنيف العلماء، فالسلف - من الفقهاء - هم - دوماً - خير من الخلف حتى لو استجدت تقانات معرفية للمتأخر تتيج له الإطلاع على ما لم يطلع عليه المتقدم؛ ومن ثمّ ليس للمتأخر إلا أن يجتهد ضمن المقولات السابقة، وليس له محاكمتها والخروج عليها، بل.. ليس له الحقّ حتى في إقامة مفاضلة بين الآراء الفقهية المتنوّعة حسب اختلاف المذاهب والفقهاء.

## ٧- عصر التدوين:

وما كادت تنتهي مرحلة الرواية والمشاهدة عند العرب، وتحلّ مرحلة التدوين [١٥٠- ٣٠٠هـ تقريباً] حتى تشدّ بكامل قوتها على هذه الأحاديث وتلك الإسرائيليات، وهاتيك الفلسفات، بالإضافة إلى

(١٩) الشيخ محمد الغزالي، ليس من الإسلام/ ١٦٧.

المنتجات الفكرية لواقع المسلمين، وتسكنها قلب كتب التفسير والحديث والعقيدة وغيرها...، ووجد كثير من الدخيل مكانه إلى جنب الأصيل في نفس الكتاب الواحد، ومنافساً له مقدماً عليه تارة أخرى!!

فتلك الإسرائليات التي شهدنا غرستها الأولى في العصر الإسلامي الأول وزمن الصحابة على يدي تميم الداري وكعب الأحمري، تولى سقيها ورعايتها فيما بعد وهب بن منبّه [٣٤- ١١٤هـ]، [٦٥٤- ٧٣٢م]، وما فتئت تتنامى وتتوالد، حتى وجدت لها المرتع الأخصب في تفسير الطبري [٢٢٤- ٣١٠هـ]، [٨٣٩- ٩٢٣م] (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، والذي دوّنها حتى غُدَّ أغنى مصدر إسلامي بالإسرائليات والأساطير النصرانية<sup>(٢٠)</sup>، وسار على نهجه من بعده الثعلبي [٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م] في تفسيره (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، والأدهى من ذلك أنّ أكثرها تلبّس باسم رسول الله ﷺ وحديثه!!

والمشكلة لا تكمن في التدوين كتدوين، وإنّما في ذلك التسيّب الذي صاحبه، فراح يعبّ من (كلّ من هبّ ودبّ)، دون تحقيق وتأمّل، ودون عرض على العقل والصحيح من النقل.

ولا نريد من هذا التصوير أن نقف ضدّاً لكلّ منجزات عصر التدوين، وما حفل به من كتابة التراث العربي - لا سيما الشعري -، بمقدار ما نقف ضد فتحة الباب مشرعة لتغلغل الدخيل الوافد، وصهره في بوتقة واحدة مع الأصيل.

## مراحل امتزاج الدخيل بالأصيل:

ومما سبق من مسرد تاريخي نستطيع أن نقول: إنّ عملية امتزاج الأصيل بالدخيل في واقعها الخارجي مرّت بثلاث مراحل:

### ١- مرحلة الفكر الأصيل:

وتقتصر على الوحيّ القرآنيّ، والسنة الصحيحة، وهذه الفترة تزامنت مع الوجود المبارك للنبي الأكرم ﷺ.

(٢٠) مجموعة من العلماء والباحثين، دائرة المعارف الإسلامية ٥٦ / ٣.

## ٢- مرحلة الفكر الدخيل:

وكانت بذورها الأولى معاصرة لفترة الرسالة، لكنّها تضخّمت وأخذت بعدها الأكبر بعد عصر الرسالة، وبفعل عوامل عديدة كاختلاق الأحاديث والترجمة.

## ٣- مرحلة تأثر الأصيل بالدخيل:

ومثّلها زمن تدوين وكتابة مصنّفات المسلمين، حين اصطبغت المدوّنات بأذواق واتجاهات الكُتّاب المذهبية والصوفية والفلسفية وغيرها...، وكلّما تقدّم الزمن ترسّخت جذور الدخيل في عمق فكر المسلمين وثقافتهم، وأطبقت شجرته على الأجواء، إلى حدّ دعا البعض إلى القول: «إنّ هذا الفكر الإسلامي الأصيل ظلّ ينحدر إلى أن خرج عن أصالته!»<sup>(٢١)</sup>.

## مراحل ثقافة المسلمين:

وقد مرّت ثقافة المسلمين - في زمانها الممتد من التطابق مع ثقافة الإسلام إلى التغاير والاختلاف الواسع بينهما - بثلاث مراحل:

### ١- مرحلة الفهم:

ففي وقت نزول الوحي على النبي ﷺ عربياً، كانت تتلقاه قلوب متلقيه من الصحابة وغيرهم تلقياً فطرياً عفويّاً، يدركونه بدهاء؛ لما يختزنونه من قرب من اللغة، ييسّر لهم الفهم المباشر للنصّ، دون الحاجة إلى مفسّر، وإن تفاوتت نسب الإدراك والمعرفة بينهم. فهم أمام علاقة (اللفظ - الفطرة)، (اللفظ - الفهم).

لقد كانت تهمي عليهم معاني آيات القرآن الكريم، ومقاصد أحاديث النبي ﷺ محمولة على سفن ألفاظ اللغة العربية التي يدركونها، ويستوعبونها مباشرة، دون الحاجة إلى إمعان نظر لمعرفة المراد.

(٢١) ليس من الإسلام، مصدر سابق/ ١٦٦.

فظوال مدة الرسالة لم نشهد أحداً يسأل عن المعنى اللغوي لكلمة في آية أو حديث، ما عدا أفراد محدودين نقل التاريخ عنهم عدم معرفتهم معنى (الأب) في ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾<sup>(٣٣)</sup>، أو معنى (الكلالة) في ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾<sup>(٣٣)</sup>، أو غيظ من المعاني الأخرى.

وإذا كانت تواجههم كلمات مثل: الوضوء، التيمم، الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، خضراء الدمن،....، ويسألون عن معناها، فهم لا يسألون عن معناها اللغوي و (حقيقتها اللغوية)، وإنما يسألون عن معناها الاصطلاحي التشريعي الجديد الذي انتقلت إليه، واكتسبته عبر (الحقيقة الشرعية).

## ٢- مرحلة التفسير:

ثم أخذت تظهر التفسيرات للألفاظ، والتفسيرات للفظ الواحد، فنكون إزاء علاقة (اللفظ - المعنى)، (اللفظ - التفسير)، لكنها - في الأعم الأغلب - معاني مستقاة من اللفظ.

وقد نجد نزرأً يسيراً من بوادر هذه المرحلة في عهد نزول الوحي، على نحو ما نراه من تطبيق أحد الصحابة لكيفية التيمم بدلاً من الغسل بالتمرغ في التراب لكل الجسم.

والسبب في قلتها في عهد الرسالة أنّ النبي ﷺ كان يبادر دائماً لإيضاح تلك المعاني، ووجوده المبارك بين ظهرائهم يجعل عملية العودة إليه لاستقائها مباشرة من معدنها الزلال سهلة المنال، فضلاً عن كونهم أرباب اللغة الذين يفهمون مداليلها بوجدانهم.

بيد أنّ هذه التفسيرات أخذت تكثر كلما امتدّ الزمن، وابتعدنا عن اللغة، وتعبيراتها الحقيقية والمجازية، وراحت الكلمات تكتسب معاني جديدة وإيحاءات مختلفة، وغاب السياق الذي وردت فيه، والذي تؤثر معرفته في تفسيرها، يزيد الأمر عمقاً - لا سيما عند المتأخرين، ومن

(٢٢) سورة عبس/ ٣١.

(٢٣) سورة النساء/ ١٧٦.

جاء بعد عصر التدوين - اختلاف النصوص نفسها في السند والمتن ومن ثمَّ اختلاف الدلالة، وتقطيع أوصالها بحيث ضاع الجامع المشترك، وضاعت نصوص مقيدة أو مخصّصة ومطلقة أو معمّمة، والتبس المثال بالصورة العامة، وظهور مدارس اجتهادية مختلفة تتباين في بعض الاتجاهات العامة وفي كثير من التفاصيل.

وهكذا.. أمسينا نرى تفسيرات متكثّرة للأمر الواحد والكلمة الواحدة، ففي قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَصْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾<sup>(٢٤)</sup>، هل تشمل (المشركون) أهل الكتاب وغيرهم، أم المقصود المشركون من غير أهل الكتاب؟ وهل هناك فرق بين (نجس) و(نجس) أم لا؟ هل هي النجاسة المعنوية فقط، أم هي النجاسة المادية كذلك وأنهم حين يمَسُّون شخصاً أو شيئاً برطوبة تنتقل النجاسة إليه؟ وهل الحرمة مقصورة على دخول (المسجد الحرام)، أم تعم كل المساجد؟

وفي حديث «ذكاة الجنين ذكاة أمه»<sup>(٢٥)</sup>، هل المقصود أن ذكاته هي نفسها ذكاة أمه، بمعنى أنه حين يُخرج من بطنها ميتاً فإنه لا يحتاج إلى تذكية جديدة؟ أم المقصود أن تذكيته كتذكية أمه، وحين يُخرج ميتاً لم يذكَّ كتذكيته فأكله حرام؟

وقد ساعد على تغاير الآراء الاختلاف في إعراب كلمة (ذكاة) هل هي بالضم أم بالفتح؟

### ٣- مرحلة التأويل:

وفي المرحلتين السابقتين يُصَرَّف اللفظ إلى معنى ظاهري: إما يُدرك بالفطرة، وإما بإمعان النظر والذهن، وقد تؤيد اللغة والشرع ذلك ولو بوجه من الوجوه، غير أنه في المرحلة الثالثة صار اللفظ يُصَرَّف إلى معان باطنية.

(٢٤) سورة التوبة/ ٢٨.

(٢٥) الشيخ ميرزا حسين النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل ١٦/ ١٤٠، الباب

١٦، ح ٢.

والعلاقة - هنا - ليست بين (اللفظ والمعنى الفطري)، ولا (اللفظ والمعنى العقلي)، وإنما هي بين (اللفظ ومعنى المعنى)، أو (المعنى الإشاري) أو (المعنى الخفي)، أو - بعبارة أخرى - بين (اللفظ وتفسير التفسير).

وفي التعبير عن كثير من التأويلات التي وصلتنا عن الفلاسفة والصوفية بـ(معنى المعنى)، وما بعده جرياً على تسمية ذلك بما يسمونه هم، بغض النظر - الآن - عن قبولنا لصدق إطلاق تلك المصطلحات على كثير من تأويلاتهم من عدمه.

ولسنا نقصد - هنا - من (التأويل): الأول والمشاركة وما ينتهي إليه المعنى أو يرمي إليه مما لا يخالف الظاهر، فهذا معنى مقبول تقره اللغة والشريعة، وإنما نعني به حمل الألفاظ على معان خفية، كبعض ما يُسمى بـ (الحقائق الإشراقية)، و(الإلهامات القلبية)، و(الفيوضات الربانية).

## منتج الإسلام ومنتج المسلمين:

وهكذا وجد في الواقع الخارجي: الدين والفهم الديني.

الدين هو رسالة الوحي السماوي، بينما الفهم الديني هو فهم بشري دخلته العوامل والمؤثرات، قد يوافق الدين وقد يخالفه، وفي كلا الفرضين ألبس لباس الدين.

كما كان هناك فكران مختلفان: فكر الإسلام، وفكر المسلمين.

فالإسلام وفكره هو «الوحي الإلهي إلى رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ». وكتاب هذه الرسالة القرآن الكريم، وفي حكمه ما انضم إليه من سنن ثابتة للرسول ﷺ توضّح ما طلب توضيحه منه»<sup>(٢٦)</sup>.

أما فكر المسلمين فهو «صنعة المسلمين العقلية في سبيل الإسلام وبمشورة مبادئه، ... صنعة الإنسان في أرض المسلمين»<sup>(٢٧)</sup>، «هو

(٢٦) ليس من الإسلام، مصدر سابق / ١٣٥ - ١٣٦.

(٢٧) المصدر / ١٣٥، ١٣٨.

تجربة المسلمين وعطاءاتهم الفكرية والحضارية، بمعنى مستوى تفاعل الإنسان المسلم مع النصّ والواقع في آن»<sup>(٢٨)</sup>.

وذاك الفكر لم يكتفِ بالتأثير النظري الذهني في عقول المسلمين، بل.. امتدَّ ليؤثّر في سلوكهم العملي، فكانت هناك - أيضاً - ثقافتان: ثقافة الإسلام، وثقافة المسلمين.

«فالثقافة الإسلامية - وبالتالي - هي المعارف الصادقة المفيدة التي جلت عن الكذب والزور والباطل؛ لأنها نازلة من السماء هدىً ونوراً لأهل الأرض جميعاً.

أما ثقافة المسلمين، فهي ما تأثرت بسلوك المسلمين ونفسيّاتهم، سواءً كانت حقّة أم باطلة، صحيحة أم خاطئة»<sup>(٢٩)</sup>.

وهكذا أخذ يتشكّل فهم ديني قد لا يلتقي مع الدين في شيء، ومنه ومن التجربة والواقع وغيرهما يتبلور فكر المسلمين، ثم يظهر ذلك في ثقافة المسلمين وممارستهم، وبذلك تعدّ الثقافة المنتهى والنتائج الأخير الذي يلتقي فيه الفهم والفكر، ويظهر في السلوك، وهذا ما يدفعنا إلى دمج الجميع تحت إطار (ثقافة الإسلام، وثقافة المسلمين).

وهكذا نميِّز بين الأمور التالية:

- ١- الدين / والفهم الديني.
- ٢- فكر الإسلام / وفكر المسلمين.
- ٣- ثقافة الإسلام / وثقافة المسلمين.

## بين التقاطع والقطيعة:

ونصل إلى أنّ ثقافة المسلمين هي ما عندهم من مؤثرات - فكرية وغيرها - تشكل سلوكياتهم في حياتهم العملية، وتدفع إليها.

(٢٨) الأستاذ محمد المحفوظ، (التجديد في الفكر الإسلامي لا يعني التكيف التعسفي بين وقائع العصر والنصوص الشرعية). جريدة الوطن، السنة الثانية، العدد ٥٥٥، الأحد ٢٤ / ١ / ١٤٢٣هـ، ٧ / أبريل / ٢٠٠٢م، ص ٢٨.

(٢٩) القيادة الإسلامية، مصدر سابق / ١٢١ - ١٢٢.



من هنا فهي أعم من أن توافق ثقافة الإسلام وتتقاطع معها، وقد تتفاوت الصور التي تبدو بها متراوحة من أقصى اليمين وحدّ التطابق والتماثل، إلى أقصى اليسار وحدّ القطيعة، متخذة ألواناً متدرجة فيما بين البياض والسواد:

١- فقد تستلهم من ثقافة الإسلام وتطبّقها، فتحصل المطابقة بين ثقافتها وثقافته.

٢- وقد تفهمها خطأً أو تطبّقها خطأً، فيحصل الافتراق بين ثقافة الإسلام الطاهرة، وبين الفهم أو التطبيق اللذين لم يحالفهما الصواب.

٣- وقد تستقي من مزيج مؤلّف من ثقافة الإسلام، وثقافات أخرى: موروثه ووافده، وهنا - كذلك - يقع الشرخ والافتراق بين الثقافتين، فلا نستطيع أن نسمّ ثقافة المسلمين بأنّها ثقافة الإسلام.

٤- وقد يُنحَى الإسلام عن سدة التطبيق، ويضحي اسماً، وكتباً معلّقة في الرفوف، وتتم عملية الاستقاء من الموروث الفكري والاجتماعي للمجتمع وحده، أو من الواقد فحسب، أو منهما معاً، وهنا - أيضاً - تبعد المسافة، وتزداد الهوة بين الثقافتين.

وتسير كلّ ثقافة باتجاه حتى «يأتي على الناس زمان لا يبقى فيه من القرآن إلا رسمه، ومن الإسلام إلا اسمه»<sup>(٢٠)</sup>، إلى درجة يكون فيها الغرب غير المسلم أقرب إلى الإسلام من معتنقيه، كما صدح الشيخ محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣هـ]، [١٨٤٩-١٩٠٥م] بذلك، وأعلنها صيحة مدوية في كلمته الخالدة: «كنّت في بلاد الغرب فوجدتهم مسلمين بلا إسلام، وجئت إلى بلاد المسلمين فوجدت الإسلام بلا مسلمين!!»<sup>(٢١)</sup>.

(٢٠) جمع الشريف الرضي، نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب / ٧٤٤، قصار الحكم، الحكمة ٢٧١.

(٢١) الدكتور محمد الرميحي، (ضالة المؤمن: لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدّم غيرهم؟)، مجلة (العربي)، العدد ٤٦٤، صفر ١٤١٩هـ، يوليو ١٩٩٧م، ص ٢٠.

## الفرق بين ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين:

ومما مضى نستطيع أن نستجلي مجموعة من الفروق بين ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين، منها:

### ١- الإلهي والبشري:

ثقافة الإسلام معطى إلهي رباني لم يصنعه الإنسان، بينما ثقافة المسلمين هي صنعة البشر المحدودة.

### ٢- المقدس والمدنس:

ثقافة الإسلام معصومة زهية، أما ثقافة المسلمين فهي قابلة للصححة والخطأ، قابلة للزلل.

### ٣- الثابت والمتغير:

ثقافة الإسلام ثقافة ثابتة مطلقة مقدّسة لا تتغير، أما ثقافة المسلمين فهي متغير متحوّل نسبي زمني.

### ٤- السابق واللاحق:

وثقافة الإسلام أسبق زمنياً من ثقافة المسلمين، انبثقت مع إشعاع الوحي، بينما ثقافة المسلمين صدرت بعد ذلك، وسعت - في بعض صورها - لبناء عمرانها على دعائم الوحي.

## أسباب التباين بين ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين:

رأينا فيما مضى شيئاً من عوامل ظهور الدخيل، وتغلغله في النسيج المعرفي الإسلامي، ومزاحمته للأصيل، مما يدخل في سؤال (ماذا حدث؟)، المنتمي لمسار البحث (الوصفي). وهي بدورها تمثل الأسباب التاريخية لافتراق ثقافة الإسلام عن ثقافة المسلمين.

بيد أنّ هناك سؤالاً آخر تستدعيه ضرورة البحث (التحليلي)، هو الإجابة على سؤال (لماذا حدث ما حدث؟)، ما الأسباب التي أدت إلى التباين بين الثقافتين؟

## ١. اختلاف الفهم البشري:

فالفهم البشري طبيعي فيه التغيرات والاختلاف ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾<sup>(٣٢)</sup>، يتبدى ذلك بدءاً من الناس العاديين، إلى المتعلمين، وانتهاءً بالمفكرين، والمفكرين الإسلاميين، والفقهاء المجتهدين.

إنَّهم يختلفون في فهمهم ولو بذلوا قصارى جهدهم وكامل وسعهم لفهم النص، أو التعرّف على المبادئ الإسلامية، أو استنباط الحكم الشرعي.

ولو أردنا توضيح دائرة الموضوع من دراسة مطلق اختلافهم في الفهم، إلى خصوص اختلاف فهمهم لثقافة الإسلام، ومن ثم بروز ثقافات عدة، هي في الواقع ثقافات مسلمين، فسنلمح أموراً عديدة تساهم في هذا الاختلاف وترفده.

وإذا كانت هذه العناصر المساهمة منصبية بصورة أساسية على أسباب اختلاف المجتهدين، فهي - بصورة مقاربة - تنطبق على غيرهم لاسيما المفكرين المسلمين مع اختلاف بيّن في مستوى الاستلهام والتأثر وإعادة الإنتاج، ووجود عناصر إضافية قد يتميّز بها البعض دون غيره.

ومن تلك الأمور<sup>(٣٣)</sup>:

### أ. الاختلاف في فهم النص:

فالنصوص بمثابة المادة الخام التي لا يعني وصولها إلى أيدي أناس اتفاهم في الصناعة التي يعملونها منها، ولا شكل تلك الصناعة.

(٣٢) سورة هود/ ١١٨.

(٣٣) تحدّثنا عن بعضها بشيء من التفصيل في مجلة (البصائر)، العدد ١٥، السنة الثامنة، شتاء ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، في موضوع بعنوان (التعددية المرجعية.. ضرورة أم مشكلة؟)، ص ٨٤-٨٦.

وإذا انطبق ذلك عليهم وهم مختلفو التوجه والحرفة، فإننا قد نرتقي تصاعدياً لنبصر ذلك الاختلاف حتى لو وصلت المادة لأبناء حرفة واحدة، فوصول الخشب للنجارين لا يعني أنهم جميعاً سيصنعون منه كرسيّاً، وإذا صنعوا منه ذلك، فلن تلتقي تفاصيل عملهم مع بعضها لحد التطابق.

وقد يصل نصّ واحد إلى أكثر من فقيه أو باحث، فيختلف فهمهم له؛ إذ لا يعني اعتمادهم على نصّ واحد التطابق بينهم في الفهم له.

#### ب - العثور على الدليل:

أحياناً يعثر الفقيه أو المفكّر أو غيرهما على أدلة لا يعثر عليها آخر؛ مما يؤسس اختلافاً بينهما في النتيجة التي سيصلان إليها.

#### ج - اختلاف ملابسات الدليل:

وقد يصل الدليل كاملاً؛ فيكون له معنى، وقد يصل ناقصاً إلى آخر؛ فتتقصر دلالاته.

وقد يراه بعض وارداً في مناسبة معيّنة أو مختصاً بها، وقد لا تصل تلك المناسبة المخصّصة لآخر، أو لا يرى تخصيص الحكم بموردها.

وقد ينظر أحدٌ إلى نصّ بوصفه ضعيفاً من ناحية السند أو المتن أو الدلالة، ولا يراه آخر كذلك.

#### د - اختلاف مباني الاستدلال:

والاجتهاد نفسه مدارس تختلف في مناهجها، فقد يقبل البعض شيئاً بوصفه دليلاً كالقياس، أو العقل، أو سد الذرائع، أو المصالح المرسلة، أو شرع من قبلنا، أو روايات أهل البيت (عليهم السلام)، دون آخر.

ولسنا نريد - هنا - أن نوازن بين منهج الاستدلال عند السنة والشيعه، بمقدار ما نريد القول باختلافه حتى عند أبناء المذهب الواحد،

فالحديث على شرط الشيخين يختلف عنه عند كثير غيرهما من نفس السنة، وتضعيفات أو توهينات ابن الغضائري [ت ٤١١هـ / ١٠٢٠م] قد لا تلتقي مع كثير غيره من الشيعة.

والشهرة العملية التي تحظى بها رواية ضعيفة هل (تجبر) ضعفها؟ وإعراض الفقهاء عن العمل برواية صحيحة هل (يكسر) صحتها؟

لقد نشأت أمام هذا السؤال اتجاهات ثلاثة مختلفة، بين من يرى أنَّ الشهرة جابرة كاسرة، ومن يراها جابرة لا كاسرة، ومن يراها لا جابرة ولا كاسرة!!

ثم ماذا عن (التسامح في أدلة السنن)، هل يقبله الجميع؟ ومن يقبلونه فماذا يقبلون فيه؟ هل حصول العامل بالخبر على الثواب من الله، أم الحكم بأنه مستحب شرعاً، أم جواز إدخاله في الأمر العبادي؟

#### هـ - التأثير بالمعارف الأخرى:

فمعرفة الإنسان عامة - ومنه الفقيه والمفكر الإسلامي - تؤثر في نظرتة وتفكيره، ولعل من أهم تلك المعارف البشرية تأثيراً على كثير من الفقهاء: علم الكلام والفلسفة والمنطق.

كما تؤثر المعارف في الحقول الاجتماعية والإنسانية والتجريبية لا سيما على وثيقي الاتصال بها من الفقهاء أو المفكرين.

#### و- اختلاف النصوص نفسها:

ولعله قبل العوامل الماضية جميعاً يأتي اختلاف النصوص نفسها، فقد وصلت مختلفة في ألفاظها ومعانيها، وما نُقل باللفظ وما نُقل بالمعنى، وأحاديث الأحاد والأحاديث المتواترة، والصحيح والسقيم، والنص الكامل والمُجزأ والمبتور.

#### نقطة التقاء:

وبين التأثير بالدخيل من جهة، وما يقود إليه الفكر أو الاجتهاد من جهة ثانية نقطتا افتراق ونقطة التقاء، فالعوامل الدخيلة تمثل أموراً

خاطئة ومناهج بديلة ما كان ينبغي الأخذ بها وترك النبع الثرّ الأصيل، أما ما يوصل إليه الفكر والاجتهاد فهو أمر مشروع، كلّف الإسلام رعاياه بالأخذ به، وعذر الفقيه عليه، فهو (منجّر) و (معذر).

ولكنّ نقطة الالتقاء بين الأمرين أنّهما معاً يمثلان ثقافة للمسلمين، ليس بالضرورة أن تتسجم مع ثقافة الإسلام، كما لا يعني ذلك أنّ المفكر والفقيه معصومان عن تطرّق أسباب الخطأ النفسية والعلمية إليهما.

ونحن حين نعدّ ما ينتجه المفكر الإسلامي والفقيه من فكر المسلمين وثقافتهم، لا فكر الإسلام وثقافته، لا نقصد بذلك التقليل من الدور والجهد العظيم المضني الذي يبذلانه، وإنّما لكي نقيس ذلك بموقعيته كفهم بشري قابل للإصابة والخطأ، ولا نحمل الإسلام آثاره، ولئلا نفرض نمطاً بشرياً بوصفه فكر الإسلام وثقافته؛ فنعطيه من القداسة ما يرفعه عن النقد العلمي، ويشلّ عملية الإبداع الخلاقة لدى آخرين يصلون إلى نتائج مغايرة، ولكي نقول حينما يقع خطأ: خطأ شخص، أو خطأ مفكر، أو خطأ فقيه، أو حصل خطأ في ثقافة مسلمين، ولا نقول: أخطأت ثقافة الإسلام، أو خطأ الإسلام.

أي أنّنا نهدف من وراء ذلك إلى (التمييز) بين الثقافتين، وليس إلى (التجريم)، أو التسخيف، أو ممارسة دور الوصاية على الآخرين.

## ٢- البعد عن المنبع الأصيل:

.. ولم يعد الأمر مقتصرأ على اختلاف فهم حول النصّ أو الدليل، بل.. تجاوز ذلك كثيراً بما لا قياس ولا مقارنة.

فحين يُترك للإسلام بمصادره الأصيلة دور تشكيل الفكر والعمل يختلف الأمر تماماً عنه حين إقصاء تلك المصادر.

وفي حياة المسلمين أخذ التباعد عن المصدر الأصيل يزداد يوماً بعد يوم، فيغيب الوعي الديني، وهذا لم يتم على سعيد المسلمين كجماهير فقط، بل.. ابتداءً عندما رُوِيَ الإسلام شيئاً فشيئاً عن سدة التطبيق الفعلي للحكم منذ زمن مبكر من تاريخ المسلمين، وتوجّه

فيما بعد إقصاء الإسلام عن الحكم، وإحلال النظم الغربية والشرقية والقوانين المدنية مكانه، لاسيّما مع بروز وتنامي المدّ العلماني، وإمساكه بأزمنة أمور بعض البلاد، وتوسّع حتى راح يصوغ مظاهر السلوك الشخصي للفرد المسلم.

فأضحت أمور كثيرة في القرآن والسنة ولا يعرفها المسلمون، وما ذاك إلا لبعدهم عن مصدرهم الديني.

ولقد ساعد على هذا البعد عن المنبع الأصيل أمور عدة منها:

### أ - دور الحكام والسلطات:

فقد سعت - ومنذ الفجر الباكر للإسلام - لتغييب قيمه وإبعاد المسلمين عنه؛ ليتسنى لها حكمهم، وإغلاق دائرة المقارنة بين الحكم في صورته التي جاء بها الدين والحكم في صورته التي ستفرض عليهم.

تفعل ذلك بكلّ ما يتصل به من إلهاء للمسلمين عن مثلهم بالمغريات وإشاعة اللهو والمجون حيناً، وبالتشكيل بالعلماء والمتصدين للتغيير حيناً آخر، فيما نسميه بسياسة (الترغيب والترهيب) أو (العصا والجزرة)، وبإطلاق العنان للمذاهب الفاسدة وخلق المناخات الملائمة لامتدادها حيناً ثالثاً.

فالدولة الأموية بالغت في إغراق الحجاز باللهو والمجون والخمر حتى شاع المغنون في مدينة رسول الله ﷺ، وإلى جنب الكعبة المشرفة!!، وظهر الغزل الصريح الفاحش على نحو ما نشهده عند عمر بن أبي ربيعة [٢٣هـ - ٩٣هـ]، [٦٤٤-٧١٢م]، والأحوص [١٠٥هـ / ٧٢٣م]، والعرجي [١٢٠هـ / ٧٣٨م]، ووصل الاستهتار النفسي وغياب الرادع الخارجي إلى حدّ استغلال «الأماكن المقدّسة في مواسم الحج، حيث كان أبطال هذه القصة يجدون فرصاً مواتية يمارسون فيها نشاطهم؛ إذ تتوافد الفتيات من شتى أرجاء العالم الإسلامي، فيتصدّون لهنّ، وينصبون الشباك حولهنّ، ويديرون رؤوسهنّ بعبارات الغزل، فتكون المواعيد، ويكون اللقاء، ويكون الحبُّ!!»<sup>(٢٤)</sup>.

(٢٤) الدكتور يوسف خليف، في الشعر الأموي: دراسة في البيئات / ١٤٧.

وفي الوقت الذي أغرقت فيه الحجاز في بحر من الذهب، راحت - وبكل ما تملك من نشاط - تفرق العراق في بحر من اللهب!، فأحيت فيه نيران الصراع القبلي، فإذا بـ (النقائص) تدأب وتغلو في تصيّد ما عفا عليه الزمن، وابتكار آخر، عبر رسم هزلي (كاريكاتوري) لا يتورّع عن السباب والقذف؛ ليمسي ذلك نمطاً من (المهابة) الجمعية، يبعد الناس عن التفكير في الحكم ومشكلات الخلافة.

وقد ظلّ أتون نار الصراع القبلي هذه متأججاً لما يقرب الخمسين سنة [٦٥- ١١٤هـ]، عاركاً بثفاله حوالي الثمانين شاعراً<sup>(٣٥)</sup>، مسعراً الضغينة والبغضاء بين شتى القبائل، بل.. وبين أفخاذ القبيلة الواحدة.

ويمضي الأمويون في التنكيل بمخالفينهم، بدءاً بمحاولة مسخ الشخصية، ووضع أحاديث الذمّ فيهم، وسلبهم فضائلهم ومزاياهم، والمدح لمناؤيتهم وعدم قبول شهادتهم، وتسقيطهم اجتماعياً، ومروراً بسياسة التقدير في الرزق والمعيشة وتضييق الخناق الاقتصادي، وانتهاءً بالتصفية الجسدية.

يقول معاوية بن أبي سفيان: «انظروا من قامت عليه البينة أنّه يحبّ علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه»<sup>(٣٦)</sup>، «من اتهمتموه بموالة هؤلاء القوم فنكّلوا به، واهدموا داره»<sup>(٣٧)</sup>.

وقد ظهر ذلك واضحاً في قتل عمر بن الحمق الخزاعي [ت ٥٠هـ/ ٦٧٠م]، وحجر بن عدي [ت ٥١هـ/ ٦٧١م]، وميثم التمار [ت ٦٠هـ/ ٦٨٠م]، وكميل بن زياد النخعي [١٢هـ - ٨٢هـ]، [٦٣٣م - ٧٠١م]، والكميت ابن زيد الأسدي [٦٠هـ - ١٢٦هـ]، [٦٨٠م - ٧٤٤م]، وغيرهم، وتجلّى في صورته الفجّة بقتل الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) [٤هـ - ٦١هـ]، [٦٢٥م - ٦٨٠م] ومن معه في حادثة كربلاء عام ٦١هـ.

ومن ناحية ثالثة أطلقوا العنان للمذاهب المتكلمة التي تبرّز

(٣٥) المصدر / ١٣٨ - ١٣٩.

(٣٦) شرح نهج البلاغة، مصدر سابق ٣ / ٥٩٦.

(٣٧) المصدر ٣ / ٥٦٩.



نزوهم على الخلافة، وتجعله أمراً ربانياً، وما شاء الله لا بد أن يكون، ولا راد لقضائه وقدره، وأفسحوا المدى لينشغل الناس بالأخذ والرد في هذه المذاهب، كما مهّدوا الطريق لها لتنتفح سمومها التخديرية في عزائم من تحدّثه نفسه بالتحرك والنشاط والتغيير.

وهكذا ظهرت القدرية والمفوضة والمرجئة، وغيرها من الفرق، وشغل الناس بمحنة خلق القرآن أو أزليته.

وقد تفاقم الأمر في العصر العباسي فشاعت المغريات على نحو لم يُعهد من قبل، فكثر الرقيق والقيان والمغنيّات والغلاميات والتشبيب بالمذكر والخمر و...، وتكفي إطلالة على شعر والبة بن الحباب [ت ١٧٠هـ / ٧٨٦م] - مؤسس الغزل الذكوري -، وتلميذه أبي نواس [١٤٦-١٩٨هـ]، [٧٦٣-٨١٤ م]؛ لتكشف شيئاً من هذه الصورة.

وفي ظلّ الدولة العباسية - ولا سيّما فيما أعقب حركة الترجمة - كثرت فئات المتكلمين والفلاسفة المتأثرين بالفكر الشرقي: الهندي والفراسي، وبالفكر الفلسفي اليوناني، كما دخل الوطن الإسلامي فئات الزنادقة والمانوية والصابئة وأهل الكتاب وغيرهم، وشهدت بلاطات الحكم الكثير من الجدل المحموم بينها.

وانبثق المذهب الأشعري على يد الإمام أبي الحسن علي الأشعري [٢٦٠-٣٢٤ هـ]، [٨٧٤ - ٩٣٦ م] كرد فعل على المذهب المعتزلي الذي ظهر في العصر الأموي على يدي واصل بن عطاء [٨٠-١٣١ هـ]، [٧٠٠-٧٤٨ م]، وظلا يصطرعان، ويتبادلان استقطاب الخلفاء، وحملهم على تبني وجهة نظرهم، وقمع المخالفين لها، فقد استقطب المعتزلة المأمون [١٧٠-٢١٨ هـ]، [٧٨٦-٨٣٣ م] الذي جعل من فكرة (خلق القرآن) عقيدة رسمية تدين بها الدولة، وتبعه المعتصم [١٧٩-٢٢٧ هـ]، [٧٩٥-٨٤١ م]، والواثق [٢٠٠-٢٣٢ هـ]، [٨١٥ - ٨٤٧ م]، في حين استقطب الأشاعرة الخلفاء بدءاً بالمتوكل [٢٠٦-٢٤٧ هـ]، [٨٢١ - ٨٦١ م] الذي قال برأيهم بـ(قدم القرآن وأزليته)، وقلب للقائلين بالفكرة المناهضة (ظهر المجن).

وفي حين سعى العديد من هذه الفئات والمذاهب إلى تصيّد

المؤيدات من النصّ الديني لدعم فكرتهم، وإلباسها مسوح الدين، وما يضمنه ذلك من جلب رضا السلطات الحاكمة، أو الفرار من سيفها المشرع، وإمكان تمريرها على الخاصة وخصوصاً المتدينين منهم، وفرصة اعتناق السواد العام لها.

راح الحكّام العباسيون ينكّون بمخالفهم مستغلين ذات العناوين العقدية والفقهية والفكرية، كذلك التي رأيناها ضمن محنة (خلق القرآن) التي أضحت امتحاناً عصياً اضْطُهد به الفقهاء، واستُغل لتصفية الخصوم والمنائين وملاحقتهم، ومنه ما طال الإمام أبا حنيفة [٨٠ - ١٥٠هـ]، [٦٩٩ - ٧٦٧م] من أخذ لبعض القضاة، والإمام مالك ابن أنس [٩٣ - ١٧٩هـ]، [٧١٢ - ٧٩٥م]، ويبلغ ذروته في النكبة التي تعرّض لها الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١هـ]، [٧٨٠ - ٨٥٥ م]، وصفّته بالحديد في زمن المأمون العباسي، وكادت تودي بحياته عام ٢١٨هـ / ٨٣٣ م لولا وفاة المأمون في تلك السنة، وزجّته في غياهب السجن ثمانية وعشرين شهراً أيام المعتصم، ولم يخرج منه إلا حين ولي المتوكّل، الذي أفرج عنه، وأكرمه، و«مكث مدّة لا يولّي أحداً إلا بمشورته، وتوفي الإمام وهو على تقدمة عند المتوكّل»<sup>(٢٨)</sup>.

هذا فضلاً عمّا ناله أهل البيت (عليهم السلام) من تضيق وقتل؛ إذ كان يُنظر إليهم دوماً بوصفهم العدو اللدود المنافس على العرش.

### ب - العرض المشوّه للدين:

وإذا كان الأمر السابق قد قام به الحكّام والسلطات، فأكثر من قام بالعرض المشوّه للدين هم الخاصة والنخبة من طبقة العلماء والمثقفين والعبّاد.

فما يقوم به بعض العلماء من عرض خاطئ للدين يغالي في الجانب الشكلي غالباً، ولا يتلّمس روح الدين والشريعة، ولا يأخذ بمستجدات الزمان والمكان - يدفع آخرين إلى الابتعاد عن الدين ورفضه بوصفه ذلك الذي حكاه هؤلاء.

(٢٨) خير الدين الزركلي، الأعلام / ١ / ٣٠٣.

وتزداد المأساة ضراوة حين يندفع بعض العلماء تحت وطأة بريق الأهواء والشهوات والمصالح أو خدمة الحكام لعرض الدين وفق هذا التوظيف، الأمر الذي يجعل المشاهد يظن أنّ الدين ما هو إلا هذه الكيفيات، ومن ثمّ يجد في نفسه المبرّر لتركه.

ولعلّ في تجربة يحيى بن أكثم [١٥٩ - ٢٤٢هـ]، [٧٧٥ - ٨٥٧م]، وما أوصله إليه هواه من إباحة اللواط، وإسقاط ذلك على قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرَوْجَهُمْ دُكْرَانًا وَإِنَّا نَا﴾<sup>(٣٩)</sup> خير مثال<sup>(٤٠)</sup>.

كما أنّ اللغة التي يندفع لها البعض في تحريم كثير من الأمور تحت شعار (الاحتياط في الدين) و(اجتناب مواطن الشبهات)، دافع آخر يخلق فتاعات ضدية بأنّ الدين عسر، وليس بيسر، وأنّ العمل به يعني أن يعيش الإنسان كدودة القزّ متلفعاً بشرنقة وكلّ ما حوله حرام ونجس، ومن ثمّ فمن يريد أن يكون متوازناً اجتماعياً، وينطلق نحو الفضاء الرحب، لا سبيل أمامه إلا الانفلات من ربكة هذا القيد الأسر.

إنّ بعض العلماء حين يريد عرض الدين لا يحسن اختيار الموضوع الذي يريد أن يبيّن الدين من خلاله، فقد يركّز على موضوعات منقّرة تحول دون ولوج الدين إلى القلوب أو ترسّخه فيها، كمن يصوّرهُ للمبتدئين بوصفه كتلة موصولة من الواجبات والمستحبات التي تستغرق الوقت كلّهُ، ولا دين من دونها، أو يبديه للناس على أنّه غيبٌ مطلقٌ لا يمكن بلوغه، ويقطعه عن عالم الشهادة وقضايا المجتمع، أو يصنع منه النقيض التام للعقل وأحكامه، أو يصبّهُ لغير المسلمين من خلال الجزية والرقّ ونجاسة أهل الكتاب والمغالاة في مفردة (الولاء والبراء)، ناسياً أو متناسياً أنّ الله تعالى يقول: ﴿لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾<sup>(٤١)</sup>.

(٣٩) سورة الشورى / ٥٠.

(٤٠) السيد محمد رضا الحسيني، كيف نفهم القرآن / ٣٤ - ٣٥.

(٤١) سورة الممتحنة / ٨.

وكذلك الحال مع المثقفين الذين يشكّلون آراءهم المعرفية - غالباً - بعيداً عن الدين، ويظنون أن لا قدرة له على إنتاج ما يوازيها بهجة وإشراقاً، ومن ثم تكون الاتجاهات الفكرية مرجعية بديلة لمهمة تصوغ الجانبيين المعرفي والعملي لهم.

وهناك من يسعى لفرض رأيه على الدين، وإملاء تصوّراته على نصوصه وتشريعاته ولو أدى إلى تشكيل فهم مخالف للدين وثوابته.

أما العبّاد، فمنهم من بالغ في الزهد والتشمّش، وترك الأهل والمجتمع، والانزواء عن معترك الحياة والمسؤولية تحت عنوان التفرُّغ للعبادة وتحصيل الطهارة القلبية، وتحت ذريعة أن مخالطة الناس تقود للخطأ عليهم أو معهم، ومن ثم يرتدي شعار «إذا أردت السداد فاعتزل العباد!»، و«الاستيناس بالناس من علامات الإفلاس»<sup>(٤٢)</sup>.

هذا الاتجاه العملي أرسى أسس قناعة مقابلة ترى أنّ العبادة هروب من الواقع، ويأس من إمكانية تغييره، وأنّ الدين ما هو إلا طقوسٌ جوفاءٌ بالية، ولا يملك نظرية لبناء المجتمع والدولة، وفشّر أصحاب هذه القناعة ظهور التيارات العبادية وفرق التصوّف بأنه معادل موضوعي خارجي للفرار من عملية الإصلاح وحركة الجهاد، ينمو كلّما دهم الأمة أمر خطر أو عدو قاهر، كما ينمو كردّ فعل على طغيان تيار المجون والشهوات، فهو بذلك مذهب يغيّب العقل والعمل الاجتماعي تحت مسمّى العبادة.

### ج - الفهم المشوّه للدين:

والمتلقون من الناس إذا عُرض لهم الدين مشوّهاً كدرأ فموقفهم العملي في الغالب بدلاً من أن يسعوا لإبعاد الركام والغبار المستتر عليه، والمضي إلى النبع للتعرف عليه مباشرة، والاستقاء من زلاله، وترك ما عراه من تفسير خاطئ، بدلاً من ذلك ينطلقون من فكرة معاكسة أنّه إذا كان الدين هكذا، فلا بدّ من تركه أو تجاوزه والانطلاق في

(٤٢) الشيخ محمد مهدي النراقي، جامع السعادات، مصدر سابق ٣ / ١٩٨.

الحياة، أو أنّهم بذلك يصلون إلى أنّه إذا كان هؤلاء الذين عرضوه وهم الأعرف به لم يفلحوا في عمليتهم تلك، فقد انسَدَّ السبيل أمام إمكانية الفهم الصحيح له.

وإذا كان من أساسيات النهضة: وجود المبدأ الصالح، والإيمان به، والفهم الصحيح له - كما يرى السيّد الشهيد محمد باقر الصدر [١٣٥٣ - ١٤٠٠هـ]، [١٩٣٣ - ١٩٨٠م]<sup>(٤٣)</sup> - فقد عُزِيَ المسلمون وبشكل واضح في هذا الفهم.

فكثير من أحكام الإسلام لا يفهمها المسلمون!!، فيتحوّل القرآن بذلك من دستور الحياة الخالد إلى كتاب للموتى والخيرة وصيدلية للأدوية، يكفي سماعه من جهة ليحلّ نذير الشؤم والإعلان بوفاة أحد.

كما أنّ الزكاة والخمس تغدوان من نماء للمال وتزكية له، ودفع حقّ من ملكية اعتبارية مشروطة، وطريق لبناء المجتمع وخلق التواصل بين أفراده - إلى ابتزاز، وسبيل للاستتكال على الغير، ودعوة للعيش على التكبّف وترك العمل.

وصلاة الصبح من دعوة للنشاط والصلة بالله تعالى وتنظيم الوقت واستغلاله - إلى إجهاد وإتاعاب.

وصلاة الجماعة التي هي تكريس للوحدة والتلاحم، ومشروع للتعارف، ومنطلق للعمل الجمعي تصبح صورة للجهد والنصب، وجسراً للرياء والسمعة وحبّ الظهور.

ولعلّ واحدة من المفارقات الكبرى التي تؤسس لكثير من المفاهيم المغلوطة عند المسلمين، وتوشّحها بوشاح الدين، وتسمّيها به، هي: أنّ كلّ حقل وعلم يكاد يكون له متخصصّون فيه، يبلورون رؤاه وتطبيقاته، نشهد ذلك في الفلك والجيولوجيا وسائر الاختصاصات العلمية الأخرى، بينما يمثّل الدين (الجدار الهبيط) الذي يهرف فيه الأغلب بما لا يعرف.

(٤٣) السيّد الشهيد محمد باقر الصدر، بحوث إسلامية/ ١٠٩-١١١.

فكثيرٌ ممَّن يدلون بدلوهم لبناء وإنتاج الرأي الديني والإسلامي، ويعطون لأنفسهم كامل الصلاحية لتشكيل المفاهيم الدينية، وربما يتسّمون مقام التنظير للفكر الإسلامي هم أناس يجهلون أبجديات التصوُّر الإسلامي، وأوليَّات اللغة والمفاهيم الحاضرة وتلك التي كانت في زمن النصِّ.

وبعض هؤلاء يسعى لتحميل النصِّ مسبقاته الذهنية واتجاهاته الفكرية وانتمااته الإيديولوجية والمذهبية.

ومن هنا تنشأ الدعوة إلى النظرية التفكيكية، والتفريق بين معارف الوحي وتصوُّرات البشر، فليس كلُّ فهم بشري هو المراد الفعلي الحقيقي من النصِّ<sup>(٤٤)</sup>.

صحيح أنَّ الإلهي جاء للبشر، ولا يمكن فهمه بإقصاء العوامل البشرية. لكنَّ ذلك يحتاج إلى موازنة بين النقل والعقل، والابتعاد عن الهوى في قراءة النصِّ وتحليله؛ إذ بمقدار بروز طرف وسيادته يتم تقلُّص الطرف الآخر، والتعامل مع النصِّ بالإملاء عليه هو خطأ مواز لقطعه عن دور العقل في عملية الاستلham والبناء، والنصُّ الديني وغيره لاستجلاء كنوزه يحتاج إلى قراءة موضوعية نزيهة.

#### د - الإعلام:

وإذا كانت العوامل السابقة منبعثة من السبب الداخلي ضمن نسيج المسلمين، فهناك سبب مهم يأتي من خارج الذات، يقوم به الآخر المختلف للتأثير في المفاهيم الدينية واختراقها، وصوغ فهم مباين لها. فقد شكَّل الآخر بوسائله الإعلامية المتنوّعة المشوّقة ذات التأثير اللاشعوري في كثير من الأحيان أداة فعّالة لتشويه الدين ورموزه، وإبعاد أهله عنه.

فهو يمسك بمفرده من الدين، ويقصّبها عن نسيجها الكلّي الذي تُفهم من خلاله، ثمّ يمسّخها، ويبرزها بصورة منفردة، لا سيّما حين

(٤٤) انظر: الشيخ محمد رضا الحكيمي، المدرسة التفكيكية.

يربط بينها وبين الحلّة البهيجة التي يبدي بها ثقافته ومعطياتها في الفكر والعمل وغيرهما، فيخلق الربط بين فكرتين، ويحقّق (ضرب عصفورين بحجر واحد): فهو يقدح في الإسلام ونظرته الضيّقة - كما يصوّر -، ويغري بالمنهج الآخر، فيبعد عن الإسلام، ويفرّب لمنهج أخرى بديلة.

فالعرب - وفق رؤاه الفكرية - يفسّر عقوبة الإعدام، وقتل المرتد الفطري، ومسائل القصاص، والمفاضلة بين الذكر والأنثى في الإرث، وقيمومة الرجل على الأسرة، وحجاب المرأة، يفسّرها بأنّها نقض لقيم حقوق الإنسان، والمساواة بين الجنسين، ويدرجها ضمن القيم الذكورية القبليّة القديمة التي كانت سائدة عند العرب في زمن الصحراء، ومن ثمّ - في عصر الانفجار المعرفي، وتقنية المعلومات، والقرية الواحدة، والقيم الإنسانية، والحرية الفكرية - لا بدّ لها أن تزول.

كذلك عندما يبدي المسلم بلحية وشارب علتها الأوساخ، وثوب قصير مخلّ، متزوج من أربع يسكن بينهم النزاع والشقاق، يلجأ للتعويزات والسحر، يضربهم لأتفه الأسباب!!

ونحن لا نقصد - هنا - مجرد القراءة الغربية لقيم وتراث المختلف، فذاك لو لم يكن مشروعاً له لما جاز لغيره من باب (المنافسة)، ونحن حين نجيز لأنفسنا قراءة الآخر لا بدّ أن نقبله في الطرف المقابل،.. وإنّما نريد القول أنّ هذه القراءة تفتقر في مساحات كثيرة لأدوات معرفية موضوعية محايدة، وأنّها ساهمت في تأسيس فهم مغاير لقيم المسلمين لدى المسلمين أنفسهم، وشكّلت لهم مفردة من منظومة (الاستلاب الفكري) الذي غزاهم في عقر الدار، وسلب منهم فتاعتهم بمجموعة كبيرة من قيمهم.

### نتيجة البعد عن المنبع الأصيل:

ويقود البعد عن المنبع الأصيل - وبصورة طبيعية تلقائية - إلى نتائج عدّة منها:

أولاً: الخواء الفكري:

فهذا البعد عن مصادر الذات يؤسس في الذهن منطقة خلاء

فارغة ليست مشبعة بمفاهيم ورؤى، وينتج أناساً تستقر في نفوسهم مناطق خالية لا يعرفون فيها وجهة نظر دينهم الذي إليه ينتمون.

### ثانياً: الثقافات البديلة:

لكن تلك المنطقة الخلاء سرعان ما تملأ بثقافات بديلة؛ لأنَّ العقل والذهن الإنساني لا يرتضي أن تطول مدَّة الفراغ، ولا أن يبقى مكانها خالياً، فإما أن يحلَّ التفسير المنبثق من الذات وأسسها، وإما أن يستقرَّ تفسير آخر في موضعه يترجِّع على عرش الحقيقة ويدعيها.

وإذا كان المستوى الأول (الخواء الفكري) يمثِّل أرضية فارغة لا زرع فيها، فإنَّها في المستوى الثاني (الثقافات البديلة) سوف تُزرع بالأشواك الضارة، وقد تتعمق فيها بمرور الزمن أشجار معمرَّة فاسدة.

وفي أوقات كثيرة يلزم ابتعادنا عن المصدر الديني ونصوصه أن يبتدنا الآخرون بفيض من الاكتشافات العلمية والتربوية التي ذكرتها مصادرنا، فنعتقها بوصف هؤلاء هم المكتشفين لها، ونسعى من جديد لإسقاطها على النصِّ الديني.

ولعلَّ هذا يدلُّ - فيما يدلُّ عليه - على عدم قناعتنا الأصلية بما يتراءى لنا من نصوصنا، وخوفنا من إبدائه، حتى إذا أثبتته جهات علمية أخرى كان ذلك هو مبعث تصديقنا به، وصار همنا التوفيق بين المنتجين: العلمي والديني، مع ما يحكيه عملنا هذا من ترسُّخ ظاهرة (الاستلاب الفكري) في نفوسنا.

### ٣- الموروث الفكري:

ومما يصنع التباين بين ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين: التأثير بالموروث الفكري المستقى من المسبقات الفكرية، والصور النمطية في المجتمع، والأمثلة السائدة فيه.

وهذا الموروث الفكري يتسرَّب بشكل هادئ للذهن والسلوك، ويستقرُّ على مرِّ أزمنة ممتدة متطاولة بحيث يستتر في اللاشعور،



ويتجذّر ويتعمّق؛ فيملي على الإنسان فيما بعد استجاباته ومواقفه دون أن يشعر الإنسان بذلك.

كما قد يتجاوز دائرة الفرد ليصبح لا شعوراً جمعياً، يصوغ ذهنية المجتمع، وطرائق تفكيره، وأنماط سلوكه.

والفرق بين صدور الفعل عن الشعور أو اللاشعور أنّه في الأول يمكن تفكيكه وإعادة النظر في مبعثياته؛ لأنّه يعود إلى أسباب حاضرة لدى الوعي يمكن اكتشافها ومناقشتها والتأمل فيها، لكنّه حين يصدر من اللاشعور يكون قناعة ملزمة الامتثال لا تُعرف أسبابها حتى تُناقش، ومن ثمّ ستكون أشدّ خطورة وصعوبة، وأبعد عن إمكانية التغلّب عليها وتجاوزها.

وحين يصدر عن لا شعور فردي يمكن إدراك صفة التباين والاختلاف بين صاحبه والآخرين، أما حين يكون لا شعوراً جمعياً، فليس من السهل التغلب عليه؛ لأنّ التسالم والتوافق الاجتماعي الذي يقود أفراد المجتمع حينئذ - وبشكل عفوي - يعمي الإنسان حتى عن مجرد إدراك المفارقة، أو - بالأصح - لا يوجد مفارقة أصلاً حتى يمكن إدراكها.

ومن مصادر استقاء الموروث الفكري:

#### أ - المسبقات الفكرية:

جاء الإسلام وبرزغت شمسه في مكة المكرمة، مهد الوثنية والروح الجاهلية، حيث تُعبد الأصنام، وتسود معايير جائرة، تعتمد على قيم اجتماعية تقوم على الولاء للقبيلة - مصيبة كانت أم مخطئة -، وعلى التفاخر بالأنساب والأحساب، وتشتعل الحروب لأنفه الأسباب، ثم تدوم السنين الطوال، وتحرق الأخضر واليابس<sup>(٤٥)</sup>.

وفي زمن قياسي لا يتجاوز الثلاثة والعشرين عاماً طهر النبي

(٤٥) ذكر أبو الفرج الإصفهاني في كتابه (الأغانى) ١٧٠٠ يوم (حرب) من أيام العرب ( المعجم المفصل في الأدب، مصدر سابق ١ / ١٤٥).

الأكرم محمد ﷺ جزيرة العرب من دنس الشرك، واقتلع أشجاره الفارعة.

بيد أن ذلك لا يعني أن تلك المدّة القصيرة نسبياً كافية لاقتلاع جذور الجاهلية المترسّخة عبر القرون من كلِّ قلوب معتقي الدين، لذلك - والنبي ﷺ بين ظهرائي أمته، وبين أونة وأخرى - كان ينجم قرنٌ للشيطان، فيبادر بالقساء عليه في مهده.

كما سمعت الجاهلية أن تطلُّ برأسها حيناً بعد آخر، وتمكّنت في بعض الظروف الزمنية من تحقيق انتصارات ومكاسب قوية هنا وهناك.

لذلك بقي المجتمع المسلم بين ثقافته الدينية وبين أشواك وأشجار تنمو أحياناً لبذور جاهلية مستترة تحت التراب.

وقد مضى أن ذكرنا لقطات نمت تلك البذور في زمنه المبارك ﷺ، والشبح المقيت الذي أطبقت به الدولة الأموية على الناس، الأمر الذي يدفع إلى عدِّ الدولة الأموية امتداداً للعصر الجاهلي لا العصر الإسلامي، تأسيساً على شدّة التوافق إلى حدِّ التلاحم والتطابق بينهما، والتباين الفجّ بينها وبين الروح الإسلامية.

كما نمت بذور أخرى أيام الدولة العباسية وما بعدها.

كلُّ هذا يمثّل مسبقات فكرية نائمة في الذهن، لكنّها لما تستيقظ تتحرّك بشكل نشط فعّال.

ومن الأمثلة التي قد نسجلها في هذا المضمار: الحكم الوراثي العضوض الذي ضرب بقيم الدين ومُثله عرض الحائط، وفي مقدّمها قيمة الشورى منطلقاً للحكم ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾<sup>(٤٦)</sup>، هذا الحكم الوراثي العضوض الذي أرسى دعائمه بنو أمية، ثمّ مضى سنة متبعة عند العباسيين وغيرهم، وأصبح الشكل التلقائي السائد في بلدان العالم الثالث والوطن العربي.

(٤٦) سورة الشورى / ٣٨.

وكذلك الانتقال من فكرة الأمة الواحدة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾<sup>(٤٧)</sup> إلى الولاءات العرقية واللونية والسياسية والقومية والإقليمية والدولة القطرية الحديثة.

لقد سعى الإسلام لتذويب تلك الفروقات، وصهر الجميع في بوتقة واحدة تقوم على وحدة الهوية الدينية مع احترام الآخر المختلف، حتى قامت السياسات الأموية والعباسية بدور تفكيك المركب، وإبراز سمات التباين بين عناصره، وبالذات العربي والفارسي.

وبروز الشعوبية في العصر العباسي في أصله جاء كرد فعل على المبالغة الأموية في تقديم العنصر العربي، وسبغ الامتيازات عليه، وامتهان العناصر الأخرى، لكنّه سرعان ما امتدّ ليصبح حركة تمتهن العرب، كما يبدو جلياً في شعر بشّار بن برد [٩٥-١٦٧هـ]، [٧١٤-٧٨٤م]، ولتصبح الدولة قصعة ثريد يتجاوزها تياران متضادان: فارسي وتركي، وتغدو ولاءات الخلفاء متذبذبة بين العنصرين اللذين وليا حقيقة الشأن السياسي والإداري، حتى تمرّقت وتشظّت إلى كيانات متناقضة، وأسدل عليها الزحف المغولي الستار في زمن نسبي [٦١٦-٦٥٦هـ]، [١٢١٩-١٢٥٨م].

### ب - الصور النمطية في المجتمع:

وفي كثير من الأحيان تمثّل العادات والموروثات الاجتماعية ديناً ثانياً يحكم مسار المجتمع، بل.. تمثّل الدين الأول المقدم - رتبة وترتيباً - على النظرة الدينية.

وتتحوّل العادات إلى شيء صعب الخرق، يشكّل المفاهيم الدينية ويبلورها وفق الصورة المتناسبة مع المجتمع، ويجمدها ويقدم عليها السائد الاجتماعي عندما يتم التخالف.

نبرص ذلك في عدم حضور ذكور العائلة في بعض المجتمعات زواج قريبتهم، كعمل هو مردود لفكرة اجتماعية، فهم يستحضرون في أذهانهم تلك الليلة باعتبارها امتهاناً وانتهاكاً لعفة وشرف المرأة،

(٤٧) سورة الأنبياء/ ٩٢.

وانتصاراً ذكورياً، بما يبثه ذلك من تلعف بالصغار والضعفة لهم، الأمر الذي لا يريد الأب أو الأخ أن يشعر به عندما يجلس مع أقرباء الزوج، وهل يحضر أحد ليلة امتهان أخته أو ابنته؟!

يجري هذا على الرغم من أن الإسلام يضي على الزواج حلة قشبية زاهية، ويعدده سنة الله ورسوله: «النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(٤٨)</sup>، وأن الأديان جميعاً تباركه وتزكيه، وتقدس وشائجه، وفوق كل ذلك هو سنة طبيعية إنسانية تشترك فيها الشعوب.

وفي حين تتعش قلوب الكثير من العوائل بالإطلالة البهية للمولود الذكر، وتهيم فرحاً وطرباً، تلعفها سحابة حالكة من الكآبة إن كان أنثى، بما يصل إلى درجة كتمان الخبر، وعدم تبادل التباريك؛ متخذين لذلك مبرراً اجتماعياً يقرأ في وجه الذكر عوناً لأبيه، وامتداداً لذكره، في وقت أن الأنثى إن أحسنت فذاك لزوجها وعائلته!!

هذه الفكرة المناقضة لثقافة الإسلام تستمد حياتها من ثقافة المسلمين التي اقتبستها من العادات الاجتماعية، ومن التسرب الخفي للموروث الجاهلي: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ \* يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾<sup>(٤٩)</sup>، «تقديم الحرم من النعم»<sup>(٥٠)</sup>، «دفن البنات من المكرمات»<sup>(٥١)</sup>.

### ج - الأمثلة السائدة في المجتمع:

الأمثلة المتداولة في المجتمعات - ولا سيما العامة الشعبية - هي خلاصة لأحداث ووقائع أنتجت مفاهيم نظرية على شكل حكّم ناضجة مستخلصة من تجارب عميقة، تدفع باتجاه تطبيقات عملية بوصفها الحل الأمثل والصورة المثال والنموذج الأكمل الذي يلزم احتداؤه في

(٤٨) بحار الأنوار، مصدر سابق ١٠٣ / ٢٢٠.

(٤٩) سورة النحل / ٥٨ - ٥٩.

(٥٠) أحمد الميداني، مجمع الأمثال / ١ / ١٣٤.

(٥١) المصدر / ١ / ١٣٤.

وهي توحد أفراد المجتمع في ردّة الفعل المحتملة تجاه حدث ما..؛ نتيجة استدعاء ذلك الرد جاهزاً من المخزون الذهني وفق ما أملته تلك الأمثلة والصورة النمطية.

فمن يتعرّض لاعتداء من قبل أحد، ويستطيع مواجهته بمثله، قد يعتمد لذلك انطلاقاً من «ما يُغسل الدم إلا بالدم»<sup>(٥٢)</sup>، «كن ديب ما تاكلك لدياب»<sup>(٥٣)</sup>، و«اللي ما يجي بعضا موسى يجي بعضا فرعون»<sup>(٥٤)</sup>، و«الخير بالخير، والبيادي أكرم، والشر بالشر، والبيادي أظلم»<sup>(٥٥)</sup>، ويطبّق هذا كحلّ مبدئي على أقاربه، والمتفق معه في العديد من المشتركات الاجتماعية.

بينما لو تعرّض للاعتداء من قبل قوي يخالفه في أكثر ذلك أو كلّه فإنّه سيختار موقف المودعة والتسامح مستلهماً ذاك من «ابعد عن الشر وغنّ له»<sup>(٥٦)</sup>، و«اليد اللي ما تقدر تقطعها بوسها»<sup>(٥٧)</sup>، و«اللي ما يجي معك تعا معه»<sup>(٥٨)</sup> و«اللي ما توافقه نافقه»<sup>(٥٩)</sup>، و«إذا ما طاعك الزمان طيعه»<sup>(٦٠)</sup>، و«الهريبة ثلثين المرحلة»<sup>(٦١)</sup>.

وبين طرفي النقيض هذين - المواجهة، والمودعة - ينبثق خطّ التعقل من مثل «من أساء إليك أحسن إليه»<sup>(٦٢)</sup>.

مع أنّ ثقافة الإسلام قد تأمر في الموقف الأول بالتوشح

(٥٢) جمانة طه، الجمان في الأمثال/ ٣٠٣.

(٥٣) المصدر/ ٢٤٤.

(٥٤) المصدر/ ٢٨٩.

(٥٥) المصدر/ ٣٩٠.

(٥٦) المصدر/ ٣٨٧.

(٥٧) المصدر/ ٦٤٣.

(٥٨) المصدر/ ٦١٥.

(٥٩) المصدر/ ٦٤٢.

(٦٠) المصدر/ ٤٢١.

(٦١) المصدر/ ٣١١.

(٦٢) المصدر/ ١٠٥.

بأخلاق ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ، وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٦٣)</sup>، وفي الموقف الثاني ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾<sup>(٦٤)</sup>.

كما نلمح مشهد تفضيل الذكر، واستنقاص الأنثى مستقراً في قلب الموروث الشعبي، ف«البنات تبنه، والولد لبنه»<sup>(٦٥)</sup>، و«ألف ابن مجنون، ولا بنت خاتون [ملكة]»<sup>(٦٦)</sup>، «ألف صبي معتر، ولا بنت راهبة»<sup>(٦٧)</sup>، و«صوت حية، ولا صوت بنية»<sup>(٦٨)</sup>، و«البنات مثل المذلة تكبر بسرعة»<sup>(٦٩)</sup>، و«إن سلمت البنات من العار، تجيب العدو للدار»<sup>(٧٠)</sup>.

ويصل المشهد إلى ذروة القتامة حين يُفضّل موت الأنثى على حياتها «موت البنات ستر»<sup>(٧١)</sup>، وكأنّها ليست إلا سبة وعاراً يُراد التخلص منه بأي وسيلة!!

#### ٤- الاستقاء من الوافد:

التداخل بين المجتمعات أمر طبيعيّ يقود إلى التلاقح المعرفي والتبادل الفكري والثقافة وتطوير ثقافة الذات أو إجراء تعديلات عليها؛ لأنّ «كلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»<sup>(٧٢)</sup>.

ولعلنا ندعي أنه لا توجد لأيّ مجتمع على وجه الأرض ثقافة نزيهة، فالثقافات تبادلت التأثر والتأثير ولو في الماضي السحيق.

(٦٣) سورة آل عمران / ١٣٤.

(٦٤) سورة البقرة / ١٩٤.

(٦٥) الجمان في الأمثال، مصدر سابق / ٣٢٦.

(٦٦) المصدر / ٣٢٥.

(٦٧) المصدر / ٣٢٥. ويُقصد بـ (الراهبة) هنا: الفتاة الزاهدة العفيفة.

(٦٨) المصدر / ٣٢٧.

(٦٩) المصدر / ٣٢٦.

(٧٠) المصدر / ٣٢٦.

(٧١) المصدر / ٣٢٩.

(٧٢) بحار الأنوار، مصدر سابق / ٢ / ٩٩.

وقد يتم هذا التأثير والاستفادة من ثقافة الآخر مع المحافظة على الثقافة الأصل، وهي خطوة نادرة الحدوث.

لكنَّ الأمر في بعض الصور قد يتطوَّر إلى أخذ الثقافة الوافدة مقدَّساً يُمزج مع ثقافة الأصل، أو يمثِّل المنهج لقراءتها وتشكيلها، أو يحلُّ مكانها، وهي خطوة أعلى في سلَّم التأثير، وأشدَّ خطراً من الأولى.

ومع الأنس بتلك الثقافات الوافدة تُفسَّر نصوص ثقافة الذات وفقها، فتتبلور التصورات، وتصدر الأفعال منسجمة معها، بوصف ذلك هو الصورة الصحيحة، وربَّما الحقيقة المطلقة.

وقد شهد تداخل المسلمين مع الأمم والمجتمعات الأخرى وفود كثير من الثقافات للمجتمع الإسلامي، ومن أهمها:

أ - الثقافة الفارسية.

ب- الثقافة الإشرافية الهندية.

ج - الثقافة اليونانية الإغريقية.

د - الثقافة الغربية الحديثة.

هـ- الثقافة الشيوعية والماركسية.

أ و ب - الثقافة الشرقية: الفارسية والهندية:

في عصر الترجمة دخلت للعالم الإسلامي الفلسفة الشرقية بما تحمله من فكر إشرافي يركِّز على الطهارة النفسية، وتنمية الروح عبر الرياضات، وما يلازمه أحياناً من تصوُّف، ودعوة إلى الخلوة والزهد، حتى يصل المرء إلى درجة الطهر (النرفانا).

وقد تناغمت هذه الفلسفة مع ثقافة المسلمين التي تدرجت في هذا الاتجاه من الدعوة للزهد والتقشف وهجر الدنيا، والتفرُّغ للآخرة، إلى القول بأنَّ طريق العلم الحقيقي هو الطهر النفسي لا الكسب والتحصيل البرهاني، اعتماداً على حديث «ليس العلم بكثرة

الرواية، إنَّما العلم نور يُنْذَف في القلب»<sup>(٧٣)</sup>، و«ليس العلم بكثرة التعلم، إنَّما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد أن يهديه»<sup>(٧٤)</sup>، بتفسير كلمة (العلم) بالعلم الإلهي والفيض الرباني الذي لا يتحقَّق عبر الدراسة والتعلم والتحصيل النظري.

ثمَّ تطوَّر ذلك إلى فكرة الاتحاد، وأنَّ العبد المخلص يسمو إلى درجة يمتزج فيها مع الله، ويفنى ويذوب ويتلاشى في ذات الله، فيكونان شيئاً واحداً، وجاءت على يدي أبي يزيد البسطامي [١٨٨هـ - ٢٦١هـ]، [٨٠٤ - ٨٧٥ م].

ثمَّ انتقل الأمر على يد الحلاج [٢٤٤ - ٣٠٩هـ]، [٨٥٨ - ٩٢٢ م]، إلى القول بالحلول وأنَّ الله - سبحانه وتعالى - يحل في قلب المؤمن، ويتجسَّد في الذات البشرية.

«والفرق بين (الحلول) و(الاتحاد) كون الإله يهبط فيتحد بال مخلوق في الأول، وذوبان الفرد في حبِّ الإله إلى درجة يشعر الإنسان أنَّه أصبح مع الإله شيئاً واحداً في الثاني»<sup>(٧٥)</sup>.

وأخيراً جاءت نظرية (وحدة الوجود) على يدي محيي الدين ابن عربي (الشيخ الأكبر) [٥٦٠ - ٦٣٨هـ]، [١١٦٥ - ١٢٤٠ م]، والتي ترى أنَّ جميع هذا الوجود ما هو إلا تجليات للحقِّ تعالى ومظاهر لله، وأنَّ الكثرة الظاهرة في الأشياء ما هي إلا تعبير عن الوحدة الحقيقية له سبحانه، فالوجود واحد هو وجود الله فقط، و«(الخلق) الظاهر هو (الحقُّ) الباطن»<sup>(٧٦)</sup>.

وفي الوقت الذي كان محيي الدين بن عربي يذيع أفكاره هذه في المغرب الإسلامي (الأندلس)، ويطوف بها أرجاء المعمورة في سفراته الكثيرة التي فوّتت على السلطات إمكانية القبض عليه؛ إذ لا يكاد ينتشر

(٧٣) الشهيد الثاني، منية المرید في آداب المفید والمستفيد / ٦٧.

(٧٤) بحار الأنوار، مصدر سابق ٦٧ / ١٤٠.

(٧٥) الدكتور بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني/ ٢٣٦، نقلاً عن: (نيكلسون، الصوفية في الإسلام / ١٣٨).

(٧٦) المصدر / ٢٣٦، نقلاً عن: (ألبير نادر، التصوّف الإسلامي / ٢٠).



خبره في مكان حتى يكون قد غادر لبلد آخر، وهبَّ يدوُّنها في كتبه الكثيرة التي تقرب من الـ ٤٠٠ كتاب، ومنها: (فصوص الحِكم)، و(الفتوحات الربانية)، و(ترجمان الأشواق)، و(عنقاء مغرب) في التصوف، و(القطب والنقباة)، و(كُنْهُ ما لا بدُّ للمريد منه)، و(الأنوار) في أسرار الخلوة، و(شرح الألفاظ التي اصطلحت عليها الصوفية)، و(لبس الخرقه)، و(حلية الأبدال)، و(الحجب)، و(مرآة العارفين)، و(مفاتيح الغيب)، وتفسيره القرآني المسمى بـ (الكبريت الأحمر)، و...<sup>(٧٧)</sup>.

في الوقت ذاته كان معاصره شهاب الدين السهروردي (شيخ الإشراق) [٥٤٩ - ٥٨٧هـ]، [١١٥٤ - ١١٩١م] المخلص للفلسفة الإشراقية، يبيتها هو الآخر في المشرق الإسلامي، متخذاً من الشام منطلقه الأساس، وراح يؤلف فيها عشرات الكتب مثل: (التلويحات)، و(هياكل النور)، و(المشارع والمطارحات)، و(الأسماء الإدريسية)، و(أربعون اسماً من أسماء الله الحسنى وخواصها)، و(المناجاة)، و(مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم)، و(رسالة في اعتقاد الحكماء)، و(التنقيحات)، و(اللمحات)، و(المعارج)، و(حكمة الإشراق)، و...<sup>(٧٨)</sup>.

ويعدُّ الجنيد [ت ٢٩٧هـ / ٩١٠م] أهم صوفي ظهر نهاية القرن الثالث الهجري، وشاع في لسانه كلمات مثل المريد.. الطريق، وراح يستعمل الألفاظ ذات الإيهام والإيحاء، مما يصعِّب إمكانية الإمساك بما أخذ عليه.

وإذا كان شعراء الصوفية إلى نهاية القرن الثالث غالباً ما يترنمون بأشعار المحبين، كقيس بن الملوِّح (مجنون ليلى) [ت ٦٨هـ / ٦٨٨م]، وقيس بن ذريح (مجنون لبنى) [ت ٦٨هـ / ٦٨٨م]، وجميل ابن معمر (جميل بثينة) [ت ٨٢هـ / ٧٠١م]، وكثير بن عبد الرحمن الخزاعي (كثير عزة) [ت ١٠٥هـ / ٧٢٣م]، ويصرفونها للحبِّ الإلهي، ويتواجدون بها، ما عدا أشعار قليلة مباشرة في الله كشعر رابعة العدوية [ت ١٣٥هـ / ٧٥٢م]، فقد مضى العديد من تلامذة الجنيد يكتبون الشعر الصوفي، ومنهم أبو الحسين النوري [ت ٢٩٥هـ / ٩٠٨م]، وأبو

(٧٧) الأعلام، مصدر سابق ٦ / ٢٨١ - ٢٨٢.

(٧٨) المصدر ٨ / ١٤٠.

الحسين الخواص [ت ٣٠٣هـ / ٩٠٣م]، وأبو علي الروذباري [ت ٣٢٢هـ / ٩٣٤م]، ودلف بن جحدر (الشبلي) [٢٤٧-٣٣٤هـ]، [٨٦١-٩٤٦م].

كما ألهمت طريقة الجنيد التعبيرية المغلفة بالرموز والإشارات تلميذه الحلاج الغزل العرفاني الرمزي، ثم فشحت عند ابن عربي.

ومن جهود القدامى (كرابعة العدوية) إلى هذا الزمن (نهاية القرن الثالث) تحقّق ظهور مدرستين في الغزل العرفاني: مدرسة العبارة، ومدرسة الإشارة.

مدرسة العبارة تتحلّى بوضوح اللفظ (العبارة) الذي تستعمله قطرة لمعانها المبتغاة، ومن ثم فهي تتسم بوضوح كبير في الكلمات والمعاني.

بينما مضت مدرسة الإشارة لا توضّح مقاصدها، ولا تكشفها صريحة، بل.. تذكرها محمولة على (إشارات) خاطفة، قابلة لسيل هائل من التفسيرات والتأويلات، وتستعمل ألفاظاً ظاهرية حسية لمعانٍ أخرى قلبية وسلوكية تعنيها، مثل: الخمر، الحانة، الغزل الذكوري والأنوثي.

وحققت كلٌّ منهما قفزات هائلة فيما بعد، وتجاوزتا حاجز اللغة، ونفذتا إلى الفارسية وغيرها، فبلغت الأولى شأواً عظيماً لدى سعدي الشيرازي [نحو ٦٠٦-٦٩١هـ]، [١٢٠٨-١٢٩١م]، كما بلغت الثانية ذرى شاهقة لدى حافظ الشيرازي [نحو ٧٢٠-٧٩١هـ]، [١٣٢٠-١٣٨٩م].

ويعتبر عمر بن الفارض (سلطان العاشقين) [٥٧٧-٦٣٣هـ]، [١١٨١-١٢٣٥م] واحدة من القمم العالية في الشعر الرمزي الصوفي.

ووجدت هذه الفلسفة الطريق أمامها معبدة حين نشأ ما اصطاح عليه بـ(العرفان) عند المسلمين، فدخلته، وتغلغلته في أعماقه بجانيبه: النظري والعملي، وراح العديد من أربابه يقدّمون الذوق والإشراق القلبى على الدليل البرهاني، آخذين بمقولة «من ذاق عرف»<sup>(٧٩)</sup>، كما

(٧٩) جامع السعادات، مصدر سابق ٣ / ١٥٩.

ترسّخت في شكل الصياغة في كتبهم ومقولاتهم، فضلاً عن استحواذها على قسط كبير من كتب علم (الأخلاق) ومباحثه.

وهذا يعني أنّ التراث الديني (العربي وغيره) شعراً ونثراً، نفذت إليه الفلسفة الإشرافية، وألبسته ثوبها في بعض المواقع، كما طرّزته بخيوطها في كثير من المواقع.

### ج - الثقافة اليونانية الإغريقية:

في اليونان نما فلاسفة كبار أمثال سقراط (منزل الفلسفة من السماء) [٤٧٠ - ٣٩٩ ق م]، وأفلاطون (الحكيم الإلهي) [٤٢٨ - ٣٤٨ ق م]، وأرسطو طاليس (المعلّم الأول للبشرية) [٣٨٤ - ٣٢٢ ق م]، ومما تحلّى به هؤلاء - ومنذ فجر التاريخ، وعلى خلاف ما يُنقل عن العرب - أنّهم كانوا يدوّنون علومهم ومحاوراتهم، وإذا كان سقراط يؤمن بالنقل الشفهي المباشر للمعرفة عبر الجدل والحوار، فقد انبرى أفلاطون لتدوين محاورات أستاذه سقراط، كما ألف: (الجمهورية)، و(الشرائع)، و(السياسي)، وغيرها . . . .

أما أرسطو فقد كان المدوّن للمنطق بعد أن جمعه وهذّبه.

بيد أنّ ظهور المسيحية، وتعميمها أيّام الدولة الرومانية حال دون انتشار الفكر اليوناني، لكنّ خطوة هامة جاءت على سبيل التوفيق بين الاتجاهين، صدرت من مدرسة الإسكندرية على يد فيلسوفها الكبير أفلوطين [٢٠٥ - ٢٧٠ م]، الذي مزج تصوّرات الفلاسفة القدماء على تباينها الشديد فيما بينها مع الفكر والتراث الديني المسيحي، فأضفى عليها حلّة الدين، وبذلك سهّل انتشارها بين المسيحيين، واعتناقها من قبّلهم، وقد جُمِعَت تعاليمه، وصدرت تحت عنوان (التاسوعات).

ولما جاء عصر الترجمة كان التراث اليوناني مكتوباً وجاهزاً، ولا يصدّه عن الامتداد أكثر للثقافات الأخرى إلا حاجز اللغة، فقام حنين ابن إسحاق وغيره بكسر هذا الحاجز أفضل قيام، ونقلوه للسريانية والعربية.

وفي العربية وجد مناخاً خصباً لتقبله على يدي فلاسفة أمثال

الكندي [نحو ١٨٠ - ٢٦٠هـ]، [٧٩٦ - ٨٧٣ م]، وابن رشد [٥٢٠هـ - ٥٩٥هـ]، [١١٢٦ - ١١٩٨ م]، وغيرهم.

ونهض أبو نصر الفارابي (المعلم الثاني للبشرية) [٢٥٩هـ - ٣٣٩هـ]، [٨٧٢ - ٩٥٠ م]، وأبو علي ابن سينا (الشيخ الرئيس) [٣٧٠هـ - ٤٢٨هـ]، [٩٨٠ - ١٠٣٧ م] بجهود حثيثة في مجال خدمة الفكر الفلسفي اليوناني والإسكندري: شرحاً وتطويراً ونشراً.

فنظرية الفارابي في طبيعة الله وصفاته تستمد من المذاهب اليونانية القديمة وحتى عقائد القرآن وتعاليم المتكلمين ٠٠٠؛ لإنشاء مذهب جديد، بُني على منطق أرسطو، ليرتقي إلى توحيد الإسلام، مروراً بمثالية أفلاطون، وروحانية الإسكندرية وإشراقها<sup>(٨٠)</sup>.

بيد «أنَّ أعظم أثر على فكر الفارابي إنما جاء من مدرسة الإسكندرية في الفلسفة، وبالذات من أفلوطين الذي يسميه الفارابي بـ (الشيخ اليوناني)، ليس فقط لأنَّ آراء أفلوطين تشكل جوهر نظرية الفيض عند الفارابي - كما يقول (ديبور) في كتابه -، ليس لهذا فحسب، وإنما لأنَّ الفارابي تعلَّم من (أفلوطين) منهج المزج والتوفيق وإجراء عملية صلح شاملة بين (أفلاطون) و(أرسطو)، وبين الفلسفة والدين، وبين النظريات المتناقضة في الفلسفة بعضها والبعض الآخر.

أما في التفاصيل، فإنَّ الفارابي قد تأثر بالأفكار المسيحية والمزيجة بالفلسفة، كما تأثر بآراء (أفلاطون) و(أرسطو)، وغيرهما من الفلاسفة اليونان، وهكذا.. حتى الصابئة والمنجمين، وهو بذلك حين يقول: (رأيتُ لزينون الكبير [ت حوالي ٢٦٤ ق م] - تلميذ أرسطاليس -، وللشيخ اليوناني رسائل شرحها النصارى شروحاً تركوا بعضها، وزادوا فيها، فشرحت أنا كما وجب على شارح شرح نصِّ)«<sup>(٨١)</sup>.

غير أنَّ أكبر فيلسوف ظهر في هذا الاتجاه، واستطاع بعمق هضم الفلسفة، وإعادة تشكيلها وتمثيلها، والجمع بين الفلسفة الإشراقية

(٨٠) السيد محمد تقي المدرسي، العرفان الإسلامي / ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٨١) المصدر / ٣٤٩ - ٣٥٠.

القلبية، واليونانية البرهانية العقلية، وعلم الكلام، ونصوص الدين، هو صدر المتألهين الشيرازي (ملا صدرا) [٩٧٩-١٠٥٠هـ]، [١٥٧٢-١٦٤٠م]، وخاصةً في كتابه (الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة) المعروف بـ(الأسفار).

وقد سرى هذا التراث اليوناني بادئاً إلى علوم المسلمين ذات الطابع العقلي كالفلسفة، والمنطق، وعلم الكلام، وعلم الأصول، ثم لم يبرح أن تغلغل في عمق نسيج العلوم النقلية كالتفسير، وعلم الحديث، والفقه، متخذاً اسم (الدليل العقلي)، تُؤوّل به وتُوجّه الآيات والروايات، ويضربها بمنكبه، فيزيحها ويتقدّم عليها عندما تخالفه؛ لأنّ (الأدلة العقلية مقدّمة رتبة وترتيباً على الأدلة النقلية).

وحكمت قواعده عملية الاستبطان الفقهي التي طفقت في كثير من الأحيان تغوص في التحليل الدقي النظري مبتعدة عن المفاهيم العرفية القائمة على التسامح والبساطة، والتي تسير نصوص التشريع وفقها؛ بوصفها تخاطبهم بلغتهم ومباني عقلائهم وسيرتهم العملية.

والمنفذ الأساس الذي دخلت منه هو حين جعلت منهجاً دراسياً في المدارس العلمية والدينية، وأطروحة عقلية تفرض على صاحبها شكلاً وأسلوباً معيّناً من التفكير، وإصدار النتيجة المستنبطة.

وراح العلماء والفقهاء ينكبّون عليها، ويقفون أثرها بعد أن اقتنعوا أنّها أدلة عقلية مسلّمة، يحكم بها العقلاء بوصفهم عقلاء، (والشرع سيّد العقلاء)، فلا يمكن أن يخرج عن جادّتهم، وأنّ «كلّ ما حكم به العقل حكم به الشرع»<sup>(٨٢)</sup>.

فبمقتضى الملازمة بين الحكيم: العقلي والشرعي، سيكون ناتج الأقيسة المنطقية حكماً شرعياً يُمتثل في مقام الفعل والتكليف.

وقد تمركز في قلب التراث الفلسفي والعرفاني عند المسلمين كمّ هائل من النظريات اليونانية وما بُني على أساسها في أزمنة لاحقة، كنظرية (الفيض) التي أبدعها أفلوطين، بما تحمله من قوانين (لا

(٨٢) السيّد محمد كاظم المصطفوي، القواعد/ ٢٦٨.

يصدر من الواحد إلا واحد)، و (العقول العشرة والأفلاك التسعة)، و (الخالق بالقوة والخالق بالفعل)، و (أزلية المادة)، و (السنخية بين العلة والمعلول)، وغير ذلك.

كما أمست أعمق الأدلة العقلية في نظر المتعاطين لعلم العقيدة وعلم الكلام، كمبحث (إثبات وجود الله) قائمة على أدلة مثل: برهان النظم، برهان حدوث المادة، برهان الإمكان، بما تحمله من مصطلحات ومفاهيم فلسفية.

ولعلّ مفارقة هامة بين (علم الكلام) الذي نشأ عند المسلمين على خلفية فلسفية، وبين القرآن الكريم في إثبات وجود الله: أن القرآن الكريم يعرض هذه الفكرة بوصفها بديهية مسلمة لا تحتاج إلى إثبات ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟﴾<sup>(٨٣)</sup>، ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾<sup>(٨٤)</sup>، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٨٥)</sup>، بينما يعرضها (علم الكلام) باعتبارها مسألة مشكوكة أو منكرة تحتاج إلى إثبات وبرهان.

ولقد أسدى العرب والمسلمون خدمة جليلة للفكر الغربي الحديث حين حفظوا له أصوله اليونانية، وراحوا يشرحونها، ويطوّرونها، حتى استردها منهم عبر الأندلس وغيرها، فأخذ منهم جذوره التراثية غضة طرية، وتلقى بضاعته سائلة، فأشاد عليها عرش مدنيّته المعاصرة.

#### د - الثقافة الغربية الحديثة:

ينظر البعض للآخر الغربي بوصفه كتلة من النجاحات المتلاحقة في الجانبين: الإنساني الحضاري، والمدني التكنولوجي، ومن ثم - ومن باب المثاقمة - لا بدّ من الاستفادة من ثقافته.

(٨٣) سورة إبراهيم / ١٠.

(٨٤) سورة لقمان / ٢٥.

(٨٥) سورة الروم / ٣٠.

كما ينظرون إليه بوصفه النموذج المعرفي الأرقى للفكر البشري والحداثة، ونظام الحكم، ومن ثمّ اقتبسوا منه الديمقراطية والتداول السلمي للسلطة، وأسلوب القضاء السكسوني وغيره، كما أخذوا عنه النظريات والمعارف ووسائل التقنية.

فالديمقراطية بما تشيعه من حرية واسعة - تدفع نحو التنافس الذي ينتج الأصلاح والأفضل، وتدعو عجلة التطوُّر والبناء، وراحوا يقرون بين معطياتها هناك، وبين الظلم والكتب والديكتاتورية في العالم الثالث، حيث مناظر الدماء القانية ترؤي الأرض، وشبح الجوع يطحن الملايين،.. حيث يموت الفكر، ويُقبر الإبداع!!

ومضى بعضهم يكل سبب التخلف هنا إلى الدين، والعقلية (الظلامية) التي يرسبها، وراح يقرأ الدين ونصوصه بذات المناهج الغربية التي يقرأ بها النصوص الأخرى، فتوصّل إلى أنّ محاولات تشريح النصوص وتحليل مدلولاتها لا تعطي الحقيقة أبداً، فأنصّب مخادع مغائل مهما بدا نزيهاً وموضوعياً، وأنّ الدين إلهي، لكنّه حين نزل للبشر أصبح بشرياً تجري عليه مقاييسهم ومعاييرهم في فهم النصّ وعلاقاته.

وتحت نير التباين الذي قد يتم أحياناً بين الغربي والديني، لجأ آخرون لإيجاد منهج صلح بين الاثنين بروح توفيقية، فإذا قال دارون [١٨٠٩- ١٨٨٢م]، وولاس [١٨٢٣- ١٩٠٣م] بأصل الأنواع، والنشوء والارتقاء، ومذهب التطوُّر، سارعوا إلى تطبيق ذلك على قوله تعالى: ﴿مَا كُنتُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا \* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾<sup>(٨٦)</sup>، و«أنّه كانت هناك قبل آدم صور وصنوف من الخلائق جاء هو ذروة لها»<sup>(٨٧)</sup>، وأنّ القرآن يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سَلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾<sup>(٨٨)</sup>، «وهي إشارة صريحة بأنّ الإنسان لم يُخلَق من

(٨٦) سورة نوح/ ١٣- ١٤.

(٨٧) الدكتور فهد بن عبد الرحمن الرومي، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري ٣/ ١١٢٥، عن: الدكتور مصطفى محمود، القرآن: محاولة لفهم عصري/ ٥٨.

(٨٨) سورة المؤمنون/ ١٢.

الطين ابتداء...، وإنما حُلق من سلالات جاءت من الطين، هناك مرحلة متوسطة بين الإنسان والطين...، هي سلالات عديدة متلاحقة كانت تمهيداً لظهور نوع الإنسان المتفوق»<sup>(٨٩)</sup>.

ولا تكاد تظهر (نظرية) في الغرب إلا وتعدُّ (حقيقة) عند البعض منا، يهطل عليها غيثاً هامياً من المؤيدات الدينية.

في حين آمن قسم ثالث أنه كما حجر الحكم الكهنوتي المسيحي في القرون الوسطى على العقل والإبداع، وكما حصل التصادم بين ممارسات الباباوات والقساوسة والعلم، وكما أنَّ تقدُّم الغرب لم يتم إلا بتحية الدين جانباً عن مسرح الحياة، وقصره على طقوس شعائرية محدودة الزمان، ولا تتجاوز حدود أماكن العبادة، آمنوا أنَّ مقولة الغرب في التصادم والتعارض بين الدين والعلم، مثلما تمَّت عندهم بين المسيحية والعلم، تتم بين الإسلام والعلم، وحتى يتم لنا التقدُّم لا بدَّ أن نبعث الدين (الإسلام) عن سدَّة الحكم والحياة، ونقصره على المساجد وأداء طقوسه الروتينية.

ورأى أنَّ الدين ما دام عاجزاً عن إدارة دفة شؤون الدولة وتحريك الواقع والانطلاق نحو المدى المفتوح، فلا بدَّ من بديل (ديناميكي) فاعل، وجده في المناهج الغربية: الليبرالية أو العلمانية، والشرقية: الماركسية أو الاشتراكية.

#### هـ - الثقافة الشيوعية والماركسية:

وكرَّد فعل على الرأسمالية الغربية وطبيعتها الطبقيّة نشأ فكر ماركس [١٨١٨ - ١٨٨٣م]، وإنجلز [١٨٢٠ - ١٨٩٥م]، الذي ذهب - ضمن حتميته المادية التاريخية - إلى أنَّ البشرية تسير متدرجة في مراحل خمس تصاعديّة هي: المشاعية الأولى، والرق والعبيد، والإقطاع، والرأسمالية، والاشتراكية والشيوعية الكبرى.

فالرأسمالية الغربية - وفق نبوءة ماركس - ستندثر لا محالة،

(٨٩) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، مصدر سابق ٣ / ١١٢٥، عن: الدكتور مصطفى محمود، القرآن: محاولة لفهم عصري / ٥٨.



وستخلي الطريق إلى المشاعية الكبرى حيث يسود العدل، وتزول الطبقات، ويستغني الناس عن الحاجة للدولة والسلطة!!

وفي عام [١٩١٧م] قامت الثورة البلشفية بقيادة لينين [١٨٧٠-١٩٢٤م] على أنقاض الحكم القيصري والمنشفية، وأنشأت الدولة الماركسية - اللينينية، الماركسية الفكر- اللينينية التطبيق.

وفي غضون أزمنة قلائل لم يقتصر الحكم الشيوعي على روسيا وحدها، بل.. تمطى وامتد لرقعة شاسعة المساحة شكّلت (الاتحاد السوفيتي).

وفي ١٩٤٩م نجح ماو تسي تنغ [١٨٩٣- ١٩٧٦م] في الصين، وظهر تطبيق آخر للماركسية.

وتوالى دول أخرى في هذا الركب ككوبا [١٩٥٩م]، وأوروبا الشرقية.

وأسهمت هذه النجاحات المتوالية في انتشار ثقافة ثورية عارمة طالت كل مجالات الحياة، فالمادية التاريخية التي أبدعها ماركس لم تكن نظرية في اتجاه واحد، بل.. تسعى لتفسير كل شيء وفقها، وإرجاع كل شيء إلى دور الاقتصاد ووسائل الإنتاج، وطوّرت فكرة هيجل [١٧٧٠-١٨٣١م] في صراع النقائص إلى فكرة الصراع المحموم بين الطبقات.

وفي العالم الثالث - ومنه العالم العربي والإسلامي - اتخذت هذه الثقافة مظاهر مختلفة:

فهي تارة سيل هادر ضد الدين - أيّ دين -، ودعوة صريحة للإلحاد، ترفع من قول ماركس «الدين أفيون الشعوب»<sup>(٩٠)</sup> بيرقاً لها.

وأخرى حركة تغييرية اجتماعية، تستهدف مناهضة الطبقة، والإطاحة بالمنظومات الأرستقراطية والبرجوازية والرأسمالية، وبلوغ حكومة البروليتاريا (العمال).

(٩٠) الشيخ محمد جواد مغنية، عقليات إسلامية ٥١٣/٢.

وثالثة هي اشتراكية، تدعو لتحرير الاقتصاد من سلطة الفرد، وإدخاله تحت سلطة المجموع وملكية الدولة.

ورابعة هي صدى لسبق ريادي للفضاء هزَّ العالم، وأحدث ضجيجاً مدوياً حتى في أمريكا.

وخامسة هي تصوّر يبشّر بنظريات في الفكر والثقافة والأدب والسياسة والاجتماع، وكل فنون الحياة النظرية والتطبيقية.

وبهذا وغيره رمّت الشيوعية حجراً ضخماً في المياه الاجتماعية الساكنة، فخلق تموجات صاخبة امتدّت تأثيرها إلى العديد من الثقافات، فراح مثقفون كثيرون يعبّون منها حتى الثمالة، ويتبنونها فكراً ومنهجاً، سواء بعدهاً رديفاً للدين يمزج معه في بعض الأحيان، أو بديلاً عنه في الأعم الأغلب.

وانتشرت تنظيماتها وخلاياها تمسّط الأرجاء، وتستقطب الأتباع، ونجحت في بعض دول العالم الثالث والوطن العربي في الوصول للحكم، ولو بتبنيها في الاقتصاد والاشتراكية.

وراح منظرون ومفكرون يلتمسون لها مؤيدات من نصوص الإسلام وتطبيقاته، كتلك التي تدعو لكسر الاحتكار وتكديس الثروة، وتأمّر بتحريك المال، كقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ \* يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ أَنْفُسِكُمْ فَدُوفُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنُزُونَ ﴾<sup>(٩١)</sup>.

بيد أنّ ماركس لم يشهد تصدّع النظام الذي استلهم من أفكاره، وتهاويه تحت أرجل الطبقة الغريبة، ولا عجز دولته الشيوعية للبقاء على المسرح لسبعين سنة، فتساقطت أوراقها تحت رياح الشتاء العاتية، وأسدل عليها الستار عام [١٩٩١]، لكنّ الناس شهدوا تشظّي المارد الجبّار وتلاشيه.

## اكتشاف المنهج أم استيراده؟

إنَّ أهم ملاحظة نقدِّمها على الأخذ بالوفاة هي: أنَّ الانكباب على التجميع أدى إلى صرف الوقت والجهد في البحث والتصيّد من الثقافات الأخرى، والحيلولة دون إيجاد منبج ينبثق من الذات، ويتوافق معها، ومحاولة بناء أطروحة تأسيسية، وإبداع فلسفة إسلامية مستقاة من الدين والعقل الإسلامي، بدلاً من مجارة الفلسفات الأخرى، والاكتفاء بدور الشارح الأمين.

وبعبارة أخرى: لقد جعل المسلمون بدلاً من اكتشاف المنهج وبنائه من قلب الدين ليحكم علومهم وأعمالهم، جعلهم يتبنون مناهج أخرى ونتائجها، ويصرفون وقتهم وجهدهم في ذلك.

وإذا كان كثير من اللاحقين يقتفون مسير السابقين بوصفه مقدساً تاماً، فقد حكمت تلك المناهج اللاحقين أيضاً.

فأرسطو لم يحكم الفكر اليوناني فقط، بل.. تربّع على عرشه، كما تربّع على عرش الفكر العربي والبشري عموماً لأكثر من ٢٥٠٠ سنة، وقاد خطاها عبر منطق وقواعده... إنَّ أرسطو يحكم البشرية حياً وميتاً!!

## الثقافات .. ونتائجها:

ولما استقرت هذه الثقافات الوافدة في الأذهان شكّلت المرجعية المعرفية والثقافية، وراحت تملّي تصوّرات النظرية والتطبيقية في عالم الفكر والعمل، وغدت مسابقات فكرية توظّف كلّ ما تستطيع لصالحها، وتفسّر الدين وفق منظومتها الفكرية ومناهجها، فإذا بايات القرآن والأحاديث والعقائد الدينية وغيرها.. تُقرأ وتُفسّر وفق معطياتها، ومن ثم تُعطي نتائج ربّما كان بعضها بعيداً عن روح الدين ونظريته.

يقول ابن خلدون [٧٣٢-٨٠٨هـ]، [١٣٣٢-١٤٠٦م] معقّباً على التأثير بالأجنبي الذي رافق الترجمة: «ودخل على الملة من هذه العلوم وأهلها داخله، واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا إليها، وقلّدوا آراءها»<sup>(٩٢)</sup>.

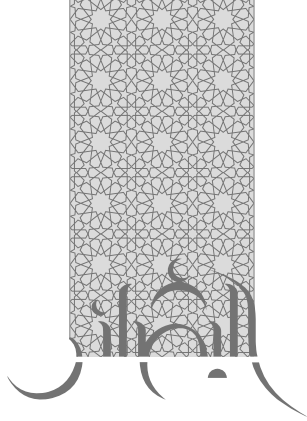
(٩٢) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة/ ٤٠١.

ومن تلك النتائج:

- ١- الاضطراب في تصوير أهداف القرآن وتفسيره.
  - ٢- الاضطراب في فهم السنة ومكانتها، واختلاق الأحاديث.
  - ٣- الخروج بعلم الكلام الإسلامي عن غايته.
  - ٤- انسلاخ بعض المذاهب الفقهية والعقائدية عن الإسلام.
  - ٥- خلق المنافس للفقه، ثم المعادي له، وهو التصوف المغالي.
  - ٦- انتشار السحر والطلاسم وأسرار الحروف، وإضفاء مسحة التعبد عليها.
  - ٧- إضعاف عملية الرجوع إلى النصوص الشرعية، والاستعاضة عنها بكلام أئمة المذاهب.
  - ٨- توقف عملية الاجتهاد [عند السنة]، والاستعاضة عنها بالتقليد..<sup>(٩٣)</sup>
- وفي (المسبقات الفكرية وعملية التوظيف) سوف نعرض نماذج تطبيقية لأثر هذه الثقافات في فكر المسلمين وثقافتهم.

(٩٣) ليس من الإسلام، مصدر سابق/ ١٦٦.





## المسبقات الفكرية وعملية التوظيف

- \* المسبقات الفكرية.
- \* عملية التوظيف.
- \* موارد التوظيف.
- \* توظيف الأفكار.
- \* توظيف النصّ.
- \* توظيف أحداث التاريخ.
- \* كيف تتم عملية التوظيف؟
- \* القائمون بعملية التوظيف.



## المسبقات الفكرية وعملية التوظيف

### المسبقات الفكرية:

يخرج الطفل من بطن أمه خالي الوفاض، لا يحمل من الزاد المعرفي شيئاً، لكنّه مزوّد بأجهزة وآليات تمكّنه من استقبال المعرفة، لا تلبث أن تلتقط المعلومات وتجمعها من محيطه، وترسل ذلك إلى الذهن الذي يحلّها ويتأمّلها ويكتنّزها في داخله، فهو ليس مزوّدًا بالمعرفة، لكنّه مزوّد بسبل تحصيلها، والمعرفة لديه ليست ذاتية، وإنّما هي اكتسابية، تتلاقح بين ما تجمعه أدوات الحسّ - كالسمع والبصر - مع العقل الذي يُفترض أنّه يشكّل الحاكم في تلك المملكة.

وهكذا يجمع فكرة وفكرة، وقناعة وقناعة، تتنامى مع الأيام والخبرات والتجارب، وتتوالد وتزداد؛ لتتشكّل سيلاً من الأفكار والقناعات التي تؤلّف لصاحبها نسيجاً فكرياً.

وتلك الأفكار التي استقرت في الذهن لا تفتأ تقابل أفكاراً جديدة - موافقة أو مخالفة -، وعندما نقيس القديمة المستقرة بالجديدة التي تسعى للتسلل إليه، تمثّل القديمة (مسبقات فكرية) في قبال (تاليات فكرية).

ومعنى ذلك أنّ العملية نسبية مقارنة؛ إذ لا يوجد (سابق) إلا إذا وجد (لاحق) (تال)، ولا يُوصف شيء بأنّه (قبل) ما لم يوجد



(بعد) وبالعكس.

ويظلّ الإنسان طوال حياته على صلة دائمة بهذه الحركة الموصولة بين القديم والجديد، قديم اعتقه - ولو على سبيل الظنّ - وجديد ربّما يسعى لخلخلة القديم وتفكيك بناه وإزاحته ليحلّ محله، ثمّ لا يلبث الجديد أن يغدو - في زمن آخر - قديماً يصارعه جديداً فتياً، فهي عملية صراع وتدافع، أو تفاعل وتكامل.

### عملية التوظيف:

ولا شكّ أنّ ذلك التراكم العلمي والمعرفي والفكري لا يمكن أن يصل كلّهُ إلى مستوى الصحة وتجاوز النقد، وإنّما يحتوي في مجمله على أفكار صحيحة، وأخرى غير ذلك.

وهذا بدوره يوجد نمطين من الناس مختلفين في فهم علاقة هذه الأفكار المسبقة بالجديد الذي يمكن أن يصلهم من مصادر المعرفة وطرق التلقي. فمن ينطلق من نسبية أفكاره وكونها من المتغيّر المتحرّك، يقف أمام الجديد وقفة موضوعية قادرة على دراسته دراسة متأنية في سبيل الاستهام منه إن كان صحيحاً - ولو على حساب الأفكار المسبقة-، ورفضه بدليل وبرهان إن لم يكن كذلك، أو الوقوف أمامه وقفة محتّم للصواب والصحة.

وأما من يضي على مسبقاته الفكرية هالة القداسة والثبات والإطلاق فسيجعل منها محوراً وقاعدة لمحاكمة أيّ جديد أتى كان مصدره، وسيحاول استغلاله لدعم أفكاره السابقة وتثبيتها، وما لا يمكن إخضاعه وتذليله -يسراً أو قسراً- فإنّ مصيره الرفض والحكم عليه بالخطأ والضلال.

إنّه يُقبل على ذلك بروح مشحون الذهن، صاحب النظرة المسبقة، ومن ثمّ فهو لا يبحث إلاّ عمّا يخدم ذلك، ويُستغل لصالحه.

وعملية التوظيف هذه تدفعه إلى اقتناص المؤيّدات فقط، وترك ما يخالفه، فحينما يقرأ الدين أو المذهب الآخر أو الفكر المختلف فإنّه يقرؤه بلغة التصيّد لا التعرف؛ لأنّ حكمه ببطلان ذلك سابق ومطلق ولا يقبل إعادة النظر، فضلاً عن التغيير والتبديل.

## موارد التوظيف:

التخلص من أسار سابقيات الفكر مسألة من الصعوبة بمكان؛ لأنَّ كثيراً منها يمتد امتداداً زمنياً موعلاً في القدم بحيث ترسخ في الوعي على شكل بديهيات ومسلمات لا تقبل الشكَّ والجدل، وتجاوز حتى وصل إلى اللاوعي واللاشعور ليتخذها مقراً خفياً يملئ منه على صاحبه الأفكار والمواقف، وكم يجد المرء نفسه يحب شيئاً (من المأكولات - مثلاً -) أو يكرهه دون أن يعرف السبب الكامن وراء ذلك، ولربما لا يهتدي إليه ولو فكر لساعات طوال، فقد يكون انعكاساً لأمر أو موقف منذ سنوات بعيدة لم يعد يتذكر منه شيئاً!!

وبعمقها الزمني أصبحت تلك السابقيات شيئاً مألوفاً ومستساغاً، يتبعه أصحابه خوفاً من مغامرة الخوض في المجهول وغير المألوف، وتجنباً للمخاطر المحتملة الناتجة عن عملية الإقدام التي تحتاج إلى قدر من الصراحة والشجاعة.

خصوصاً وأنَّ مخالفة المألوف تستدعي - وفي كثير من الأحيان - ثورة تغييرية عارمة على بعض القيم الاجتماعية المتوارثة، كما تستدعي - قبل ذلك - نقد الذات واستئصال شأفة أشجار متجذرة عملاقة نمت ونمت حتى شكلت حجاباً سميكاً مانعاً من التمتع بضوء شمس الحقيقة، ومداعبة النسمات الشذية الفوّاحة للموضوعية، كما تقف حجر عثرة في طريق الارتواء من معين الانفتاح الذي لا ينضب ولا يشوب صفوه العكر والزوال.

نقد الآخر وما يدور في فلكه أمر بسيط؛ لأنه مجرد عن الذات، لكنَّ نقد الأنا والذات، يعني أن يجعل الإنسان نفسه وأفكاره ومعتقداته في قفص الاتهام، فهو يشير بأصابع الاتهام لذاته ويحاكمها، وهذا مالا تستطيع الأغلبية الساحقة من البشرية فعله، مفضلة الميل إلى دفع المألوف والمنتشر ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْزِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) سورة البقرة/ ١٧٠.

ولأنَّ الإنسان يصطدم في حياته بكُمِّ هائل من الأحداث والحوادث والأمور النظرية والعملية في شتى الجوانب تتوفر عنده حصيلة كبيرة من الأفكار والإجابات يسقط بعضها مع مرور الزمن - نتيجة لأسباب ذاتية وخارجية - ويشكّل القسم الآخر منها قناعات تظهر بوضوح في تعامله وما يستهلكه أو ينتجه من أفكار.

وعملية التوظيف تتسم بنحو من السعة والشمول، ويمكنها استغلال كلِّ ما يقع تحت دائرتها من أفكار، أو نصوص، أو أحداث تاريخية، أو غير ذلك.

### توظيف الأفكار:

لو صوّرنا الأفكار - وهي أمر معنوي - في صورة حسيّة - كحلقات سلسلة - مثلاً - فإننا إلى جانب إدراكنا لتمامها وتربطها نشاهد أنّ بعضها يأتي لخدمة بعض وتبريراً له.

وبعبارة أخرى: فإنَّ صاحب تلك الأفكار يسعى لتوظيف واستغلال بعضها لصالح آخر. فعندما يؤمن بفكرة ما.. يسعى لتجبير أفكار أخرى لصالحها، وعندما يريد نقض أخرى سيستفيد من كلِّ ما من شأنه أن يكون دليلاً داحضاً، ولو أدى ذلك إلى القيام بعملية تولى توفيقية أو انتقائية، أو الاستعانة بما هو حجة من باب الخصم.

يحدثنا القرآن الكريم أنّ إخوة يوسف (عليه السلام) نشأت عندهم فكرة ميل أبيهم يعقوب لأخيه يوسف وتفضيله عليهم، وحتى يخلو لهم وجه أبيهم لا بدّ من التخلص من المنافس، وبعد أن تمّ ذلك ماذا يفعلون لتساؤلات أبيهم؟

لقد وظفوا واستغلوا فكرة هو الذي قالها يوم حذرهم من الذنب: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ \* إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ \* اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ \* قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي

غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ \* قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ \* أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ \* قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ \* قَالُوا لَنْ نَأْكُلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَحَّاسِرُونَ \* فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ \* وَجَاوَزُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ \* قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿٢٧﴾.

### مناهج قراءة الغرب:

ونلمح مشهداً آخر لتوظيف الأفكار متجلباً في مناهج قراءة الغرب وتحليل خطابه:

#### ١- المتآمر الأزلي:

فهناك من يراه المتآمر الأزلي صاحب المؤامرة الكونية، الذي يحوك الدسائس والمؤامرات ضد العرب والمسلمين والعالم الثالث، مرة عن طريق أسلوب الاستعمار المباشر، وثانية: عن طريق شبه مباشر بمن وضعه قيماً من قبله، وثالثة: عن طريق خفي ثقافي وإعلامي.

وأصحاب هذا المنهج لا يرون في الغرب إلا كتلة من الشرّ والسواد، فليس فيه إلا الجرائم والانتكاسات والتمييز والتضخم والبطالة و...، ففي عام ١٩٩٣م وحده وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية ٤,٤٠٠,٠٠٠ جريمة قتل واغتصاب وسرقة استخدم فيها السلاح، من بينها ٢٤,٥٠٠ جريمة قتل.

وفي سؤال طرحته مجلة (لايف) عام ١٩٧٢م في استقصاء واسع تحت عنوان (هل تخاف الجريمة!) جاءت الإجابات كالتالي:

٧٨٪ قالوا: نشعر بالخوف حتى ونحن في بيوتنا.

٨٠٪ قالوا: نخشى التجوّل في الشوارع ليلاً.

٤٠٪ قالوا: إنّ حماية الشرطة وحدها لا تكفي.

٣٠٪ كشفوا أنّهم يحتفظون بالأسلحة للدفاع عن أنفسهم.

وقد أصدر الرئيس الأمريكي (بيل كلنتون) في عام ١٩٩٢م قانوناً وافق عليه الكونغرس يقضي بتخصيص مبلغ ٣٠ مليار دولار لمنع الجريمة، من بينها ١٠ مليارات لبناء سجون جديدة و٨ مليار لتجنيد ١٠٠ ألف شرطي جديد، و٧ مليارات لتمويل برامج اقتصادية واجتماعية تساهم في تحسين أوضاع المناطق الفقيرة داخل المدن المكتظة بالسكان<sup>(٣)</sup>.

وهكذا: يُوظّف وجه الغرب هذا للحكم عليه بالفشل، والسير الحتمي نحو السقوط، كما تُوظّف منجزات ماضيها وأمجاد الآباء لنسلي أنفسنا بأننا ﴿ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾<sup>(٤)</sup>، وننسى وجهه الآخر في التقدم التكنولوجي والعمراني، وحاضرنا كمسلمين، ونخلط الأوراق بين ثقافة الإسلام المشرقة، وثقافتنا - نحن المسلمين - التي قد لا تساير ذلك الإشراق، كما ننسى أنّ تأثيرنا به دليل قوته وقابليتنا لممارسة نفوذه علينا.

ومن وراء هذا كله تطلّ فكرة (المؤامرة) الغربية الأبدية على العرب والإسلام، وهي فكرة أقتننا بها أنفسنا واسترحنا إليها؛ لأنّها تؤدي في حياتنا مجموعة من الوظائف المفيدة: فهي تعطينا من مواجهة عيوبنا وبذل الجهد اللازم من أجل إصلاحها ما دمنا على الدوام ضحايا لتلك المؤامرة التي هي الشغل الشاغل والهَمّ الأزلّي لتلك العالم الواسع الذي نطلق عليه اسم الغرب، وهي تعطينا إحساساً جميلاً بالأهمية، فنحن - وليس غيرنا - هدف تلك المؤامرة التي يشغل بها الغرب نفسه ليل نهار، أجل نحن، وليس اليابان أو الصين أو العالم

(٣) شوقي رافع، (الجريمة والثقافة)، مجلة (العربي)، العدد ٤٤٢، ربيع الآخر

١٤١٦هـ/ سبتمبر (أيلول) ١٩٩٥م، ص ٥٦-٦١.

(٤) سورة آل عمران/ ١١٠.

الذي يوشك على اللحاق بالغرب وتضييق الخناق عليه في كلّ الميادين، نحن فقط - من دون مجتمعات البشر - الذين نخيف الغرب، ونحرم عيونه النوم<sup>(٥)</sup>.

## ٢- نهاية التاريخ:

وهناك من يعدّ الغرب (نهاية التاريخ ونموذج الإنسان الأخير)، فالقيم الديمقراطية هي أرقى ما توصل إليه العقل البشري، وسترسو كلّ سفن البشرية يوماً عند شاطئه الخلاب، وتحثذي حذوه.

وإذا كان أصحاب الموقف الأول لا يرون في الغرب إلا سواداً قائماً وجرائم فإنّ هؤلاء لا يبصرون فيه إلا بياضاً ناصعاً وبريقاً أخذاً خاطفاً للقلوب والأبصار، فيوظفون زاوية التقدم العلمي والمدني والتكنولوجي لبيان أسبقيته وأفضليته علينا.

يقول طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ] - [١٨٨٩م - ١٩٧٣م] عن سبيل التقدم: «إنّ سبيل النهضة واضحة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم لتكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة: خيرها وشرفها، حلوها ومرّها، وما يُحبّ منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب»<sup>(٦)</sup>.

ويقول ميرزا ملكم خان - أحد قيادات التيار التغريبي في إيران إبان الثورة الدستورية [١٣٢٧هـ / ١٩٠٥م]: «إنّه لا يحق لنا أن نكون في أخذ أصول التمدن الجديد ومباني التقدم العقلي والفكري بصدد الإبداع، بل علينا أن نحثذي الفرنجة»<sup>(٧)</sup>.

(٥) الدكتور فؤاد زكريا، (الغرب: ذلك المتآمر الأزلي)، مجلة (العربي)، العدد

٤١٥، ذو الحجة ١٤١٣هـ/، يونيو ١٩٩٣م، ص ٢٧.

(٦) أضواء على الثقافة الإسلامية، مصدر سابق/ ٢٤٥، نقلاً عن: (طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر/ ٤٦).

(٧) خالد توفيق، (التيارات الفكرية في الساحة الإيرانية)، جريدة (كيهان العربي)، العدد ٢٤٢١، السنة الخامسة عشرة. السبت ٨/ جمادى الثانية - ١٤١٥هـ، ١٢/

تشرين الثاني - ١٩٩٤م، ص ٦.

ويقول آخر من قياداتهم:

«إنَّ ما تحتاج إليه إيران أكثر من أي وقت مضى، وما يجب أن يسعى إليه جميع الوطنيين الإيرانيين، وما يُقدَّم على غيره، هي أمور ثلاثة، مهما قلنا في تأكيدها لا نبلغ حقيقتها، الأمر الأول: قبول التمدن الأوروبي وترويجها بلا شرط أو قيد. الثاني: التسليم المطلق لأوروبا. [الثالث]: وأن نأخذ منها الآداب والعادات والرسوم وأصول التربية والصناعة والعلوم والحياة، وكلَّ أوضاع الفرنجة دون استثناء، خلاصة الأمر: يجب أن تكون إيران ظاهراً وباطناً جسماً وروحاً إفرنجية وإفرنجية فقط»<sup>(أ)</sup>.

وإذا كان طه حسين، وملك خان وغيرهما من أبناء حقبة تاريخية سالفة، يطرحون أفضلية قيم الغرب من زاوية تقدمه التكنولوجيا، فهناك من يقدِّمه اليوم في حلة قشبية زاهية تتوق ذلك مبشراً بثقافة كونية شاملة ستعمُّ الكرة الأرضية جميعاً، رافضاً مفهوم الخصوصية الثقافية، والثقافة النسبية، وأنَّ لتلك الكونية مبررات<sup>(أ)</sup>، منها:

#### أ- التواصل بين المجتمعات البشرية:

فحتى بروز الثورة الصناعية كان التواصل بين المجتمعات البشرية بطيئاً جداً، وكانت المسافات البعيدة والمعوقات المائية والجبلية والصحراوية تلعب دوراً أساسياً في انزواء المجتمعات بعضها عن بعض، لكنَّ ثورة المواصلات وغيرها من الثورات الجذرية التي رافقت الثورة الصناعية الأولى أو أعقبها ساهمت إلى حدٍّ بعيد في رسم معالم المستقبل باتجاه مجتمع كوني يتوحد بالقوة في معظم الأحيان.

#### ب - تراكم الثقافات المتجانسة والمتصارعة:

فالثقافة الكونية هي نتاج تراكم ثقافات متجانسة ومتصارعة في آن واحد، وذلك على أساس أنَّ آلية التوحد تفترض الصراع والتجانس في عملية مستمرة ولا تنتهي.

(أ) المصدر/ ٦.

(٩) الدكتور مسعود ضاهر، (خصوصية الثقافة في مواجهة الثقافة الكونية)، مجلة (العربي)، العدد ٤٢٨، ذو الحجة ١٤١٥هـ/ مايو ١٩٩٥م، ص ٥٨ - ٦١.

### ج - اللغة الإنجليزية:

إذ تلعب اللغة دوراً حاسماً في هذا المجال، فعلى الرغم من عالمية الإنتاج الثقافي والسلع الثقافية في كل من اليابان وألمانيا - مثلاً - فإنّ اللغتين اليابانية والألمانية ليستا في مرتبة اللغة الإنجليزية من حيث الانتشار الكوني، هذا مع العلم أنّ سكان بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا الناطقة بالإنجليزية، لا تصل نسبتهم إلى نصف سكان الهند - تقريباً - أو ثلث سكان الصين، ومع ذلك فالإنجليزية أوسع انتشاراً من الصينية والهندية معاً، ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة إلا بعد ربطها بالجذور التاريخية للسيطرة الاستعمارية البريطانية، فبعد أن أتيح لبريطانيا تحقيق ثورتها الصناعية وسيطرتها على إمبراطورية لا تغيب الشمس عن ممتلكاتها استطاعت أن تضمن للغة الإنجليزية موقع الصدارة بين اللغات الكونية، وتعرّز هذا الموقع مع هيمنة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم.

### د - نظرية نهاية التاريخ والإنسان الأخير:

فالمفكر الأمريكي ذو الأصل الياباني فرنسيس فوكوياما في كتابه الذي صدر تحت عنوان (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) [١٩٩٢م]، يقول بنهاية التاريخ، ويعتبر أنّ الزمن أكمل دورته مع وصول الإنسانية إلى مرحلة الليبرالية التي نادى بها هيجل، ووجدت لها تطبيقاً عملياً في النظام الديمقراطي الأمريكي، وبذلك أشيد المرفأ الذي سترسو فيه كل سفن البشرية.

### هـ - الاقتصاد ونظم المعيشة:

فمع سيادة نظام اقتصادي متقارب، يعتمد نظام السوق، والروح الاستهلاكية، برزت مواصفات ثقافية مشتركة توحدت ضمن الثقافة الكونية.

هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى مثل: السيطرة الاستعمارية القومية، الحروب العالمية، إنتاج وتصدير الكمبيوتر، ثورة الإعلام والاتصالات السلكية واللاسلكية، غزو الفضاء....



### ٣- النظرة المتوازنة:

وهناك من ينظر إلى الغرب بنظرة متوازنة كلية، تستجلي صورته كاملة وتحللها بموضوعية لترك عناصر الضعف فيها، وأخذ عناصر القوة والنجاح؛ لأنَّ (جزء الصورة لا يعكس الصورة كاملة)، وهذه نقطة التباين بينها وبين المنهجين السابقين.

ثمَّ تسير عبر مبدأ (الأصالة والمعاصرة) أو (الأصالة والحداثة)؛ للتركيز على قيم وخصوصيات الذات والانفتاح على الآخر.

وكما ينبغي علينا ألا نقف من الغرب موقف القطيعة، أو الاستلاب، أو الارتواء في أحضانه، فنهتم بسلبياته فقط، أو إيجابياته فقط، ينبغي أن نراه كلاً فيه إيجابيات وسلبيات؛ ومن ثمَّ نقتفي إثر واحدة، ونترك الأخرى.

وهذا المنظار التحليلي الدقيق مثلما نتفحص به الآخر، يجب أن نتفحص به الذات؛ لنتعرف على مكامن القوة، ومكامن الداء في سبيل تحقيق الحركة نحو الأفضل والأصلح، وألا نبالغ في طرف على حساب آخر؛ لأنَّه سيوصل إما إلى الغرور، وإما إلى خيبة الأمل والعيش - أبد الدهر - بين الحفر.

إنَّنا لا نذكر إلا إيجابياتنا حتى نفرّ بجلدنا من الحضور الواعي في هذا العالم والتناغم والتفاعل معه، وحتى نتخلص من وخز الضمير الذي يسألنا وبإلحاح: لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟! وإذا لم نجد في حاضرنا بذور أمل نقطفها في المستقبل، لجأنا إلى الاحتماء بدفء الماضي والتراث التقليدي!!

إنَّنا نخاف ذكر سلبياتنا بحجة أنَّ ذلك تشهير وتعريض يمكن أن يستغله الآخر لتكريس ضعفنا، وننسى أنَّ العلاج لا يأتي إلا إذا تجرَّعنا الدواء ولو كان مرراً، وأنَّ اكتشاف الدواء الناجع مرهون بتحديد المرض بدقة ووضوح... وأنَّ القرآن الكريم - دستورنا الخالد - تعجَّ آياته بذكر سلبيات المجتمع المسلم: الكبيرة منها والصغيرة، الكليات والجزئيات، ولا ضير في ذلك ما دام طريقاً للتغيير والإصلاح.

يقول تبارك وتعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُنُوتُكُمْ فَلَمْ تُنَعِنْ عَنْكُمُ شَيْئًا، وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (١٠).

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَصُولُونَ: هُوَ أُذُنٌ، قُلْ: أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ (١١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ، لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٢).

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ... الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّن نِّسَائِهِمْ﴾ (١٣).

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٤).

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ (١٥).

## توظيف النص:

أكثر شيء تعرض لعملية التوظيف لصالح المسابقات الفكرية هو النص، وإن كان ذلك يتفاوت من نص لآخر..

فالنص القرآني هو أكثر النصوص عرضة للتوظيف؛ لأنه

(١٠) سورة التوبة / ٢٥.

(١١) سورة التوبة / ٦١.

(١٢) سورة النور / ١١.

(١٣) سورة المجادلة / ١ - ٢.

(١٤) سورة الحجرات / ٤.

(١٥) سورة الجمعة / ١١.

يصل في ذهن المسلم إلى درجة من القداسة لا يرقى إليها أي نص آخر، وبالتالي فهو أكبر مصدر ووسيلة لإقناع المسلمين، ولأنه حمّال ذو وجوه، عبارته عميقة وواسعة، يستطيع أصحاب الفهم التجزيئي التبضي أن يقطعوا منه مقطعاً ليكون شاهداً على كلامهم، وبتروا غيره.

وهذه الانتقائية كانت موجودة زمن نزول الوحي، ولذلك وبخ الله القائمين بها بقوله: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (١٦).

وحينما كتب مفسرو القرآن الكريم تفاسيرهم ظهرت وانعكست ثقافتهم وميولهم فيها، فكل وظف آيات الكتاب لخدمة نهجه وتوجهه، حتى أننا لنرى تفسيراً أمسى مسرحاً وملعباً يتبارى فيه الفلاسفة، وآخر يتسابق فيه اللغويون، وثالثاً يحكمه التفسير العقدي، أو الفقهي، أو التاريخي، أو ما يُسمّى بالتفسير العلمي، أو ....

ويلى النصّ القرآني نصّ المعصوم (عليه السلام) من حديث أو رواية؛ لأنّه عدل الكتاب ومسلّم الحجية عند المسلمين، لكنّ الذي جعله أقلّ عرضة للتوظيف من القرآن الكريم في عصور ما بعد تدوين السنة المباركة أنّ الأحاديث مستويات، فبين صحيح وحسن وموثق وضعيف، وقد يكون الحديث صحيحاً على شروط كاتب للمجاميع الحديثية، وليس كذلك عند آخر، وقد يكون مدوّناً في كتب السنة دون الشيعة أو العكس، أو قد يحتوي عند فريق على تفاصيل وقرائن تجعله واضحاً في معنى أكثر منه في كتب الفريق الآخر، في حين أنّ هذا كله غير وارد على القرآن الكريم، فهو مصدر تشريعي عند الجميع وبمنزلة واحدة، وتواتره اللفظي بديهي لا يحتاج إلى نقاش.

وإن كان يظهر من تتبّع موارد التوظيف قبل تدوين السنة المباركة أنّه استُغل أكثر من القرآن الكريم؛ وذلك لأنّ كثيراً من الأحاديث

نُقلت بالمعنى لا بالنصّ مما يسّر لراويها إمكانية التصرف فيها كمادة خام، ولأنّ عملية الوضع والدسّ في السنة تمّت وحصلت بما لا خلاف فيه على يد أجيال من الوضّاعين الذين سعوا لإشباع نهم الجماهير وعطشها لما رأوا الإقبال عليهم، هذا غير إرضاء ذوي المصالح من حكام سياسيين وغيرهم ممن رعوا عملية الوضع والاختلاق، وسهّل لهم ذلك أنّها لم تكن مكتوبة كنصوص ثابتة في كتب ثابتة وتحت متناول الجميع، لذلك حصل التحريف فيها على نحو الزيادة والإنقاص والتغيير والوضع الكلّي، كما أنّ هناك أحاديث متصلة قيلت في مناسبة واحدة، لكنّ أوصالها فُرِّقت وقُطعت على حسب أماكن الشاهد والمناسبة، مما أظهر لها معاني، قد لا تفيدها لو رأينا النصّ كاملاً، وهذا ما لم يكن ميسوراً بنفس المستوى بالنسبة للنصّ القرآني.

ويأتي في الدرجة الثالثة بعد النصّ القرآني والحديثي، النصّ اللغوي خصوصاً وأنّ العربية لغة مرنة وواسعة، كثيرة الاشتقاق وتوليد المعاني، وقد نجد اللفظ الواحد فيها مشتركاً لمعاني كثيرة، كالعين الموضوع للباصرة والنابعة والوجيه والجاسوس والذوات و...، حتى أنّ بعض الألفاظ قد تحتوي على معاني متضادة، كلفظ (جل) بمعنى العظيم والحقير، أو لفظ (جون) بمعنى الأسود والأبيض.

### يوحنا الدمشقي وأزلية المسيح:

كان يوحنا الدمشقي [٥٥ - ١٢٢هـ]، [نحو ٦٧٥ - ٧٤٠م] يرفل بالنعيم في بلاط الأمويين، وكان يؤمن بأنّ السيد المسيح عليه السلام أزلي قديم وليس مخلوقاً، ومع احتكاكه بالمسلمين، سعى لتوظيف قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾<sup>(١٧)</sup>.

فبما أنّ القرآن نصّ على أنّ عيسى بن مريم كلمة الله ألقاها إلى مريم، صار ذلك وسيلة لأن يبيّن هذا الرجل بين المسلمين قدم كلمة الله عن طريق خاص، وهو أنّه كان يسألهم: كلمة الله قديمة أم لا؟ فإن قالوا: قديمة..، قال: ثبت دعوى النصارى بأنّ عيسى قديم،

(١٧) سورة النساء/ ١٧١.

وإن قالوا: لا..، قال: زعمتم أنّ كلامه مخلوق. ولأجل ذلك قامت المعتزلة لحسم مادة النزاع، فقالوا: إنّ القرآن حادث لا قديم مخلوق لله سبحانه<sup>(١٨)</sup>، ووافقهم على ذلك الشيعة الإمامية.

وذهب الأشاعرة إلى القول بقديم كلام الله وأزليته، وفرّعوا على ذلك ما أسموه بالكلام النفسي مستدلين بقول الشاعر:

إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً<sup>(١٩)</sup>

وكان ما فعله يوحنا الدمشقي صرخة مدوية أحدثت صدّى وضجيجاً صاخباً من التموّجات والتكهرب في المجتمع الإسلامي حتى كان من إفرازاتها - كما رأينا - أن نشأ في العصر العباسي [١٣٢هـ - ٦٥٦هـ] ما سُمّي بـ (محنة خلق القرآن)، والتي استفاد منها الخلفاء لقمع معارضيهم والتخلص منهم، باسم نظرية المعتزلة من القول بخلق القرآن، واضطهاد من قال بأزليته - كما فعل المؤمن، والمعتمصم، والوائق -، أو بعنوان تبني نظرية الأشاعرة الذين قالوا بأزلية وقدم القرآن، واضطهاد من قال بأنه حادث ومخلوق، - كما فعل المتوكل -، وقد استمر ذلك فيمن بعده إلى زمن انقضاء المعتزلة لصالح أهل الحديث والحنابلة.

وقد سرى هذا البحث إلى كتب الأصول والعقائد، وملاً عشرات الصفحات، وتوسّع أكثر حتى ظهرت من جرّائه نظريات كاتحاد الطلب والإرادة والأوامر الامتحانية وغير ذلك<sup>(٢٠)</sup>.

### معاوية والقدرية:

يقول أبو هلال العسكري [٢٩٣- ٣٨٢هـ]، [٩٠٦- ٩٩٣م] في كتابه (الأوائل): «إنّ معاوية أول من زعم أنّ الله يريد أفعال العباد كلّها»<sup>(٢١)</sup>.

(١٨) الشيخ جعفر السبحاني، الإلهيات ١/ ١٩٠.

(١٩) الأخوند محمد كاظم الخراساني، كفاية الأصول / ٦٥.

(٢٠) للتفصيل أكثر راجع: الأخوند الخراساني، كفاية الأصول، مصدر سابق / ٦٤ -

٦٩ - السيد محمد الشيرازي، الوصول إلى كفاية الأصول ١ / ٣٧٣ - ٤١٣.

الإلهيات، مصدر سابق ١ / ١٨٩ - ٢٢٠.

(٢١) الإلهيات، مصدر سابق ٢ / ٥١٠ نقلاً عن: (أبي هلال العسكري، الأوائل ٢ / ١٢٥).

ولقد سعى معاوية - بعد ما سمَّ الحسن (عليه السلام) [٣ - ٥٠هـ] - [٦٢٤ - ٦٧٠م]، ورأى الجوّ مناسباً - إلى نصب ولده يزيد خليفة من بعده، فلما اعترض عليه عبد الله بن عمر، قال له: «إني أحذرك أن تشقّ عصا المسلمين، وتسعى في تفريق ملتهم، وأن تسفك دماءهم، وإنّ أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء، وليس للعباد خيرة من أمرهم»<sup>(٢٣)</sup>.

«كان يعلن في الناس أنّ الخلافة بينه وبين علي (عليه السلام)، قد احتكما فيها إلى الله؛ ففضى الله له على علي (عليه السلام)، وكذلك حين أراد أن يطلب البيعة لابنه يزيد من أهل الحجاز، أعلن أنّ اختيار يزيد للخلافة كان قضاء من القضاء، ليس للعباد خيرة في أمرهم، وهكذا كاد أن يستقر في أذهان المسلمين أنّ كلّ ما يأمر به الخليفة - حتى ولو كانت طاعة الله في خلافه - فهو قضاء من الله قد قُدِّرَ على العباد»<sup>(٢٣)</sup>.

وتبريراً للهوى السياسي لبني أمية نشأت القدرية، ووظفت الكثير من النصوص لتأكيد ذلك، ومن تلك النصوص قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا \* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾<sup>(٢٤)</sup>، وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ \* فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَوَضِعْنَا لَهُمُ النَّارَ لَهَا فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ \* خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ \* وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَوَضِعْنَا لَهَا الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُودٍ﴾<sup>(٢٥)</sup>.

ونقلوا أنه «احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: يا موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخطّ لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن

(٢٢) المصدر ٥١٠/١ - ٥١١، نقلا عن: (ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ١/ ١٧١ و١٦٧).

(٢٣) المصدر ٥١١/١، عن: (الدكتور أحمد محمود، نظرية الإمامة عند الشيعة الإمامية/٣٣٤).

(٢٤) سورة الشمس/ ٧-٨.

(٢٥) سورة هود/ ١٠٥ - ١٠٨.

يخلقني بأربعين سنة» (٣٦).

وَأَنَّ سِرَاقَةَ بْنَ مَالِكِ بْنِ جُعْشَمٍ قَالَ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَيْنَ لَنَا دِينُنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الْآنَ، فِيمَ الْعَمَلِ الْيَوْمَ؟ أَيْمًا جَعَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ؟ أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟ فَقَالَ ﷺ: لَا بَلْ.. فِيمَا جَعَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، قَالَ: فَفِيمَ الْعَمَلِ؟ قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: أَعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسِرٍ» (٣٧).

وَأَنَّهُ سَأَلَ ﷺ: «أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدِحُونَ فِيهِ أَشْيَاءَ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ أَوْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيِّهِمْ، وَثَبَّتَ الْحِجَّةَ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: لَا، بَلْ.. شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصَدِّقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا \* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾» (٣٨).

وَأَنَّهُ ﷺ قَالَ: «يَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهَدَايِ، وَلَا يَسْتَتُونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ لِقُلُوبِ الشَّيَاطِينِ فِي جِثْمَانِ إِنْسٍ، قَالَ: قَلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتَطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ، وَأَخَذَ مَالَكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ» (٣٩)، «مَنْ يَطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعِصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي...» (٤٠).

وكان جهنم [ت ١٢٨هـ / ٧٤٥م] - مؤسس الجهمية القائلة بالجبر الإلهي - يخرج بأصحابه فيوقفهم على المجذومين ويقول: «انظروا، أرحم الراحمين يفعل مثل هذا! - يريد أن الله هو الذي أوقع الجذام جبراً عليهم-، ويقول: لا فعل ولا عمل لأحد غير الله، وإنما تُنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز» (٤١).

(٢٦) صحيح البخاري، مصدر سابق ١٢٢ / ٨ (باب القدر). وصحيح مسلم ٤٩ / ٨، (باب حجاج آدم وموسى - عليهما السلام -).

(٢٧) صحيح مسلم، مصدر سابق ٤٨ / ٨ (باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه).

(٢٨) المصدر ٤٩ / ٨، (باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه).

(٢٩) المصدر ٣ / ١٤٧٦.

(٣٠) المصدر ٣ / ١٤٦٦.

(٣١) الإلهيات، مصدر سابق ١ / ٦٠٦.

وجاءت بعد الجهمية الطائفة النجارية، وكانوا يقولون: «إِنَّ الْبَارِي تَعَالَى هُوَ خَالِقُ أَعْمَالِ الْعِبَادِ خَيْرَهَا وَشَرِّهَا، حَسَنَهَا وَقَبِيحَهَا، وَالْعَبْدُ مَكْتَسِبٌ لَهَا، وَيَثْبُتُونَ تَأْثِيرًا لِلْقُدْرَةِ الْحَادِثَةِ، وَيَسْمُونَ ذَلِكَ كَسْبًا»<sup>(٣٢)</sup>.

ثم جاء الإمام أبو الحسن الأشعري الذي كان معتزلياً، ثم خالفهم وأسس المذهب الأشعري، ومزج بين كلام الجهمية والنجارية، وقال في كتابه (الإبانة عن أصول الديانة):

«وَنَقُولُ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ غَيْرَ مَخْلُوقٍ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ قَالَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُنْزِلَ لَهُ: كُنْ، فَيَكُونُ﴾<sup>(٣٣)</sup>، وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ فِي الْأَرْضِ شَيْءٌ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ.

وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَفْعَلَهُ، وَلَا يَسْتَغْنِي عَنِ اللَّهِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْخُرُوجِ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَأَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ مَقْدَرَةٌ كَمَا قَالَ: ﴿... خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٣٤)</sup>، وَأَنَّ الْعِبَادَ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَخْلُقُوا شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ.

وَأَنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ أَنْ يَصْلِحَ الْكَافِرِينَ وَيَلْطَفَ بِهِمْ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونُوا كَافِرِينَ - كَمَا عَلِمَ -، وَخَذَلَهُمْ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ بِقِضَاءِ اللَّهِ»<sup>(٣٥)</sup>.

كَمَا اسْتَدِلَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَزُرُّكُمْ مِمَّنِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَأَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ؟﴾<sup>(٣٦)</sup>، وَاسْتَدِلَّ هُوَ وَتَلَامِيذُهُ بِكَثِيرٍ مِمَّا أَسْمُوهُ الْأَدْلَةُ الْعَقْلِيَّةُ<sup>(٣٧)</sup>.

(٣٢) المصدر ٦٠٧/١.

(٣٣) سورة النحل/٤٠.

(٣٤) سورة الصافات/٩٦.

(٣٥) العرفان الإسلامي، مصدر سابق/٥٠.

(٣٦) سورة فاطر/٣.

(٣٧) للتفصيل راجع: الإلهيات، مصدر سابق ٦١١/١ - ٦٤٥.



وهكذا جمع الإمام الأشعري بين كون الأفعال مخلوقة لله، وكونها مكتسبة عند الإنسان..

وكما وظّف معاوية بن أبي سفيان النصّ لنسج فكرة القدر لتبرير سياساته، وجّه الاستعمار البريطاني مرزا غلام أحمد القادياني [١٨٣٩م - ١٩٠٨م]؛ ليبقى جائماً على صدر الهند، يستعيد أهلها ويستغل خيراتها لقرون متطاولة، فأنشأ القادياني حركته عام (١٩٠٠م) بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام، وحتى يذعنوا للاستعمار ويطيعوه، وكان لسان حال هذه الحركة هو مجلة (الأديان) التي تصدر باللغة الإنجليزية<sup>(٣٨)</sup>، وقد وظّف في سبيل ذلك ما يخدمه من الآيات التي تتحدث عن السلم وطاعة أولي الأمر، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾<sup>(٣٩)</sup>، ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾<sup>(٤٠)</sup>، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، أَطِيعُوا اللَّهَ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾<sup>(٤١)</sup>، فالبريطانيون - بعدما سيطروا على القارة الهندية - أخذوا بمبدأ السلم، وجنحوا له، فلا بدّ أن نجح نحن أيضاً، ولا تجوز لنا محاربتهم، ولأنهم أولو الأمر فهم مفترضو الطاعة!!

### النظريات العلمية:

تختلف النظرية عن الحقيقة، بأنّ الثانية تجاوزت مرحلة البرهان والدليل - وثبتت به، أما النظرية فإنّها لا تعدو أن تكون فرضاً وتصوراً للإجابة على الأمر، قد يحالفها الصواب، وقد يتجنّبها، وقد تتكرّر النظريات المتباينة على الموضوع الواحد، في حين لا يمكن ذلك مع الحقيقة، وإلا.. لما غدت كذلك.

(٣٨) الندوة العالمية للشباب المسلم، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة/

٣٨٩ - ٣٩١.

(٣٩) سورة البقرة/ ٢٠٨.

(٤٠) سورة الأنفال/ ٦١.

(٤١) سورة النساء/ ٨٧.

والنصّ القرآني والسنة القطعية - عند المسلمين - من الثوابت المقدسة، ومن هنا ففي إجراء العلاقة بين الحقيقة والنصّ القطعي، لا بدّ أن يتم التطابق والتوافق التام بينهما، سواء كان مصدر الحقيقة هو الحكم العقلي الجازم، أم العلم واكتشافاته وآلياته: من تجربة وغير ذلك، حتى قيل «كل ما حكم به العقل حكم به الشرع»<sup>(٤٢)</sup>.

أما النظرية العلمية، فليس من الضرورة أن يوافقها النصّ، ولأجل هذا لم تنجح كثير من محاولات التوليف والتوفيق بينهما، خصوصاً وأنّ بعض هذه المحاولات جاءت تالية - زمنياً - للنظرية، متأثرة بها، كما أنّ في بعضهما شيئاً من تحميل القرآن والحديث مالا يُطاق.

يقول الشيخ عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠هـ]، [١٨٥٤م - ١٩٠٢م]: «إنّ العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تُعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا.

والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام ربّ لا يعلم الغيب سواه، وذلك أنّهم كشفوا أنّ مادة الكون هي الأثير، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾<sup>(٤٣)</sup>.

وحققوا أنّ الأرض منفتحة من النظام الشمسي، والقرآن يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾<sup>(٤٤)</sup> ﴿٤٥﴾.

ولإعجابه بالتجربة النيابية في الأمم الغربية التي خصّصت منها جماعات باسم مجالس النواب، وظيفتها السيطرة والاحتساب على الإدارة العمومية السياسية يشير إلى أنّ ذلك ينطبق تماماً على ما أمر به النصّ القرآني: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ، وَيَأْمُرُونَ

(٤٢) القواعد، مصدر سابق/ ٢٦٨.

(٤٣) سورة فصلت/ ١١.

(٤٤) سورة الأنبياء/ ٣٠.

(٤٥) أحمد عمر أبو حجر، التفسير العلمي للقرآن في الميزان/ ١٨٩ - ١٩٠.

بِالْمَغْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤٦﴾، (٤٧).

وتعليقاً على قوله - سبحانه وتعالى - في سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ؟\* أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ\* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ\* تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ\* فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾<sup>(٤٨)</sup>، يقول الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ]، [١٨٤٩ - ١٩٠٥م]:

«وقد بيّنت لنا هذه السورة أنّ ذلك الجدري أو تلك الحصبة (التي أصابت الجيش الحبشي) نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أنّ هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح؛ فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامّه، فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وأنّ كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يُعدّ من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأنّ هذا الحيوان الصغير الذي يسمّونه الآن (بالميكروب) لا يخرج عنها.

هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته»<sup>(٤٩)</sup>.

فالتطير - في نظر الشيخ محمد عبده - هو من جنس البعوض أو الذباب، والحجارة التي يحملها هي الميكروبات التي تدخل الجسم عن طريق مسامّه، وبهذا أراد عبده أن يقول: إنّ القرآن سبق العالم الفرنسي لويس باستور [١٨٢٢ - ١٨٩٥م] بالإشارة إلى الجراثيم والأمراض السارية.

(٤٦) سورة آل عمران / ١٠٤.

(٤٧) الموسوعة الفلسفية العربية، ج٢، القسم الأول. ص٤١٧.

(٤٨) سورة الفيل / ١ - ٥.

(٤٩) التفسير العلمي للقرآن في الميزان، مصدر سابق/ ١٧٤ - ١٧٥، نقلاً عن:

(محمد عبده، تفسير جزء عم / ١٥٨).

وأما الشيخ طنطاوي جوهري [١٢٨٧- ١٣٦٠هـ]، [١٨٧٠م - ١٩٤٠م]، الذي كان ذا رغبة قوية في توجيه المسلمين إلى الإيمان الراسخ بالله تعالى عن طريق النظر في ملكوته وآثار نعمته ورحمته، والذي كان يؤمن بأن القرآن لا يُفسَّر إلا بالعلم الحديث، فألف تفسيراً للقرآن الكريم سمّاه (الجواهر في تفسير القرآن الكريم)، وضعه في خمسة وعشرين جزءاً، مزج فيه - كما قال - الآيات القرآنية بالعجائب الكونية.

ولقد أمل من تأليف هذا التفسير - كما يقول - أن يشرح الله به قلوباً، ويهدي به أمماً، وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين؛ فيفهموا العلوم الكونية.

كما يقرّر أنّ في القرآن من آيات العلوم ما يربو على ٧٥٠ آية، في حين أنّ علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة على ١٥٠ آية، وأنّ الإسلام جاء للأمم كثيرة لا لخصوص من نزل عليهم، وأنّ سور القرآن متّمّات لأمرٍ أظهرها العلم الحديث.

ويتحدث عن تفسيره هذا، ويصفه بأنه نفحة ربانية وإشارة قدسية وبشارة رمزية..

وكثيراً ما يهيب بالمسلمين أن يتأملوا في آيات القرآن التي ترشد إلى علوم الكون، ويحثّهم على العلم بما فيها، ويندّد بمن يُغفل هذه الآيات على كثرتها، وينعى على من أغفلها من السابقين ووقف عند آيات الأحكام وغيرها مما يتعلق بأمر العقيدة.

وقد طبّق في تفسيره القرآن على النظريات العلمية الحديثة، واستخرج هذه النظريات من القرآن فجاء تفسيره مزيجاً من علوم الأمم قديماً وحديثاً، مع التوفيق بين الآراء الحديثة والأفكار الدينية<sup>(٥٠)</sup>.

فعند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً، قَالُوا: أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟ قَالَ: أَغُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ\*....، فَقُلْنَا: اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا، كَذَلِكَ يُحْيِي

اللَّهُ الْمَوْتَى، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾.

نجده يعقد بحثاً في عجائب القرآن وغرائبه، فيذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب، ويذكر من بينها (علم تحضير الأرواح) الذي ظهر أخيراً، والمناسبة التي يستطرد منها إلى هذا البحث هي إحياء الله لقتيل بني إسرائيل لما ضُرب بشيء من لحم البقرة التي أمروا بذبحها.

فيقول: «وأما علم تحضير الأرواح فإنَّه من هذه الآية استخراجها، إنَّ هذه الآيات تُتلى والمسلمون يؤمنون بها، حتى ظهر علم تحضير الأرواح وأمريكا أولاً ثم بسائر أوروبا ثانياً»، ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم، وكيف كان انتشاره بين الأمم، وفائدة هذا العلم، واستغرق ذلك منه خمس صفحات، ثم قال:

«ولما كانت السورة التي نحن بصدها، قد جاء فيها حياة العزيز بعد موته وكذلك حماره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم الله، وعلم الله أننا عاجزون عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضر الأرواح في مسألة البقرة فكأنه يقول:

إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة من أواخرها، فلا تياسوا من ذلك، فإنِّي قد بدأت بذكر استحضر الأرواح فاستحضرها بطرقها المعروفة ﴿فَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٥٢)</sup>، ولكن.. ليكون محضُّ الأرواح ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزيز وإبراهيم وموسى، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعينة ليطمئنوا. وأنا أمرتُ نبيكم أن يقتدي بهم فقلْتُ ﴿فَبِهَادَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾<sup>(٥٣)</sup>، فاقتدوا بهم في طهارة القلوب وزوال الرجس من النفوس، فإنَّ هذه إنما تُعرَف بالتجربة والعمل، لا بالقياس العقلي ولا بالنظر والحدس الفكري»<sup>(٥٤)</sup>.

(٥١) سورة البقرة/ ٧٣ - ٧٦.

(٥٢) سورة النحل/ ٤٣.

(٥٣) سورة الأنعام/ ٩١.

(٥٤) التفسير العلمي للقرآن في الميزان، مصدر سابق/ ١٨١ - ١٨٣.

وأثناء تفسيره لسورة (طه)، وبعد كلام طويل عن السرّ في افتتاح بعض سور القرآن بالحروف المقطعة، قال:

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾<sup>(٥٥)</sup> كقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى \* وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾<sup>(٥٦)</sup>، وهذه فيها الطاء أولاً والهاء ثانياً في (أعطى) و(هدى) فكانه يُقال:

إنّ القرآن يُراد منه دراسة سائر العلوم، وسائر العلوم هي التي جاءت في محاوره فرعون وموسى كما جاءت في مقدمة السورة، ويجمعها كلّها (أعطى وهدى) وهذان يجمعهما (طه)، فإذا.. الطاء والهاء يرمز بهما إلى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية، وهكذا كلّ علم في الدنيا لأنّها كلّها ترجع إلى هذه الجملة.

ثم تساءل قائلًا: لماذا نزل هذان الحرفان أي (طه) في أول السورة؟، وأجاب عن تساؤله: اعلم أنّ الله علم أنّ المسلمين سينامون نوماً مخزياً عميقاً فيكتفون من الدين بقشوره، ويظنون أنّ الصلاة والزكاة وما بعدهما كافيات، فتأخذهم الأمم، وتذلّهم وتسومهم سوء العذاب، فأنزل الله هذين الحرفين ليجدّد المسلمون في البحث عن السرّ، فيجدون أنّهما رمز لأن يقرؤوا جميع العلوم، وإذا كان النبي صلّى الله عليه وآله يُقال له: إنّ القرآن لم يقتصر على أنك تُكثر الصلاة وتشقى بالتعب والنصب في العبادة، بل.. هو أيضاً ليخرج أمماً من جهلها ويعلمها فتصلي تبعاً لك وتقرأ العلوم. كلّ هذه المعاني تؤخذ من (طه).

وهناك أيضاً (ها) في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ، وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾<sup>(٥٧)</sup>، مكررة ثلاث مرات، وفي قوله (كلها) كلّ ذلك جاء بعد قوله (أعطى)، ومن عجب أن يجيء في أسباب النزول أنه صلّى الله عليه وآله كان يتعب ويشقى لكثرة الرياضة والتهدج والقيام على ساقه، فقيل له ما ذُكر كأنه يُقال: ليست العبادة وحدها هي المقصودة، بل.. هناك التذكرة، وقد فهمتها فيما قدمناه: أنّ

(٥٥) سورة طه / ٥٠.

(٥٦) سورة الأعلى / ٢ - ٣.

(٥٧) سورة طه / ٥٥.

المسلمين اليوم اكتفوا بالعبادة اللفظية، فعليهم أن يتذكروا بدراسة العلوم كلها<sup>(٥٨)</sup>.

## الفلسفة والعرفان:

لما آمن بعض الدينين بالفلسفة، وشغفوا بمطالبها راحوا يسقطونها على النصّ الديني، وتوظفه لصالحها.

فابن سينا المقتنع فلسفياً بنظرية (العقول العشرة والأفلاك التسعة) يقرأ ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾<sup>(٥٩)</sup>، فيكتب: القصد من (العرش): الفلك التاسع الذي يُسمى (فلك الأفلاك)، والملائكة الثمانية الذين يحملون عرش الإله يعني: الأفلاك الثمانية التي تقع تحت الفلك التاسع<sup>(٦٠)</sup>.

وعن ﴿ مَرَجَ الْبُحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ \* بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾<sup>(٦١)</sup>، راح محيي الدين بن عربي يسطر: البحران: بحر الجسم وهو مرّ ومالح، وبحر الروح الخالية من الجسم وهو جميل وسائغ. ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ ﴾: بين هذين البحرين برزخ هو عبارة عن النفس الحيوانية التي ليست مثل الروح صافية وخالية، وليست مثل الأجساد (الفولية) الوسخة. ﴿ لَا يَبْغِيَانِ ﴾: كلٌّ منهما لا يطفئ على الآخر، لا الروح تستطيع أن تجعل الجسم صافياً مثلها، ولا الجسم قادر على أن يطفئ على الروح ويجانسها ويجعلها مثله وسخة<sup>(٦٢)</sup>.

وباعتبار أنّ مذهب ابن عربي القول بنظرية (وحدة الوجود)، نراه يفسّر قول هارون عليه السلام لأخيه موسى عليه السلام ﴿ قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾<sup>(٦٣)</sup> بأنّ موسى بعد أن عاد من الطور، ورأى قومه قد عبدوا العجل عاتب أخاه هارون عليه السلام قائلاً له:

(٥٨) التفسير العلمي للقرآن في الميزان، مصدر سابق/ ١٨٥ - ١٨٦.

(٥٩) سورة الحاقة/ ١٧.

(٦٠) دائرة المعارف الإسلامية، مصدر سابق ٤/ ٣٥٩.

(٦١) سورة الرحمن/ ١٩ - ٢٠.

(٦٢) دائرة المعارف الإسلامية، مصدر سابق ٤/ ٣٥٩.

(٦٣) سورة طه/ ٩٤.

لماذا لم تدع الناس يعبدون العجل؟ ألا تعلم أنّ الله سبحانه يحبّ أن يُعبد في أيّ صورة كان المعبود<sup>(٦٤)</sup>. وحكاية عن الله يقول: «أنا لا أتجلى لمن يعبدني إلا على صورة معتقه»<sup>(٦٥)</sup>.

وبذلك يصل إلى نتيجة مفادها ما يصرّح به في مقولته المشهورة:

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما عقده<sup>(٦٦)</sup>

ويقول صدر المتألهين الشيرازي في معرض تأييده لوحدة الوجود: «وفي كلام المحققين إشارات واضحة، بل.. تصريحات جلية بعدمية الممكنات أزلاً وأبداً، وكفأك في هذا الأمر قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾<sup>(٦٧)</sup>، قال الشيخ محمد الفزالي - مشيراً إلى هذه الآية عند كلامه في وصف العارفين بهذه العبارة -: فرأى بالمشاهدة العيانية أن لا موجود إلا الله، وأنّ كلّ شيء هالك إلا وجهه، لا أنّه يصيرها كذلك في وقت من الأوقات، بل هو هالك أزلاً وأبداً لا يُتصوّر إلا كذلك»<sup>(٦٨)</sup>.

### توظيف النصّ اللغوي والنحوي:

وقد استُفيد من نصوص اللغة وقواعد النحو في عملية التوظيف لصالح المسبقات الفكرية، فالذين قالوا بـ(وحدة الوجود) وأنّ الله والطبيعة شيء واحد ولا اثنيّة، وما في الكون ما هو إلا تجليات لله - سبحانه - في صورة مرثيات ومسموعات وغير ذلك، إلى جانب أنّهم دعموا نظريتهم بكثير من النصوص الدينية والقواعد الفلسفية، اعتمدوا اللغة والنحو، فقالوا: كما أنّ معنى لفظة (العدم) واحد يستوي فيه كلّ معدوم، فكذلك لفظ (وجود)، فكلّ ما ليس معدوماً

(٦٤) كيف نفهم القرآن، مصدر سابق/٤٠ - ٤١، نقلاً عن: (محيي الدين بن

عربي، فصوص الحكم، الفص الهاروني).

(٦٥) العرفان الإسلامي، مصدر سابق/٢٧٢.

(٦٦) المصدر/٢٧٣.

(٦٧) سورة القصص/٨٨.

(٦٨) العرفان الإسلامي، مصدر سابق/٢١٥، عن: (صدر المتألهين الشيرازي،

الأسفار/١٩٥).



فهو موجود، يستوي في ذلك الله - سبحانه - وسائر الأشياء.

«إنَّ مفهوم الوجود واحد، وهو مشترك معنوي بين أنحاء الوجود، ولأنَّه لا يمكن انتزاع مفهوم واحد من حقائق متباينة، فلذلك نعرف أنَّ الوجود شيء واحد؛ لأنَّه مفهوم واحد منتزَع من حقائق تنتهي إلى شيء واحد»<sup>(٦٩)</sup>.

«إذا قلنا: أنَّ الله موجود، فلو لم نفهم من موجوديته ذلك المفهوم البديهي العام في جميع المصاديق، (فماذا نفهمه إذا؟): فإما أن نفهم نقيضه، ونقيض الوجود هو العدم، فلزم تعطيل العالم عن المبدأ الموجود (أو بتعبير آخر إنكار الخالق)، وإما أن لا نفهم شيئاً فلزم تعطيل عقولنا عن المعرفة»<sup>(٧٠)</sup>.

«أو ليس الموجودات آيات الله؟ وكيف يكون شيء آية إذا لم يكن من ذاته؟»<sup>(٧١)</sup>.

ثم إنَّ الإعراب النحوي لقولنا (لا إله إلا الله) - على الأقوال - أنَّ (لا) نافية للجنس، و(إله) اسمها، وخبرها محذوف تقديره: موجود، حاصل، كائن، أو: وُجِدَ، حصل، كان، و(إلا) أداة استثناء، و(الله) مستثنى منصوب، أو بدل مرفوع عن الضمير المستكن في الخبر، أو بدل مرفوع عن (لا) مع اسمها، والمعنى (لا إله موجود، إلا الله موجود)، فكلُّ الآلهة التي اتخذت ما هي إلا مظاهر لله سبحانه، ووجودها عين وجوده، هذا إذا قدرنا خبر (لا) كوناً عاماً. وإذا قدرناه كوناً خاصاً، فالتقدير (لا إله معبود، إلا الله معبود)، فكلُّ ما عُبد ويُعبد - ولو كان صنماً - فهو عبادة لله سبحانه، فهو وحده - المعبود.

وفرَّعوا على ذلك: أنَّ البشر قد يتسامى إلى درجة الألوهية حتى يقول: «أنا الحق»، فإذا جاز أن تقول شجرة: أنا الحق، فلماذا لا يجوز أن يقولها صاحب حظٍّ؟، فقد نادى الله موسى عبر شجرة

(٦٩) المصدر/ ٢٣٣.

(٧٠) المصدر/ ٢٢٧.

(٧١) المصدر/ ٢٣٥.

طور سيناء ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ \* وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى \* إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿ (٧٢)، (٧٣).

يقول الحسين بن منصور الحلاج في بعض أشعاره (مخاطباً الله سبحانه):

أنا من أهوى ومن أهوى أنا	نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته	وإذا أبصرته أبصرتنا
عجبتُ منك ومني	يا منية المتمني
أدنيتي منك حتى	ظننتُ أنك أني
سبحان من أظهر ناسوته	سرّ سنا لاهوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً	في صورة الأكل والشارب
جُبلتُ روحي في روعي كما	يُجبل العنبر بالمسك الفتق
فإذا مسك شيءٌ مسني	فإذا أنت أنا لا نفترق
رأيك ربي بعين قلبي	فقلك: من أنت؟ قال: أنتا (٧٤)

هذا في جانب نظرية وحدة الوجود وتعاملها مع النصّ اللغوي.

وفي جانب آخر، ينقل النحوي الكبير جمال الدين بن هشام [٧٠٨-٧٦٢هـ]، [١٣٠٩ - ١٣٦٠م] عن ابن الأنباري «أن بعض الزنادقة تمسك بقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً ﴾ (٧٥)، في الطعن على بعض الصحابة. والحق أن (من) فيها للتبيين لا للتبعيض، أي الذين آمنوا هم هؤلاء (الصحابة)» (٧٦).

فقد استغل أحد معاني حرف (من) - وهو التبيين - لإثبات

(٧٢) سورة طه/ ١٢ - ١٤.

(٧٣) العرفان الإسلامي، مصدر سابق/ ٢٦٠.

(٧٤) الموسوعة الفلسفية العربية، مصدر سابق ج٢، القسم الثاني، ص١٥٣٢.

(٧٥) سورة الفتح/ ٢٩.

(٧٦) جمال الدين بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ١/ ٤٢١.

الفكرة السائدة القائلة بعدالة مطلق الصحابة، وأنهم كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.

كما استغله للظعن في القائلين بالتبعيض، ووصفهم بالزندقة، مع أنه من الوجوه النحوية المحتملة لـ (مِنْ)، ومع أن ابن هشام نفسه قد عدّد تلك الوجوه البالغة ثلاثة عشر وجهاً، والتي منها: ابتداء الغاية، والتبعيض، والتبيين، والتعليل و . . . . . ومع أنه ذكر أن علامة (مِنْ) التبعية هو إمكان سدّ (بعض) مسدّها<sup>(٧٧)</sup>. وذلك - في رأي من ردّد عليهم - ينطبق على الآية المذكورة.

### توظيف أحداث التاريخ:

يمثّل التاريخ بأحداثه الوفيرة والمتضاربة مادة خصبة لدراسة الماضي دراسة تحليلية واعية، تسعى لاستكشاف عناصر القوة وعوامل الضعف فيه، واستخراج رؤى حيوية فاعلة للحاضر والمستقبل. هذا عند من يتعامل مع التاريخ كمصدر أساسي لصياغة الشخصية والمجتمع. أما من يتعامل معه بوصفه كلاً مقدساً، فلا يسعه إلا أن يغمض عينيه عن رؤية أيّ خطأ وسلبية فيه، ثم يطلق لنفسه العنان حتى ترى كلّ شيء إيجابياً وجميلاً، مع تبرير كل ما لا يتلاءم مع هذه النظرة.

وعلى النقيض منه تماماً من يرى التاريخ سواداً لا بياض فيه، فإنّه لا يبصر إلا ما يجلب التشاؤم والخيبة.

ويقف قسم رابع أمام التاريخ، وهو مشبع الذهن بأفكار ونظرات - في المجال الثقافي أو العقائدي أو الاجتماعي أو السياسي أو . . . . . - ويريد أن يلتمس المبرر لها.

إنّ جميع هذه المواقف ما عدا الأول (من يتعامل مع التاريخ كمصدر لصياغة الشخصية والمجتمع) مواقف ذات مسبقات فكرية توظّف الأحداث لخدمتها وإثباتها.

لقد وظّف معاوية بن أبي سفيان حدث قتل عثمان بن عفان

ليدخل في حرب ضروس (صفين) ضد علي بن أبي طالب (عليه السلام)، ويرفع قميص عثمان شعاراً تختبئ وتستتر خلفه فكرته الحقيقية في السعي نحو الخلافة والطمع فيها، وهو يعلم براءة علي من ذلك (براءة الذئب من دم يوسف).

فها هو الحاكم النيسابوري يقول: «فأما الذي ادعته المبتدعة من معونة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على قتله فإنه كذب وزور، فقد تواترت الأخبار بخلافه.

... عن القيس بن عباد قال: شهدت علياً (عليه السلام) يوم الجمل يقول كذا: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان، لقد طاش عقلي يوم قُتل عثمان، وأنكرت نفسي»<sup>(٧٨)</sup>.

وجاء علي بن أبي طالب (عليه السلام) إلى زيد بن أرقم [ت ٦٨هـ/ ٦٨٧م] يعوده، وعنده قوم، فقال علي:

«أسكنوا واسكنوا فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، فقال زيد: أنشدك الله، أنت قتلت عثمان؟ فأطرق علي ساعة ثم قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما قتلته ولا أمرت بقتله»<sup>(٧٩)</sup>.

وأن محمد بن طلحة قال: «حدثنا كنانة العدوي قال: كنت فيمن حاصر عثمان، قال: قلت: محمد بن أبي بكر قتله؟ قال: لا، قتله جبلة بن الأيهم رجل من أهل مصر، قال: وقيل قتله كبيرة السكوني فقتل في الوقت، وقيل: قتله كنانة بن بشر التجيبي. ولعلهم اشتروا في قتله»<sup>(٨٠)</sup>.

ويمرّ الزمن، فيطالعا الجامع الأزهر بفتويين مختلفتين تجاه أمر واحد هو مواقف أبي ذر الغفاري (ت ٣٢هـ/ ٦٥٢م) ضد اكتناز المال من قبل الخليفة عثمان بن عفان، ومعاوية، وفي كل مرة وظّف تلك المواقف ليصل إلى نتيجة مختلفة، وعلى حدّ تعبير سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٧هـ]، [١٩٠٦ - ١٩٦٦م]: «عندئذ ثار الروح الإسلامي

(٧٨) المستدرک علی الصحیحین، مصدر سابق ٣/ ١٠٣.

(٧٩) المصدر ٣/ ١٠٦.

(٨٠) المصدر ٣/ ١٠٦.

في نفوس بعض المسلمين، يمثلهم أشدهم حرارة وثورة أبو ذر - ذلك الصحابي الجليل الذي لم تجد هيئة الفتوى المصرية في الزمن الأخير إلا أن تخطئه في اتجاهه، وإلا أن تزعم لنفسها بصراً بالدين أكثر من بصره بدينه! ثم عادت - في مناسبة أخرى - فأصدرت فتوى بصواب اتجاهه، عندما تغيرت الظروف الأولى! وكأنَّ دين الله سلعة تتجر بها الهيئة في سوق الرغبات»<sup>(٨١)</sup>.

واستغل البعض أن حروب الرسول الأكرم ﷺ بلغت نيفاً وثمانين حرباً وغزوة، فوظفها ليعلم أنه ﷺ رسول الحرب، وأنَّ الإسلام انتشر بالسيف والقوة، متناسياً أنَّ ضحايا تلك الحروب كلَّها من الطرفين - المسلمين والمشركين -، لم يتجاوز ألفاً وبضعة أشخاص، أو ١٠١٨ شخصاً، المسلمون منهم ٢٥٩، وغير المسلمين ٧٥٩، وأنَّ أكبر عدد ذكر في ذلك هو أقلُّ من ١٤٠٠ قتيل<sup>(٨٢)</sup>.

وإذا كان هذا العدد الضئيل - يعرف الحروب - مؤزماً على أحد عشر عاماً هي المدة التي مكثها ﷺ في المدينة المنورة، والتي جرت الحروب أثناءها، ففي الحرب العالمية الأولى التي دامت أربع سنوات فقط [١٩١٤ - ١٩١٨م] بلغ القتلى ٧,٠٠٠,٠٠٠ نسمة، والمصابون ٢١,٠٠٠,٠٠٠. وفي الحرب العالمية الثانية التي دامت ست سنوات فقط [١٩٣٩ - ١٩٤٥م] بلغ القتلى أكثر من ٥٥,٠٠٠,٠٠٠ شخص، واللاجئون ٥٠,٠٠٠,٠٠٠، و ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ مشرّد، فقدت فيها روسيا - وحدها - ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ شخص<sup>(٨٣)</sup>. ومع ذلك لم يوصف هؤلاء برسل الحرب.

وفي الثامنة والربع من صباح السادس من أغسطس ١٩٤٥م ألقت الولايات المتحدة الأمريكية القنبلة الذرية (الولد الصغير) little boy البالغة ٤,٥ طن على مدينة هيروشيما اليابانية فحصدت ما بين ٢١٠,٠٠٠ إلى ٢٤٠,٠٠٠ شخص في يوم واحد!<sup>(٨٤)</sup>، وبعدها بثلاثة أيام

(٨١) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام / ١٧٤.

(٨٢) السيد محمد الشيرازي، الصياغة الجديدة / ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٨٣) الدكتور محمد رشيد الفيل، الهجرة وهجرة الكفاءات العلمية العربية والخبرات الفنية أو النقل المعاكس للتكنولوجيا / ٦٠، ٣٨.

(٨٤) المصدر / ٢٢٣.

(التاسع من أغسطس ١٩٤٥م) ألقت القنبلة الذرية الثانية (الرجل السمين) fat man - وكانت محشوة بالبلوتونيوم - على مدينة ناجازاكي اليابانية، فطحنت رحاها ٤٠٠٠ قتيل، و٤٠٠٠ جريح<sup>(٨٥)</sup>.

وهكذا حظيت اليابان في يومين وفي مدينتين فقط ٢١٤,٠٠٠ - ٢٤٤,٠٠٠ قتيل!!، غير الذين قتلوا قبل في المواجهات، أو بعد من أثر الإشعاع، وغير التشوه الماكث فيهم إلى الآن.

وهناك من يقدر خسائر اليابان في الحرب العالمية الثانية بـ (٢,٨٠٠,٠٠٠) شخص<sup>(٨٦)</sup>.

و«أنَّ الحرب العالمية الثانية قد دمّرت أكثر من ربع الثروة القومية اليابانية، ونحو ٦٦ مدينة، و٣٠٪ من القدرة الصناعية، و٨٠٪ من السفن، و٤٧٪ من إمكانيات توليد الطاقة»<sup>(٨٧)</sup>.

## كيف تتم عملية التوظيف؟

ولا نريد - هنا - أن نستقري جميع طرق التوظيف والأساليب التي تتم بها هذه العملية، وإنما نريد الإشارة إلى أسلوبين شائعين، غالباً ما يكونان سبباً لذلك:

### ١- التجزئة والتقطيع:

فيتم الاعتماد على الظاهر من النصّ وغيره، دون صرفه إلى

(٨٥) منير اليعلبي، موسوعة المورد العربية ٢ / ٩٢٨.

ويقدّر إبراهيم حلمي الغوري في كتابه (لؤلؤة الشرق وبلاد الشمس المشرقة: اليابان) عدد قتلى (هيروشيما) بـ ٧٨,٠٠٠ شخص، و٨٤,٠٠٠ مصاب، وتدمير ٦٠,٠٠٠ منزل دفعة واحدة فور إلقاء القنبلة، وعدد قتلى (ناجازاكي) بـ ٥٠,٠٠٠ شخص. المصدر/ ٥٠، ٥٢.

(٨٦) الشيخ حسن موسى الصفار، (المشاكل بين الأهات والمعالجات/ ٣)، موقع (الصفار): [www.saffar.org](http://www.saffar.org).

(٨٧) الشيخ فيصل العوامي، (الثابت في عصر المنعطفات: نظرة اجتماعية لأطروحة الولاية)، مجلة (البصائر)، العدد ٢١ السنة التاسعة، خريف ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص ٦٧، نقلاً عن: ريتشارد باسكال، وأنطوني أوس، فن الإدارة اليابانية/ ٦٣.

معان تأويلية باطنية، لكن يؤخذ نصّ ويُقطع عن تكملته أو عن باقي النصوص، وهكذا يتم - أيضاً - في الأفكار وحوادث التاريخ، بحيث أنه لو لم يتم القطع لما ظهر ذلك المعنى.

فمن اعتمد فكرة تجسيم الله - سبحانه وتعالى - أو تشبيهه بخلقه استدل على ذلك بقوله تعالى ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾<sup>(٨٨)</sup>، ﴿ خَلَقْتَ بِيَدَيْ ﴾<sup>(٨٩)</sup>، ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾<sup>(٩٠)</sup>، ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾<sup>(٩١)</sup>، لكنهم يقطعونه عن قوله سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾<sup>(٩٢)</sup>، وعن فتون العربية: من مجاز واستعارة وكناية ومشاكلة و....، فقد ورد من الشعر قولهم:

أستغفر الله ذنباً لستُ محصيه      رب العباد إليه الوجه والعمل<sup>(٩٣)</sup>  
 فاعمد لما تعلقو فما لك بالذي      لا تستطيع من الأمور يدان<sup>(٩٤)</sup>  
 فلماً علونا واستوينا عليهم      تركناهم صرعى لنسرٍ وكاسر<sup>(٩٥)</sup>  
 تداركتما الأحلاف قد ثلَّ عرشها      وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل<sup>(٩٦)</sup>

ويقول ابن منظور [ ٦٣٠هـ - ٧١١هـ ]، [ ١٢٣٢م - ١٣١١م ]: « وفي حديث القيامة: يكشف عن ساقه، الساق في اللغة: الأمر الشديد، وكشفه مثلٌ في شدة الأمر، كما يُقال للشيخ: يده مغلولة، ولا يد ثم ولا غلٌّ، وإنما هو مثل في شدة البخل، وكذلك هذا: لا ساق هناك ولا كشف، وأصله: أن الإنسان إذا وقع في أمر شديد يُقال: شمَّر ساعده،

(٨٨) سورة الرحمن / ٢٧.

(٨٩) سورة ص / ٧٥.

(٩٠) سورة طه / ٥.

(٩١) سورة القلم / ٤٢.

(٩٢) سورة الشورى / ١١.

(٩٣) الإلهيات، مصدر سابق / ١ / ٣٣٩.

(٩٤) المصدر / ١ / ٣٤٣.

(٩٥) المصدر / ١ / ٣٣٣.

(٩٦) المصدر / ١ / ٣٣٢.

وكشف عن ساقه للاهتمام بذلك الأمر العظيم....، كقولهم: قامت الحرب على ساق، ولسنا ندفع مع ذلك أن الساق إذا أريدت بها الشدة فإنما هي مشبهة بالساق هذه التي تعلق القدم، وأنه إنما قيل ذلك لأن الساق هي الحافلة للجمل والمنهضة لها فذكرت هنا لذلك تشبيهاً وتشنيعاً، وعلى هذا بيت الحماسة لجد طرفه (في الحرب):

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشرّ الصراح»<sup>(٩٧)</sup>

هذا غير المحذور العقلي، فإن الجسمية والتشبيه، تعني أنه سبحانه محدود ومتناهٍ، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾<sup>(٩٨)</sup> - على القول بالتشبيه والتجسيم - يعني أن يده وسائر جسمه - ما عدا وجهه - يفضى ويزول، وهذا مالا يقبله مسلم..

وانطلق البعض من قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾<sup>(٩٩)</sup>، ليقول: إن الإسلام فردي، يهتم فيه كل شخص بما عليه، دون أن يحمل هم المجتمع، وحتى يكون الإنسان نموذجاً للصورة القرآنية المبتغاة له، يكفيه أن يهتم بذاته دون من سواه.

لكن أين هذا المعنى من قوله: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ، لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾<sup>(١٠٠)</sup>، ﴿وَالْعَصْرُ \* إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ، وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾<sup>(١٠١)</sup>؟

ونقل محمد بن جرير الطبري في معرض كلامه عن اليوم الذي نبئ فيه الرسول ﷺ، قصة طويلة حول نزول قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ

(٩٧) لسان العرب، مصدر سابق ٦/ ٤٣٦.

(٩٨) سورة القصص / ٨٨.

(٩٩) سورة المائدة / ١٠٥.

(١٠٠) سورة التحريم / ٦.

(١٠١) سورة العصر / ١ - ٣.



عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿١٠٢﴾ ، جاء في آخرها: «فقال ﷺ: يا بني عبد المطلب، إني - والله - ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتمكم به، فأيكم يؤازرنى على هذا على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟ قال (علي): فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلْتُ - وإني لأحدثهم سنأ، وأرمصهم عينأ، وأعظمهم بطنأ، وأحمشهم ساقأ -: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ برقبتي ثم قال ﷺ: إنَّ هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا، قال (علي): فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع» (١٠٣). هذا في تاريخه.

ولما جاء إلى تفسيره، نقل تلك الرواية بنفس السند والنص، لكنّه حذف الكلمات (الحساسة)، فنقل قول رسول الله ﷺ هكذا: «فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى وكذا وكذا!!»، فأخذ برقبتي. ثم قال ﷺ: إنَّ هذا أخى وكذا وكذا» (١٠٤).

ولسنا ندرى: لماذا حذف الطبري ذلك؟ هل هو نتيجة فتايات ذاتية وأهداف أراد تحقيقها؟ أم نابع عن ضغوطات خارجية أملت عليه ذلك؟

## ٢- التعسف في التأويل:

التأويل - في اللغة - مأخوذ من (الأول) بمعنى الرجوع، فالّ الشيء يؤول أولاً ومآلاً: رجع، وأوّل الكلام وتأويله: دبره وقدره، وأوّله وتأوّلّه: فسّره. وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن التأويل، فقال: التأويل والمعنى والتفسير واحد. والتأويل: جمع معاني ألفاظ أشكلت بلفظ واضح لا إشكال فيه، وهو تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إلا ببيان غير لفظه، ونقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما تُرك ظاهر اللفظ (١٠٥).

(١٠٢) سورة الشعراء/ ٢١٤.

(١٠٣) تاريخ الطبري، مصدر سابق ٢/ ٦٢-٦٣.

(١٠٤) محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري ٩/ ٤٨٣-٤٨٤.

(١٠٥) لسان العرب، مصدر سابق ١/ ٢٦٤.

وفي الاصطلاح «هو إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية، من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوُّز [المجاز]، من تسمية الشيء بشبيهه أو بسببه أو لاحقه أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التي (عُدِّدت) في تعريف أصناف الكلام المجازي»<sup>(١٠٦)</sup>.

ومن هنا نصل إلى أنَّ التأويل المقبول، قد يُصرف فيه اللفظ إلى غير ظاهره، لكن بشرط ألا يخرج عن حدود اللغة ودلالاتها، وبشرط أن يعضده دليل لا لبس فيه، حتى لا تُصرف الألفاظ إلى معانٍ غريبة عنها، لا تحتملها، ولا تدل عليها.

وحينما نلاحظ هذا الزخم التأويلي الذي وصل إلينا، نجد في بعضه ملامح الفرض والإلزام على النصِّ بغير دليل قاطع، وتوظيفه بقوة وجبر لصالح مسبقات فكرية، تمثل قناعات راسخة لدى صاحبها.

لقد فسَّر عبد الرزاق نوفل (من نفس واحدة) في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾<sup>(١٠٧)</sup> بالبروتون، وفسَّر (زوجها) بالإلكترون، وهما العنصران اللذان تتألف منهما الذرة، ورأى أنَّ «هذه الحقيقة العلمية التي يتيه بها العصر الحديث قد جاء بها القرآن الكريم منذ ألف وأربعمائة سنة في صراحة ووضوح؛ إذ تقرَّر الآية ١٨٩ من سورة الأعراف أنَّ كلَّ ما خلق الله إنَّما خلقه من نفس واحدة وجعل منها زوجها. أليست هذه هي البروتونات والإلكترونات...؟، الكهارب الواحدة موجبة وسالبة، أي النفس الواحدة...، الزوجية الجنس بين موجب وسالب»<sup>(١٠٨)</sup>.

وفي موضع آخر يقول نوفل: «أطلقت روسيا أجهزة علمية سُمِّيت بالأقمار الصناعية تدور حول الأرض، وأتبعها أجهزة أخرى تحمل نوعاً من الكائنات الحية لتدرس تأثير الانطلاق والارتفاع

(١٠٦) أبو الوليد ابن رشد، فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، تحق: الدكتور محمد عمارة/ ٣٢.

(١٠٧) سورة الأعراف/ ١٨٩.

(١٠٨) علي عبد الواحد وافي، الحرية في الإسلام/ ٨٤، نقلاً عن: (عبد الرزاق نوفل، القرآن والعلم الحديث/ ١٣٦).

والإشعاع والضوء والجاذبية....، وهذه الأقمار الصناعية التي خرجت من الأرض في الوقت الذي انتشر فيه الإلحاد لتتحدث عمّا في الكون وتزيح بعضاً من هذا الغموض ألا يمكن أن تكون هذه هي الدابة التي تنبأ بها القرآن الكريم في سورة النحل [صوابه في سورة النمل] في الآية ٨٢ التي تقول: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (١٠٩) (١١٠).

وقد مرّ علينا قبل صفحات كيف أوّل الشيخ محمد عبده الطير الأباييل التي تحمل حجارة من سجيل، بأنّها نوع من البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، كما مرّ أنّ القائلين بنظرية وحدة الوجود الفلسفية حوّروا دلالات الألفاظ اللغوية والإعرابات النحوية، وقد سعى بعضهم إلى استخراج تلك النظرية من النصّ الديني نفسه.

فمن قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ﴾ (١١١)، قالوا: ماذا يعني أنّ الله نور السماوات والأرض؟!، إنّه يعني أنّه - تعالى شأنه - وجود السماوات والأرض، وبالتالي فهو السماوات والأرض لكن بلا تحديد.

وعن قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١١٢)، قالوا: كيف يكون أقرب إلى البشر من حبل الوريد؟، أو ليس بأنّه هو عين وجود البشر؟

وعن قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ، وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ (١١٣)، قالوا: ما دام الله هو القاتل والرامي، فإنّ العبد ليس إلا الله؛ لأننا نعلم أنّ العبد هو الذي قتل ورمى، فهو إذاً ربّ العبد في وحدة الموجود.

وعن قول الرسول الأكرم ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر

(١٠٩) سورة النمل / ٨٢.

(١١٠) الحرية في الإسلام، مصدر سابق / ٨٥، نقلاً عن: (عبد الرزاق نوفل، القرآن والعلم الحديث / ١٨٧).

(١١١) سورة النور / ٢٥.

(١١٢) سورة ق / ١٦.

(١١٣) سورة الأنفال / ١٧.

كلمة لبيد: **ألا كلَّ شيء ما خلا الله باطلٌ**»<sup>(١١٤)</sup>، قالوا: إذاً، الوجود باطل لأنَّه ما خلا الله، وهذا يدل على أنَّ وجوده اعتباري، وأن لا وجود إلا الله<sup>(١١٥)</sup>.

وأوَّل بعضهم قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾<sup>(١١٦)</sup>، بأنَّ العبادة وسيلة لبلوغ الغاية والهدف، وهو اليقين والإيمان فإذا بلغ أحد الغاية سقطت عنه الوسيلة:

«الشرعية مثل شمعة تضيء الدرب، ومن دون أن تأخذ شمعة لا يسلك طريق، ولا يتحقق عمل، فإذا مضيت في الطريق فإنَّ مشيك هذا يسمى بـ(الطريقة)، فإذا وصلت إلى مقصدك فذلك (حقيقة)، لذلك قالوا: لو ظهرت الحقائق بطلت الشرائع.

- ثم يضيف :-

طلب الدليل بعد الوصول إلى المدلول قبيح، وترك الدليل قبل الوصول إلى المدلول مذموم»<sup>(١١٧)</sup>.

«حين يبلغ العارف مقام الاستغراق في التوحيد ومرتبة الجمع، ولا تحجبه أحكام الكثرة والتعيّنات عن مشاهدة الوحدة والإطلاق حيث يكون قد وصل إلى اللبّ الذي هو (الحقيقة) والكشف الحقيقي، هنالك يكسر القشر المتكثّر وهو الشرعية التي هي أداة ووسيلة الوصول إلى الحقيقة، وينفصل اللبّ عنه، وإذا كان المجذوب صاحب سكر وفناء، فإنَّ التكاليف الشرعية تسقط عنه بصورة مطلقة»<sup>(١١٨)</sup>.

وأوَّل معاوية بن أبي سفيان ما جرى بينه وبين علي أمير المؤمنين (عليه السلام) من حرب طاحنة وخلافات، بأنَّها قضاء إلهي، وكذلك أمر تعيين ابنه يزيد خليفة للمسلمين - كما مرَّ - .

(١١٤) صحيح مسلم، مصدر سابق، ج ٧ / ٤٩ (كتاب الشعر).

(١١٥) العرفان الإسلامي، مصدر سابق / ٢٨٨ - ٢٨٩.

(١١٦) سورة الحجر / ٩٩.

(١١٧) العرفان الإسلامي، مصدر سابق / ٢٧٥.

(١١٨) المصدر / ٢٧٥.

وأول البعض خروج الحسين بن علي عليه السلام ضد يزيد بن معاوية بأنه شقّ لعصا المسلمين والجماعة، وخروج على إمام زمانه، وأنَّ «الحسين قُتل بسيف جده»<sup>(١١٨)</sup>، أو أنه ثار إحياء للنزعة القبلية، فهو صراع هاشمي - أموي، ولا سمة للدين فيه، أو أنه خلاف مصلحي بين طرفين.

«ومن قِبَلِ التاويلات والظنِّ بأنَّها يجب أن يُصرَّحَ بها في الشرع للجميع، نشأت فرق الإسلام، حتى كَفَّرَ بعضهم بعضاً، وبدَّع بعضهم بعضاً، وخاصة الفاسدة منها. (فأولت) المعتزلة آيات كثيرة، وأحاديث كثيرة، وصرَّحوا بتأويلهم للجمهور، وكذلك فعلت الأشعرية، وإن كانت أقل تأويلاً. فأوقعوا الناس من قِبَلِ ذلك في شتآن وتباغض وحروب، ومزَّقوا الشرع، وفرَّقوا الناس كلَّ تفریق»<sup>(١٢٠)</sup>.

«فما تقول في الفلاسفة من أهل الإسلام كأبي نصر [الفارابي]، وابن سينا فإنَّ أبا حامد [الغزالي] قد قطع بتكفيرهما في كتابه المعروف بـ(التهافت)، في ثلاث مسائل: في القول بقدم العالم...، وبأنه تعالى لا يعلم الجزئيات - تعالى عن ذلك -، وفي تأويل ما جاء في حشر الأجساد وأحوال المعاد...»<sup>(١٢١)</sup>.

### القائمون بعملية التوظيف:

مما مضى نستخلص أنَّ عملية التوظيف عامة وشاملة اشتركت فيها جميع الفئات الاجتماعية على تعدد توجهاتها وميولها، وسعى كلُّ لخدمة سابقياته الفكرية، فقد اشترك فيها:

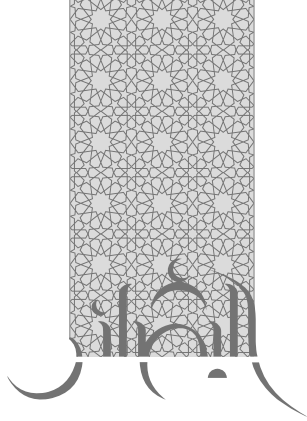
- الديني المسلم، كالأشعري، والأزهر الشريف، ومحمد عبده، والكواكبي.
- والديني غير المسلم، كيوحنا الدمشقي.
- والفيلسوف، كمحيي الدين بن عربي، وصدر المتألهين الشيرازي.
- والسياسي، كمعاوية، والمأمون، والقادياني، والاستعمار البريطاني.
- والنحوي، كجمال الدين بن هشام.

(١١٩) السيد عبد الرزاق الموسوي المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام / ٢٨، نقلًا عن:

(محيي الدين بن عربي، العواصم والقواصم / ٢٣٢، والكلمة لابن عربي).

(١٢٠) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، مصدر سابق / ٦٢ - ٦٣.

(١٢١) المصدر / ٣٦ - ٣٧.



## نحو ثقافة حية

- \* الثقافة الحية والثقافة الميتة.
- \* الثقافة الحية والثقافة المحيية.
- \* الثقافة الميتة والثقافة الميتة.
- \* صور ونماذج.
- \* النشوء والتضخم.
- \* طرق تشكيل الثقافة الحية.
- \* نقد وتقييم.
- \* مواصفات الثقافة الحية.
- \* مجتمعاتنا وفشل الأطروحات الثقافية.



## نحو ثقافة حية..

### الثقافة الحية والثقافة الميتة:

يكتسب الشيء أهميته من مكانته الذاتية، ومن مكانته النفسية الوظيفية التي تهبه القدرة العملية والإنمائية في مجال العطاء، أو من إحداهما.

ومن هنا تتبع أهمية الثقافة: فهي شيء محبوب بذاته؛ لأفضلية العلم على الجهل، النور على الظلام، كما أنها تشكل الدينمو الذي يتفاعل مع وعي الإنسان ولاوعيه، ليملي عليه نوعاً خاصاً من التفكير والتصورات النظرية، كما يصوغ تصرفاته العملية التطبيقية.

ذلك لأن الثقافة ليست فكراً نظرياً لا يتفاعل إلا مع التصورات المجردة، بل هي خطوط تفصيلية لها مجالها الأكبر في عالم التطبيق والواقع.

ومن هنا - أيضاً - ينطلق التفريق بين الثقافة الحية/ والثقافة الميتة.

فالثقافة الحية: هي الثقافة الفاعلة القادرة على مواكبة الزمان والمكان، والتجدد بتجددهما.

هي الغيث الهامر الذي يهمني على أرض ميتة جرداء أو صحراء



قاحلة فيداعب أحاسيسها ومشاعرها، ويدغدغ تطلعاتها وطموحاتها، ويغدق عليها وسائل النمو والرقي، فتشرق بالزهور الفوّاحة، وتخرج ثمارها من كلّ زوج بهيج.

إنّ لديها القدرة الفائقة على الانتشال من الموت إلى الحياة، من قعر الحضيض إلى ذرى العلياء، من اللاشيء إلى التحوّل إلى رقم هام وصعب في المعادلة الحياتية.. قادرة على التعاطي مع ما حولها تأثيراً وتأثراً.

بينما الموت ليس إلاّ السكون، وعدم الحيوية والعطاء، والميت مكتسب فقط، يتأثر بكلّ ما هو سلبي حوله، حتى يضحي مركزاً للعفونة والخراب.

لذلك يعبر القرآن الكريم عن صاحب الثقافة الميتة بأنه - هو الآخر - ميت، وإن بدا للناس بأنه كائن حيّ يحسّ ويتحرّك، وأنّ الثقافة الحية هي التي تنقله من الموت إلى الحياة:

﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا؟ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ، بَلْ هُمْ أَصْلٌ، أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>.

وعلى الطرف المقابل، فالذين سعوا من أجل قيمهم هم أحياء، ولو ظلّهم بعض الناس - ضمن معاييرهم المادية - أمواتاً:

(١) سورة الأنعام / ١٢٢.

(٢) سورة الأعراف / ١٧٩.

(٣) سورة الأنفال / ٢٤.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: أَمْوَاتٌ، بَلْ أَحْيَاءٌ،  
وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ!!﴾<sup>(٤)</sup>.

## الثقافة الحية والثقافة المحيية:

وإذا كانت طبيعة الثقافة الحية ذات فاعلية وحراك، فقد يكون ذلك ضئيلاً بحيث يقتصر على الفرد حاملها فحسب، وقد تتسع حلقاته لتشمل المجتمع والعالم.

فالأولى ذات حراك لصاحبها، سجّرت في داخله جذوة الفاعلية، بينما الثانية امتدّ دورها إلى ما حولها لتبث فيه الحيوية والنشاط، فهي شمس لا تثير نفسها فحسب، بل.. تنشر الضياء في الأرجاء.

ولعلّ هذا يدفعنا إلى أن نطلق على الأولى من هاتين (الثقافة الحية)، بينما نطلق على الثانية (الثقافة المحيية).

وقد نشهد صورة لهذا في التفريق بين النبي والرسول، كما نشهد مستوياته بين الرسل أنفسهم:

فقد يبعث الله نبياً لنفسه فقط غير مكلف بتبليغ الرسالة، وهي ثقافة حية محدودة التأثير على صاحبها لا غير.

وقد يكون نبياً رسولاً يُكلف بتبليغ الرسالة إلى مجتمعه، كما الأمر مع بعض الأنبياء، ومنهم: لوط، وصالح، وهود، وشعيب.

وقد يكون مجال رسالة النبي الرسول العالم أجمع والبشرية قاطبة، كما هو شأن الخمسة أولي العزم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد.

وفي صورتني (النبي الرسول)، و(الرسول من أولي العزم) تتمثل الثقافة المحيية التي تنشر عقب أريجها وشذاها في المحيط القريب أو الأوسع، أي أنّ هناك اختلافاً في مستوى فاعلية هذه الثقافة المحيية نفسها.

(٤) سورة الأنفال / ١٥٤.

بيد أننا - للدور الحيوي للثقافة الحيّة على صاحبها وحده أو مع مجتمعه والعالم - سوف نجمع ( الحية والمحياة ) تحت عنوان واحد هو ( الثقافة الحية ) .

## الثقافة الميّتة / والثقافة المميّتة:

كما أنّ هناك فرقاً بين الثقافة المميّتة / والثقافة المميّتة، فالأولى هي سكون وعدم حراك، لكنّ الثانية سمّ زعاف ينفث الموت في الهمم والعزائم، فما هي إلا لحظات حتى يتحوّل النشاط الفاعل إلى جثة هامدة.

الثقافة المميّتة خاملة لا تتحرّك، ولا تحرّك ساكناً، أما المميّتة فعندها قدرة التحرك السلبي، والتأثير التدميري في صاحبها والآخرين.

وإذا كانت الثقافة تؤثر في سلوك الفرد - إيجابياً أو سلبياً - فإنّها - بلا شك - ذات تأثير كبير في السلوك الجمعي، فتثقافة المجتمع لها الدور الأكبر في بلورة وتشكيل هوية المجتمع وذاته، وفسح المجال أمامه للبرقي والازدهار إن كانت ثقافة نهضوية فاعلة، وإلا.. فسوف تسيّره نحو قعر الحضيض.

ينقل لنا القرآن الكريم قصة شخص أعطاه الله مقومات الرفعة، لكنّه ترك ذلك، وسار في طريق ثقافة لم تكتفِ بجعله ميّتاً ساكناً، بل ليلج بها قعر الهاوية، ويصبح شرّ مثل يُضرب:

﴿ وَاثْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا، فَانْسَلَخَ مِنْهَا، فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ \* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَوَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ، أَوْ تَتَرَّكُهُ يَلْهَثُ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا، فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾<sup>(٥)</sup>.

كما ينقل لنا أمثلة كثيرة لثقافات مميّتة خلخلت بناء المجتمع،

وسعت لهدم أسسه، كما الأمر مع السامري الذي ابتدع لبني إسرائيل عبادة العجل.

## صور ونماذج:

كانت الجزيرة العربية تفرق في بحر الثقافة الميتة، فهي - سياسياً - كيانات متفرقة لا تتنظم ضمن دولة واحدة، ولا قانون ضابط، ولا تعيش استقراراً أمنياً.

واجتماعياً، هي عصبيات قبلية، يفخر المرء فيها بقوة قبيلته سواءً أكانت مصيبة أم مبطلّة، وتشتعل فيها الحروب الطاحنة لأتفه الأسباب، ثم تدوم السنين الطوال، تتعاطى الربا، وتبادر إلى الظلم متلذذة بقناعة أنّ (من لا يظلم الناس يظلم)<sup>(٦)</sup>، ويفخر بعض أهلها بواد البنات.

وعقيدياً، كانت تعبد الأصنام، لم تكتف بـ ﴿اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ \* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾<sup>(٧)</sup>، وهبل وإساف ونائلة، ولا بمئات الأصنام المحيطة بالكعبة - وقد بلغت ٣٦٠ صنماً - أو المتكدّسة في القبائل، بل كانت تمتدّ ليصنع البعض أصناماً من تمر يسجدون إليها فإذا جاعوا أكلوها، ووصل الأمر بالمسافر منهم أن يجدّ في البحث عن أربع أحجار، يجعل ثلاثاً منها أثافي لِقَدْرِهِ، والرابعة إلهاً يعبده، فإذا أزمع على المسير تركه في البيداء، أو أن يأخذ حفنة من التراب يمزجها بلبن نافته ربّاً يعبده ويقدّسه، فإذا ارتحل تركه وشأنه!!

لكنّ ثقافة الإسلام الحية همت على هذه الأرض المجذبة، فإذا العرب أمة تحكم العالم، وتتهاوى تحت أرجلها قصور كسرى وقیصر وهرقل.

وفي مجال الثقافة الميتة نشهد التقسيم الطبقي لدى الهندوسية التي تقسّم المجتمع إلى طبقات أربع: البراهمة، الكاشتر، الويش، الشودر.

(٦) زهير بن أبي سلمى المزني، شرح شعر زهير بن أبي سلمى، تحق: الدكتور فخر الدين قباوة/ ٣٥.

(٧) سورة النجم/ ١٩.

فالبراهمة: هم الذين خلقهم الإله (براهما) من فمه: منهم المعلم والكاهن والقاضي، وهم ملجأ الجميع في حالات الزواج والوفاة، ولا يجوز تقديم القرابين إلا في حضرتهم.

والكاشتر: وهم الذين خلقهم الإله من ذراعيه: يتعلمون، ويقدمون القرابين، ويحملون السلاح للدفاع.

والويش: وهم الذين خلقهم الإله من فخذيه: يزرعون، ويتاجرون، ويجمعون المال، وينفقون على المعاهد الدينية.

والشودر: وهم الذين خلقهم الإله من رجلية، وهم مع الزوج الأصليين يشكلون طبقة المنبوذين، وعملهم مقصور على خدمة الطوائف الثلاث السابقة الشريفة، ويمتهنون المهن الحقيرة والقدرة، وهم - بحسب قانون (منو) الهندوسي - أخطأ من البهائم وأذل من الكلاب، ولا يُعطى لهم أجر أو ثواب إزاء خدمتهم.

ومن الأحكام المتعلقة بهم:

- إذا مدَّ أحد المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبطش به - فُطعت يده، وإذا رفسه فُدمت رجله.

- وإذا همَّ أحد من المنبوذين بمجالسة برهمي فعلى الملك أن يكوي استه، وينفيه من البلاد.

- إذا ادعى أحد المنبوذين أنه يعلم برهمياً فإنه يُسقى زيتاً مغلياً.

- كفارة قتل الكلب والقطعة والصفدعة والوزغ والغراب والبومة - ورجل من الطبقة المنبوذة سواء.

هذا في الوقت الذي يصبح فيه البراهمة صفوة الخلق، الملحقين بالآلهة، ولهم أن يأخذوا من أموال عبيدهم (شودر) ما يشاؤون، وذنوب البرهمي مغفورة ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه، ولا يجوز للملك - مهما اشتدت الظروف - أن يأخذ جباية أو أتاوة من البرهمي، وإن استحق البرهمي القتل لم يجز للحاكم إلا أن يحلق رأسه، أما غيره فيُقتل!!

هذا التقسيم الطبقي يلتقي الجميع على الخضوع له، وعدم جواز إزالته؛ لأنه أبدي من فعل الإله، وأتباعه يتم بدافع ديني راسخ<sup>(٨)</sup>. وهو الثقافة الميتة التي أمّلت على الطبقات - وخاصة الشودر - واقفها التعيس، وأقعدتها عن الانطلاق، وشكّل منها فئة خاملة عطّلت وشلّت كلّ قدراتها وقواها.

وفي سياق الثقافة الميتة تأتي (فكرة الانتظار) التي حوّلت إشرافة ترقّب الإمام المهدي (عج) [ وُلد في ٢٥٥هـ ]: «أفضل عبادة أمّتي انتظار الفرج»<sup>(٩)</sup> من عمل دؤوب يمهد لخروجه، واستعداد نفسي صادق إلى «ذلك الجلوس الساذج في قبو الأنانية في انتظار الغيب المجهول من وراء ستار المستقبل... ذلك الارتخاء الشامل لكلّ مرافق النشاط بالتخدير المستمر للأعصاب؛ لكيلا تشعر بثقل الألم فتثور ضد الفساد والجريمة... الخروج عن حاضر الزمان بحرارته ونشاطه وإمكاناته، والعيش في مستقبل الآمال بخموله وضعفه»<sup>(١٠)</sup>.

بيد أنّ (فكرة الانتظار) هذه لم تبقّ ميّنة سكونية (استاتيكية)، بل.. أخذت تتموّج عند تيار من الشيعة حتى أصبحت ثقافة مميتة تدعو للموادعة مع الواقع الفاسد، وعدم تغييره، تحت تبرير أنّ التكاليف الشرعية الاجتماعية العامة - كالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الدولة الإسلامية - (منوطة بوجود المهدي، ساقطة بغيابه!)، بل.. (إنّ عملية الإصلاح تؤخّر ظهور المهدي؛ لأنّه سيظهر في عالم جور وظلم وفساد، فإذا نحن أصلحنا فلماذا يظهر إذنا؟!)، (وإنّ كلّ راية تظهر قبل راية المهدي فهي راية ضلالة!).

وفي سلك الثقافة الميتة - كذلك - تتخرط تلك الفكرة التي انطلقت لدى البعض من حديث «حب علي بن أبي طالب حسنة لا تضرّ معها سيئة»<sup>(١١)</sup>؛ لتجيز لأصحابها الفوص في المحرّمات، وانتهاك الأعراض، وترك الواجبات، بحجة أنّ ذلك وإن كان سيئة ومعصية،

(٨) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، مصدر سابق / ٥٢٤ - ٥٢٥.

(٩) بحار الأنوار، مصدر سابق / ٥٢ / ١٢٨.

(١٠) الثقافة الرسالية، مصدر سابق / ٣٤.

(١١) بحار الأنوار، مصدر سابق / ٣٩ / ٣٠٤.

لكنّه مغفور لهم ما داموا يحبّون علياً ويوالونه!!

وفي المجال ذاته نستطيع أن نستجلي صورة اليهود الذين رأوا أنّهم شعب الله المختار، وأنّ أرواح اليهود جزءٌ من الله، وأنّهم أصفياء الله وأوداؤه، وأنّهم - وحدهم - البشر في هذه الخليقة، وغيرهم حيوانات في صورة البشر (جوييم) خلقها الله لخدمة اليهود<sup>(١٢)</sup>.

هذا الفكر الشوفيني الاستعلائي هو الذي أجاز لهم ممارسة عملية الهدم لكلّ المجتمعات التي عاشوا فيها، والذي جعلهم يعيشون في (كانتونات) منعزلة لا تختلط بتلك المجتمعات؛ حفاظاً على نقاء الدم الإسرائيلي، الأمر الذي حدا بهم ألا يقبلوا أحداً من خارجهم أن يدخل ضمن ديانتهم، فلم يتجاوزوا - رغم قدم عقيدتهم - ١٥٠٠٠٠٠٠ شخص<sup>(١٣)</sup>.

كما أجاز للصهاينة تطبيق السياسة التوسعية الاستفزازية، واحتلال أراضي الآخرين، وسلب حقوقهم وتهجيرهم، وسفك مهج الأبرياء، والنشيث بكلّ سبيل يوصلهم إلى مآربهم ولو كان ملتويّاً وقذراً كذاك الذي ترفدهم به الماسونية العالمية. هذه الأمور التي جعلتهم مكروهين أينما حلوا أو ارتحلوا، يُنظر إليهم دوماً بأنّهم الخبث والمكر والميكافيلية.

### النشوء والتضخم:

ومما سبق نصل إلى أنّنا حين نفرّق بين الثقافة الميتة/ والمميتة لا نقول بأنّ كلّ ثقافة ميتة ستبقى على حالها، فقد تتفاعل فيها بعض العناصر والمكوّنات؛ لتنتقل وترتقي وتصبح ثقافة مميّطة.

فإلى جانب تحوّل (فكرة الانتظار) من ميتة إلى مميّطة نستطيع أن نرى أمثلة أخرى ضمن بعض الثقافات التي نشأت سكونية، ثمّ ما لبث أن أضحت مصاص دماء، أو غولاً مهلكاً، كما الأمر مع (التكفير والهجرة) التي بدأت بتكفير الحكّام؛ لأنّهم لا يحكمون بما أنزل الله

(١٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، مصدر سابق/ ٥٧١- ٥٧٢.

(١٣) المصدر/ ٥٧٤.

﴿ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾<sup>(١٤)</sup>، ثم انتقلت لتكفير الوزراء والمدراء وكل من يعمل في وظيفة حكومية، ثم لتكفير جميع من يعيش ضمن الحكام، ويخضع لهم.

لكنها لم تقف عند هذا الحد، والدعوة إلى إعلان القطيعة الاجتماعية، وهجران المجتمع تحت شعار ﴿ وَإِنْ لَّمْ تُوْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُون ﴾<sup>(١٥)</sup>، ﴿ وَإِذْ اٰتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾<sup>(١٦)</sup>، بل خوَّلت لنفسها في بعض ممارساتها حمل السلاح حتى على العزّل من الناس.

### طرق تشكيل الثقافة الحية:

حين نقوم بنظرة على المجتمع المسلم، أو العربي، أو العالم الثالث بشكل عام ندرك بوضوح أنّ التخلف المخيم بظله عليه لا يمكن رده إلى المكوّن السياسي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي أو.... كلاً على انفراد، وإنما هو تخلف حضاري شامل يصبغ كلّ مفردات الحياة.

هذه النتيجة الوصفية التي يمكن انتزاعها عبر الملاحظة، تؤكدها السبل المعرفية الأخرى من تجربة، واستبيان، واستقراء، و....، كما تؤكدها البحوث التحليلية.

لكن حين نسأل عن آلية تشكيل ثقافة حية ناهضة، فسوف نحصل على مجموعة من الإجابات، أهمها:

#### ١- تجميع الأجزاء:

فالثقافة الحية ليست موجودة في رسالة سماوية معيّنة، ولا في شريعة وضعية، أو ثقافة اجتماعية، وإنما هي موزعة متناثرة هنا وهناك، ولكي نحصل عليها ينبغي أن نجمع عناصر مرّكّبها، ونلصق شتات جسدها المبعّث.

(١٤) سورة المائدة/ ٤٤.

(١٥) سورة الدخان/ ٢١.

(١٦) سورة الكهف/ ١٦.



في حوار لمجلة (١٥ - ٢١) يقول الدكتور حسن حنفي:

«إننا في غياب البديل الإسلامي الثوري لجأنا - بالضرورة - إلى الماركسية لحل قضية العدالة الاجتماعية، وإلى الليبرالية لحلّ القمع المسلّط على شعوبنا، وإلى القومية لإنهاء حالة التشرذم، وإلى ديكرات لتأكيد العقلانية..»<sup>(١٧)</sup>.

لقد استطاع (هيروهيوتو) [١٩٠١-١٩٨٩م] الإمبراطور الياباني السابق أن يستفيد من عقيدة (الشتتو = آلهة الشمس) العريقة والقديمة الضاربة بجذورها في أعماق المجتمع الياباني، استفاد منها ليحوّلها إلى ثقافة ديناميكية ومعطى عملي نشط، ومن ثمّ القفز باليابان من الدمار الشامل الذي أعقب إلقاء القنبلة الذرية عليها في (١٩٤٥م) إلى أوج العلو.

لقد غرس في نفوسهم أهمية الزمن، وقدسية العمل والإنتاج، وضرورة السير الدائب نحو أرفع التطلعات بالاعتماد على الذات، والاستفادة من منجزات الآخر (الغربي)، حتى صيّر مجتمعه مجتمعاً صناعياً لا يعرف الكلال. لقد جمع نثار ثقافة الرقي من الذات والآخر.

## ٢- تجزيء المركب:

فثقافتنا مرّكب من عناصر كثيرة، بعضها يصلح لنفث الحياة في جسد المجتمع، وبعضها الآخر عنصر تخدير، أو على الأقل لا يناسب العصر، لذلك ينبغي أن نجزئها، ونفكّها، ونأخذ بعناصر النجاح، ونترك الأخرى.

فالغرب لم ينطلق إلا حين أفلت من أسار الكنيسة، ففصل بين الدين والعلم، وأقرّ فكرة الثنائية والازدواجية التي نادى بها فرانسييس بيكون الإنجليزي [١٥٦١م - ١٦٣٠م]، ورينيه ديكرات الفرنسي (١٥٩٦م - ١٦٥٠م)، فقد ناديا بفصل الجانب المادي عن الجانب النفسي والروحي، وحصر العلم في التجريب والمشاهدة<sup>(١٨)</sup>.

وهناك من دعا - باسم التجديد في الإسلام - إلى ترك أمرين

(١٧) الشيخ زكي الميلاد، الفكر الإسلامي بين التأصيل والتجديد / ١٠٤.

(١٨) د/ أحمد العسّال، الإسلام وبناء المجتمع / ١٨.

من الدين هما: الغيب، والترهيب والترغيب، فقال: إِنَّ الغيب والتفسير الغيبي طريقة من لا وسيلة علمية مقنعة بيده، أما من بيده آليات العلم، وفي زمن العلم، فعليه أن يفسر للناس الأمور بالعلم، ويقنعهم به.

ولا نحتاج في خطابنا حتى ندفع الناس لشيء أو ننهاهم عن آخر إلى الترهيب بعذاب الآخرة و نار جهنم، ولا ترغيبهم بالجنان الخالدات، وما فيها من ملذات لا تنقضي، ونعيم خالد لا يزول، بل علينا أن نحفّزهم بالعلم ومكتشفاته، ونحذّرهـم به.

وهناك من رأى أنّ الصيام لا يناسب العمل، فهو ينهك الجسد، ويقعد صاحبه عن أداء وظيفته، ويقلل من إنتاجيته، ومن ثم لا بد من إسقاطه كتطبيق.

كما ذهب الشيخ علي عبد الرزاق [١٣٠٥هـ - ١٣٨٦هـ]، [١٨٨٧م - ١٩٦٦م] في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) إلى أنّ الإسلام هو دين روحي فقط، واعتبر (نظام الحكم) أو الدولة الذي وُجد في العهد النبوي وعهد الراشدين نظاماً زمنياً مستوحى من ظروف عصره، ولا علاقة له بالإسلام، وقد زال وانتهى بزوال زمانه<sup>(١٩)</sup>.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ، وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾<sup>(٢٠)</sup>، ذهب آخر إلى أنّ (ما ظهر منها) يختلف باختلاف الزمن، ويتحرّك ويتغيّر وفقاً له، ففي يوم كان الوجه والكفين، أما الآن فمنه الساق واليدين، فكلّ ذلك يجوز إبداءه.

وبعبارة أخرى فهو من المتحوّل الذي يتغيّر بتغيّر الظرف (الزمان)، وليس من الثابت المطلق المقدس.

وسعت دول إسلامية كـ(تركيا) إلى علمنة الدولة، وتطبيق نظم (سكسونية)، أو غيرها في مجالات القضاء والسياسة، وحصـر الإسلام في المسجد.

(١٩) الدكتور محمد المبارك، نظام الإسلام: الحكم والإدارة/ ٥٤.

(٢٠) سورة النور/ ٣١.

### ٣- استلهام الحياة:

«السؤال الحائر: لماذا تأخر المسلمون، ولماذا تقدم غيرهم؟»،  
 ذاك هو عنوان الكتاب الذي أصدره الأمير شكيب أرسلان [١٨٦٩م -  
 ١٩٤٦م] عام ١٩٣٠م، وتُلخص الإجابة عليه في العوامل التالية:

- أ - ترك المسلمين عزائم القرآن التي قام بها سلفهم.
- ب- إعراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية، وفقدتهم أعظم قوة مادية.
- ج- الاكتفاء من الدين بالرسم الظاهر، واللهو بالقشور عن اللباب.
- د - اليأس من رحمة الله، وفقدان الثقة بالنفس.
- هـ- استخذاء المسلمين أمام الأوروبيين، وفقد أكثرهم عزة الإسلام القومية.
- و- مواطأة المسلمين للأوروبيين على إخوانهم وخدمتهم إياها.
- ز- فقد روح التضحية التي سادت بها الأمم الأوروبية.
- ح- عدم اقتداء المسلمين بالأوروبيين في تأليف الجمعيات والشركات.
- ط- فساد الأخلاق عامة، وأخلاق الأمراء خاصة.
- ي- فساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات.
- ك- تفوق الأوروبيين في العدد [هكذا وردت] <sup>(٢١)</sup>، وطمعهم في مجاورتهم لجميع البلاد الإسلامية، وثباتهم وصبرهم وسيرهم على خطط مرسومة يتبعونها منذ مئات السنين.
- ل- تخيير الجهل على الأمم الإسلامية.
- م- عدم تجدد برامج التعليم، واستيلاء الجمود على الفقهاء.
- ن- كثرة الكلام عن الآخرة، مع أنّ الإسلام دين دنيا وآخرة.
- س- الدعايات الاستعمارية التبشيرية <sup>(٢٢)</sup>.

لكنّ السؤال كان عصبياً، وأقوى من الإجابة، لذلك تلاحقت تحليلات أخرى تحاول التعرف على سبب التخلف والانحطاط، ومنها:

(٢١) ولعلّ الأصح (العدد).

(٢٢) كريم جبر الحسن، عملية النهوض الحضاري / ١٤٠.

نقصد من هذه المقدمة بيان حال الواقع الإسلامي، لا أن نعدّ (أرسلان) من أصحاب (استلهام الحياة).

- أ - العامل التاريخي (الحكام السياسيون).
- ب - طريقة فهمنا ووعينا للموروث الثقافي.
- ج - العقل العربي.
- د - الفعل العربي.
- هـ - نظرية المؤامرة<sup>(٣٣)</sup>.

وفيما عدا (نظرية المؤامرة) التي تسبب السبب إلى الآخر المختلف، أو الغربي المستعمر، فإنّ بقية المحاولات تعيد السبب إلى أمر داخلي ضمن نسيج الذات أو المؤتلف.

ينطبق هذا الكلام على الإجابة القديمة التي قالها الأمير أرسلان، وعلى الجديدة التي أفادها المثقفون العرب المعاصرون، وتلتقي الإجابتان معاً في إضفاء نظرة سوداء قاتمة على الواقع العربي والإسلامي.

ويرى القائلون بـ(الفعل العربي) أنّ السبب يكمن في أفعالنا كعرب، فنحن نفرّق بين النظر والعمل، بين القول والفعل، نقول ما لا نفع، ونفعل ما لا نقول!!

أما أصحاب (العقل العربي) فيعيدون السّرّ إلى عامل أنثروبولوجي أو أنسني، يرى أنّ «التكوين الأنثروبولوجي للإنسان العربي ذو طبيعة خاصة، وحدود معروفة. فثمة فرق بين أن نتعلم عن (عقل عربي) أو (عقل إسلامي) بما هو ذو خصائص ذاتية مستقرة في الطبيعة البيولوجية للإنسان العربي أو المسلم، وبين أن نتكلم عن هذا العقل أو ذاك بما هو عقل ذو خصائص ثقافية وتاريخية، والنتائج التي تترتب على المذهب الثاني (الثقافي، التاريخي) تختلف عن النتائج التي تترتب على المذهب الأول (البيولوجي المستقر)»<sup>(٣٤)</sup>.

ويقروون أنّه لو كان الخلل في التكوين الثاني (الثقافي/ التاريخي)، فإنّ إصلاح الخلل ممكن، أما الأول فهو غير ميسور؛ لأنّه

(٢٣) الدكتور محمد الرميحي، (الطريق إلى المستقبل: هل يمكن اكتشاف القوى الكامنة في التخلف العربي؟)، مجلة (العربي)، العدد ٤٥٩، رمضان ١٤١٧هـ، فبراير (شباط) ١٩٩٧م/ ١٦- ٢٥.

(٢٤) المصدر/ ١٨- ١٩.

يحتاج إلى (هندسة وراثية) غير ميسورة أو ممكنة<sup>(٢٥)</sup>.

وعلى هذا بعض القدماء، ورؤوس الاستشراق الغربي، وبعض المفكرين العرب المحدثين ك (الدكتور محمد عابد الجابري).

«فالجاحظ [١٥٠هـ - ٢٥٥هـ]، [٧٧٥م - ٨٦٨م] يرى أنّ العربي لا يستطيع - حسب مصطلحاتنا الحديثة - أن يخطط، ويقيم سياسات عقلانية، أو بناءً منظماً، فلا غرابة أن تفضي أفعاله إذن إلى غير المتوقع، وإلى الكارثة والإخفاق والدمار.

ويذهب ابن خلدون [٧٣٢هـ - ٨٠٨هـ]، [١٣٣٢م - ١٤٠٦م] في بيان طبيعة العرب إلى أقسى من ذلك، فالعرب - وهم بدو بالطبع - وإن كانوا أقرب إلى الخير، وأسرع الناس قبولاً للحق والهدى، فإنهم - بطبيعة التوحش الذي فيهم - أهل انتهاب وعبث، إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب»<sup>(٢٦)</sup>.

وعلى هذا فالعقل العربي لا يمكنه أن ينتج ثقافة حية، فماذا نصنع إذا أردناها؟

الإجابة ستكون - بالضرورة - في الاستقاء من مرجعية أخرى كالغربية: فرنسية كانت أم إنجليزية أم غيرها، أو الشرقية.

ومن هنا جاءت فكرة الجابري فيما أسماه بـ(التبئية) أو (المشروعية الإستمولوجية) أي: «إعادة بناء مفهوم المثقف بالصورة التي تجعله يعبر داخل الثقافة العربية عن المعنى الذي يُعطى له اليوم في الفكر الأوربي حيث يجد مرجعيته الأصلية.

إنّ إعادة البناء هذه، وبالطريقة التي سلكتها، هي ما سبق أن عبّرنا عنه بأنّ التبئية: تبئية المفاهيم الحديثة في ثقافتنا...»<sup>(٢٧)</sup>.

(٢٥) المصدر/ ١٩.

(٢٦) المصدر/ ١٩.

(٢٧) الدكتور محمد عابد الجابري، المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل، ونكبة ابن رشد/ ٣٣.

إننا «بصدد توظيف مفاهيم حديثة منقولة عن الفكر الأوربي بعد تبيئتها، ومسألة المشروعية الإستمولوجية من عملية نقل مفهوم من حقل معرفي معيّن إلى حقل معرفي آخر، بعيداً عنه أفقياً، أي: على مستوى تصنيف العلوم، وتمييز الحقول المعرفية بعضها عن بعض، أو عمودياً على مستوى تحقيق المعرفة والعلوم إلى عصور معرفية وأزمة ثقافية..»<sup>(٢٨)</sup>.

وضمن مقولات استقاء الثقافة الحية يرى البعض الحلّ في الماركسية، وآخرون في الديمقراطية الغربية، وقال بعضهم: «لا يعدو الإسلام أن يكون انتماء قومياً أو قبلياً أو عائلياً، فهو ينسجم - أو بالأحرى - لا بدّ أن نجعله بحيث ينسجم مع كلّ جديد يقتضيه اتجاه الحضارة الحديثة..»<sup>(٢٩)</sup>.

ويرفضون أن يُسمّى ما يقومون به بـ (الاستيراد الثقافي)؛ لأنّ الثقافة ملك إنساني لا تحكمه الحدود الجغرافية والسياسية، ولا يُوصف بـ(الاستيراد)، هذا اللفظ الدال على الأمور المادية، والمجتلب من علم الاقتصاد، كما لا يُوصف بالغزو؛ لأنّه أمر عسكري - على حدّ تعبير علي حرب<sup>(٣٠)</sup> -.

#### ٤- تفعيل الذات:

فالذات تملك مقوّمات الحياة، وما علينا إلا العودة لها، وتفعيلها.. ولكن ماذا نقصد بـ(الذات)؟

#### أولاً: الذات العربية:

من الذين ينادون بضرورة العودة للذات، والذين يرونها عنصر الاندفاع من يراها تتمظهر في الذات القومية العربية، ويؤمن أنّها الصيغة المثلى؛ لمبرّرات عدة، منها:

(٢٨) المصدر/ ١٠- ١١.

(٢٩) السيّد محمد تقي المدرسي، الفكر الإسلامي مواجهة حضارية/ ٣٠- ٣١.

(٣٠) خالد توفيق، (الغزو الثقافي وسبل مواجهته)، مجلة (الثقافة الإسلامية)، العدد ٦٧، ذو الحجة - محرّم/ ١٤١٦- ١٤١٧هـ، أيار - حزيران/ ١٩٩٦م، ص ١٢.

## أ - وحدة الجنس (الأصل المشترك):

فالعرب جنس يشترك في جذوره، وينتسب إلى أصل واحد، وينحدر بكلّ فئاته من أب وأم متفقين تعود إليهما جميع التفريعات القائمة على ساحة الواقع الاجتماعي اليوم.

## ب - وحدة التراب (الوطن الواحد):

ويشترك العرب في رقعة جغرافية واحدة تمثّل وطنهم الواحد الذي يشدهم نفسياً إليه، وهي مساحة واسعة تمثّل - ضمن المعطى التاريخي - المكان الذي استقروا فيه، وتفاعلوا معه، وشهد منجزاتهم الحضارية، كما يمثّل - ضمن معطيات الحاضر - الامتداد الجغرافي الكبير الصالح لأيّ عملية تنموية، بما تتيحه من إمكانيات وتجارب ومشاريع متنوّعة.

ويمتدّ الوطن العربي من المحيط إلى الخليج، ضاماً تحت جناحيه مساحة هي أكثر من ١٤,٠٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع<sup>(٢١)</sup>، وتبعد أقصى نقطة في شماله عن أقصى نقطة في جنوبه ٣٥٠٠ كم، وتبعد أقصى نقطة في شرقه عن أقصى نقطة في غربه ٧٠٠٠ كم<sup>(٢٢)</sup>.

## ج - وحدة اللغة (اللسان الموحد):

واللغة العربية - كنظام لغوي: صوتي أو كتابي - يفهمها أصحابها، من المحيط إلى الخليج، وتمثّل هوية لهم، يمكنهم التخاطب بها، وممارسة عملية الفهم و الإفهام والتواصل والتفاعل، إنّها لغة خطاب موحد.

## د - وحدة التاريخ (العمق الزمني):

والعرب - كهوية اجتماعية - تمتدّ إلى زمن سحيق، وواصلت سيرها ضمن أجيال عديدة إلى زماننا هذا، مما يدلّ على صلاحيتها للتفاعل مع مستجدات الزمان والمكان.

(٢١) مسعود الخوند، الموسوعة التاريخية الجغرافية ١٢ / ١٠٧.

(٢٢) إعداد (دار طويق)، موسوعة هل تعلم / ٢٧ - ٢٨.

## قيم العروبة النبيلة:

وقد حوى التاريخ العربي قيماً عظيمة راسخة في جذور القدم العربي، ومنها: الكرم، والشجاعة، وإباء الضيم، و... .

وهذه القيم يمكن استدعاؤها لتمثّل نظاماً قيمياً سامياً يشكّل الإطار العام للثقافة الحية، وهي مجتلبة من الذات لا من خارجها، لذلك يسهل هضمها، وإعادة تشكيلها، وتزريقها في الكيان العربي.

## التراث الوفير:

كثير من اللغات لم تدم زمناً طويلاً، بل تشظّت، وتباعدت لغاتها الفرعية بحيث يصعب، بل يمتنع التعاطي بينها، كما الحال مع اللغة اللاتينية، مما جعلها تعايش مشكلة حقيقية أمام التراث: كماً، وكيفاً، وامتداداً زمنياً.

أما اللغة العربية، فقد حفظها القرآن الكريم، بحيث استمرّ تراثها وفيراً، منذ العصر الجاهلي الذي قدّره الجاحظ ما بين ١٥٠-٢٠٠ سنة قبل البعثة الشريفة، ولا زال يغدق فيضه إلى عصرنا الحاضر، بما يضمّه من كمّ هائل من الشعر والنثر، والتاريخ و... . وكلّ ذلك - بفضل استمرارية اللغة - لازال حياً، ويمكن التعاطي معه.

وهذا التراث يشترك فيه كلّ العرب.

## هـ - الموارد البشرية والطبيعية:

يبلغ سكان العالم العربي بدوله الـ (٢٣) ما يقارب من (٢٨٠,٠٠٠,٠٠٠) إنسان، ترقد بلادهم فوق بحيرة من النفط، والمياه، والثروات المعدنية، والأراضي الشاسعة.

## و - اختلاف الأديان:

وهذه الرقعة الجغرافية التي يسكنها العرب، ويتوحدون فيها لساناً، تضمهم فيها أديان عدة، فهم يتوزعون بين أغلبية مسلمة، وبين مسيحيين، ويهود (أي اليهود من سكانها الأصليين).



والخطاب الديني إن أمكنت ممارسته فهو لا يوحّدهم، وإنما يمثّل لغة إقناع لأكثرهم، لكنّه لا يلغي وجود أقلية لا تعتقه، لكنّ الخطاب القومي العربي يستطيع استيعابهم.

وهذا الفهم للذات هو ما يتداوله القوميون العرب، والخمسة الأولى من هذه المبرّرات والمرتكزات هي أركان القومية العربية.

### ثانياً: الذات الإسلامية:

وهناك من يقصد من إطلاق مصطلح (الذات) و(الهوية): الذات الإسلامية التي يجمعها لواء الشهادتين، وإن اختلفت مجتمعاتها لغة وأعرافاً.

وتعرض مجموعة مبرّرات لرؤيتها، منها:

#### أ - شمولية الإسلام:

فالإسلام دين أنزله الله العالم بشؤون البشر وحاجاتهم، المترفع عن الانسياق وراء المصالح والأهواء، والقادر على وضع مبادئ تصلح للحياة كلّ الحياة:

﴿ مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾<sup>(٣٣)</sup>.

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾<sup>(٣٤)</sup>.

«إنّه - والله - ما من عمل يقربكم من النار إلا وقد نبأتكم به، ونهيتكم عنه، وما من عمل يقربكم من الجنة إلا وقد نبأتكم به، وأمرتكم به، فإنّ الروح الأمين نفث في روعي»<sup>(٣٥)</sup>.

#### ب - الرابطة الدينية أقوى الروابط:

وقد أثبتت الحياة أن لا شيء أقوى من الرابطة الدينية، إنّها فوق كلّ الانتماءات العرقية واللونية واللغوية والوطنية والقومية و....

(٣٣) سورة الأنعام / ٣٨.

(٣٤) سورة النحل / ٨٩.

(٣٥) تحف العقول، مصدر سابق / ٣٤.

إِنَّهَا الَّتِي آخَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ.. ﴾<sup>(٣٦)</sup>، فصار أحدهم يقاسم أخاه كل شيء: داره، وماله، حتى إنه ليطلق إحدى زوجتيه ليتزوجها الآخر!!

في الوقت الذي كان المؤمن يحارب أباه وشقيقه وأقرب قرابته ما داموا مشركين، ويقتلهم في سبيل الله.

كما أنّ الدافع الديني هو أقوى دافع محرّك للعمل؛ لأنه يخلق الوازع والضمير الداخلي، ويحيل كل شيء إلى عبادة، وتركه إلى معصية، ومن ثم لا بدّ من إخلاص العمل لوجهه سبحانه، والتفاني في سبيل الإتيان: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يَتَّقَنَهُ..»<sup>(٣٧)</sup>.

ولقد أصل الإسلام هذه الرابطة وعمّقتها في القلوب، وعدّها الرابطة الوحيدة، والانتماء الأوحد ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّقَاكُمْ.. ﴾<sup>(٣٨)</sup>، «لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم»<sup>(٣٩)</sup>.

وأعلنها صريحة أنّ أمة الإسلام أمة واحدة، وإن اختلفت الانتماءات المدّعاة عند الناس ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون.. ﴾<sup>(٤٠)</sup>.

### ج - الامتداد الإسلامي الكبير:

فالعهد السكاني للدول الإسلامية أكبر بكثير من العربي، فهو يتجاوز الـ ١,٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مسلم، يتوزعون على أكثر من (٥٧) دولة هي أعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي، تسيطر على رقعة جغرافية واسعة، ومقدرات طبيعية هائلة، وكثير من البحار والمضيق، وطرق

(٣٦) سورة الحجرات/ ١٠.

(٣٧) محمدي الري شهري، ميزان الحكمة ٧ / ٢٩.

(٣٨) سورة الحجرات/ ١٣.

(٣٩) ميزان الحكمة، مصدر سابق ١٠ / ٢٩.

(٤٠) سورة الأنبياء/ ٩٢.

المواصلات الهامة.. أكثر بكثير مما لدى العالم العربي، هذا فضلاً عن انتشار المسلمين في كل أرجاء المعمورة، وجميع القارات والدول.

### د - الدين والفاعلية والحضارة:

وإذا كانت لم تنجح الكثير من التجارب القومية وغيرها في التطبيق، فإنَّ الإسلام -وفي بعض الحقب التي شهدت شيئاً من تطبيقه- أظهر فيها حيوية باهرة، حين حرّك أهله نحو العلم والحضارة، فإذا بأولئك البدو الرُّحَل المتقلين خلف منابت الكلاً ومساقط الغيث يصبحون منارات علمية في التوحيد، والطب، والجبر، والكيمياء، والطببيات و....، ويحكمون العالم من أواسط الهند إلى المحيط الأطلسي، ومن قلب آسيا إلى تخوم أفريقيا، فضلاً عن الأندلس وأجزاء أخرى من أوروبا.

### ثالثاً: الإسلام المنفتح (الأصالة والمعاصرة):

مشكلة تفعيل الذات في صورتين السابقتين أنهما تحيلان إلى التاريخ، وتغيّبان النموذج الحاضر، كما تحيلان إلى التراث أكثر مما تعتمدان العقل، في حين أنّ خلق الثقافة الحية يحتاج إلى تأصيل يستمد من العمق لنا كأمة وهوية وذات، هذا التأصيل الذي يخلق القناعة القلبية، ويصل الحاضر بالماضي، كما يحتاج إلى معاصرة وحادثة، بما يستدعيه من حضور واعٍ للعقل، وبناء فعلي حاضر للنموذج، واستفادة من إيجابيات الآخر.

ألا نغلق على الذات كما تلف دودة القُرّ نفسها بشرنقة الحرير، ثمّ نصف أنفسنا وفكرنا أنّه الأفضل والأصح، فهذا الانغلاق له أثره في نشوء الأفكار المثالية التي لا تحاكي الواقع، ولا تتسرّم خطاه.

وألا نرتمي في أحضان الآخر دون قيد أو شرط، ونتلقى كلّ ما عنده، بحجة أنّه المالك للحضارة أو المدنية القائمة، وبيده آليات التحديث، ووسائل العلم والتصنيع، فهذا نوع من الانسلاخ من الذات وتضييع الهوية.

لابدّ من الموازنة بين الذات/ والآخر، فتركيز ثوابت الذات

وخصوصياتها وترسيخها، ومن ثمّ الانفتاح على الآخر لمعرفة إيجابياتها والاستفادة منها، وسلبياته والتعالي عليها، والبعد عنها.

فالأصالة والتمسك بالأصول في الأهداف والمنطلقات، التي تمثل الثابت، والمعاصرة في الوسائل والأساليب والآليات؛ لأنّ ذلك يستجدّ مع الزمن فيحتاج إلى مراعاة التجدد بعين الاعتبار، ولا يمكن العكوف على آليات الماضي واعتبارها ثابتاً يؤخذ في كلّ زمان ومكان، وإلا.. لتقلنا بالجمال والخيول في زمن الطائرات النفاثة!!

فلابدّ من مراعاة مستجدات الحياة والاستفادة منها لخدمة الثوابت والمطلقات.

ومنذ بداية الـ(١٩٩١م)، وعلى إثر تشظّي الاتحاد السوفيتي ودول المنظومة الشرقية غدا الكثير يروّج إلى ثقافة كونية عالمية شاملة تحكم الوجود بأسره، وادعى أنّ نموذجها هو الفكر الغربي الديمقراطي بوصفه أرقى ما توصل إليه الفكر البشري، وأنّه عند هذا الفكر يقف التاريخ، وينتهي، ولن يأتي بجديد، فهو (نهاية التاريخ، ونموذج الإنسان الأخير..). كما يقول فرانسيس فوكوياما في كتابه -.

لكنّ ما يسمونه بالثقافة الكونية ما هو إلا ترويج لفكر أحادي التوجّه، يعتمد الفكر الغربي، ولا يعترف بالخصوصية الثقافية للمجتمعات، فهو ينكر حقيقة هامة؛ إذ كلّ مجتمع له خصوصياته التي تعمل في شعوره ولاشعوره، وثوابته التي قد لا يلتقي معه فيها الآخرون، وله مقدّساته ومطلقاته العقدية والثقافية وغيرها... التي ربما يخطئها الآخرون، أو يرون أنها متغيّرات نسبية.

إنّ فرض نموذج غريب على الذات لا يمكن أن يتفاعل مع مكوناتها، ومن ثمّ سوف تلفظه كما يلفظ البدن الجسم الغريب، لكن يمكن إيجاد نموذج ينسجم مع الذات، ويتفاعل معها، ويحظى بإمكانية البقاء.

وإذا كان البعض قد يتحرّج من الاستفادة من معطيات الآخر، فإنّ رسول الله ﷺ قد أرسل مجموعة من أصحابه إلى اليمن؛ ليتعلموا صناعة المنجنيق، ويومها لم تكن قد دخلت تحت لواء الإسلام.

كما حثَّ النبي ﷺ وأهل بيته (عليهم السلام) على طلب العلم، وأخذَه من أي مكان كان، ومن أي شخص:

«اطلبوا العلم، ولو في الصين...»<sup>(٤١)</sup>.

«الحكمة ضالة كلِّ مؤمن، فخذوها ولو من أفواه المنافقين»<sup>(٤٢)</sup>، «الحكمة ضالة المؤمن، فليطلبها ولو في أيدي أهل الشر»<sup>(٤٣)</sup>، «كلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحقُّ بها»<sup>(٤٤)</sup>.

فضلاً عن أنّ عملية التناقفة تتم بين جميع الأمم، فليست هناك ثقافة نزيهة ١٠٠٪، فالغرب ذو الثقافة المستقطبة اليوم قد استفاد من المسلمين والعرب عن طريق الأندلس، والحروب الصليبية، وعن طريق الاحتكاك أيام القرون الوسطى، وعن طريق رحلات المستشرقين التي جالت البلاد طويلاً وعرضاً، ونقلت أكثر المدونات العربية إلى بلدانها.

وكثير من الغربيين درسوا العلوم على أيدي العرب والمسلمين، ينطبق ذلك على علوم المسلمين التي أبدعوها، والعلوم التي أخذها المسلمون من غيرهم وطوّروها، كفكر ونظريات اليونان والمنطق الأرسطي الذي كانوا الحملة الأمان له حتى تلقفه منهم الغربيون، ووجدوا في بعضه (اليوناني) ذاتهم الغربية القديمة، وقد حُفظت لهم، ورجعت إليهم.

## نقد وتقييم:

### ١- تجميع الأجزاء:

إنّ طريقة (تجميع الأجزاء) تحتوي في داخلها على فكرة عدم تمامية ما لدى الذات من عناصر، مما يؤدي إلى البحث خارجه عمّا يسدّ هذا النقص.

(٤١) محمد باقر الناصري، مع الرسول في حكمه ووصاياه / ٧٢.

(٤٢) عبد الواحد الأمدي التميمي، غرر الحكم ودرر الكلم / ١ / ٩٢.

(٤٣) تحف العقول، سابق / ١٤٢.

(٤٤) ميزان الحكمة، مصدر سابق / ٢ / ٤٩٢.

ومن هنا لا يمكن أن تتسجم هذه النظرة مع القول بكمال الدين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَنْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾<sup>(٤٥)</sup>.

وإن كنا نفرق بين الثابت والمتحوّل في الدين، فالجوانب العقديّة، والقيميّة، والعباديّة هي من الثوابت، وبالتالي لا نحتاج إلى تجميعها من هنا وهناك، وإنما نحتاج إلى تفعيل المصدر الأساس ليتجاوب مع المستجدات.

كما أنّها صيغة تفتقد المعيارية الواضحة التي تبيّن سبب أخذ أمر من هذه الثقافة، والآخر من تلك.

ربّما يُقال: إنّ المعيار هو أخذ كلّ ما يحقّق الحياة، بغض النظر عن مصدره، وهذا لا يتعارض مع القيميّة والذات والدين.

لكنّ هذا الضابط، وبهذا المقدار من السعة، وعدم وجود أرضية تمثّل الثابت الذي منه يتم الانطلاق والمحاكمة سيوقعنا في مشاكل أخرى، هي: الكيف، واضطراب وجهات النظر وتباينها، ومن ثمّ التفتّت، وتصعد البنى التقويمية للذات.

كما يؤدي إلى إيجاد مزيج ملفق من ثقافات متباعدة، صُهر بروح توفيقية توليفية في مركّب واحد، لكنّه بذلك لن يكون متواشج الصلات، متماسك العرى.

ويمكن أن نعثر على نموذج لهذا التوفيق لدى الفلاسفة المسلمين، وعلماء الكلام، الذين راح بعضهم يمزج بين فكر اليونان وروحانية الهند، بين الإشراق والعرفان/ والفلسفة العقلية المشائية/ والوحي؛ «لأنّهم كانوا يعيشون تناقضاً حاداً بين آراء الفلاسفة اليونان الذين كانوا يعتقدون بها، بل.. ويقدّسونها أحياناً، وبين العقائد الدنيوية السائدة، والتي كانوا يخشون من تجاوزها، وربّما كانوا يسعون من أجل تحميلها آراءهم حتى يسهل انتشار أفكارهم الفلسفية باسم الدين الذي كانت الأغلبية الساحقة من الناس يؤمنون به، ويقدسونه»<sup>(٤٦)</sup>.

(٤٥) سورة المائدة/ ٣.

(٤٦) العرفان الإسلامي، مصدر سابق / ٣٤٧-٣٤٨.

وإذا كان هذا المثال عن الفلسفة القديمة، فهو ينطبق كذلك على المركّب المجتلب من الثقافات والفلسفات المعاصرة من وجودية، وواقعية، ونفعية (براغماتية)، و... .

ويدلّل هذا السعي التجميعي على عجز لدى أصحاب هذا المنتج عن إمكانية ابتكار مركّب ذاتي، ثمّ إنّ هذا الخليط أبعد ما يكون عن خلق حالة الإقناع والرضا به من قِبَل الذات، سواءً على الصعيد النفسي، أو المعرفي، أو التطبيقي.

## ٢- تجزيء المركّب:

في الثقافة التجزيئية هناك من يأخذ بعضاً من ثقافة، ويدع الباقي، فما يوافق المصلحة، ولا يصعب على النفس، ولا يحتمل الأذى والمشقة يمكن أخذه، والتمسك به، وإهمال غيره.

ولا مانع حينها أن تقوم بعملية انتقائية بين النصوص لاقتناص ما يلائم مرادها ومبتغاها، كما لا مانع من تفكيك وتقطيع النصّ الواحد؛ لأخذ بعضه، وترك الآخر، أو إصدار حكم كلي مطلق من جزئية صغيرة، أو قصة فردية لا تتسم بالسعة والشمول.

إنّ مشكلة كثير من الأفكار أنّها تعتمد على آية أو بعض آية أو حديث، لكنّها لا تضع بعين الاعتبار بقية الشاهد، أو الشواهد الأخرى، التي لو تمّ الاستلهاً منها - أيضاً - لما كانت الصورة بهذه الكيفية.

ولعلّ مما يدفع هؤلاء للثقافة التجزيئية التهرب من عناء البحث، ووعاء التتبع، ووجود الفكرة المسبقة قبل الشاهد والدليل، ثمّ الانطلاق منها لتصيّد الموافق.

فهي عملية تقترب من الكيف والمزاج أكثر مما تقترب من الأمانة العلمية والموضوعية، مما يجعل المتلقي والمشاهد في حالة من الارتياح للأخذ بما توصلت إليه من نتائج، وفي حالة قلق دائم من إمكان بروز النصّ المخالف، أو الرأي المباين في أيّ وقت.

إنّ تجزيء الكلّ يفقده خواصه ككلّ، ويحيله مجموعة من

الأوصال المقطعة التي لا تعبر عنه، ومن هنا جاءت فكرة الجشطلتيين والبنويين القائلة بأن الكل يختلف عن مجموع الأجزاء، وخصائص الجزء لا تعكس خصائص الكل<sup>(٤٧)</sup>.

ويرى الإسلام أنه لا تنتظم حبات عقده ضمن خيط إلا إذا أخذ بمجموعه، أما أخذ شيء وترك آخر فإنه يساوي عدم الأخذ بأيّ منه: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾<sup>(٤٨)</sup>.

وأحكامه مترابطة بحيث يتعاقب فيها الحكم الفقهي مع الضابط الأخلاقي؛ ليسيراً معاً نحو منبع التوحيد العقدي، ولعل هذا مما يفسر تلك الآيات القرآنية التي تتداخل فيها أنواع الأحكام على نحو ما نراه في قوله تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ، وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾<sup>(٤٩)</sup>.

ومن هنا فالتجزئي يُذهب الدين، ويحيله إلى كومة من أجزاء متناثرة لا تحكيه؛ لأنَّ «جزء الصورة لا يعكس الصورة كاملة».

ولذلك فإنَّ فصل علم الفقه عن الأخلاق والعقيدة قد ينتج أحكاماً مبتسرة لا تتناغم مع المنظور القيمي العام للدين، وإن استُخرجت حرفياً من مقطع عُزل عن باقي المؤثرات المشكلة للحكم.

(٤٧) الموسوعة الفلسفية العربية، مصدر سابق، ج٢، القسم الأول، ص ٥٥٥ (الجشطلتيية). ود/ ميجان الرويلي، ود/ سعد البازعي، دليل الناقد العربي/ ٣٣ (البنوية والنقد البنيوي).

(٤٨) سورة البقرة/ ٨٥.

(٤٩) سورة البقرة/ ١٧٧.



كما أنّ اعتماد (٥٠٠) آية فقط بوصفها (آيات الأحكام) في عملية الاستنباط، دون النظر إلى غيرها - يفقد تلك الأحكام كثيراً من مصداقيتها.

كذلك الحال عند فصل سياسة الدين واقتصاده واجتماعه عن عقيدته وتشريعه؛ لأنه كإقصاء أحد المؤثرات في التجربة، والذي من دونه لن يتم لها النجاح، ففي المفهوم القرآني للنظرية الاجتماعية قد يكون ناتج السياسي عبادياً وأخلاقياً: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ، وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾<sup>(٥٠)</sup>، أو ناتج الاقتصادي والسياسي عقدياً: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ \* الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ، وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾<sup>(٥١)</sup>، وناتج العبادي أخلاقياً: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾<sup>(٥٢)</sup>، كما تنبسط دوحة الإيمان على شتى المناحي: العقدية والمعرفية والأدائية: «الإيمان: قول مقول، وعمل معمول، وعرفان العقول»<sup>(٥٣)</sup>، وهكذا...

وبعبارة ثانية: فكل تلك الجوانب متأزرة، وهي حياض وترع، تصب كل واحدة منها في الأخرى، وتستمد منها، وكلها (تكليف) في فعله ثواب، وعلى تركه عقاب، وما الفصل بينها إلا في عالم البشر ومفاهيمه وتصنيفاته.

### ٣- استلهام الحياة:

وبينما تأخذ تشكيلة (تجميع الأجزاء) بعملية تركيبية تستهدف بناء كل غير موجود سلفاً، وتقوم تشكيلة (تجزئ المركب) بعملية تحليلية تستهدف حلحلة الكل، وأخذ بعضه، يذهب هؤلاء في (استلهام الحياة) إلى عملية نقضية تبغني تجاوز الذات واستقاء الكل من خارجها، وإعطائه الصلاحية المطلقة، والتفرّد بالامتياز في صياغة

(٥٠) سورة الحج/ ٤١.

(٥١) سورة قريش/ ٣-٤.

(٥٢) سورة العنكبوت/ ٤٥.

(٥٣) ميزان الحكمة، مصدر سابق ١/ ٣٠٢، (حديث للرسول ﷺ).

الثقافة، ورسم المنهج العملي السلوكي، والسبب هو عدم قناعتهم بفاعلية الذات ومقوماتها من طرف، وعدم مراعاتها وثوابتها وحاجاتها من طرف ثانٍ، والانبهار بالآخر، والنظر إليه بوصفه الضوء الوحيد في نهاية النفق المظلم، والمخرج الأوحده الحائز على جميع النجاح من طرف ثالث.

إننا حين نطلق مصطلح (الاستيراد الثقافي) و (الثقافة المستوردة) نعلم أنّ الفكر والثقافة ليسا سلعة تُستورد وتُصدّر، ولكننا نعني أنّ هناك أفكاراً ونظريات في مكان، فيأتي من يأخذها دون تفكير وتمحيص، يأخذها بوصفها مسلماً قابلاً للتطبيق في مكان آخر، دون أن يضع في حسبانته الفوارق الاجتماعية، وموافقة (المجتلب) للخصوصية الثقافية.

وهو بذلك إنّما يأخذ معلباً جاهزاً يريد أن يمحور الناس وفقه، فيخرجهم علباً تتلاءم معه، كما تخرج ماكينة صناعة الطابوق الطابوق بشكل واحد جاهز.

وهذا ما يدفع المجتمع لأن يرى ذلك (دخيلاً) عليه، لا يتناغم مع وقع قيثاره، فلا يلبث أن يلفظه، ويسقطه.

أما كون مصطلحي (الاستيراد) و (التصدير) مأخوذين من علم الاقتصاد، فذلك لا يضير بأصل الفكرة التي يُقصد منها: الاستمداد من الآخر بما لا يوافق الذات، خصوصاً مع القول بـ (الخاصية الابستمولوجية) التي ينادي بها الجابري، وتناقل مصطلحات العلوم طوياً وعرضاً، فمصطلح (التبيئة) نفسه مشتق من علم الجغرافيا، وكذلك الحال مع (البيئة الفكرية)، ومع ذلك لم نقل بأنّ الثقافة ومفاهيمها أمر معنوي لا يُوصف بذلك.

ثمّ هم يستعملون مصطلحات أخرى مشابهة ك (حضريات المعرفة) الجيولوجي، و (منتجات العقل) الاقتصادي، و (تقنيات) و (آليات) الميكانيكيين.

والاستعمال والتوظيف لا يغيّر من الواقع، فالغزو موجود، والاستيراد الثقافي كذلك.

ولماذا نقبل ذلك في ألمانيا وفرنسا، ونقبل قولهم بالغزو الثقافي الأمريكي، ونقبل القول بالخصوصية والذات اليابانية، ونرفضه عندنا؟<sup>(٥٤)</sup>.

#### ٤- تفعيل الذات:

أما صيغة (تفعيل الذات) في شكلها: العربية، والإسلامية - وحدها - مع قطع النظر عن عملية المعاصرة والتحديث - فإنَّهما كذلك لا تقومان عموداً صلباً لبناء الثقافة الحية<sup>(٥٥)</sup>.

وتبقى صيغة (الأصالة والمعاصرة) التي تأخذ بمكتنزات الذات، والانفتاح على عوامل القوة في الآخر - هي الصيغة المثلى.

#### مواصفات الثقافة الحية:

تتصف الثقافة الحية بمواصفات هامة، منها:

##### ١- المبدئية والرسوخ:

يرى بعض المثقفين أنَّ الثقافة - بالضرورة - هي نتاج بشري، لا صلة للوحي به، والمثقف متصل بما هو بشري لا إلهي، وأنَّ إدخال الدين ضمن النسيج الثقافي والاجتماعي يعني السير بها نحو الكهنوتية والحكم الديني (الثيوقراطي).

فمن الناحية المفهومية، يضعون إطاراً عاماً للثقافة بأنَّها: «كلُّ ما صنعه يد الإنسان وعقله من أشياء، ومن مظاهر في البيئة الاجتماعية»<sup>(٥٦)</sup> - على حدِّ تعبير كلباتريك -.

..«ما صنعه يد الإنسان وعقله»، لا ما يتصل بالوحي والسماء.

ومن الناحية التطبيقية، يرون في تجربة الحكم الكنسي في

(٥٤) (الفزو الثقافي وسبل مواجهته)، مصدر سابق، مجلة (الثقافة الإسلامية)، العدد

٦٧، ذو الحجة - محرَّم / ١٤١٦-١٤١٧هـ، أيار- حزيران / ١٩٩٦م، ص ١٢-١٣.

(٥٥) انظر مناقشة هاتين الصيغتين ضمن العنوانين السابقين في هذا البحث: الذات الإسلامية، الإسلام المنفتح.

(٥٦) مقدِّمة في التربية، مصدر سابق / ١٢٤.

العصور الوسطى، وما رافقه من محاكم تفتيش [أنشئت في ١١٨٣م]، وقمع وقهر للعلم والعلماء باسم الدين، أودى بـ (٣٠٠,٠٠٠) شخص، منهم (٣٢,٠٠٠) أحرقوا أحياء!<sup>(٥٧)</sup>، ومن ثم دعوة المصلحين الغربيين إلى الفصل بين الدين والدولة، الدين والحياة... يرون في ذلك مثلاً جلياً على ضرورة ترك الإنسان ليشكل ثقافته بنفسه دون إملاء ديني.

فحينما «بدأ الغرب في دراسة الطبيعة بواسطة المشاهدة والاختبار والتحليل والتجزئة سقط في أيدي رجال الكنيسة، ولما وصل العلماء بطرق عملية إلى اكتشافات مهمة خاف علماء النصرانية على سيادة الكنيسة أن تنقرض، فحدث صراع عنيف بين الدين والعلم، وذهب كبار علماء الطبيعة الذين كانوا عاكفين على دراستهم وتحقيقهم ضحية علمهم»<sup>(٥٨)</sup>.

وهكذا يصل بعضهم - كإدوارد سعيد [١٩٣٥-٢٠٠٣م] - إلى نتيجة حاسمة مفادها أن المثقف الحقيقي كائن علماني<sup>(٥٩)</sup>. وقد عاب الدكتور هشام شرابي على حركة الانبعاث الديني التي قادها السيد جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤-١٣١٥هـ]، [١٨٣٨-١٨٩٧م]، والشيوخ محمد عبده أنها «لم تضع العقيدة موضع تساؤل»<sup>(٦٠)</sup>، وعدم «تعريضها للنقد الحر»<sup>(٦١)</sup>.

إنه «التصوير الذي يقدم المثقف بنزعة نقدية مطلقة، ومتحررة من العقائد والأديان والإيمان بالغيب وما وراء الطبيعة، وإعمال العقل بلا قيد أو شرط، والتعبير عن الرأي بلا محرّمات أو موانع، وأن الإنسان سيّد نفسه، وليس هناك مسلمات أو إيمان أو تسليم.

(٥٧) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، مصدر سابق / ١٧٦.

ويقدر الشيخ محمد عبده عدد قتلى الحكم الكنسي بـ ٣٤٠,٠٠٠ شخص، والذين أحرقوا أحياء بـ ٢٠٠,٠٠٠ شخص (الإسلام والنصرانية / ٤١)، وأن تلك المحاكم في غضون ثمانية عشر عاماً فقط [١٤٨١-١٤٩٩م] عاقبت ٩٧٠٢٣ شخصاً، وأحرقت ١٠٢٢٠، وشنقت ٦٨٦٠ (المصدر / ٣٩) ..

(٥٨) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مصدر سابق / ١٥٠.

(٥٩) إدوارد سعيد، صور المثقف / ١٢١.

(٦٠) الدكتور هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب / ٣٧.

(٦١) المصدر / ٣٧.

وبهذا الفهم فإنّ المثقف لا يمكن أن يكون دينياً؛ لأنّ الدين - حسب هذا الفهم - يحدّ من الفكر النقدي، ويقيّد إعمال العقل، ويفرض مسبقات ومسلّمات وإيماناً وتسليماً، والإنسان بهذه الشروط والالتزامات لا يصبح مثقفاً حقيقياً حسب هذه الرؤية...» (٦٢).

ومن خلال قراءة تجربة الحكم الكنسي في العصور الوسطى [٤٧٦-٤٥٣م]، وما رافقه وتلاه من دعوات للفصل بين الدين والدولة - كثورة ديكرت وبيكون - «يتضح أنّ صراع العقل مع الدين هو صراع الفكر الإنساني مع مسيحية الكنيسة، وأنّ دوافع هذا الصراع هي الظروف التي أقامتها الكنيسة في الحياة الأوروبية، سواءً في مجال التوجيه والبحث، أو في مجال السياسة، أو نطاق العقيدة والإيمان» (٦٣).

كما يتضح أنّ توسيع دائرتها لتشمل الإسلام تعميم مع وجود الفارق الكبير؛ لأنّ الإسلام يحثّ كثيراً على التفكير وإعمال العقل والتجربة وشتى منافذ المعرفة البشرية، ويأمر الإنسان بالتأمل في الأفق والأنفس، واستلهاً الحقائق الكونية.

### مكانة الوحي في بنى الثقافة:

إنّنا ندرك - بالوجدان والملاحظة والتجربة، وبتتبع مفردات الحياة والواقع - محدودية القدرة البشرية، وعدم استطاعتها تحطّي بعض الصعاب، ولا سيّما فيما يرتبط بالغيب والماورائيات.

كما أنّ واضح الثقافة ينبغي أن يكون عالماً محيطاً، ولا تحكمه الأهواء والشهوات، كما لا يخضع للمهادنات والسوامات.

وأنّ الإنسان الذي يشعر بأنّ هذه الثقافة وضع بشري (ثقافة وضعية) لا يجد في قلبه وضميره المقدار الذي يجعله يخلص لها كما لو رآها ديناً يدين به؛ وبهذا يُفقد سمة (الرباني) ومكانته، ويُسبغ

(٦٢) محنة المثقف الديني مع العصر، مصدر سابق / ٤٠-٤١.

(٦٣) سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته / ٦٢، نقلاً عن: الدكتور محمد البهي، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي (د ص).

عليها حلة المحدودية التي تستدعي المراجعة بين الفينة والأخرى؛ لإعادة التأهيل والبلورة، تحت ضغوط تلافي مواقع الخلل والنقص التي بدت سافرة واضحة وإسقاطها، وإضافة عناصر أخرى يُظن أنها المتّمّح المنجح.

فالأمر الاعتبارية الوضعية يمكن اختراقها بسهولة، بل.. وأكثر من يخرقها هم الواضعون لها، والعالمون بها؛ لمعرفة بمداخلها ومخارجها.

ومن ثمّ فإنّ الإنسان بعقله الخصب المعطاء لا يستطيع أن يكون مصدر التشكيل الثقافي الوحيد للإنسان، وبالتالي فلا بدّ من الاستمداد من السماء... من القدرة اللامتناهية.

لذلك لا تكفي الثقافة الأصيلة الحية بما هو بشري، بل.. تنطلق من أرضية ثابتة مستقرة، ومبادئ لا تميل عنها ولا تحيد، لا تتأثر بالهوى والمصلحة، ولا تقبل الوصلية، هدفها ومبتغاها واضح، ووسائلها شريفة ونبيلة.

ثقافة وضعتها السماء لتتخذ الورى وتخرجهم ﴿مَنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ..﴾<sup>(٦٤)</sup>، ومن طرق الضلال وسبله الوعة إلى الصراط القويم: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ، فَتَفْشَرُوا عَنْ سَبِيلِهِ..﴾<sup>(٦٥)</sup>.

ثقافة تتناغم وتتفاعل مع الوعي والوجدان... العقل والفطرة ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>(٦٦)</sup>، ﴿لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾<sup>(٦٧)</sup>، ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾<sup>(٦٨)</sup>.

وهذا يعني أنّ كون الثقافة ربانية لا يتناقض مع العقل؛ بل..

(٦٤) سورة البقرة / ٢٥٧.

(٦٥) سورة الأنعام / ١٥٣.

(٦٦) سورة البقرة / ١٦٤.

(٦٧) سورة آل عمران / ١٩٠.

(٦٨) سورة الروم / ٣٠.

هو تحريك له في أبعد مقدار ومدى، وإضفاء العبادة على ذلك: «لا عبادة كالتفكير في صنعة الله عز وجل»<sup>(٦٩)</sup>.

ثقافة ليست دخيلة وافدة، بل.. نبعت من عمق المجتمع وحاجاته، تتفاعل وتتناغم مع حركاته وسكناته، مع عقيدته ووجدانه، وتضفي عليه مسحة الأمان، وتغدق عليه كل خير وبركة ﴿وَأَلِّوْا سِنْتَكُمْ وَالطَّرِيقَ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا..﴾<sup>(٧٠)</sup>.

وتتحلى بالرسوخ والتجذر في أعماق المجتمع؛ لأنه على قناعة تامة بها، في حين تبقى الثقافات الأخرى محل نظر وارتياب..

## ٢- الانفتاح والاستيعاب:

فحتى لا تصبح الثقافة جامدة محنطة في متاحف التاريخ لابد أن تتحلى بجانب من الانفتاح والاستيعاب، فتستفيد من مستجدات العصر والزمن، ومن حسنات الثقافات الأخرى.

فإلى جانب مبادئها وثوابتها التي لا تقبل التغير والتبدل، تحتوي على جانب يتسم بالمرونة والتفاعل، ووضعت فيه الكليات والضوابط العامة، أما تطبيقاته وتجسيده في الواقع الخارجي فمرنة متفاعلة معه، قادرة على استيعاب كل جديد، تأخذ بعينها إمكانية التطبيق وزمانه وكيفيته وظروفه.

الإسلام حين يقول:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ..﴾<sup>(٧١)</sup>.

«الإسلام يعلو، ولا يُعلى عليه..»<sup>(٧٢)</sup>.

«لا ضرر ولا ضرار في الإسلام..»<sup>(٧٣)</sup>.

(٦٩) بحار الأنوار، مصدر سابق ٦٨ / ٣٢٤.

(٧٠) سورة الجن / ١٦.

(٧١) سورة الأنفال / ٦٠.

(٧٢) ميزان الحكمة، مصدر سابق ٤ / ٥١٨.

(٧٣) المصدر ٥ / ٤٩٢.

يعطي القاعدة العامة والمناطق الكلي:

فالقوة المطلوبة في الآية الكريمة لم تُحدّد بمفردة جزئية؛ لتشمل وتستوعب كامل القوة: قديمها وحديثها، في المجال الثقافي، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والعسكري، والفردى، والجمعي، و...

وعلو راية الإسلام تحتاج إلى مقومات وآليات العلوّ المستجدة مع كلّ زمان ومكان، وفي شتى الجوانب والميادين.

وقد منع الإسلام الضرر بالنفس، والإضرار بالآخرين، لكن ما هو الضرر المحرّم كمفردة خارجية؟ وما نوعيته؟

لقد سكت الإسلام عن تلك الجزئيات؛ ليعطي لخطابه القدرة على استيعاب كلّ جديد.

«ومن هنا نؤمن بأنّ الصورة التشريعية الإسلامية الكاملة لمجتمع هي في الحقيقة تحتوي على جانبين: تحتوي على عناصر ثابتة، وتحتوي على عناصر متحرّكة ومرنة. وهذه العناصر المتحرّكة والمرنة التي تُترك للحاكم الشرعي أن يملأها فُرضت أمامه مؤشرات إسلامية عامة أيضاً؛ لكي يملأ هذه العناصر المتحرّكة وفقاً لتلك المؤشرات الإسلامية العامة..»<sup>(٧٤)</sup>.

فالعناصر الثابتة تمثّل منطقة الاستقرار في التشريع الإسلامي، والتي لا يمكن بحال أن تتغيّر عدداً، أو شكلاً، أو زماناً، أو مادةً ومحتوىً أو غير ذلك.. من الاعتبارات الخاصة بها، كما الأمر مع العبادات.

أما العناصر المرنة والمتحرّكة، فهي المنطقة التي أوضح الإسلام فيها الكليات والملاكات والمناطق، وترك للحاكم الشرعي أن يملأ (منطقة الفراغ) هذه بأحكام تفصيلية وفقاً لتلك الكليات، وهكذا يملأ مستجدات الزمن، و(الحوادث الواقعة).

(٧٤) السيّد الشهيد محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية/ ٢٤٠- ٢٤١.



## الانفتاح.. ونقاء الثقافة:

وإزاء مفهوم الانفتاح المعرفي والعملي على الآخر المختلف تبرز أمامنا مشكلة كبيرة يحكيها حديث أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «يا كميل، لا تأخذ إلا عنا.. تكن منا..»<sup>(٧٥)</sup>.

فالأخذ من الآخرين يعني عدم أصالة ونقاء ثقافة الذات، ووجود بذور من ثقافة أخرى ضمن نسيجها وتركيبها، والحديث يحذّر من ذلك، ويتخذ أسلوب الحصر (لا.. إلا..); ليهدم الفكرة القائلة بضرورة الانفتاح المعرفي على الآخر، والاستقاء من غير المصدر الوحيد: الإسلام الأصيل.

وهنا تبرز لنا مستويات ثلاثة لمساق الحديث:

أ - مستوى الاستماع.

ب- مستوى الاقتناع.

ج - مستوى الاتّباع.

فهل يشملها جميعاً، بمعنى أنّه لا يجوز - على هذه المستويات الثلاثة - الأخذ من غير هذا النبع؟ أم يتحدّث عن بعضها فقط؟ وما الدليل على ذلك؟

بالنسبة لمستوى الاستماع، يقول القرآن الكريم: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ \* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾<sup>(٧٦)</sup>، فهم ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ - مطلق القول -؛ لأنّ (أل) هنا استغراقية تفيد العموم والشمول لكلّ الأفراد.

كما أنّ القرآن عرض بين دفتيه مجموعة كبيرة مما كانت تعتقده الأقوام السابقة من أباطيل، وأقوال ضالة، وأعمال منحرفة:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُضْرِبُوا إِلَيْنَا إِلَهُ زُلْفَى..﴾<sup>(٧٧)</sup>.

(٧٥) تحف العقول، مصدر سابق/ ١١٩.

(٧٦) سورة الزمر/ ١٧-١٨.

(٧٧) سورة الزمر/ ٣.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ: يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ، مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي.. ﴾<sup>(٧٨)</sup>، ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾<sup>(٧٩)</sup>.

﴿ وَقَالُوا: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا: نَمُوتُ وَنَحْيَا، وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ.. ﴾<sup>(٨٠)</sup>.

ومن أمثلة الأعمال الشائنة: تظيف الكيل والميزان عند قوم شعيب ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ، وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ.. ﴾<sup>(٨١)</sup>، والشذوذ الجنسي عند قوم لوط ﴿ أَنَتَّوْنُ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ؟.. ﴾<sup>(٨٢)</sup>، ووَاد البنات في المجتمع الجاهلي ﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ \* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ.. ﴾<sup>(٨٣)</sup>.

وهذه وغيرها آيات مقدّسة تُتلى، ونصغي إليها.

ولقد عاب المنافقون على النبي ﷺ أنه يستمع لكل من يتحدث له، ولما يقوله، فدافع عنه القرآن: ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ، وَيَصُوتُونَ: هُوَ أَدْنُ، قُلْ أَدْنُ خَيْرٌ لَكُمْ، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ، وَالَّذِينَ يُؤَدُّونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.. ﴾<sup>(٨٤)</sup>.

ولكنّ الإسلام على (مستوى الاقتناع) يحرص على ألا يأخذ أتباعه إلا بالحق:

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا، فَلَنْ يُضِلَّ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾<sup>(٨٥)</sup>.

(٧٨) سورة القصص / ٣٨.

(٧٩) سورة النازعات / ٢٤.

(٨٠) سورة الجاثية / ٢٤.

(٨١) سورة الشعراء / ١٨١.

(٨٢) سورة الشعراء / ١٦٥.

(٨٣) سورة التكوير / ٨ - ٩.

(٨٤) سورة التوبة / ٦١.

(٨٥) سورة آل عمران / ٨٥.

﴿قُلْ: هَذِهِ سَبِيلِي، أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي..﴾<sup>(٨٦)</sup>.

ويرفع البرهان حجة ودليلاً ومرجعية ﴿قُلْ: هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ..﴾<sup>(٨٧)</sup>.

وعلى (مستوى الاتباع) والعمل يدعو الإسلام إلى منظومة عملية تحددها الأحكام التشريعية، وتتظم ضمن ﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ..﴾<sup>(٨٨)</sup>، ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ، وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾<sup>(٨٩)</sup>، ويلخصها معيار أنها الأخذ بالأفضل والأحسن ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

وحين يتم التمايز بين فعل يرضاه الإسلام / وفعل لا يرضاه، ولكن له أتباعاً يؤمنون به من أصحاب ديانات أخرى، فإن الإسلام لا يقبل لمعتقيه فعله، ولكنه - من باب عدم الإكراه في الدين، والسماحة مع المخالفين - يترك لأولئك فعله: ﴿قُلْ: كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾<sup>(٩٠)</sup>، ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا، وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾<sup>(٩١)</sup>.

وبهذه الدلائل القرآنية، وعدم مخالفة أهل البيت عليهم السلام للقرآن، يبدو أنّ (لا تأخذ إلا عنّا.. تكن منّا)، تتحدّث عن مستوى الاقتناع، ومستوى الاتباع، فيما يتصل بالثابت الديني، لا المتطور المدني الديني، أما الاستماع وفهم ما عند الآخر، فإنّه أدب ديني أخلاقي، لا يمنع الإسلام أهله منه.

### ٣- الشمولية:

فكما أنّ تخلفنا حضاري شامل لا يمكن قصره على جانب واحد، فالثقافة الحية - كذلك - ينبغي أن تكون شاملة؛ لتستطيع القيام

(٨٦) سورة يوسف / ١٠٨.

(٨٧) سورة البقرة / ١٦١.

(٨٨) سورة العصر / ٣.

(٨٩) سورة الأعراف / ١٥٧.

(٩٠) سورة الإسراء / ٨٤.

(٩١) سورة البقرة / ١٣٩.

بعملية الإنهاض والبناء بكل اتجاهاتها.

ثقافة تضم بين جوانحها الغيب والشهادة، العقيدة والأخلاق والتشريع، التشريع الفردي والجمعي، شمول التصور للإنسان والكون والحياة، وكمال المبادئ التي تضعها لتنظيم الحياة، و...

لأن الإنسان كل متكامل الأبعاد، ولا يمكن أن يُشفي ظمؤه وغليله بالتركيز على الجانب العقدي وحده، أو الفقهي وحده، كما لديه ماديات ومعنويات، ولا يعيش منفرداً، بل.. ضمن جمع، فلا يكفي أن يكون الخطاب له دوماً متمثلاً إياه في صورته كفرد.

هذه الشمولية التي تفتقدها النظم والثقافات الوضعية التي غاية ما قد تستطيعه هو خطاب العقل، دون القدرة على مخاطبة الوجدان، وربطه بالعمل، وعدّ الأداء (تكليفاً) و(امثالاً) يجري بعين الله، ودون القدرة على تحطّي الحدود المادية الضيقة للانفتاح به على (الموارثيات)، وعوالم الغيب والأخرة.

فهي بذلك تلد نظماً وقوانين فاترة، لا ترتقي إلى مستوى ما يخلقه الدين من نشاط حين يسبل على الإنسان طابع العبودية في كل حركاته وسكناته؛ ليضحى أكله وشربه، نومه ويقظته، وسائر أفعاله عبادة يقصد بها وجه الله - سبحانه وتعالى -: ﴿قُلْ: إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٩٢)</sup>.

سما الإسلام لتكون أدواته ذات خطاب شامل لكل مفردات الحياة، فالقرآن الكريم بسعته: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(٩٣)</sup>، ثم السنة المباركة التي توغلت في أعماق التفاصيل، ثم الأحكام الفقهية التي جاءت؛ لتضع لكل شيء حكماً (حتى إرش الخدش)، والأمور البسيطة جداً، التي ينظر إليها كثيرون بوصفها تافهة لا تستدعي أن يتكفل الله العلي العظيم أن يبت فيها.

لقد تعجب مشركو قريش من التشريع الإسلامي حين رأوه

(٩٢) سورة الأنعام / ١٦٢.

(٩٣) سورة الأنعام / ٣٨.

يدخل في كلِّ شيء، حتى قالوا مستهزئين لسلمان الفارسي [ت حوالي ٣٥هـ/٦٥٥م]: «قد علمكم نبيكم كلَّ شيء حتى الخراءة؟ قال: أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وألا نستنجي باليمين أو نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو نستنجي برجيع أو بعظم»<sup>(٩٤)</sup>.

وإن كان هذا الكلام لا يعني أن نعطي تبريراً لمتداولاتنا الفقهية، وكتبنا، وفتاوانا، التي غلب عليها الطابع الفردي من التشريع، فأغفلت الصورة الجمعية للمجتمع، وما يتعلّق بها من أحكام.

يقول السيد الشهيد الصدر:

«فالمجتهد - خلال عملية الاستنباط - تمثّل في ذهنه صورة الفرد المسلم الذي يريد أن يطبق النظرية الإسلامية للحياة على سلوكه، ولا يتمثّل صورة المجتمع المسلم الذي يحاول أن ينشئ حياته وعلاقاته على أساس الإسلام»<sup>(٩٥)</sup>.

«إنّ الانكماش في الهدف، وأخذ المجال الفردي للتطبيق بعين الاعتبار فقط نجم عنه انكماش الفقه من الناحية الموضوعية، فقد أخذ الاجتهاد يركّز باستمرار على الجوانب الفقهية الأكثر اتصالاً بالمجال التطبيقي الفردي، وأهملت المواضيع التي تمهّد للمجال التطبيقي الاجتماعي نتيجة لانكماش هدفه، واتجاه ذهن الفقيه حين الاستنباط غالباً إلى الفرد المسلم وحاجته إلى التوجيه بدلاً عن الجماعة المسلمة وحاجتها إلى تنظيم حياتها الاجتماعية.

وهذا الاتجاه الذهني لدى الفقيه لم يؤدِّ فقط إلى انكماش الفقه من الناحية الموضوعية، بل.. أدى بالتدرج إلى تسرب الفردية إلى نظرة الفقيه نحو الشريعة نفسها، فإنّ الفقيه - بسبب ترسخ الجانب الفردي من تطبيق النظرية الإسلامية للحياة في ذهنه، واعتياده أن ينظر إلى المفرد ومشاكله - عكس موقفه هذا على نظريته إلى الشريعة فاتخذت طابعاً فردياً، وأصبح ينظر إلى الشريعة في نطاق الفرد،

(٩٤) الجامع الصحيح (صحيح مسلم)، مصدر سابق / ١ / ١٥٤، باب الطهارة (الاستنباط).

(٩٥) بحوث إسلامية، مصدر سابق / ٢٢٣.

وكأنَّ الشريعة ذاتها كانت تعمل في حدود الهدف المنكمش الذي يعمل له الفقيه فحسب، وهو الجانب الفردي من تطبيق النظرية الإسلامية للحياة»<sup>(٩٦)</sup>.

#### ٤ - الموضوعية:

فالثقافة الحية ثقافة لا تجيز لنفسها الكذب والدجل والاختلاق، فهي قوية وقائمة بذاتها، بحيث لا تحتاج إلى عناصر ملتوية لتثبيت حالها.

إنَّ الإسلام يعلمنا أنَّ من يدخل في حوار مع من يخالفه الرأي ينبغي أن يتحلى بالموضوعية والانفتاح والقدرة على تقبُّل الرأي الصحيح دائماً.

يعلمنا أن نشكك في رأينا، لا أن نراه حقيقة مطلقة، وبالتالي لا يمكن التخلي عنه، فحتى رسولنا الأكرم ﷺ، وهو متيقن من صحة العقيدة الإسلامية بوصفها وحياً إلهياً منزلاً، يأمره الله - سبحانه - أن يحاور الكفار بروح الموضوعية، وأن يقول لهم: فلنأت للبحث على بساط الموضوعية، وليتخلَّ المخطئُ منَّا عن رأيه، سواءً أكنَّا نحن أم أنتم ﴿وَأَنَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٩٧)</sup>، وعلى حسب تعبير الإمام الشافعي [١٥٠هـ - ٢٠٤هـ]، [٧٦٧م - ٨٢٠م]: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب...»<sup>(٩٨)</sup>.

وهذا ما لم يفهمه الخوارج حين قالوا لعلي (عليه السلام): «نقمنا عليك أنك قلت للحكمين: انظروا كتاب الله، فإن كنت أفضل من معاوية فأثبتاني في الخلافة)، فإذا كنت شاكاً في نفسك، فنحن فيك أشدُّ وأعظم شكاً...»<sup>(٩٩)</sup>.

فقال (عليه السلام): «إنما أردتُ بذلك النصفة - الإنصاف - فإنِّي لو

(٩٦) المصدر/ ٢٢٥- ٢٢٦.

(٩٧) سورة سبأ/ ٢٤.

(٩٨) الشيخ عبد الله اليوسف، شرعية الاختلاف/ ٥٦.

(٩٩) السيد محمد كاظم القزويني، علي من المهد إلى اللحد/ ٢٢٩.

قلت: احكما لي دون معاوية لم يرض، ولم يقبل، ولو قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لنصارى نجران لما قدموا عليه: تعالوا نبتهل فأجعل لعنة الله عليكم، لم يرضوا، ولكن أنصفهم من نفسه، كما أمره الله فقال: ﴿فَتَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ..﴾<sup>(١٠٠)</sup>، فأنصفهم من نفسه، فكذلك فعلت أنا..»<sup>(١٠١)</sup>.

وهو ما يسمى في علم الأخلاق والمنطق بـ (المناصفة).

كما تعلمنا ثقافة الإسلام أن نحترم مقدّسات الآخرين، فلا نعدو عليها حتى لا يعدوا على مقدّساتنا: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ، ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ..﴾<sup>(١٠٢)</sup>.

ومن مواقع الموضوعية في هذه الآية:

أ - أنها تنهى عن سب ما يدعون من دون الله ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، مع أنّ ذلك (كالأصنام) باطل في نظر المسلمين... لكنّه احترام الآخر.

ب - وتجعل سبهم لله - سبحانه وتعالى - نتيجة للاستفزاز الذي وُجه لهم، فهي تبرّر لهم بأنّ عملهم لم يكن منطلقاً من فعلهم بدءاً، بل جاء ردّ فعل ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾.

ج - ثم تعطيهم الآية مبرراً عميقاً، فهي لا تصفهم أنّهم سبوا الله عن علم ومعرفة، بل.. صدر ذلك منهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

د - وتشير إلى الحقيقة القائلة: إنّ لكلّ إنسان مطلقات يضفي عليها لباس الجميل والمقدّس، وينظر إليها باحترام، ويرى غيرها ضلالاً، فالمسلمون الذين يؤمنون بالتوحيد (توحيد الله) إنّ سبوا عقائد غيرهم، فسوف تُسبّ عقائدهم؛ لأنّ غيرهم يؤمن بصدق

(١٠٠) سورة آل عمران/ ٦١.

(١٠١) الإمام علي من المهد إلى اللحد، مصدر سابق/ ٢٣٠.

(١٠٢) سورة الأنعام/ ١٠٨.

عقيدته، وخطأ الإسلام: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾.

هـ - وليس كل شيء يأخذ نصيبه وجزاءه في الدنيا، فنحن إزاء هذه العقائد التي نؤمن بخطئها، كيف يمكن لنا التسامح معها؟! لكن حين نعلم أنّ علينا البلاغ والنصح، والباقي إن لم يتم في الدنيا، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ﴾، وسوف ﴿يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، وهناك سيحاسبهم بالعدل والحجة والبرهان.

وليس الخيار لنا لنخلقه بالقوة والجبر، فالدين عقيدة واقتناع...، ليس شأننا جارحياً خارجياً يقبل الجبر، بل.. هو أمر قلبي جانحي داخلي، والأمور القلبية يمتنع القسر عليها: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾<sup>(١٠٣)</sup>، ﴿فَدَاكُرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُدَكَّرٌ \* لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُضَيِّطٍ﴾<sup>(١٠٤)</sup>.

و - وفي ظلّ الكلام المتأجج مع المخالف، ربّما يطيب للكثير موقف التجريح، والتلفظ بكلمات الطرد والإبعاد، وهنا تأتي الالتفاتة الحانية، التي لا زالت تنسب هؤلاء المبائنين إلى ﴿ربهم﴾، إنّها تنسبهم لله، ولا تقول: ثمّ إلى الله، بل.. تأتي بالضمير (هم) للنسبة، إنّهُ عطف الإله المحبّ لخلقه، المرید لنجاتهم.

## ٥- الفاعلية والحيوية:

الثقافة الحية ثقافة فاعلية ونشاط، لا تقبل السكون والجمود، فهي حيث حلّت أو ارتحلت تتحرّك للتأثير والتغيير نحو الأصلح والأفضل.

ثقافة تعمل على تنظيم علاقة الإنسان بالله - سبحانه وتعالى -، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وعلاقة الإنسان بالطبيعة والكون، وقد وضعت من التشريعات الحكيمة ما يستوعب ذلك كلّهُ.

ثقافة تفعل وتحرّك كلّ طاقات الإنسان: الجسم والروح

(١٠٣) سورة البقرة/ ٢٥٦.

(١٠٤) سورة الفاشية/ ٢١-٢٢.



والعقل، العقيدة والعلم والعمل، كما تفعل الطبيعة وعالم الأشياء من حوله ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارِكًا أَيَّنَ مَا كُنْتُ﴾<sup>(١٠٥)</sup> وتبث روح التميز في الأمة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ: تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾<sup>(١٠٦)</sup>.

هي ثقافة العمل الدؤوب ﴿وَقُلْ: اعْمَلُوا، فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾<sup>(١٠٧)</sup>، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾<sup>(١٠٨)</sup>، «ملعون ملعون من قال: الإيمان قول بلا عمل...»<sup>(١٠٩)</sup>.

العمل للدين والدنيا معاً، لا الانسحاب من الحياة تحت شعار الورع والعمل للأخرة، ولا التهالك على الدنيا: ﴿قُلْ: مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ: هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً، يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ..﴾<sup>(١١٠)</sup>، «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً..»<sup>(١١١)</sup>.

## ٦- الميدانية: ثقافة الحياة: (الثقافة بين المثال والواقع):

الثقافة الحية ثقافة حياتية تنبسط على شتى مجالات الحياة، وتلازم حاملها في نومه ويقظته، وحركاته وسكناته، ولبسه، وأكله وشربه، و...، ليست معتمدة على الفكر النظري وحده.

لقد ألف أفلاطون كتابه (الجمهورية)، وتمثّل فيه مجتمعاً طاهراً مثالياً يسوده العدل، ويخلو من الشوائب، وأخذ ينظر له... لكتّه في آخر حياته عدل عن نشدان (جنة الفردوس) في الدنيا، فألف

(١٠٥) سورة مريم / ٣١.

(١٠٦) سورة آل عمران / ١١٠.

(١٠٧) سورة التوبة / ١٠٥.

(١٠٨) سورة الشرح / ٧.

(١٠٩) ميزان الحكمة، مصدر سابق / ١ / ٣٠٦.

(١١٠) سورة الأعراف / ٣٣.

(١١١) ميزان الحكمة، مصدر سابق / ١ / ٣٧.

(الشرائع) الذي تخلى فيه عن مثاليات (الجمهورية).

و (المدينة الفاضلة) للفارابي مدينة يعشقها كل محب للأخلاق والإنسانية، وعندما يقرؤها يتلهّف للوصول إلى مكان وجودها، وتصدر أنفاسه زفرات الحسرة والحنين ترقباً لها وتطلعاً، لكن لا يكاد ينتهي من قراءتها حتى يدرك أنها نوع من المثالية، لا يمكن تحقيقه في الخارج؛ إذ (ما أسهل الكلام، وما أصعب العمل).

وتنبأت الشيوعية بزوال الرأسمالية وانقراضها، وسير البشر نحو مجتمع يتساوى فيه الجميع، يخلو من الطبقة، ولا يحتاج إلى نظام دولة؛ لأنّ العدل فيه قد تجسّد، والرخاء قد ضرب بأطنابه عليه، وأظله في كنفه.

لكنّ الشيوعية التي نشأت والرأسمالية قائمة، لم تستطيع حفظ الحياة لنفسها، إذ لم تدم أكثر من نيّف وسبعين عاماً [١٩١٧م - ١٩٩١م]، ثم شهد العالم تقسّم إمبراطوريتها العظمى (الاتحاد السوفيتي)، وتهاوي كيانات دول المنظومة الشرقية واحدة بعد أخرى.

وحينما يكتب كثير من الإسلاميين عن المجتمع، فإنهم يستمدون صورته من المجتمع المثال، المجتمع النموذج، (ما ينبغي أن يكون)، الخالي من كلّ وهن وعيب، لا من المجتمع المتحقّق الموجود أمامهم في الخارج (ما هو كائن). المجتمع المستل من النصّ الديني لا المجتمع المنظور المرئي على الأرض.

إنهم ينظرون إلى المجتمع/ الطموح، وليس المجتمع/ الواقع؛ لذلك تغدو كثير من أطروحاتهم نجومياً لألاءة في الليل الداجي، تداعب النفوس المتطلعة والأمال العذاب، وتسكّن المشاعر الهائجة، لكن لا تكاد تظهر الشمس لتكشف الواقع على حقيقته: ببياضه وسواده، بإشراقه وبؤسه، بشذاه ومنتته،... إلا وتلملم تلك الطروحات أذيالها، وتفرّ هاربة لتتركنا نعايشه ونصارعه كما هو بعيداً عن التصنّع وعمليات التجميل (والمكيجة)، ولنذكر أنّ تلك التشخيصات والحلول لم تكن لهذا الواقع، بل كانت لشيء آخر.

..ولكي يؤمن بعض الجاهليين اشترطوا على رسول الله

شروطاً مثالية تعجيزية، ﴿ وَقَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى:

- نَضْجَرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا.

- أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ، فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا.

- أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ - كَمَا زَعَمْتَ - عَلَيْنَا كِسْفًا.

- أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا.

- أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ.

- أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ.

- وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَشْرُؤُهُ.. ﴿ (١١٣).

لكن أمام هذه المثاليات يأتي الجواب صريحاً ومستمداً من الواقع:

أ - فالنبي ﷺ يعترف أنه بشر: ﴿ قُلْ: سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾ (١١٣).

وليس في هذا مشكلة، بل.. هو ألزم للحجة؛ لأنه ﷺ منهم، وهم مثله، فهم - بذلك - يستطيعون تنفيذ التشريعات، وهم قادرون عليها، ولكن المشكلة أنهم يريدون «خارقاً» حتى يتبعوه، لا شخصاً من جنسهم، تشمله نظم التكوين: يأكل، يشرب، يمشي في الأسواق، يُجرح، يمرض، يموت... ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا: أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۗ ﴾ (١١٤).

ب - وإذا انطبق هذا على عالم البشر، فالله - سبحانه - يخبرنا أنه سنة شاملة، تنطبق بذات الصرامة على غير البشر، ﴿ تَوَّكَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ ﴾ (١١٥)، هل سيبعث الله لهم

(١١٢) سورة الإسراء/ ٩٠-٩٣.

(١١٣) سورة الإسراء/ ٩٣.

(١١٤) سورة الإسراء/ ٩٤.

(١١٥) سورة الإسراء/ ٩٥.

رسولاً من البشر؟! لا، بل.. ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾<sup>(١١٦)</sup>، إنه من طبيعتهم، ملك مثلهم.

ومن المؤسف حقاً:

أن لا تهتم مجتمعاتنا، ولا تعطي مكانة للاستقراء الميداني، وعمليات المسح والإحصاء، والتجربة والآليات الميدانية المباشرة الأخرى، فتناقش الأمور ضمن تصورات ذهنية، لا تستمد شريان حياتها من الواقع، ولا تنتزع مصداقيتها منه، وتكتفي بالتخرّصات، أو الملاحظة الذاتية، مع ما تحويه في أكثر الأحيان من وجهات نظر شخصية لا تمت إلى الواقع الموضوعي بصلة.

«إنّ التعميم الذي يصل إليه الباحث، قد لا يكون تعميماً سليماً، بل.. متسرّعاً أو ذاتياً ناتجاً من آراء مسبقة اتخذها الباحث عن ضالته قبل أن يبدأ بدراستها..»<sup>(١١٧)</sup>.

أما في الكفة الأخرى:

فالغرب قد أرسى قواعده على أرضية صلبة، تعتبر الآليات العلمية والميدانية ضرورة لا يمكن صدور شيء من دونها، واهتمّ بمعامل للتجارب، ومختبرات للتحليل، ومعاهد للدراسات، والدراسات الاستراتيجية، وهناك شركات كبرى تقوم بتنفيذ مشاريع الاستبانات لمن أراد!!.

وللوصول إلى نتيجة ما.. تتضافر عنده جهود مؤسسات، ومجاميع كثيرة من العلماء والباحثين والاختصاصيين، ولسنوات طوال، الأمر الذي يجعل النتائج أقرب إلى الصحة والمصداقية.

## ٧- الوضوح والعمق:

من الصعوبة بمكان الجمع بين البساطة والوضوح من ناحية/ والعمق من ناحية أخرى، ولذلك قليلاً ما نجد ثقافة تجمع بين الأمرين.

التعقيد والغموض سمة ربّما تنشأ من عمق الفكرة والمبحث، أو

(١١٦) سورة الإسراء/ ٩٥.

(١١٧) السيّد محمد تقى المدرسي، المنطق الإسلامي/ ٥٥.

من عدم وضوح الأمر المطروح لدى عارضه، أو خوفه من المؤاخذة عليه، فيغمض ليحتمل كلامه أكثر من وجه؛ فيفرّ من المشكلة، أو من عدم سيطرته على أدوات اللغة ومفرداتها البيانية.

والسطحية وعدم التوغل في الأعماق صفة الذين يخافون الغرق، ولا يملكون سبل ومقومات السباحة والغور.

أما الثقافة الحية فتجمع بين الوضوح والعمق:

الوضوح من جهة الشكل، والعمق من جهة المضمون والهدف.

ففي حين يُسأل أحدهم عن النار، فيجيب: (هي اسطقس كلّ الاسطقسات) أو (هي استقدس كلّ الاستقدسات)، ولا تستطيع أكثر النظريات البشرية أن تجيب إلا عن جانب واحد، وتعلن عن عجزها الطبيعي عن الإجابة عن شتى مفردات الحياة - جاء القرآن الكريم والسنة المباركة بأسلوب يفهمه الجميع، لكنّ مضامينها عميقة، يفهمها كلّ حسب مستواه: الفقيه، المثقف، المحامي، المزارع،... ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ، فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ؟﴾<sup>(١١٨)</sup>، «نحن - معاشر الأنبياء - أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم»<sup>(١١٩)</sup>.

وكان الأنبياء يتحدّثون بلغة مجتمعمهم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ..﴾<sup>(١٢٠)</sup>.

يشهد لذلك أنّه طوال عصر تلقي الوحي لم يسأل أحدٌ عن المعنى المعجمي اللغوي لكلمة؛ لأنّها واضحة في أذهانهم، وإذا سألوا فإنّما عن المعنى الاصطلاحي الذي نقل إليه الشارع (الحقيقة الشرعية).

هم يعرفون معنى (خضراء)، ومعنى (الدمن): آثار الناس وما سوّدوا، أو ما سوّدوا من آثار البعير وغيره..<sup>(١٢١)</sup>، لكنّهم حين

(١١٨) سورة القمر/ ١٧.

(١١٩) تحف العقول، مصدر سابق/ ٣٢.

(١٢٠) سورة إبراهيم/ ٤.

(١٢١) لسان العرب، مصدر سابق/ ٤/ ٤١٠.

وعظمهم رسول الله ﷺ قائلاً: «إياكم وخضراء الدمن»<sup>(١٣٢)</sup>، كان في معرض الكلام عن الزواج، فكيف يلتقي المقصود اللغوي مع هذه المناسبة؟، لذلك سألوه عن معناها الاصطلاحي، فقالوا: وما ذاك؟ فأنتهم الإجابة: «المرأة الحسناء في منبت السوء...»<sup>(١٣٣)</sup>.

«شبه المرأة بما ينبت في الدمن من الكلال، يُرى له غضارة، وهو وبئ المرعى، منتن الأصل... أراد فساد النسب إذا خيف أن تكون لغير رشدة، وإنما جعلها (خضراء الدمن) تشبيهاً بالبقلة الناضرة في دمنة البعير...»<sup>(١٣٤)</sup>.

وإن كنا لا ننفي وجود قلائل ربّما تضيق بهم حتى بعض المفاهيم اللغوية، لكنّ الشاذ لا يُقاس عليه، ولا تطرد عليه القاعدة.

ومن عمق مصادر التشريع: أنها توغلت في عمق الإنسان والحياة، فتعرّفت على دواخل النفس البشرية، وأعماق الوجود، كما ارتقت إلى السماء والملا الأعلى.

و «إذا كان المثقف غير الديني يجد نموذج التاريخي في الفيلسوف الذي عُرف عنه التحدّث بخطاب يتصف بالتعقيد اللفظي، والتجريد الذهني، ولا يجاري فهم الناس، ولا يقترب من لغتهم وخطابهم، ويعيش في عالم غير عالم مجتمعه في برج عاجي، وكأنه على قمة جبل، بعيد عن الناس... فإنّ المثقف الديني يجد نموذج التاريخي في نموذج النبي الذي كانت مهمته مرتبطة بالناس وإلى الناس... مبلغاً ومعلماً وهادياً إلى سبيل الخير وطاعة الله، وكان يذهب إلى الناس، ويتحدّث بلسان قومه، ويخاطبهم على قدر عقولهم...»<sup>(١٣٥)</sup>.

## ٨- الوحدة والانسجام:

الثقافة الحية ثقافة منسجمة مع بعضها لا تتضارب ولا تتناقض، لا تذكر شيئاً لتخالفه في نفس الصفحة أو بعد صفحات، ينسجم مستوى جوانبها: قيمها وتطبيقاتها، فكرها وتشريعاتها، مما يجعل

(١٣٢) ميزان الحكمة، مصدر سابق ٤/ ٢٨٢.

(١٣٣) المصدر ٤/ ٢٨٢.

(١٣٤) لسان العرب، مصدر سابق ٤/ ٤١١.

(١٣٥) محنة المثقف الديني مع العصر، مصدر سابق/ ١٢٨-١٢٩.

معتنقها يعيش الؤثام الداخلي مع ضميره ومع الخارج، ولا يعاني التوتر النفسي، واضطراب النظرية والسلوك.

الوحدة التي امتلأ بها النبي الأكرم ﷺ، وتشبّع بها وجدانه، وصاغت كلّ جوانبه: الشخصية والاجتماعية، الدنيوية والأخروية، وراح يلهج بها لسانه: ﴿قُلْ: إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١٢٦)</sup>.

إنّها تعني «أنّ النشاط الثقافي في أيّ حقل من حقول الثقافة يجب أن ينسجم مع النشاطات الأخرى في وحدة منسّقة تعكس في سمع المثقف السمفونية الكونية، وتسبيح الموجودات كلّها»<sup>(١٢٧)</sup>.

### مجتمعاتنا وفشل الأطروحات الثقافية:

إبان الستينات الميلادية وما أعقبها دخلت إلى المجتمعات العربية والإسلامية تيارات عدة تحمل الهوى الشرقي أو الغربي، وسعت إلى تعميم فكرها وأطروحاتها في الساحة، ولكنّها لم تنجح.

ومن خلال ما مرّ في (مواصفات الثقافة الحية) يمكن أن نجمل أهم أسباب فشل تلك الأطروحات في الآتي:

#### ١- العداوة للدين والهوية:

أهم سبب لفشل تلك الثقافات التي أدخلت إلى مجتمعنا هو خطابها المعادي للدين، فضلاً عن ممارستها العملية لذلك، فالفكر الماركسي كان يحمل لواء ماركس: «الدين أفيون الشعوب..»<sup>(١٢٨)</sup>، والعلمانية كانت تنادي بضرورة فصل الدين عن الدولة.

هذا في حين كان المجتمع ينطلق من خلال الدين لإضفاء الشرعية على أيّ شيء، أو سلبها عنه، ويضع كلّ ما لا يتصل به موضع شكّ وريب، بل.. موضع رفض مطلق.

(١٢٦) سورة الأنعام / ١٦٢.

(١٢٧) السيد موسى الصدر، الإسلام.. عقيدة راسخة ومنهج حياة / ٥٥.

(١٢٨) عقليات إسلامية، مصدر سابق ٢ / ٥١٣.

## ٢- الاعتماد على قيم الآخر:

وبدلاً من الاعتماد على قيم الذات؛ لأنها الأكثر إقناعاً لمجتمع يرى فيها دينه وهويته، كانت تعتمد على قيم لا تتوافق معه، مجتلبة من المجتمعات الأخرى التي قد تُصنّف ضمن المختلف، كالدعوة لسفور المرأة والاختلاط تحت شعار تحرير المرأة، والمساواة بين الجنسين، أو ...

وهي بذلك لم تزرع بذوره في أرضه المناسبة لها، بل.. اجتلبت بذوراً أخرى لا تصلح للزراعة فيها.

## ٣- لغة الخطاب المتعالي:

لقد واجه المجتمع لغة خطاب (مقروء/ مسموع/ مرئي) تعتمد الغموض، وتغرق في المصطلحات الصعبة على عقليته العامة، وتحتاج إلى عناء لفكّ (شيفراتها) ورموزها، فما كان منه إلا أن تركه فلم يقرأه، ولم يعره أذنّاً صاغية.

ومن ثم وُلدت نبرته الدّعائية ميّنة، فاقدة لخاصية التفهيم والتأثير في الآخرين.

## ٤- الاصطدام مع المجتمع:

وفي بعض الأحيان كانت تلك الثقافات تصطدم مع المجتمع سواءً عن طريق تلك الأوصاف التي تطلقها عليه، وتصفه بأنه مجتمع: قديم، متخلف، ساذج، يركن إلى الموروث، ويقدم الأساطير،...، أو عن طريق مواجهته بأطروحات لا يتقبّلها كمحاولة إقناعه بنظرية دارون، وأنّ أصل الإنسان قرد!!

أو عن طريق الاصطدام العملي بالمجتمع، والتكيل به، لاسيما في بعض الأقطار التي أمكن تلك الثقافات تسنّم العرش السياسي فيها فترة من الزمن، أو نيل الحظوة في استصدار القرار وتطبيقه.

## ٥- التنظير للمثال:

كثير من الأطروحات الثقافية التي سعت أن تفهم المجتمع، وتحلّل شخصيته، وتضع الحلول لأدوائه لم تكن تستقي من ينابيعه،



بل كانت تعتمد المرجعية الغربية أو الشرقية، وتأخذ نموذجها المجتمعي من هناك، وكأنها حين تُنظَر تخاطب المجتمع الأوربي أو الأمريكي أو السوفيتي (سابقاً)، لا المجتمع/ الواقع الموجود أمامها في الخارج.

حين تضع النظريات تتصوّر الطريق أمامها مشرعة للقول والتطبيق، فلا تأخذ في حسابها المشكلات التي يمكن أن تنشأ على الأرض.

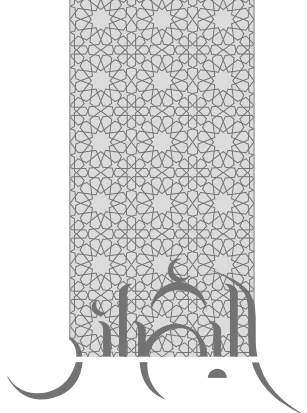
وتحلّل الأمور وفقاً لماركس، وإنجلز، ولينين، أو فرويد [١٨٥٦م - ١٩٣٩م]، ودروكايم [١٨٥٨م - ١٩١٧م] وسارتر [١٩٠٥م - ١٩٨٠م]، وتبعاً لنظريات لم يجد بعضها طريقاً لتطبيقه، أو لم يثبت نجاحه، أو - على أسلم تقدير - يناسب مجتمعه، ولم يأخذ بخصوصيات مجتمعنا ليسهل تطبيقه.

وغاية ما كانت تصنعه - أحياناً - أن توظّف بعض مفردات الهوية الدينية أو العربية أو الاجتماعية، والاستفادة من شخصياتها وأفكارها؛ لتقوم بعملية إسقاط لما تريد على ما تصيّدته من مؤيدات، وفصلته عن سياقه القيمي والتاريخي.

ففي وقت تُصوّر أبا ذر الغفاري رضي الله عنه بوصفه ثورياً اشتراكياً، في عملية تظنّ أنها تأصيلية لمخاطبة عقلية هذا المجتمع، وفي وقت آخر هو ليبرالي رأسمالي!!

## ٦- التطبيقات الخاطئة:

وفي أحيان قد تكون الأطروحة أو جزء منها صحيحاً، لكنّ تطبيقه بصورة خاطئة جعل المجتمع يعمّم دائرة الخطأ من التطبيق إلى النظرية والمفاهيم نفسها، فالحرية - كفكرة - معنى مشرق فتان، لكن أن يكون تطبيقها بأسلوب التحلّل الجنسي، والتعدّي على ممتلكات الآخرين، والفوضى الاجتماعية، والفرار من ربة أيّ قانون ديني أو اجتماعي، أفقدها - في فترة ما.. - كثيراً من معناها النبيل، وجعل المجتمع ينظر إليها بكثير من الحذر.



## الثابت والمتحوّل

- الثابت والمتحوّل:
  - \* تحديد المصطلح.
  - \* الثقافة المتحرّكة.
  - \* كيف يحكم المتناهي اللامتناهي؟
  - \* عناصر التشريع الإسلامي.
  - \* المطلق والزمني.
  - \* الخلود والاستيعاب.
  - \* الدين، والفهم الديني، والتطبيق.
  - \* المتحوّل الاجتماعي.
  - \* الموازنة.
- الفقه والعلم والمتحوّل الزمني:
  - \* (الفقه): الامتداد والانكماش.
  - \* (العلم): السعة والضيق.
  - \* الفقه ومستجدات الزمن.



## الثابت والمتحوّل

### تحديد المصطلح:

نعني بـ(الثابت): العناصر أو الأشياء التي لا تتبدّل، ولا تتغيّر مع الزمن، فهي تتصف بالديمومة والاستقرار، الأمر الذي حدا بكثير من المثقفين أن يطلق عليها: الثابت، المطلق، المقدّس، الحقيقة.

بينما نعني بـ(المتحوّل): العناصر أو الأشياء التي تتبدّل، وتتغيّر مع الزمن، فهي قد تصلح لزمن، لكنّ ذلك لا يعطيها سمة الصلاح لكلّ زمن، ومن هنا أطلق عليها: المتحوّل، المتغيّر، المتحرّك، النسبي، المدنّس، النظرية.

### الثقافة المتحركة:

من السمات الأساسية للثقافة الحية الناهضة سمة المرونة والحركية، وعدم الجمود، فهي ثقافة مرنة متطوّرة، قادرة على هضم واستيعاب الجديد من مستجدات الزمن، ثمّ إعادة تمثيله وتشكيله بالصورة التي تتناغم وتتوافق مع مبادئها.

والثقافة التي لا تتسم بالمرونة والحركة ثقافة جامدة لا تتفاعل مع الحياة والزمان والمكان، وبالتالي فمآلها ومصيرها إلى الفناء والزوال؛ لتصبح كتلة ميّنة محنطة في متاحف التاريخ.

أما الثقافة المتحرّكة فإنّها ثقافةٌ فاعليّةٌ ديناميكيّةٌ قادرةٌ على العيش بحيوية ونشاط أينما حلّت.

ولذلك، كثيراً ما يطرق المثقفون مسألة (علاقة الثابت بالمتحول)؛ لمعرفة وتشخيص كلّ منهما بدقة ووضوح على الصعيد النظري، ومن ثمّ لسلامة وصحة التطبيق على الصعيد العملي.

وكذلك - وكما يقول الدكتور مهنا اللامي -: «لكي نبقي ثوابتنا المجدّدة لهويتنا وخصوصيتنا دون تغيير، بينما في مجال المتحوّل نقوم بعملية التصفية لما وصلنا من الآخر (المختلف)؛ لننتج - عبر الثقافة التوليدية - ما ينسجم مع الذات (المؤتلف)؛ ولا نقع أسارى التبعية والغزو الثقافي والاستعمار»<sup>(١)</sup>.

### كيف يحكم المتناهي اللا متناهي؟

ولعلّ واحدة من أهم الحجج على عدم كفاية النصّ الديني لإصدار الأحكام لمستجدات الوقائع هي تلك التي تقول بأنّ النصّ متناهٍ محدود، فكيف يستطيع استيعاب المتجدّد اللامتناهي؟، ألا يعني ذلك أن نقبل شمول المحدود للمحدود، واستغراقه له؟!

وإذا كانت هذا الفكرة قد أُعيد إنتاجها وتدويرها كثيراً عند بعض المثقفين في عصرنا الحاضر، فهي تتكىء على أمر تراثي دار بخلد بعض الفقهاء الذين رأوا في تناهي النصّ مبرراً للأخذ بمصادر أخرى رديفة للاستنباط، كالقياس، والمصالح المرسلة، وسدّ الذرائع، و...، كما دار بخلد مثقفين ذوي معرفة دينية.

يقول الشهرستاني [٤٧٩-٥٤٨هـ]، [١٠٨٦-١١٥٣م]: «نعلم قطعاً وبقيناً أنّ الحوادث والوقائع في العبادات والتصرّفات مما لا يقبل الحصر والعدّ، ونعلم قطعاً أنّه لم يرد في كلّ حادثة نصّ، ولا يُتصوّر ذلك أيضاً، والنصوص إذا كانت متناهية، والوقائع غير متناهية، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى، عُلم قطعاً أنّ الاجتهاد والقياس واجب

(١) الدكتور مهنا اللامي، محاضرة (أسس المناهج)، مادة (أسس المناهج)، أُلقيت في ٦/٦/١٤١٩هـ، جامعة الملك فيصل بالأحساء/السعودية.

الاعتبار حتى يكون بصدد كلِّ حادثة اجتهاد»<sup>(٢)</sup>.

ويقول ابن خلدون: «وأيضاً الوقائع المتجددة لا توفي بها النصوص، وما كان غير ظاهر في المنصوص فيُحمل على منصوص لمشابهة بينهما»<sup>(٣)</sup>.

وهذا يعني أننا بإزاء مشكلة عملية تتساءل حول كيفية العلاقة بين الثابت الديني / والمتغيّر الزمني، بما يضمّه الأول من تناءٍ، وما يحتويه الثاني من تكثّر وتجدّد؛ إذ الآيات والأحاديث مهما كثرت فهي معدودة، بينما يشهد الزمن في كلِّ يوم صنائع وأعمالاً وتجارب لم تكن في زمن النصّ، ومن ثم لم ترد في لسانه.

### عناصر التشريع الإسلامي:

ومن حكمة المشرع الإسلامي أن جعل عناصر التشريع فيه على قسمين:

#### ١ - العناصر الثابتة:

وتمثل منطقة الثبات والاستقرار في التشريع الإسلامي، والتي لا يمكن بحال أن تتغيّر عدداً أو شكلاً أو مادةً ومحتوىً أو زماناً، أو غير ذلك من الاعتبارات الخاصة بها، كما الأمر مع العقيدة التي تنطلق موضوعاتها من قواعد عقلية وفطرية، وتعبّر عن حاجة مطلقة في الإنسان، هي مع الإنسان البدائي، ومع إنسان عصر الذرة والفضاء.

وكذلك الحال مع الأخلاق والقيم الدينية، التي جاءت لتنظم علاقة الإنسان بالله، وبأخيه الإنسان، وبالطبيعة، كالارتباط بالله والحرية، والعدالة، والكرامة، والقوة، والشرف، ومحبوبة صلة الرحم، وقبح الزنا، وحسن التعامل مع الموارد الطبيعية، والرأفة بالحيوان. فهي أمور ثابتة لا تتغيّر كقيمة مهما تبدلت ظروف الزمان والمكان، وإن كان شكل أداء القيمة الدينية يمكن أن يتغيّر مع الزمن.

(٢) الشهرستاني، الملل والنحل / ٢٠٠.

(٣) ابن خلدون، مقدّمة ابن خلدون / ٤٧٧.

والشأن نفسه مع العبادات؛ إذ لا يمكن أن تتحوّل صلاة الصبح إلى ثلاث ركعات أو أربع، أو يختلف شكلها بتقديم السجود على الركوع، والقيوم على القيام، أو مضمونها كالسور والأذكار الواجبة، أو زمانها بأن تتحوّل من طلوع الفجر إلى الظهر أو منتصف الليل.

كما يندرج ضمن الثابت أهداف الشريعة ومقاصدها، فوفقاً لنظرية مقاصد الشريعة الإسلامية التي أبدعها الإمام الشاطبي [ت ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م] في كتابه الثري (الموافقات)، فإنّ للإسلام مقاصد خمسة أساسية هي: (الدين - النفس - العرض - العقل - المال)، حرصت أحكامه السامية على رعايتها وحفظها بكلّ وسيلة مشروعة، وحرّمت كلّ ما من شأنه الإضرار بها.

ومثل الأهداف والمقاصد: القواعد والمناطات العامة، فقد صاغت نصوص الدين (القرآن والسنة) قواعد كلية عامة للتعامل مع المتغيّرات الطارئة مع الزمن، كما سعى علماء الفقه والأصول لصياغة قواعد مستقاة من تلك النصوص ومن متفرقات المسائل الفرعية في الفقه. وإن كنّا في القواعد الفقهية والأصولية لا نقول بأنّها - دوماً - من الثابت:

فبعضها مستلّ من نصّ ديني صحيح معتبر، وهو بذلك يحكي (العلة المنصوصة شرعاً)، والتي يدور الحكم مدارها؛ لأنّه «إذا نُصّ على العلة فهي مطردة»<sup>(٤)</sup>، ومن ثبوت النصّ الديني وقيمه العامة تأخذ ثبوتها.

وبعضها مستدعى من نصوص مختلف عليها بين الفقهاء. وبعضها مستقى من (روح الشريعة) وأخلاقياتها الموجهة للحكم الشرعي الضابطة لإطاره. وبعضها مستنتج من المسائل الفقهية التفصيلية وأحكامها. وبعضها مشتق من فعل الفقهاء المتقدّمين - كالأخذ بالشهرة

(٤) السيد محمد الشيرازي، الفقه: القواعد الفقهية/ ١٩٧.

الفتوائية - والبناء على حسن الظن بتقواهم وورعهم وإمكان ظفرهم بما لم يظفر به المتأخرون من البراهين والأدلة والروايات.

وبعضها مأخوذ من التوحيد بين الفلسفي والشرعي. وغير ذلك.

وجميع هذه الأسس والمرجعيات المشكّلة للقواعد - فيما عدا الأول منها (المتعمد على نصّ صحيح) - هي فهم بشري - وإن استند إلى فقيهه، - ومجال البحث فيه والقبول والردّ مفتوح على مصراعيه، واختلاف المدارس والاتجاهات فيه بيّن، ومن ثمّ فإنّها ليست من (الثابت) الديني.

## ٢- العناصر المتحركة:

فهناك منطقة في التشريع الإسلامي أوضح الإسلام فيها الكليات والأصول والمناطات والملاكات العامة، وترك للحاكم الشرعي (الفقيه المجتهد) أن يملأ (منطقة الفراغ) هذه وفقاً لتلك المعطيات.

ففي قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، وَمِنْ رِيَابِ الْحَبْلِ، تَزْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾<sup>(٥)</sup>، إذا كان ﴿رِيَابِ الْحَبْلِ﴾ يمثّل آلة ذلك الزمن، فإنّ الإسلام أعطى مناطاً مرناً يتسع لمستجدات الحياة بقوله: ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ الذي يشمل كل ما من شأنه أن يحقق القوة للمسلمين في شتى الميادين: الثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية، وغيرها....

ولكي يضمن الإمام المهدي (عج) فاعلية الفقه وحركيته أسدل الستار على غيبته الصغرى [٢٦٠- ٣٢٩هـ] بمقولته الشهيرة: «وأما الحوادث الواقعة، فارجعوا فيها إلى رواة أحاديثنا، فإنّهم حجتى عليكم، وأنا حجة الله عليهم»<sup>(٦)</sup>.

فكلمة (الحوادث الواقعة) عنوان عريض لكل ما يستجد من

(٥) سورة الأنفال / ٦٠.

(٦) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج ٢ / ٢٨٣.



وقائع ومستحدثات لم تكن موجودة في عصر النصّ، ويمكن استخراج الحكم المناسب لها من النصّ الديني المفتوح والقواعد العامة.

ومن أوضح الأمثلة للنسبي: الآليات والوسائل والأساليب، فقد حجّ رسول الله ﷺ ومَن معه على الخيول والجمال، ولو كان هذا ضمن دائرة الثابت الديني للزمنا أن نحجّ بذات تلك الوسائل التي لم يعد لها أثر فعلي في عصر أحدث وسائل النقل والمواصلات.

وفي الوقت نفسه لا تمثل أدوات النقل في زماننا ثابتاً أيضاً، فلو يأتى الزمان بما يحيل وسائل اليوم إلى قديم يُذكر في خبر (كان).

وفي الفقه الإسلامي وكتبه تظهر (المعاملات) كمثال جليّ للمتحوّل الزمني، فقد جاء الإسلام ولدى الناس صيغ من العقود والإيقاعات، فأقرّ بعضها، ومنع أخرى، وشدّب ثالثة.

ففي حين كان يسود البيع اللفظي، ودورانه بين (بعث) و(قبلت)، لكنّه - في حين آخر - يخلو مكانه للمعاوضة التي لا تشترط الألفاظ، ويتطوّر - في حين ثالث - إلى العمليات المصرفية المعقدة، وحركة الحسابات البنكية التي تجوب القارات دون الحاجة للتمثّل الحسيّ على شكل رؤوس أموال نقدية تتداولها الأيدي، ولسنا ندري ما يخبئها الزمن من مفاجآت تحكم طريقة تعاطيه في معاملاته المستقبلية.

وهكذا... تنشأ ضمن حركة الزمن والحياة مستجدات وحوادث واقعة (متغيّرة)، ولكي يستوعبها الإسلام وضع له كليات (ثابتة)، تُعرض عليها المستجدات؛ لتتخذ لها الحكم الجزئي المناسب لطبيعتها كوقائع متحوّلة غير مستقرة، وبذلك يضمن الإسلام لأحكامه الحركية والمواكبة لعنصري الزمان والمكان.

ولعلّ الحديث السابق للإمام المهدي (عليه السلام)، وتركيزه على بُعد المتغيّرات (الحوادث الواقعة)، وضرورة تأصيلها وفق مصادر التأسيس (أحاديثنا)، يوضّح الربط الهام بين الزمني والمطلق، كما يوضّح الربط الوثيق بين فقه المتغيّرات وفقه الثوابت، وخلق بناء الصرح الفقهي

عندما ينطلق من النصّ وحده دون استيعاب ووعي مستجدات الزمن، كما يكشف لنا خلل المناهج والدروس والكتب الفقهية التي تفوص في بواطن ومحتّمات النصّ إلى حدّ التشقيق النظري المجرّد للمسائل، وتضريحها على طريقة (السبر والتقسيم المنطقي) والتأثير الفلسفي، في حين تهمل أثر الزمن والثقافة والمجتمع في استنباط الحكم الشرعي، وتهمل الفهم العرفي والاجتماعي للنصّ، ذلك الفهم الذي جاءت الآيات والروايات - أساساً - لمخاطبته.

كما يكشف خطأ الانطلاق في الأمور بعيداً عن الديني بالاعتماد على الزمن وحده وما يمدُّ به من معارف وتجارب ولو كان تحت مسمى عصمة العقل ونزاهة أحكامه.

وهذا - في طرفه الأول - ربّما يصف لنا إحدى علل وجود نظريات في الفقه والحقل الديني بعيدة كلّ البعد عن الواقع ومجرياته، كما يبيّن لنا - في طرفه الآخر - سبباً من أسباب وجود نظريات في الثقافة والمعرفة لا تمتُّ إلى الدين وأسسها بصلة!!

### المطلق والزمني:

ومما مضى ندرك أنّ التناهي في الديني هو تناهي لفظي، لا دلالي؛ لأنّ في خطابات الشرع ما هو مصوغ على شكل كليات وقواعد قانونية عامة قادرة على استيعاب الجديد مهما امتدّ الزمن وتعدّدت الأماكن، وتباينت التجارب، على نحو ما نشهده في مطلقات النصّ، وما ابتنى على تلك المطلقات أو متفرّقات المسائل من قواعد أصولية وفقهية.

وحتى في الأحكام الجزئية المحدّدة، ومجيء النصّ الديني في حادثة وأناس معينين لا يعني بالضرورة اقتصره على ذلك؛ لأنّ (تخصيص المورد لا يخصّص الوارد)، ولأنّ البشر جميعاً مكلفون بالحكم الشرعي لا خصوص من خوطبوا به مباشرة فقط، وفق ما تقتضيه قاعدة (الاشتراك في التكليف)، ولأنّ بعض تلك النصوص تحمل معها علة الحكم التي تعدّ مناهجاً عاماً غير زمني، يمكن عرض مستجدات الواقع عليه لإصدار الحكم التفصيلي المناسب لها، أو أنّها تحكم على أمثلة زمنية لما هو شائع آنذاك، و(حكم الأمثال فيما يجوز

وفيما لا يجوز واحد)، وإن كان هذا بدوره لا ينفي وجود أحكام جزئية زمنية لا تمتد مع الزمن، كأمر الرسول ﷺ بعض الصحابة بالوقوف على الجبل في غزوة أحد.

وفرز المطلق من الزمني، أو تعدية بعض الأمور التي كانت في زمن النصّ إلى مثيلات مستجدة عملية تحتاج إلى خبرة، ومعايشة لنصوص الشريعة وروحها، وإلى فهم اجتماعي للنصّ، واستيعاب دلالاته المباشرة وإيحاءاته الدقيقة والخفية.

وهذا يعني أنّ الذين قالوا بأنّ المتناهي (النصّ) لا يمكن أن يحكم اللامتناهي (المستجدات والوقائع)، لم يفرّقوا بين التناهي اللفظي والدلالي، فنصوص القرآن والمعصومين ﷺ فيها المحدود لفظاً لكِنَّه الشمس المضيئة تبرز كلَّ يوم على الجديد لتثيره، وتهبه الدفء والطاقة والحيوية والنماء، ومن هذا ما يُسمّى في الحديث والبلاغة بـ(جوامع الكلم)، ومن ثمّ فإنّ لتلك النصوص المطلقة الواسعة دلاليّاً كامل القدرة على استيعاب الجديد وإعطاء الحكم المناسب له.

### الخلود والاستيعاب:

وكان لثبات الأصول في الإسلام، ومرونة الفروع والأحكام الأثر البالغ الذي أعطى للإسلام الخلود والبقاء؛ ليكون الدين الإلهي الخاتم: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾<sup>(٧)</sup>، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾<sup>(٨)</sup>، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾<sup>(٩)</sup>، «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمد حرام إلى يوم القيامة»<sup>(١٠)</sup>.

ومن ناحية ثانية أعطاه الحيوية والقدرة على استيعاب الزمان والمكان ومستجداتهما ومتغيراتهما، وتغطيتها بكلّ مرونة: ﴿مَا فَرَّطْنَا

(٧) سورة آل عمران / ١٩.

(٨) سورة المائدة / ٣.

(٩) سورة آل عمران / ٨٥.

(١٠) الشيخ الكليني، الكافي / ١ / ٥٨. وبحار الأنوار / ٨٦ / ١٤٨.

فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴿١١﴾.

هذا الأمر جعل الإسلام عالمياً صالحاً للبشرية جمعاء مهما تغيّر الزمان، واختلفت الأماكن وظروفها، وأتاح له امكانية التطبيق: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٣﴾.

فكثير مما أتى به الإسلام جاء على صورة مبادئ وقوانين عامة ثابتة لا على شكل أنظمة وأحكام لتفصيلات محدّدة ينطبق عليها دون سواها، وما دام قاعدة عامة فإنّ لديه القدرة على توليد آلاف الأحكام الجزئية منها، كما لديه القدرة على تحريك العقل وتفعيله في عملية الاستنباط والابتكار، في النصّ وخارجه، في أمور التشريع والتكوين، ولعلّ هذه المجتنيات والمردودات الحيوية من الأسباب التي تجعل الدين - في أحيان كثيرة - يميل إلى التقنيات العامة بدلاً من التفاصيل لا سيما في الضوابط والأطر غير الزمنية.

وكمثال على ذلك: تمثل قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» ﴿١٤﴾ أصلاً كلياً ثابتاً مستقلاً من نصّ ديني، بينما تمثل الفروع والأحكام المستنبطة منه المرونة والاستيعاب:

كان ينطبق على شجرة مدّت جذورها بقسوة لتزلزل بناء الجار، وأرسلت أغصانها لتسقط أوراق الخريف في منزله، لكنّه ينطبق اليوم - بذات الخصوبة والنشاط - على الجديد الذي يشكّل ضرراً للآخرين، كرفع صوت المذياع أو المسجلة، والتلاعبات المصرفية، وتلاعبات البورصة، وأسواق النفط، والعمليات التجارية المعقدة، وأعمال الشركات العملاقة إزاء المستثمرين الجدد والمنافسين الصغار.

وسينطبق مستقبلاً على كلّ ما من شأنه إحداث الضرر على

(١١) سورة الأنعام / ٢٨.

(١٢) سورة الأنبياء / ١٠٧.

(١٣) سورة سبأ / ٢٨.

(١٤) مستدرک الوسائل، مصدر سابق ١٧ / ١١٨، الباب ٩، ح ٢٠٩٢٨. وبحار الأنوار

٢ / ٢٧٦.

النفس أو الإضرار بالآخرين؛ ليعطيه حكمه المناسب له.

والإسلام - بعمله هذا - لا يستهدف وضع (الأفكار المحددة) و(الأحكام الجزئية) لكل شيء على نحو تتبعي استقصائي، ولا إضاعة الوقت في البحث عنها في زمن النصّ وبعده، ولا أن يحجّم نفسه بالانطواء في دائرة تلك الجزئيات، بمقدار ما يريد وضع (منهج) حيوي للتعامل الدائم مع تلك المشكلات قادر على استيعاب كل جديد، إنَّها قضية منهج يخلق الأفكار.

وبعبارة أخرى فإنَّه لا يستهدف تقديم معلبات جاهزة، وإنَّما يريد تقديم مصنع منتج. لا يبتغي القيام بعمل تلقيني، وإنَّما يتوخى القيام بعمل تقني.

ولا يعني هذا أنَّ الدين الحنيف لم يُقدّم أحكاماً تفصيلية واضحة (كوجوب الصلاة، وحرمة الزنا)، وإنَّما يعني أنَّه لم يتخذ المضي خلف الجزئيات منهجاً متبعاً بدلاً من النصّ المفتوح والعقل الفاعل.

### الدين، والفهم الديني، والتطبيق:

ولابدَّ أن نفرِّق هنا بين: الدين، والفهم الديني، والتطبيق.

فالدين هو الرسالة الخالدة التي بعثها السماء للأرض؛ لتنتشلها من قعر التخلف إلى ذرى الرفعة والعلواء، والثابت الديني هو ما صحَّ من ناحية السند والمتن والدلالة.

أما الفهم الديني - من أيِّ صدر - فهو مجرد وجهة نظر مستقاة من الدين، فهو فهم بشري يتأثر فيه صاحبه بنظرته الخاصة، وبثقافته وبمحيطه الاجتماعي، ويختلف من واحد إلى آخر، فهو متحوّل لا ثابت.

وكذلك الحال مع التطبيق، فهو يخضع لتعقيدات الواقع، ومدى الوسائل المتوفرة، وسلامة وصحة التطبيق، فهو متحوّل، يختلف فيه شخص عن آخر، ووجهة عن أخرى، وتجربة عن تجربة.

ولو رجعنا إلى النصوص الدينية، وفهم الفقهاء لها لرأينا كيف اختلفت وجهات النظر تجاهها، ومن ثم تباينت صور التطبيق.

ينطبق هذا على الجانب الفردي من الشريعة في فهم وتطبيق نصوص بعض العبادات (كالوضوء)، كما ينطبق على الجانب الاجتماعي العام (كالصورة المثلى للمصرف الإسلامي)، و(شكل الحكم الإسلامي).

### المتحوّل الاجتماعي:

وكذلك الحال بالنسبة للأمور الاجتماعية يلزم أن تخضع للبحث الدقيق والتمييز بين الثابت والمتحوّل.

فالتقييم الاجتماعية، منها: ما هو موافق للتقييم الدينية، وهذا يمكن أن نضفي عليه الثبات تبعاً للثابت الديني.

ومنها: ما يخالف قيم الدين، وبالتالي يضعه الإسلام ضمن دائرة الخطأ التي لا يمكن أن نخلع عليها صفة المقدس المطلق.

ومنها: ما يعبر عن أمر لم تأمر به الشريعة، ولم تنه عنه، ويختلف من مجتمع إلى آخر، ومن زمن لآخر، فهو متحرّك زماني ومكاني بما لا يدع مجالاً لدخول البحث الجدلي فيه.

وأما عن الوسائل والآليات الاجتماعية فهي الأخرى متغيّر نسبيّ لا يمكن العكوف والبقاء فيه على صورة واحدة، فالتطوّر الاجتماعي سمة تتساقط على جانبيها وسائل وأدوات وتبرز غيرها جديدة في مسار قطار الزمن المتواصل.

### الموازنة:

وفي كلّ عصر هناك من يباليغ في إضفاء صفة الثابت والمطلق والمقدس على النسبي المتحرّك، كالمبالغة في نعت النظريات العلمية بأنّها حقيقة علمية مطلقة، وكأنّها تجاوزت مرحلة (البرهان)؛ لتكون ثابتاً لا شك فيه.

وعلى الضفة المقابلة هناك من يتمسك بكلّ قديم ومألوف،

ويضفي عليه صفة القداسة: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا: وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا، وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا، قُلْ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، اتَّقُوا اللَّهَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ؟﴾ (١٥).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْصُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ؟﴾ (١٦).

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ (١٧).

بينما ينبغي أن ننظر إلى الأمر الثقافي والاجتماعي و...  
بنظرة متوازنة ترى فيه ثوابت لا تتغير؛ ولذلك تبقى على ما هي عليه دون تحوّل، كما ترى فيه متغيّرات تتحرّك مع الزمن وفقاً لما هو أفضل وأجدى، لئلا تُشلّ حركة الواقع عن السموّ والانطلاق، وتبقى أسيرة قديم عفى عليه الزمن.

(١٥) سورة الأعراف/ ٢٨.

(١٦) سورة البقرة/ ١٧٠.

(١٧) سورة الزخرف/ ٢٣.

## الفقه والعلم.. والمتحوّل الزمني

(الفقه): الامتداد والانكماش:

يمكننا أن نسجل أولاً: أنّ النصّ القرآني حين يُطلق لفظة (الفقه)، يعني بها: الفهم العميق، دون أن يخصّ ذلك بفهم الشريعة وحدها، إنّهُ لفظ مرادف لـ (الثقافة) بمعناها الواسع الشامل لكلّ أنواع المعرفة، فالفهم العميق للفيزياء أو الكيمياء أو الجيولوجيا أو الفلك أو الرياضيات، أو... هو فقه، على هذا جرت آيات القرآن الكريم.

ولذلك شاهدنا بعض الآيات الشريفة تتكلم عن أمور الكون والطبيعة والنفس البشرية، ثم تطلب من الناس فقه ذلك، أو تلوم على عدم فقهه، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾<sup>(١٨)</sup>.

ثمّ أخذت هذه الكلمة (الفقه) تغلب على علم الدين، بوصفه أشرف العلوم وأهمها «العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان، والنجوم لمعرفة الزمان»<sup>(١٩)</sup>، لكنّ معناها واسع شامل، يرى أنّ مساحة الأحكام الدينية تغطي جميع الحياة، وجميع شؤون البشر، وتضم العقيدة، والأخلاق، والشريعة في جانبها: الفردي (المرتبط بسلوك الفرد المسلم)، والجمعي (المرتبط بسلوك الجماعة)

(١٨) سورة الأنعام / ٩٨.

(١٩) بحار الأنوار، مصدر سابق / ١ / ٤٧٤.



المسلمة والمجتمع والدولة)، وغيرها.

لكنّ مفهوم (الفقه) الواسع انكمش عند الفقهاء: ذهنياً، وتطبيقاً - كما يرى السيد الشهيد الصدر (عليه السلام) -، ومن خلفهم الأمة، حتى اقتصر على خصوص الجانب الفردي من الشريعة<sup>(٢٠)</sup>.

وقد صاحب هذا الانكماش المفهومي والتطبيقي مشكلة أخرى أوجدتها الكتب الفقهية حين قسّمت الفقه إلى (عبادات)، و (معاملات):

«إنّ تقسيم النشاط الإنساني إلى (عبادات) و (معاملات) مسألة جاءت متأخرة عند التأليف في مادة (الفقه). ومع أنّه كان المقصود به - في أول الأمر - مجرد التقسيم (الفني) الذي هو طابع التأليف العلمي إلا أنّه - مع الأسف - أنشأ فيما بعد آثاراً سيئة التصوّر، تبعته - بعد فترة - آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلّها؛ إذ جعل يترسّب في تصوّرات الناس أنّ صفة (العبادة) إنّما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله (فقه العبادات)، بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني من النشاط الذي يتناوله (فقه المعاملات)!!، وهو انحراف بالتصوّر الإسلامي لا شكّ فيه، فلا جرم يتبعه انحراف في الحياة كلّها في المجتمع الإسلامي.

... إنّ ذلك التقسيم - مع مرور الزمن - جعل بعض الناس يفهمون أنّهم يملكون أن يكونوا (مسلمين) إذا هم أدوا نشاط (العبادات) - وفق أحكام الإسلام -، بينما هم يزاولون كلّ نشاط (المعاملات) وفق منهج آخر لا يتلقونه من الله، ولكن من إله آخر هو الذي يشرّع لهم في شؤون الحياة ما لم يأذن به الله.

وهذا وهم كبير، فالإسلام وحدة لا تتفصم<sup>(٢١)</sup>، «ليس في التصوّر الإسلامي نشاط إنساني لا ينطبق عليه معنى (العبادة)، أو لا يُطلَب فيه تحقيق هذا الوصف، والمنهج الإسلامي كلّ غايته تحقيق معنى العبادة أولاً وأخيراً...»<sup>(٢٢)</sup>.

(٢٠) بحوث إسلامية، مصدر سابق / ٢٢١ - ٢٢٩.

(٢١) خصائص التصوّر الإسلامي ومقوماته، مصدر سابق / ١٠٩ - ١١٠.

(٢٢) المصدر / ١٠٩.

من كل هذا نصل إلى أنّ التفريق بين الفقه والثقافة، الفقيه/ والمثقف، هو تفريق عرفي متأخر منتزع من مجريات الحياة، لا تقرّه الشريعة، وأنّ مصطلح (الفقه، الفقيه، الفقهاء) لا يختصّ بعلماء الدين وحدهم.

كما أدى تركيز البحث في الكتب والدراسات الفقهية على (العبادات) و(المعاملات) إلى عدم إعطاء بحوث العقيدة والأخلاق الأهمية اللائقة بها في صلب الدراسة في المجاميع العلمية، وإلى التفريق بين الحكم الأخلاقي والحكم الفقهي، ومن ثمّ تسلك أحكام لا تتسجم مع روح الشريعة وأخلاقها، وقُبلت بوصفها لا تتعارض مع معايير بناء الحكم الفقهي، وإذا بالكذب على الأولاد وإخلاف الوعد للصدّيق تصبح مجرد محرّم أخلاقي، وإن قرأنا نصوصاً مغلّطة تصف مخلف الوعد بالمنافق!!

.. تلك المعايير التي اجتزأت من القرآن ما يُقارب الـ ٥٠٠ آية تأخذ بها بوصفها آيات الأحكام، دون أن تعدّ في عقليتها أنّ الآيات الأخرى في مجالات العقيدة أو الأخلاق والحياة تمثّل مناطات عامة تشكّل الحكم الفقهي، وأنّ تراتبية العقيدة والأخلاق في الإسلام تأتي في درجة تسبق الحكم الفقهي، الأمر الذي يجعل الإسلام ينتقل من الحكم التشريعي الأولي الاختياري إلى الثانوي متى استلزم ذلك مصلحة أعلى للفرد أو الجماعة، كما الحال في حلية الميتة للمضطر، وحرمة الصوم على من يتضرّر منه.

ودون أن تبعاً بالغرابة التي خلقتها لطالب العلوم الدينية على النصّ، حتى لقد أصبحت نصوص القرآن والحديث - من غير آيات وروايات الأحكام - ترد غريبة كاسفة غير مألوفة في الكتب الفقهية، وإن وردت فإنّما لأجل الاستئناس لا الاستدلال!!

وقد خلف ذلك بُعداً عن القرآن والروايات - فيما لا يتصل بالأحكام - بحيث لا يأخذ مكانة أساسية بالمقارنة بما يتصل بالأحكام، وبحيث غدا من يوجّه طاقته لذلك - ولو كان فقيهاً - محطّ ازدراء واستهجان داخلي، ويوصّف بأنّه شخص يخاطر بفقاهته!!

وإذا كان هذا مع القرآن والحديث في غير آيات الأحكام، فهو فيما يتصل بالثقافة العامة أشدّ وضوحاً، فقد ترسّبت في بعض الذهنية

العامة أنّ القراءة في ميادين الثقافة والسياسة والعلوم الإنسانية والاجتماعية، هي نوع من ضياع الوقت، وهدر للحقوق الشرعية التي دفعها أصحابها لتُصرف على طلبة ينفقون وقتهم وجهدهم في دراسة الفقه والأصول، لا مطالعة الجرائد والمجلات!!

وخدم هذا الأمر أكثر تفسيراً قاعدة (على العرف أن يحدّد الموضوع، وعلى الشرع أن يصدر الحكم) بأنّ الفقيه ليس مطالباً بالتعرّف على الموضوعات الخارجية، فتلك وظيفة العرف، ولا يحتاج إلى الثقافة العامة في عملية الاستنباط، بل.. يفقيه إدراك الموضوع عندما يريد إصدار حكم عليه.

وإذا كان ما مضى قد أدى إلى الانكماش الفني للفقه، فهناك دواعٍ أخرى أدت إلى الانكماش الاجتماعي للفقه، فصعوبة اللغة التي تُكتب بها الدراسات الفقهية والأصولية جاءت تحت مسمّى طرد المتطفلين عن هذا الميدان، وخلق الأنس لطالب العلوم الدينية، وإعطاؤه الأداة التي يسبر بها كتب الأقدمين ويفهمها، بيد أنّه فات عليها أنّها أمست بذلك تدور حول تفكيك الألفاظ والألغاز، وتعكف على القراءة المشقّرة أكثر مما تدور حول مناهج علمية للاستنباط، وأنّها أخذت تستهلك عمر الدارس وجهده في معنى اللفظ والعبارة، كما أبعدت غير المختصين عن الاستفادة من تلك المباحث.

.. وهكذا وجد المثقفون والشريحة الاجتماعية العريضة أنفسهم خارج إمكانية التعاطي مع تلك الدائرة المغلقة والبناء المسيّج، ومن ثمّ ليكون عطاءً وإنتاجٌ كثيرٍ منهم بعيداً عن التأسيس الديني.

وما جرى لمصطلح (الفقه) جرى لمصطلح (الشرعية)، الذي انتقل من معنى شامل يحكي كلّ ما يسئله الله لخلقه، بما تدلّ وتوحي به تعبيرات مثل (شريعة الله)، (شريعة السماء)، (الشرائع الإلهية)؛ ليمرّ بمرحلة يتم فيها التفريق بين الشريعة والمنهاج بالاتكاء على قوله تعالى ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾<sup>(٢٣)</sup>، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأُمْرِ فَأَتَّبِعَهَا﴾<sup>(٢٤)</sup>، وتفسير (الشرعة أو الشريعة)

(٢٣) سورة المائدة / ٤٨.

(٢٤) سورة الجاثية / ١٨.

بالسلوك والتكليف الفردي، و(المنهاج) بالعقيدة والأخلاق.

ولا يقف هذا التقسيم عند حدّ التفريق المعرفي، بل.. ينتهي - مفهوماً وأداءً - إلى التمييز بين ثلاثة أشكال مختلفة: السلوك الفردي (الشريعة)، والسلوك الجمعي (الأخلاق)، والاعتقاد القلبي (العقيدة). وتغدو الشريعة فردية غير ذات صلة بالمجتمع والحياة، بل.. وغير ذات صلة بأمور الدين الأخرى<sup>(١)</sup>، وتختزل (كلية الشريعة) و(أحكام الشريعة) بالتركيز على ما انتهى إليه مصطلح (الفقه) في بعده الضيق المنكمش: الجانب الفردي من السلوك!!

لا نريد أن نقول بأنّ السلوك الجمعي خاص بالمباحث الأخلاقية وغير موجود في الفقه والشريعة، وإنما نريد أن نقول أنّه عملياً أصبح كذلك، فقد أبعد عن الفقه حضوره الجمعي وقُصِر على الجانب الفردي من السلوك وحده.

### (العلم): السعة والضيق:

وكذلك الحال مع مصطلح (العلم، العالم، العلماء)، فالقرآن لا يقصره على الدين، وعلماء الدين، بل.. هو شامل لمطلق العلم.

فقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾<sup>(٢٥)</sup>، مطلق العلماء، كل راسخ في العلم في مجاله، في شتى حقول المعرفة: الإنسانية والطبيعية، يؤكد ذلك ابتداء الآيات قبلها بالحديث عن المطر والثمار والجبال والدواب والأنعام وألوان ذلك كله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ \* وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ...﴾<sup>(٢٦)</sup>.

وقول الرسول الأكرم ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين، فإنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم»<sup>(٢٧)</sup>، تشمل كل علم، وإلا.. ففي

(٢٥) سورة فاطر/ ٢٨.

(٢٦) سورة فاطر/ ٢٧-٢٨.

(٢٧) علاء الدين الأعمي، وهج الفصاحة/ ٣٢٧.

ذلك الوقت لم يكن علم الشريعة الإسلامية في الصين، حتى نفسّر (العلم) بالمعنى الخاص، بينما كانت تزدهر بالجراحة، وصناعة ورق البردي.

ويجسّد ذلك المفهومَ الواسعَ للعلم قولُ الرسول الأكرم ﷺ: «العلم أكثر من أن يُحصى، فخذ من كلّ شيء أحسن»<sup>(٢٨)</sup>، وقول أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «العلم أكثر من أن يُحاط به، فخذوا من كلّ علم أحسنه»<sup>(٢٩)</sup>، «خذوا من كلّ علم أحسنه، فإنّ النحل يأكل من كلّ زهر أزينه، فيتولد عنه جوهرة نفيسان: أحدهما فيه شفاء للناس، والآخر يُستضاء به»<sup>(٣٠)</sup>.

الأمر الذي يدفعنا حين نبصر نصوص المعصومين التي تحثّ على علم الدين والشريعة، وتسميه (الفقه) أو (العلم) - أن نحملها على الحصر الإضافي بذكر أبرز المصاديق - لا الحقيقي -؛ بدلالة نصوصهم الأخرى التي تعمّم الدائرة، والتي ذكرنا بعضها قبل قليل..

وبهذا نفهم قول الرسول ﷺ: «العلم علمان: علم الأديان، وعلم الأبدان»<sup>(٣١)</sup>، والقول المتقدم لأمير المؤمنين (عليه السلام): «العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للسان، والنجوم لمعرفة الزمان»<sup>(٣٢)</sup>، وقول الإمام الكاظم (عليه السلام) [١٢٨-١٨٣هـ]، [٧٤٥-٧٩٩م] فيما يرويه عن رسول الله ﷺ: «إنّما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، وما خلاهنّ هو فضل»<sup>(٣٣)</sup>. إنّها تتحدّث بلسان الحصر الإضافي.

(٢٨) ميزان الحكمة، مصدر سابق ٥٢٨/٦.

(٢٩) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق ٩٢/١.

(٣٠) المصدر ٣٥٨/١.

(٣١) بحار الأنوار، مصدر سابق ٤٧٦/١.

(٣٢) في هذه الرواية حصران إضافيان: الأول: في حصر (العلوم) في الأربعة المذكورة، والثاني: في إطلاق لفظة (الفقه) على ما يتصل بالأديان.

(٣٣) بحار الأنوار، مصدر سابق ٤٦٧/١.

## الفقه ومستجدات الزمن:

سبق أن قسّمنا عناصر التشريع الإسلامي إلى قسمين: ثابت ومتحوّل.

وفي حين تندرج ضمن الثابت أمور كالعقيدة، والعبادات، والأخلاق، والقواعد والمناطق العامة، وأهداف الشريعة ومقاصدها، هناك أمور أخرى تتفاعل مع الزمن، وتتغيّر حسب مقتضياته، ولا يمكن فيها إعطاء حكم مطلق مجرّد عن الواقع الموضوعي الخارجي، يدخل ضمن هذا ما يتصل بمستجدات الحياة، وتقنيات العصر، وما تحويه دائرة (الأساليب والوسائل والأدوات).

من هنا نرى الحثّ الديني على لزوم اطلاع (العالم/ الفقيه) على مستجدات الزمن...، كما في الحديث السالف للإمام المهدي (عليه السلام)، فتعبير (الحوادث الواقعة) هو تعبير مواز لتعبير (مستجدات الحياة)، و(متغيّرات الزمن)، والحكم الشرعي يدور - وجوداً وهدماً - مدار الموضوعات، و(إذا تغيّر الموضوع تغيّر الحكم)؛ مما يترسّخ منه لزوم أن يجيب الفقه على الجديد، ولا يبقى عاكفاً - فقط - على القديم المألوف.

إنّ واحدة من مشكلات فقهاء أنّهم يتضخّم - ربّما بإفراط - في بعض الأبواب (كالطهارة، والصلاة، والصوم، والحج)، وينحسر إلى حدّ الجفاف والشحوب في أبواب أخرى (كالالاقتصاد، والاجتماع، والسياسة، وفقه الأسرة)، ربّما لأنّ هذه الأبواب تحتاج إلى بناء عرش جديد، في حين أنّ الأولى ليست أكثر من نقش على عرش موجود، وفرق بين البناء والترميم من ناحية الصعوبة والسهولة، ومن ناحية الأخطار المحدقة، وإمكانية العثرة، ومن ثمّ النقد.

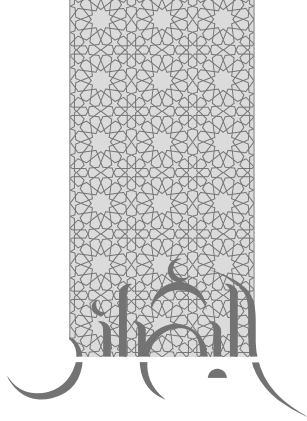
ومن هنا يمكن أن نفهم أهمية الربط الذي يوجده الدين بين (العالم والفقيه) و(الزمن)؛ لأنّ الزمان متغيّر، ومجرياته متجدّدة تؤثر في (العلم والفقه)، سواء أكان التأثير على شكل الحكم الشرعي، أم مبتنيات المعرفة في الحقول الأخرى، والثقافة عموماً.

يقول الإمام علي عليه السلام: «حسب المرء ... من عرفانه علمه بزمانه»، «أعرف الناس بالزمان من لم يتعجب من أحداثه»<sup>(٣٤)</sup>.

ويقول الإمام الصادق عليه السلام [٨٠ - ١٤٨هـ]، [٦٩٩ - ٧٦٥م]:  
«العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوايس»<sup>(٣٥)</sup>.

(٣٤) ميزان الحكمة، مصدر سابق ٢٣٤/٤.

(٣٥) المصدر ٢٣٤/٤.



## التعارض بين العقل والنقل

- \* توطئة.
- \* أولاً: تحديد المصطلحات.
- \* ثانياً: رتب الحكم.
- \* ثالثاً: مستويات البناء المعرفي ومنطقاتها.
- \* النظرية والحقيقة.
- \* متغيرات السؤال.
- \* هل يقع التعارض؟





## التعارض بين العقل والنقل<sup>(١)</sup>

توطئة:

حين نشترط في الثقافة الحيّة صفة (المبدئية) وضرورة التناغم مع العقل والعلم، تقرأ ذهنية البعض التصادم بين الإلهي والبشري، وتستحضره كلازمة لا انفكاك منها، حين تسطر سبلاً من المعارف والتطبيقات الخاطئة، تعتقد أنّها الإفراز الطبيعي لإطلاق العنان للعقل، أو أنّها صدرت بعنوان العلم واكتشافاته، وتؤمن بأنّ الدعوة لفتح المجال للعقل ليست إلاّ سعياً لتتحية الوحي وطمس معالم النبوة، والدعوة للأخذ بالعلم ليست إلاّ طريقاً لتسنيمه عرش الحكم وإقصاء الشرع.

وفي المقابل تختزن ذاكرة آخرين مواقف يرون فيها أنّ الدين كان العقبة الكأداء في طريق العلم وحرية العقل وإبداعهما، ويقومون برصف آيات وأحاديث مجاورة لحقائق عقلية أو علمية يستجلون بينهما التضاد والتناقض، وأنّه لا سبيل للمؤاخاة والألفة بينهما، فضلاً عن

(١) طرحت هذه القضية بعناوين شتى، منها:

- أ - التعارض بين العقل والنقل، كما صوّرها (المعتزلة، والأشاعرة، والإمامية).
- ب- التعارض بين الحكمة والشريعة، كما صوّرها (ابن رشد).
- ج- التعارض بين العلم والدين، كما صوّرها فلاسفة عصر النهضة ك(بيكون)، و(ديكارت).

ادعاء الوحدة والاندماج، وأنّ محاولة إيجاد التقاطع والتفاعل بينهما لم تسفر إلا عن القطيعة والتباين على المستويين التطبيقي والمفهومي.

وأنتج ذلك بروز عقليتين مختلفتين تتبنى كلّ منهما منهجية مباينة: عقلية تراثية تميل إلى تقديم الموروث، وتغلب حاكمية النصّ والعمل داخله. وعقلية وضعية تقصر دور الوحي وفاعليته على الغيب، وتقصيه من دائرة الحراك الاجتماعي، ودائرة كنه الطبيعة وتفسير الوجود وما يدخل ضمن عالم الشهود.

وفي حين ترى الأولى أنّ الوحي هو المنهج الذي ينبغي الأخذ به في عملية البحث والمعرفة، ترفع الثانية العقل والعلم منهجاً، بما يتفرّع عنه من تقنيات حسية كالتجربة والاستقراء.

وبهذا ظهرت رؤيتان مختلفتان تحملان منهجين مختلفين إزاء المعرفة، صوّرت إحداها الأخرى بوصفها (عدو الدين والقيم والأخلاق والأصالة)، ودمغت الثانية ضررتها باعتبارها (عدو العلم والعقل والمعرفة والحدّثة).

وربّما سمّت الأولى نفسها بـ(الأصالة)، في حين وصمها مناوئوها بالتخلف والرجعية والجمود والتحجر والظلامية والتفوق والانغلاق و....، وسمّت المقابلة نفسها بـ(التجديد والمعاصرة والحدّثة والانفتاح)، ووصمها مخالفوها بالتحرّر والانفلات والاستلاب والمسح و....!!، وإن كان تبادل هذه المصطلحات والتهم لا يعني أن نقصر الظاهرة على عصرنا الحاضر؛ لأنّنا يمكن - ببساطة - أن نرى امتداداتها ضمن عمق التاريخ القديم تحت مسميات مثل (أهل الحديث) في قبال (أهل الرأي)، أو (الفقهاء) في مواجهة (الفلاسفة).

هكذا إذًا.. طاب لكلّ من العقليتين أن تسم الأخرى، وأن ترسم صورتها المفهومية، وأن ترصد (وخامة) النتائج التي جرّتها في الماضي، وتحذّر من ذلك في الحاضر والمستقبل، بما يضع حائلًا يرسخ مقولة الفصل والتباين والقطيعة بينهما، ويجذّر فكرياً إغنائياً إقصائياً يقوم على طرف حدّي لا يقنع فيه بإمكانية وجود منطقة وسطى يتفاعل فيها الإلهي والبشري، الوحي والعلم، النقل والعقل، وبذاك ينتصب

أمام الوعي سؤال عميق يتزدد بدوي وصخب:

هل يمكن التعارض بين العقل والنقل؟، وبأيهما نأخذ حينئذ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال ينبغي:

أولاً: تحديد المصطلحات والمقصود منها.

ثانياً: التعرف على رتب الحكم.

ثالثاً: التعرف على مستويات البناء المعرفي.

### أولاً: تحديد المصطلحات:

لعل واحدة من أهم المشاكل المعرفية التي تخلق تبايناً في الأفكار والأعمال هي عدم تحديد المقصود من المصطلح بدقة، فقد يتفق جماعة في المضمون، لكن عدم اتفاقهم على المصطلح يدفعهم للتباين والنزاع، وكثيراً ما صق أناس لمصطلح دون أن يفهموا معناه وإيحاءاته.

ومن هنا كان تحديد المصطلحات عملية هامة قبل الدخول في أطراف النقاش؛ لنعلم منطقة الاختلاف بين المتنازعين: هل هي خلاف لفظي؟ أم فكري مضموني؟، وهل هما متفقان على معنى المصطلح أم أنّ كلاهما يقصد منه غير ما يقصده الآخر؟

ماذا نعني بالتعارض؟

وماذا نعني بالعقل؟

وماذا نعني بالنقل؟

### ١- التعارض:

التعارض هو «التنافي بين مدلولي الدليلين»<sup>(٢)</sup>، أي «أنّ كلاً منهما - إذا تمت مقومات حججته - يبطل الآخر ويكذبه»<sup>(٣)</sup>.

(٢) السيد الشهيد محمد باقر الصدر، دروس في علم أصول الفقه (الحلقات)،

ج٢، الحلقة ٣، ص ٢١٧.

(٣) الشيخ محمد رضا المظفر، أصول الفقه ٢/ ١٨٢.

وضابط التعارض: «تكاذب الدليلين على وجه يمتع اجتماع صدق أحدهما مع صدق الآخر»<sup>(٤)</sup>.

إنَّه يعني: التباين والتنافي التام والاختلاف الكلِّي بين أمرين: كالإيجاب والسلب.

ولا نقصد به التنافي الجزئي؛ لأنَّه يكفي في صحة الحكم انطباقه على الأغلب، و(ما من عام إلا وقد حُصَّ)، و(الاستثناء لا يلغي من القاعدة العامة عمومها)، و«القواعد الكلية لا تقدر فيها العوارض الجزئية»<sup>(٥)</sup>.

فوجود افتراق جزئي وموارد لا تخضع للقاعدة العامة لا يشكّل خللاً فيها بمقدار ما يمثل تخصيصاً أو تقييداً يستند إلى دليل آخر، وكذلك الحال مع وجود قاعدتين مختلفتين تحكم كل منهما موارد معيّنة مختلفة عن الأخرى.

فقد يقول شخص: ذوات الريش قادرة على الطيران. ولا يضير هذه القاعدة استثناء بعض الأفراد كالنعام والدجاج والبط.

وحين يقول شخص: بعض الناس غني. ويقول آخر: بعضهم ليس بغني. فليس هناك تعارض بين الحكمين؛ لأنَّ كلاهما صحيح، وينطبق على البعض.

أما التعارض الفعلي فينشأ حين يقول أحد: كلُّ الناس أغنياء. ويقول الآخر: كلُّهم ليسوا بأغنياء، وهنا يأتي الرأي المنطقي القائل: (الكلية الموجبة تُخدش بجزئية سالبة، والكلية السالبة تُخدش بجزئية موجبة)؛ لأنَّ اتحاد الزمان والمكان والجهة بين المثبت والمنفي يجرُّ إلى التناقض.

## ٢- العقل:

لعلَّ أبرز سمة تميّز الإنسان عن الحيوانات هي سمة العقل، هذه القوة الهائلة التي تتيح له قدرة تأمل الأشياء، واكتشاف الأسباب

(٤) المصدر ٢ / ١٨٣.

(٥) الفقه: القواعد الفقهية، مصدر سابق / ١٨٧.

والنتائج، وتفادي الأخطار، وتطوير حاله المعرفي والعملية.

ومن أجل هذا ارتأى المنطقة أن يكون أفضل تعريف للإنسان هو: «الإنسان حيوان ناطق»، على أن تكون (ناطق) بمعنى: عاقل، لا بمعنى (متكلم) عند الأكثر<sup>(٦)</sup>، هذا العنوان الإشكالي الذي يفتح الباب على مصراعيه للأخذ والرد، حين يسأل البعض: ما معنى الكلام؟ وهل الحيوانات تتكلم أم لا؟ وهل تدخل الإشارات والإفرازات الكيميائية ضمن الكلام أم لا؟

فماذا نعني بـ(العقل)؟

يُطلق (العقل) في اللغة العربية، ويُراد منه معان كثيرة، منها: الربط، والإدراك والتمييز، ونقيض الجهل، والملجأ والحصن، والفهم، والدية، والنور الروحاني الذي تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية...<sup>(٧)</sup>.

وأما في الاصطلاح فيُطلق على معان منها التالي:

الأول: «غريزة يُولد العبد بها ثمَّ يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول».

الثاني: «الفهم والبيان يسمى عقلاً؛ لأنه عن العقل كان».

الثالث: «بصيرة ومعرفة تمكّن الإنسان من تمييز الحقّ من الباطل، والصواب من الخطأ، والمصلحة من المضرة. ومع قدرة الإنسان على التمييز بين الخير والشر فإنّ العاقل هو الذي يلزم الخير ويتجنّب الشرور، ويقبل الحقّ ويرفض الباطل»<sup>(٨)</sup>.

وهذه المعاني الثلاثة هي دلالات أو مستويات العقل عند الحارث

(٦) هناك اختلاف بين المناطق في معنى (ناطق) هل هي: عاقل أم متكلم؟

(٧) القاموس المحيط ٤/ ٢٧، لسان العرب ٩/ ٣٣١، المعجم الوسيط/ ٦١٦.

(٨) التعريفات (٣-١) من: الدكتور لؤي صافي، أعمال العقل: من النظرة التجزيئية إلى الرؤية التكاملية/ ٨٧- ٨٨، نقلاً عن: (الحارث ابن أسد المحاسبي، شرف العقل وماهيته/ ٢٠٠، ٢٠٩، ٢١٠- ٢١٣).

المحاسبى [١٥٦ - ٢٤٣هـ]، [٧٧٢ - ٨٥٧م].

الرابع: العقل: جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها.

كما عرّفه الفيلسوف أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي.

الخامس: العقل: قوّة النفس التي بها يحصل تصوّر المعاني، وتأليف القضايا والأقيسة.

السادس: قوّة الإصابة في الحكم.

أي تمييز الحقّ من الباطل، والخير من الشر، والحسن من القبيح. كما ذهب ديكارت.

فهو المضاد للهوى؛ لأنّ الهوى يمنع المرء من الإصابة في الحكم.

السابع: قوّة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العلمية.

وهذه المعرفة - عندهم - مختلفة عن المعرفة المستندة إلى الوحي والإيمان.

الثامن: مجموع المبادئ القبلية المنظمة للمعرفة، كمبدأ عدم التناقض، ومبدأ الغائية.

وقد انتشر هذا المعنى في الفلسفة الحديثة بتأثير (كانت) [١٧٢٤ - ١٨٠٤م].

التاسع: الملكة التي يحصل بها للنفس علم مباشر بالحقائق المطلقة.

العاشر: مجموع الوظائف النفسية المتعلقة بتحصيل المعرفة، كالإدراك، والتداعي، والذاكرة، والتخيّل، والحكم، والاستدلال.

وهو بهذا يرادف الذهن والفهم، ويضادّ الحدس والغريزة<sup>(٩)</sup>.

الحادي عشر: النور الذي يميّز به الإنسان الرشيد من الغي،

(٩) التعريفات (٤ - ١٠) من: الدكتور جميل صليبا، المعجم الفلسفي ٢/ ٨٤ - ٨٩.

والممكن من المستحيل، والحقّ من الباطل<sup>(١٠)</sup>،.. النور الذي يجد الإنسان كلَّ شيء به<sup>(١١)</sup>.

والمعاني (من الرابع إلى الحادي عشر) هي ما يطلقه الفلاسفة على العقل.

وواضح أنّ هذه التعريفات على قسمين: بعضها يسعى لتعريف العقل بذاته، فيصفه بالفريضة، والجوهر، والقوة، والملكة، والنور. وبعضها يعرفه بآثاره ونتائجه كـ (الفهم والبيان، البصيرة والمعرفة، مجموع المبادئ القبلية المنظمة للمعرفة).

والأحكام العقلية تُوصف بأنّها ثابتة جازمة لا تقبل الريب، وشاملة لا تُخصّص، وتتفق عليها عقول البشر، ولا تتطوّر حسب تطوّر الأوضاع الاقتصادية أو الاجتماعية أو الفسيولوجية وما أشبه<sup>(١٢)</sup>.

### ٣- النقل:

ونقصد منه - هنا -:- الصحيح من الأدلة السمعية، أي ما وصلنا وصحّ سنداً ومتمناً ودلالة من قرآن وسنة مباركة.

فنحن نشترط في هذا النقل أن يكون قطعياً؛ لتكون الموازنة بين عقل قطعي/ ونقل قطعي، أما حين يكون النصّ ظنياً أو مكنوبياً فيمكن الاختلاف بينه وبين العقل.

### ثانياً: رُتب الحكم:

حين يصدر الإنسان حكماً على شيء فما نسبة قناعته بصدق ذلك؟

#### ١- الوهم:

كما لو رأى شيئاً من بعيد فاعتقد بنسبة أقلّ من ٥٠٪ أنّه إنسان.

(١٠) الفكر الإسلامي مواجهة حضارية، مصدر سابق/ ١٤٠.

(١١) المصدر/ ٤٢.

(١٢) المصدر/ ٤٥-٤٦.



## ٢- الشكّ:

وقد تزيد تلك النسبة لتصل إلى ٥٠٪، فيعتقد بهذه النسبة أنّه إنسان، وبمثلا أنّه حيوان، وهنا تتوازن الكفتان عنده، فالشكّ في طرف يلازمه وجود شكّ مضادّ في الطرف المعاكس، وبنفس المقدار.

## ٣- الظنّ:

وقد ترتفع نسبة على أخرى، فيتفوّق عنده الاعتقاد بأنّه إنسان - لقرائن معيّنّة - على الاعتقاد الآخر، فتكون الكفة الراجحة بين ٥١-٩٩٪، وهذا ما نسميه (الظنّ).

وحين تكون الكفة الراجحة هي الظنّ، يلازمها أن تكون الكفة الأخرى مرجوحة، أي الوهم، فالظنّ والوهم متلازمان، وإذا وجد ظنّ في جهة وجد وهم في الجهة المقابلة لها.

## ٤- القطع والعلم:

يفرّق البعض بين هذين المصطلحين، فيرى أنّ (العلم) هو الجزم بنسبة ١٠٠٪، فهو أمر عقلي وواقعيّ، بينما (القطع) هو حكم نفسيّ بعدم وجود المباين.

ولا يهمنا - الآن - هذا التفريق كثيراً بمقدار ما يهمنا إجراء المصطلح بالمعنى التداولي العام، والذي ينصبّ على النسبة في الحكم، فإذا وصلت إلى مقدار ١٠٠٪ فهي حكم علميّ قطعيّ.

## ثالثاً: مستويات البناء المعرفي ومنطقاتها:

وفي الاصطلاح العلميّ نفرّق بين الآتي:

### ١- الفرضية:

وتعتمد على مؤشرات أولية، كأن نرى شيئاً من بعيد فنضع له فروضاً أنّه إنسان أو حيوان أو سيارة أو شجرة.

### ٢- النظرية:

وتعتمد على أدلة ظنية و«كلّ ما يؤدي النظر فيه إلى غلبة

الظن لنحو ما يُطلب به»<sup>(١٣)</sup>. وما يؤدي إلى غلبة الظنّ يسميه علماء الأصول بالأمانة<sup>(١٤)</sup>.

### ٣- القاعدة:

وتعتمد على براهين قطعية.

ويعنون - في اللغة - بالبرهان: «الحجة البيّنة الفاصلة. وعند المنطقيين: قياس مؤلّف من مقدّمات يقينية. وعند الرياضيين: ما يثبت قضية من مقدّمات مسلّم بها»<sup>(١٥)</sup>.

«فالبرهان هو الذي يقتضي الصدق أبداً لا محالة»<sup>(١٦)</sup>؛ لأنّه قياس مؤلّف من مقدّمات قطعية منتج لنتيجة قطعية<sup>(١٧)</sup>، وهو مؤلّف من اليقينيّات سواء كانت ابتداء - وهي الضروريّات -، أو بواسطة - وهي النظرّيّات -<sup>(١٨)</sup>، فهو الحجة القاطعة المفيدة للعلم<sup>(١٩)</sup>.

### ٤- المقولة:

وهي تعتمد على البراهين العلمية.

فهي - مثل القاعدة - تعتمد على البرهان القطعيّ، لكنّ براهينها مأخوذة من الحقل العلمي، كما تفيده التجارب، كغليان الماء عند درجة ١٠٠ مئويّة، وتمدّد الحديد بالحرارة وانكماشه بالبرودة.

### ٥- القانون:

وهو ذاتيّ الثبوت، لا يحتاج إلى برهان خارجيّ: علميّ أو عقليّ

(١٣) أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة/ ٦٠.

(١٤) الدكتور أحمد فتح الله، معجم ألفاظ الفقه الجعفريّ / ٦٨. والشيخ ياسين عيسى العاملي، الاصطلاحات الفقهيّة في الرسائل العمليّة/ ٢٢.

(١٥) المعجم الوسيط، مصدر سابق / ١ / ٥٣.

(١٦) أبو البقاء الكفوي، الكليات / ٢٤٩.

(١٧) المصدر / ٢٤٩.

(١٨) المعجم المفصّل في الأدب، مصدر سابق / ١ / ١٨٥.

(١٩) السيد نور الدين الجزائري، فروق اللغات / ٧٢ - ٧٣.

أو غيرهما... كقانون الجاذبية والطفو اللذين نرى آثارهما واضحة للعيان.

### النظرية والحقيقة:

ونستطيع - من باب الاختصار - أن ندرج (الفرضية)، و(النظرية) الماضيتين في المستويات المعرفية تحت عنوان واحد هو (النظرية).

كما نستطيع أن ندرج الثلاثة الأخيرة (القاعدة، المقولة، القانون) تحت مسمى واحد هو (الحقيقة).

ف(الحقيقة) هي كلّ قطعيّ علميّ بلغت نسبة التصديق به ١٠٠٪، وكلّ ما لم تصل نسبته إلى ذلك فهو (نظرية).

### متغيّرات السؤال:

ومما مضى نصوغ السؤال على النحو التالي:

هل يمكن التناهي التام بين العقل القطعيّ والنقل القطعيّ؟

أي أنّ هناك أربع صور محتملة للمقصود من التعارض<sup>(٢٠)</sup>، هي:

١- التعارض بين العقل القطعي والنقل القطعي.

٢- التعارض بين العقل القطعي والنقل الظني.

٣- التعارض بين العقل الظني والنقل القطعي.

٤- التعارض بين العقل الظني والنقل الظني.

وموقع السؤال هو الأول (التعارض بين القطعيين)، أما الثاني والثالث (التعارض بين قطعي وظني) فليس تعارضاً أصلاً؛ لأنّ القطعي والظنيّ ليسا في رتبة واحدة حتى يُقال بتعارضهما، ولأنّ المقدّم حينئذ

(٢٠) التعارض من الناحية النظرية: إما أن يكون بين عقليين، أو بين نقليين، أو بين عقلي ونقلي، أو بين نقلي وأصل عملي. وكلامنا يقع في التعارض بين العقلي والنقلي.

هو القطعي منهما سواء أكان عقلياً أو نقلياً، وأما الرابع (بين ظنيين) فهو ممكن، وهناك من يقدّم حينها النقل، ومن يقدّم العقل، لكنّه - كذلك - ليس تعارضاً حقيقياً، بل.. هو ظنيّ؛ لأنّ الدلالة فيهما ليست قطعية، وهذا ما يجعلنا نشدّد على أنّه تعارض ظاهري فحسب.

وهذا يعني أنّ الصورة الوحيدة الممكنة هي التعارض بين الظنيين، كما يعني إمكان ردّ الصور الأربع المتقدّمة إلى ثلاث هي:

١- التعارض بين القطعيين.

٢- التعارض بين القطعي والظني.

٣- التعارض بين الظنيين.

بيد أنّ ذلك كلّه لم يمنع من بروز ثلاث إجابات تاريخية قديمة متباينة، لها إفرازاتها ضمن الاتجاهات المعرفية المعاصرة، في الإجابة على السؤال لا في التعارض بين القطعي والظنيّ فحسب، وإنّما لتعمّم ذلك حتى بين القطعيين، وتتساءل (هل يمكن التعارض بين العقل القطعي والنقل القطعي؟)، (هل يمكن أن يقع التعارض بين القطعيين؟).

وتلك الإجابات التاريخية هي:

١- الإمكان، وتقديم العقل:

يمكن التعارض بين العقل القطعي الصريح والنقل القطعي الصحيح، وحينئذ نقدّم العقل، وذهب لذلك المعتزلة.

٢- الإمكان، وتقديم النقل:

يمكن التعارض بين العقل القطعي والنقل القطعي، وحينئذ نقدّم النقل، وذهب لذلك الأشاعرة.

٣- عدم الإمكان:

لا يمكن التعارض بين العقل القطعيّ والنقل القطعيّ، وذهب لهذا الشيعة الإمامية.

وإذا كان اتجاهاً من هذه الاتجاهات يريان إمكان تعارض القطعيين، فالذي يبدو أنّ آخرين ممن أجاب عن السؤال لم يلتفتوا إلى القيود الثلاثة في متغيّرات السؤال: (التنافي التام)، (العقل القطعي)، (النقل القطعي)؛ فظنّوا أنّ مطلق الاختلاف تعارض، ولو كان التخالف جزئياً، أو بين قطعي وظنّي، أو بين ظنيين.

كما أنّ بعضهم لم يلتفت إلى أنّ المقصود من التعارض: صدور حكمين متنافيين، لا حكم أحدهما بشيء وسكوت الآخر عنه، فهذا ليس تعارضاً، وإنّما هو مجيء الحكم من طرف واحد لم يكذّبه الآخر.

لقد أدرك ابن رشد مبكراً غفلة البعض عن هذه القيود، فألف رسالته (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال)، وراح يقول:

«وإذا كانت هذه الشريعة حقّاً، وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحقّ، فإنّنا - معشر المسلمين - نعلم على القطع أنّه لا يؤدي النظر البرهانيّ إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإنّ الحقّ لا يصادّ الحقّ، بل.. يوافقه ويشهد له.

وإذا كان هذا هكذا، فإنّ النظر البرهانيّ إلى نحو ما.. من المعرفة بموجود ما..، فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سكت عنه الشرع، أو عرّف به.

فإن كان قد سكت عنه فلا تعارض هناك، وهو بمنزلة ما سكت عنه من الأحكام فاستتبها الفقيه بالقياس الشرعي.

وإن كانت الشريعة نطقت به فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقاً لما أدى إليه البرهان فيه، أو مخالفاً: فإن كان موافقاً فلا قول هنالك، وإن كان مخالفاً طُلب هنالك تأويله»<sup>(٢١)</sup>.

ويقول الشيخ ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨هـ]، [١٢٦٣ - ١٣٢٨م]: «الأنبياء قد يأتون بما تعجز العقول عن إدراكه - كالصفات الإلهية

(٢١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، مصدر سابق / ٢١ - ٢٢.

والغيب .- ولكنهم لا يأتون مطلقاً بما يضادّ العقول ويعارضها»<sup>(٣٣)</sup>.

### هل يقع التعارض؟

وإذا كنا - فيما مضى - نتكلم عن (الإمكان) النظري أو عدمه، فهناك من تجاوز ذلك ارتقاء في الدرجة فقال بـ (الوقوع) وحصول التعارض عملياً بين العقل والنقل، ومن ثمّ فـ (أكبر دليل على الإمكان الوقوع) - كما يقولون في المنطق .-

وهذا ما يستدعي أن نقف عند الأمور التالية:

### ١- هل يخطئ العقل؟

ينبغي أن ندرك أنّ القول بعدم تنافي الحكيم القطعيين للنقل والعقل إنّما يتم عند القول بأنّ النقل القطعي لا يمكن أن يتطرق إليه الخطأ، وأنّ العقل وحيّ باطني معصوم، أحكامه قطعية جازمة لا يمكن أن تخطئ.

أما من يقول بالخطأ على أحدهما فلا مشكلة عنده؛ لأنّه سيأخذ حينئذ بالقطعيّ، ويخطئ الآخر.

يقول الدكتور أحمد العسّال: «وإذا كان هذا [ أنّ الأمة الإسلامية صاحبة رسالة كبرى ] شأن هذه الأمة وطبيعة رسالتها؛ فهي مطالبة أن تقوم ما يجد في الحياة من آراء وتصورات لتتبين الحق من الباطل، فالحياة تأتي كل يوم بالجديد، وليس كل ما تأتي به حقاً خالصاً، ولا باطلاً خالصاً، ففيه من كل بقدر؛ إذ هو ثمرة العقل البشريّ الذي يجوز عليه الخطأ والصواب، والهدى والضلال، وذلك لأنّه - أي العقل - يتأثر بنوازع الهوى وضغوط البيئة والمجتمع وانحرافات الفكر والثقافة»<sup>(٣٣)</sup>.

ويقول أيضاً: «ولا يمكن ولا يتأتى أن يحدث تعارض بين

(٢٢) الدكتور محمد رشاد سالم، المدخل إلى الثقافة الإسلامية / ٢٣٠، نقلاً عن:

(الشيخ ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح / ٤ - ١٣٠ - ١٣٢).

(٢٣) الدكتور أحمد محمد العسّال، الإسلام وبناء المجتمع / ٧.

معطيات العلم الصحيحة وتعليمات الوحي، فهما ينبعان من مشكاة واحدة، ولكنَّ المشكلة تأتي إما من أهواء العلماء، أو تخرُّصات أديعاء العلم، أو الخطأ في تفسير نصوص الوحي<sup>(٢٤)</sup>.

والذي يبدو من هذين النصين: أنَّ الدكتور السَّال يرى إمكانية أن يخطئ العقل، لكنَّ حكمه حين يصل إلى مرتبة العلم أو يعتمد العلم فلا يمكن حدوث التعارض حينئذ.

وهذا يوافق من يرى أنَّ الوهم والشكَّ والظنَّ أحكام عقلية ويمكن الخطأ فيها، ولا يصف الأحكام العقلية دوماً بالجزم والثبات والاطراد، وإتِّمَّا ذلك يخصُّ ما بلغ منها درجة العلم فقط. فهوَّلاء يرون أنَّ الأحكام العقلية القطعية الجازمة لا تتنافى مع الحكم النقلى القطعى، ولكنَّهم لا يرون أنَّ جميع أحكام العقل قطعية جازمة، بل.. لديه أحكام مظنونة ومشكوكة ومتوهمة، ومن ثمَّ يفرِّقون بين قول (أحكام العقل قطعية جازمة لا يمكن أن تخطئ) وبين (أحكام العقل القطعية الجازمة لا يمكن أن تخطئ)، ويرون أنَّ الجملة الأولى تعبير خاطئ، وأنَّ الثانية هي الصحيحة. وعليه فهم يذهبون إلى أنَّ أحكام العقل غير الجازمة يمكن أن تعارض النقل.

وقد خاض علماء الأصول نفس الخضم (هل يخطئ العقل أم لا؟) فتباينت إجاباتهم بين من يرى أنَّ العقل معصوم لا يخطئ، ومن يرى أنَّ العقل الفطريَّ الخالى من الشوائب والأوهام هو الذى لا يخطئ، وبين من يسلب عنه العصمة ويراه - كسائر أدوات الحسِّ والمعرفة - يخطئ ويصيب.

## ٢- هل يخطئ النقل؟

وفي حين ذهب البعض إلى إمكانية خطأ العقل، وأنَّ بعض أحكامه - فقط - تصل إلى درجة العلم والقطع، في الوقت الذى تقبل أحكامه الأخرى - الوهم والشكَّ والظنَّ - الخطأ، وتتأثر بعمليات الخداع الحسى، وعودة تلك الأخطاء إلى أسباب علمية أو نفسية، ينبغى طرح

ذات السؤال عن النقل.

ولعلّ الإجابة على ذلك تقتضي التفريق بين نصّ القرآن والسنة.

فالقرآن الكريم عصمه الله عن يد التحريف، فوصلنا كما أنزله الله على نبيّه محمداً ﷺ، فهو قطعي الصدور، بيد أنّه - من ناحية المعنى - فيه النصّ الذي لا يتطرقّ له احتمال مضاد، وهو قطعي الدلالة. وفيه الظاهر الذي يقبل تعدّد المعنى والتفسيرات، وهو ظنّي الدلالة «القرآن حمّال ذو وجوه»<sup>(٢٥)</sup>، ومن ثمّ لا يمكن أن ينشأ التعارض بين القطعي القرآني والعقلي والعلمي.

بيد أنّ تلك الدلالات والتفسيرات التي أضفاها المفسّرون أو غيرهم على الآي القرآني هي اجتهادات بشرية لا ندعي لها العصمة، ويمكن أن تعارض العقل والعلم.

وأما السنة فقد نُقل بعضها بالنصّ وبعضها بالمعنى، ووصل بعض نصوصها كاملاً، ووصل آخر مبتوراً أو موزعاً على أبواب ومواضيع، ووصل بعضها مع قرائنه وسياقاته بينما ضاع ذلك في الآخر، وفيها الحديث المتواتر وحديث الأحاد، وقطعي الصدور وظنّيّه، وقطعي الدلالة وظنّيّها، وفيها الصحيح والحسن والموثق والضعيف، وفي روايتها الحافظ والمخلط والمدّلس والكذاب، و تأخر تدوينها وطاقتها يد التحريف والوضع. ومن ثمّ فمن الطبيعي على بعضها الخطأ، وإن كان ذلك ليس خطأ من السنة بذاتها ومن المعصوم عينه وإنّما هو من الملبسات المحيطة بالنصّ وعملية التدوين.

وإذا كان ما مضى هو الطابع العام لنظرة المسلمين فإنّنا لن نعدم أن نعثر على آخرين أجازوا أن يحدد النقل حتى في أعلى صورهِ (صريح القرآن) عن الصواب!!

ولم تقتصر وجهة النظر هذه على من تُنسب لهم ضمن الماضي - وهم المعتزلة -، بل.. أعيد تدويرها مع متقنين في العصر الحديث لا سيما أولئك الذين رأوا في شيء من الرؤى القرآنية أو الحديثية ما

(٢٥) نهج البلاغة، مصدر سابق/ ٤٦٥ (الكتاب ٧٧).



يناقض مكتشفات العلم الحديث.

وسنرى في أمثلة لاحقة آيات وأحاديث يرى هؤلاء مخالفتها للعقل أو العلم.

### ٣- محطات تاريخية:

وإذا أردنا أن نلمح مسار موضوع التعارض بين العقل والنقل في المشهد التاريخي فسنتقف عند محطات كثيرة، أبرزها:

أ- آيات القرآن الحكيم والسنة المباركة دعت إلى إعمال العقل، وحثت على لزوم التواضع بينه وبين الوحي، وتحريكه في أمور الدين والطبيعة والتاريخ والمجتمع، وسنتقف على شيء من ذلك تحت العنوان اللاحق (الدين والعقل).

ب- بيد أنه لم يلبث أن تأثر المسلمون - ولا سيما الفلاسفة - بالفكر الإغريقي اليوناني، ورأوا فيه قواعد عقلية منطقية جازمة لا تقبل الريب، ومن ثمّ فما يخالفها فهو الخطأ بعينه.

وعلى هذا فـ «إشكالية تعارض العقل والنقل لم تتبع أصلاً من داخل العقل الإسلامي الذي تشكّل بتأثير الخطاب القرآني، ولكنها طرأت نتيجة لتأثر الفكر الإسلامي بالعقل الإغريقي الثاوي في الفلسفات الإغريقية»<sup>(٣٦)</sup>.

ج- ثمّ احتدم الصراع بين فقهاء المسلمين وفلاسفتهم وملتكلميهم، فراح المعتزلة إلى إمكان التعارض وتقديم العقل، وأخذ الأشاعرة بالإمكان وتقديم النقل، وذهب الإمامية إلى عدم إمكان التعارض أصلاً - كما أسلفنا -.

و«أصرّ الفلاسفة على اعتبار العقل سلطة مستقلة عن سلطة الوحي، وادّعوا أنّ العقل قادر على تمييز الحقّ من الباطل والحسن من القبيح بمعزل عن الوحي، بينما شدّد المتكلمون على تكامل العقل والوحي، وأكدوا حاجة العقل إلى الوحي للوصول إلى معرفة الحقّ والحسن»<sup>(٣٧)</sup>.

(٣٦) إعمال العقل، مصدر سابق/ ٨٥.

(٣٧) المصدر/ ٣٠.

وهذا ما احتدم فيه النزاع تحت عنوان: هل الحسن والقبح ذاتيان أم شرعيان؟، فذهب الأشاعرة إلى أنّهما شرعيان، وأنّ الحسن هو ما حسّنه الشارع، والقبح ما قبحه الشارع، وأن لا ذاتية في الأمور من ناحية الحسن والقبح.

بينما ذهب العدلية - الإمامية والمعتزلة - إلى أنّ الحسن والقبح أمران ذاتيان يدركهما العقل مستقلاً، فهو يدرك حسن العدل وقبح الظلم، وأنّ رأي الشارع في تحسين أو تقبيح هذه الأمور هو أرشادي تأكيدي لحكم العقل وليس تأسيسياً لحكم جديد.

د- ورداً على الفلاسفة، وخوفاً من جعل السبب هو الفاعل المؤثر في المسبب، وخشية من أن يؤدي إثبات الضرورة والتلازم بين السبب والمسبب إلى إنكار المعجزات ألّف أبو حامد الغزالي [٤٥٠-٥٠٥هـ]، [١٠٥٨-١١١٢م] كتابه (تهافت الفلاسفة) في [٤٨٨هـ / ١٠٩٥م]، ووصفهم بـ «أنهم يحكمون بظنّ وتخمين من غير تحقيق ويقين»<sup>(٢٨)</sup>.

ووصل الغزالي إلى إنكار الملازمة بين السبب والمسبب، وأنّ «الاقتران بين ما يُعتقد في العادة سبباً وبين ما يُعتقد مسبباً ليس ضرورياً عندنا، بل.. كلّ شيئين ليس هذا ذاك، ولا ذلك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمناً لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمناً لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الرّي والشرب، والشبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار، والنور وطلوع الشمس، والموت وجزّ الرقبة، والشفاء وشرب الدواء، وإسهال البطن واستعمال المسهل، وهلمّ جرا.. إلى كلّ المشاهدات من المقترنات في الطبّ والنجوم والجرف، فإنّ اقترانها لما سبق من تقدير الله - سبحانه - يخلقها على التساوق، لا لكونه ضرورياً في نفسه غير قابل للفوت»<sup>(٢٩)</sup>.

وبهذا أنكر الغزالي أحد أهم الأسس العقلية (مبدأ السببية)، ونسب الأمر إلى مجرد (اقتران) خارجي وزمني، وأنّ القول بالعلية

(٢٨) أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، تقديم وتعليق: الدكتور صلاح الدين الهوّاري / ٤٤.

(٢٩) المصدر / ١٧٦.

ليس إلا نتيجة (العادة) التي أَلَمَّهَا الناس!!<sup>(٣٠)</sup>.

وفي كتابه (المستصفي من علم الأصول) بعد أن قسّم العلوم «إلى عقلية كالتطبّ والحساب والهندسة...، وإلى دينية كالكلام والفقه وأصوله وعلم الحديث وعلم التفسير وعلم الباطن...»<sup>(٣١)</sup>، راح إلى تقسيم العلوم العقلية إلى عقلي غير محض، و«عقلي محض لا يحثّ الشرع عليه ولا يندب له، كالحساب والهندسة والنجوم وأمثاله من العلوم فهي بين ظنون كاذبة لائقة وإنّ بعض الظنّ إثم، وبين علوم صادقة لا منفعة لها، ونعوذ بالله من علم لا ينفع، وليست المنفعة في الشهوات الحاضرة والنعم الفاخرة، فإنّها فانية دائرة، بل.. النفع ثواب دار الآخرة»<sup>(٣٢)</sup>.

وهكذا انتهى حسم الأمر عند الغزالي إلى أن لا فائدة إلا من الأمور الشرعية أو ما أيدها الشرع، أما العقلية المحضة فهي بين (ظنون كاذبة لائقة)، و(صادقة لا منفعة لها)!!

هـ- وهبّ فخر الدين الرازي [٥٤٤-٦٠٦هـ]، [١١٥٠-١٢١٠م] للردّ على كتاب (التوحيد وإثبات صفات الربّ) لمحمد بن إسحاق ابن خزيمة [٢٢٣-٣١١هـ]، [٨٣٨-٩٢٤م] الذي منع فيه حمل الآيات القرآنية التي تذكر لله يداً أو ساقاً أو وجهاً أو... على المجاز، فألّف الرازي كتابه (أساس التقديس)، ومما قال فيه:

«الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شيء ثمّ وجدنا أدلة نقلية يشعر ظاهرها بخلاف ذلك فهناك لا يخلو الحال من أحد أمور أربعة:

- إما أن يَصُدُقَ مقتضى العقل والنقل فيلزم تصديق النقيضين، وهو محال.

(٣٠) في شكل العلاقة بين السبب والنتيجة (العلة والمعلول) هناك آراء:

أ - العلاقة الذاتية الضرورية (غير قابلة للاختلاف والتخلف).

ب- العلاقة الاقتراعية التعاقبية (مجرّد ارتباط وتوالي زمني).

ج - العلاقة الجعلية (ربط إلهي يمكن أن تتدخل المشيئة الإلهية لفكّه).

(٣١) إعمال العقل، مصدر سابق/ ٨٥، نقلاً عن: (المستصفي من علم الأصول ٥/١).

(٣٢) المصدر/ ٨٥، نقلاً عن: (المستصفي من علم الأصول ٥/١).

- وإما أن يبطل فيلزم تكذيب النقيضين، وهو محال.

- وإما أن يصدّق الظواهر النقلية ويكذب الظواهر العقلية، وذلك باطل؛ لأنه لا يمكننا أن نعرف صحة الظواهر النقلية إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية إثبات الصانع وصفاته، وكيفية دلالة المعجزة على صدق الرسول ﷺ وظهور المعجزات على محمد ﷺ.

ولو جوّزنا القدح في الدلائل العقلية القطعية صار العقل متهماً غير مقبول القول، ولو كان كذلك لخرج أن يكون مقبول القول في هذه الأصول. وإذا لم تثبت هذه الأصول خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدة، فثبت أنّ القدح لتصحيح النقل يفضي إلى القدح في العقل والنقل معاً وأنه باطل.

- ولما بطلت الأقسام الأربعة لم يبقَ إلا أن يقطع بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة بأنّ هذه الدلائل النقلية إما غير صحيحة، أو يُقال إنّها صحيحة إلا أنّ المراد منها غير ظواهرها. ثمّ إن جوّزنا التأويل واشتغلنا على سبيل التبرّع بذكر تلك التأويلات على التفصيل، وإن لم يجز التأويل فوّضنا العلم بها إلى الله تعالى، فهذا هو القانون الكلي المرجوع إليه في المتشابهات»<sup>(٣٣)</sup>.

- و ثمّ جاء ابن رشد ليسلّط ميسم النقد على الغزالي وكتابه (تهافت الفلاسفة)، فيكتب (تهافت التهافت) وينتصر فيه للفلاسفة، كما يكتب (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال)، ويصل إلى التوحيد بين الحكمة والشريعة، الفلسفة والوحي، الصحيح من العقل والنقل، وأنّه «إذا كانت هذه الشريعة حقاً وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحقّ، فإننا - معشر المسلمين - نعلم على القطع أنّه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع؛ فإنّ الحقّ لا يضادّ الحقّ، بل.. يوافقه ويشهد له»<sup>(٣٤)</sup> - كما مرّ -.

فهو ينطلق من كون الأمور العقلية حقاً، وكذلك الشرعية و(الحقّ لا يضادّ الحقّ)، فلا يمكن أن يختلف القطعي منهما مع

(٣٣) المصدر/ ٨١، نقلاً عن: (فخر الدين الرازي، أساس التقديس/ ٢٢٠-٢٢١).

(٣٤) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، مصدر سابق/ ٣١-٣٢.

الأخر، وأما في حال التخالف بين قطعي وظنّي فلا بدّ من اللجوء إلى تأويل الظنّي.

ز- ويأتي الشيخ ابن تيمية ويؤلف (درء التعارض بين العقل والنقل) ليكرّسه للرّد على الفخر الرازي وكلمته السابقة في (أساس التقديس).

ومع أنّ عنوان كتاب ابن تيمية صريح في عدم التعارض، وتأكيده ذلك بقوله عن العقلي والسمعي: «فأيهما كان قطعياً يُقدّم، وإن كانا جميعاً قطعيين فيمتنع التعارض، وإن كانا ظنيين فالراجح هو المتقدّم»<sup>(٣٥)</sup>، إلاّ أنّه سرعان ما يذهب إلى وجوب تقديم النقل عند التعارض؛ «لأنّ العقل مصدّق للشرع في كلّ ما أخبر به، والشرع لم يصدّق العقل في كلّ ما أخبر به»<sup>(٣٦)</sup>، ولأنّ «مقدّمات الأدلة العقلية المخالفة للسمع فيها من التطويل والخفاء والاشتباه والاختلاف والاضطراب ما يوجب أن يكون تطرّق الفساد إليها أعظم من تطرّقه إلى مقدّمات الأدلة السمعية»<sup>(٣٧)</sup>، ولأنّ وظيفة العقل إنّما هي أن يصل إلى صدق الرسول فيتولاّه ويعزل نفسه لصالحه، فهو «متول وليّ الرسول ثمّ عزل نفسه؛ لأنّ العقل دلّ على أنّ الرسول - صلى الله عليه وسلّم - يجب تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر»<sup>(٣٨)</sup>.

ح- وهذا المسرد التاريخي لفكرة تعارض العقل والنقل يشير إلى أنّ انبثاقها جاء بفعل العامل الغربي، لكنّه ليس العامل الغربي الحديث، بل.. يمتد إلى زمن عصر الترجمة وتأثر العقل العربي بالعقل اليوناني، وأنّ ما أنتجه العقل الأوروبي الحديث والمدرسة الوضعية وما جاء به ديكرت وبيكون من ضرورة الفصل بين الدين والعلم كرّد على الممارسات الكنسية في فرض تصوّراتها على العلم باسم الدين، ومن ثمّ تبني الفكر العلماني الغربي والعربي لذلك هو رافد حديث للمقولة القديمة (فكرة التعارض).

(٣٥) إعمال العقل / ٨٢، نقلاً عن: (درء التعارض بين العقل والنقل / ٨٧).

(٣٦) المصدر / ٨٢، نقلاً عن: (درء التعارض بين العقل والنقل / ١٣٨).

(٣٧) المصدر / ٨٢، نقلاً عن: (درء التعارض بين العقل والنقل / ١٧٤).

(٣٨) المصدر / ٨٣، نقلاً عن: (درء التعارض بين العقل والنقل / ١٣٨).

وإن كنا - في الوقت نفسه - لا ننفي أنّ تأثيرات العقل الوضعي الحديث هي أكبر عامل معدّ لفكرة التعارض في واقعنا الراهن وأكثرها تأثيراً فيه؛ لأنّ تلك الآراء القديمة في التعارض وأسبابها (من التأثر بالفلسفة اليونانية وما بعدها في جوّها العربي والمسلم) تكاد تكون آراء تاريخية ضمن العقلية التراثية والمتأثرة بها، لكنّها - فيما بعد - تلاشت واندثرت في الوسط الإسلامي الذي تغلّبت عليه فكرة عدم التعارض لولا دور العلمنة في إعادة إنتاج الفكرة متأثرة بالعقل الوضعي في أوروبا.

ولعلّ تلك الإجابات السابقة عن ذينك السؤالين (هل يخطئ العقل؟)، (هل يخطئ الدين؟)، والمحطات التاريخية للصراع حولهما تحتمّ علينا أن نقوم بمحاولة استجلاء للتالي:

- ما مكانة العقل في الدين؟

- أيهما أوسع إدراكاً: العقل أم النقل؟

- ما العلاقة بين مبدأ التسليم في الإسلام / والبلاهة وتغييب العقل؟

- ما الحلّ عند التعارض الظاهري بين العقل والنقل؟

#### ٤- الدين والعقل:

عندما نبحث عن مصطلح (العقل) في القرآن الكريم فإننا لن نجد وروده بصيغة المصدر (الصيغة الاسمية)، بيد أنّه ورد باشتقاقاته (الصيغة الفعلية) عقلوه، يعقلون، تعقلون، نعقل، يعقلها؛ «إشارة إلى أنّه فعل يمارس، وليس مجرد عضو يُستخدم أو يُعطل»<sup>(٣٩)</sup>:

﴿يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ، ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾<sup>(٤٠)</sup>.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>(٤١)</sup>.

﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى، وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾<sup>(٤٢)</sup>.

(٣٩) المصدر / ٩ (كلمة الناشر: محمد عدنان سالم).

(٤٠) سورة البقرة / ٧٥.

(٤١) سورة الروم / ٢٨.

(٤٢) سورة البقرة / ٧٣.

﴿ وَقَالُوا: لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٤٣).

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنُظَرِهَا لِلنَّاسِ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٤٤).

بيد أنه وردت في القرآن الكريم - وبصيغة الاسم أيضاً - كلمات أخرى بمعنى العقل، منها: اللب، النهى، الحجر:

﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٤٥).

﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لَأُولِي النُّهَى ﴾ (٤٦).

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ؟ ﴾ (٤٧).

وتحت آيات القرآن الكريم على العقل والأخذ بأحكامه، والتوصل إلى الله - سبحانه وتعالى - به، وتذكره ضمن مشتقات العقل واللب والتفكر والتأمل والنظر و...:

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا، وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رُجُجَيْنِ اثْنَيْنِ، يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ \* وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَّجَاوِرَاتٌ، وَجَنَاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَعَيْرٌ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَتُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٤٨).

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ \* الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٤٩).

(٤٣) سورة الملك / ١٠.

(٤٤) سورة العنكبوت / ٤٣.

(٤٥) سورة البقرة / ٣٦٩.

(٤٦) سورة طه / ١٢٨.

(٤٧) سورة الفجر / ٥.

(٤٨) سورة الرعد / ٤٣.

(٤٩) سورة آل عمران / ١٩٠ - ١٩١.

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ \* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ \* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ \* وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾<sup>(٥٠)</sup>.

وعلى الطرف المقابل ذمّت الآيات الشريفة تعطيل العقل وشلّ قواه:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ. قَالُوا: بَلْ نَتَّبِعِ مَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ آبَائِنَا. أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ! ﴾<sup>(٥١)</sup>.

وفي الحديث القدسي: « لما خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له: أقبل.. فأقبل، ثم قال له: أدبر.. فأدبر، ثم قال له: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً هو أحبُّ إليّ منك، ولا أكملك إلا فيمن أحبُّ، أما إنّي إياك أمر، وإياك أنهى، وإياك أثيب »<sup>(٥٢)</sup>.

وفي نص آخر يقول الله تعالى للعقل: « وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً أحسن منك، ولا أطوع لي منك، ولا أرفع منك، ولا أشرف منك، ولا أعرّ منك، بك أوحد، وبك أعبد، وبك أدعى، وبك أرتجى، وبك أبتغى، وبك أخاف، وبك أحنز، وبك الثواب، وبك العقاب.

فخرّ العقل ساجداً، فكان في سجوده ألف عام، فقال الربّ - تبارك وتعالى -: ارفع رأسك، وسل.. تُعط، واشفع.. تُشفع.

فرفع العقل رأسه فقال: إلهي، أسألك أن تشفّعني فيمن خلقتني فيه. فقال الله - جلّ جلاله - لملائكته: أشهدكم أنّي قد شفّعته فيمن خلقتة فيه »<sup>(٥٣)</sup>.

ويقول الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم: « استرشدوا العقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا »<sup>(٥٤)</sup>، « إنّما يُدرِك الخير كلُّه بالعقل، ولا دين لمن

(٥٠) سورة الفاشية/ ١٧- ٢٠.

(٥١) سورة لبقرة/ ١٧٠.

(٥٢) بحار الأنوار، مصدر سابق ١/ ٣٥٢.

(٥٣) المصدر ١/ ٣٦٣.

(٥٤) المصدر ١/ ٣٥٢.



لا عقل له»<sup>(٥٥)</sup>، «العقل أصل ديني»<sup>(٥٦)</sup>.

والحديث الأخير يؤكد أنّ كثيراً من أحكام الدين قائمة على الأحكام العقلية، وهي بذلك إرشادية مؤكّدة للحكم العقلي التأسيسي.

ويقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «العقل أشرف مزية»<sup>(٥٧)</sup>، «مصلح كلّ أمر»<sup>(٥٨)</sup>، «منزّه عن المنكر، أمر بالمعروف»<sup>(٥٩)</sup>.

ويقول الإمام الكاظم (عليه السلام): «إنّ لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة، فأما الظاهرة فالرسول والأنبياء والأئمة - عليهم السلام -، وأما الباطنة فالعقول»<sup>(٦٠)</sup>.

كما بحث أهل بيت العصمة (عليهم السلام) على لزوم إعمال العقل بالتفكير، والاستفادة من نتائجه وعطاياه، ويقرّرون أنّ «تفكّر ساعة خير من عبادة ستين سنة»<sup>(٦١)</sup>، «ليست العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنّما العبادة التفكّر في أمر الله»<sup>(٦٢)</sup>، «أفضل العبادة إيمان التفكّر في الله وقدرته»<sup>(٦٣)</sup>، «أوصيكم بتقوى الله، وإدامة التفكّر، فإنّ التفكّر أبو كلّ خير وأمه»<sup>(٦٤)</sup>.

ويُدخل الشرعُ العقلَ ضمن مصادر التشريع، ويقرّ أحكامه، وأنّ «كلُّ ما حكم به العقل حكم به الشرع»<sup>(٦٥)</sup>، بما يعنيه ذلك من التلازم

(٥٥) تحف العقول، مصدر سابق/ ٤٤.

(٥٦) ميزان الحكمة، مصدر سابق / ٥ / ٤٨، نقلاً عن: (مستدرك الوسائل ٢ / ٢٧٩).

(٥٧) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق / ١ / ٤٨، ح ١٠١٩.

(٥٨) المصدر / ١ / ٢٦، ح ٤٥٨.

(٥٩) المصدر / ١ / ٦١، ح ١٢٩٧.

(٦٠) بحار الأنوار / ١ / ٣٩٣.

(٦١) المصدر / ٦٦ / ٢٩٣.

(٦٢) ميزان الحكمة، مصدر سابق / ٧ / ٥٤٢.

(٦٣) بحار الأنوار، مصدر سابق / ٦٨ / ٣٢١، ٣٢٢.

(٦٤) ميزان الحكمة، مصدر سابق / ٧ / ٥٤٣.

(٦٥) القواعد، مصدر سابق / ٢٦٨.

بين الحكم الشرعي والحكم العقلي، كما يرى مشهور الفقهاء<sup>(٦٦)</sup>.

فالشريعة يعُدُّون العقل أحد مصادر التشريع الأربعة، إلى جانب القرآن والسنة والإجماع.

ويجعل السنة القياس مصدراً رابعاً إلى جانب تلك الثلاثة، والقياس يعتمد على استعمال العقل في اكتشاف العلاقة بين الفرع والأصل، ومن ثمّ تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع بعلّة جامعة.

وبهذا يتخذ العقل موقعه إلى جانب الكتاب والسنة والإجماع.

ويرى البعض أنّ الأصحّ ألا يعنون العقل كمصدر من مصادر التشريع؛ لأنّه الأساس والمنطلق الذي يتعامل مع مصادر التشريع، ويؤلّف بينها حتى يخرج الحكم، أي أنّه آلة لاستكشاف الحكم لا لجعله.

بينما يرى آخرون أنّه دليل مع كلّ دليل، بل.. دليل قبل كلّ دليل!!؛ إذ لا يمكن فهم الكتاب والسنة والإجماع دونه، ولا يمكن استنباط الحكم التشريعي إلاّ به، ومن ثمّ فهو المصدر الأصل، وما القرآن والسنة والإجماع إلاّ روافد يستقي منها ليُنْتج الحكم.

وسواء أقلنا أنّ العقل أحد مصادر التشريع، أم أنّه وسيلة للعمل في تلك المصادر، أم أنّه أصلها وأساسها، فذاك يدلّ على أنّ الشرع نصب العقلَ دليلاً إليه؛ لأنّه يعلم بما سيصل إليه، وأنّه لا يعارضه، وإلاّ لما أرسى طريقين (العقل والنقل) كلّ منهما يقود إلى جهة مضادة!!<sup>(٦٧)</sup>.

كما يدلّ على أنّ «الدليل اللفظي القطعي لا يمكن أن يعارضه دليل عقلي قطعي؛ لأنّ دليلاً من هذا القبيل إذا عارض نصّاً صريحاً من المعصوم (عليه السلام) أدى ذلك إلى تكذيب المعصوم (عليه السلام) وتخطئته، وهو مستحيل.

(٦٦) هناك من لا يقبل قاعدة التلازم هذه، أو يرفض كونها كلية (أي يقبل أنّ التلازم في بعض الموارد لا كلّها).

(٦٧) يقول السيّد كمال الحيدري: «فلولا العقل الذي زُوِّد به الإنسان لما أمكنه أن يفهم هذه الحجّة الظاهرة المتمثلة بالوحي والنبوة والولاية»، التوحيد / ١ / ٧٢.

ولهذا يقول علماء الشريعة: إِنَّ من المستحيل أن يوجد أيُّ تعارض بين نصوص الشريعة الصريحة وأدلة العقل القطعية.

وهذه الحقيقة لا تفرضها العقيدة فحسب، بل.. يبرهن عليها الاستقراء في النصوص الشرعية ودراسة المعطيات القطعية للكتاب والسنة، فإنَّها جميعاً تتفق مع العقل، ولا يوجد فيها ما يتعارض مع أحكام العقل القطعية إطلاقاً<sup>(٦٨)</sup>.

### ٥- أيهما أوسع إدراكاً: العقل أم النقل؟

سبق أن ذكرنا أنَّ «كلَّ ما حكم به العقل حكم به الشرع»<sup>(٦٩)</sup>، وهذه القاعدة - في طردها - مقبولة عند مشهور الفقهاء، بيد أنَّ التساؤل الآن هو في عكس القاعدة وهو: هل كلُّ ما حكم به الشرع حكم به العقل؟!

والإجابة على ذلك - ضمن الرؤية الدينية -: لا..، فالتنقل أوسع دائرة؛ لاتصاله - عبر الوحي - بالله تعالى وبالعالم الغيب، ولأنَّ مدارك الإنسان محدودة، فهو لا يستطيع سبر عالم ما وراء الطبيعة للتعرف على الآخرة وما فيها، ولا التعرف على ملاكات الأحكام الشرعية، ومن ثمَّ قالوا: «ليس كلُّ ما حكم به الشرع يجب أن يحكم به العقل»<sup>(٧٠)</sup>.

فقد يحكم الشرع بأشياء لا تخالف العقل ولكنَّه يعجز عن إدراكها والتوصل بمفرده إليها:

لقد جعل الله - سبحانه وتعالى - صلاة الفجر ركعتين، والظهر والعصر والعشاء أربعاً، والمغرب ثلاثاً، فلماذا كانت هكذا؟ ولماذا جعل في الركعة الواحدة ركوعاً وسجدتين، لا ركوعين وسجدة، أو ركوعين وسجدتين؟ ولماذا يُقدَّم الركوع على السجود؟

كما جعل الله - سبحانه - الصوم في شهر رمضان، فلماذا لم يكن في محرَّم أو شوال أو أي شهر آخر؟!

(٦٨) دروس في علم الأصول، (الحلقات) مصدر سابق، ج١، الحلقة ١، ص ١٣٣.

(٦٩) القواعد، مصدر سابق / ٣٦٨.

(٧٠) أصول الفقه، مصدر سابق / ٢٠٩.

يجيب الإمام السجاد عليه السلام [٣٨- ٩٥هـ]، [٦٥٨- ٧١٢م]: «إنَّ دين الله لا يُصاب بالعقول الناقصة، والآراء الباطلة، والمقاييس الفاسدة، ولا يُصاب إلا بالتسليم»<sup>(٧١)</sup>.

وينقل لنا أبان بن تغلب [ت ١٤١هـ / ٧٥٨م] أنَّه ذهب إلى الإمام الصادق عليه السلام، وسأله:

- «ما تقول في رجل قطع إصبعاً من امرأة، كم فيها؟

- قال: عشرة من الإبل.

- قلتُ: قطع اثنين؟

- قال: عشرون.

- قلتُ: قطع ثلاثاً؟

- قال: ثلاثون.

- قلتُ: قطع أربعاً؟

- قال: عشرون!!

- قلتُ: سبحان الله يقطع ثلاثاً؛ فيكون عليه ثلاثون، ويقطع أربعاً فيكون عليه عشرون!!، إنَّ هذا كان يبلغنا ونحن بالعراق؛ فتبرأ ممن قاله، ونقول: الذي جاء به شيطان!!

- فقال: مهلاً يا أبان، هذا حكم رسول الله صلى الله عليه وآله إنَّ المرأة تعاقب الرجل إلى ثلث الدية، فإذا بلغت الثلث رجعت إلى النصف. يا أبان، إنَّك أخذتني بالقياس، والسنة إذا قيست مُحق الدين»<sup>(٧٢)</sup>.

وهذا نفسه ما يجعل أهل البيت عليهم السلام يقفون من القياس موقفاً معارضاً؛ لأنَّهم يدركون أنَّ أحكام الشرع وحيُّ إلهي لا تُترك للمقاييس والأحكام التي يُظنُّ بأنَّها عقلية، كما يجعل مدرستهم تقبل

(٧١) بحار الأنوار، مصدر سابق ٣٠٣/٢.

(٧٢) الحرَّ العاملي، وسائل الشيعة ٢٦٨/١٩، الباب ٤٤، ح ١.

تعديّة الحكم وفق (العلة المنصوصة)، وترفض تعديته وفق (العلة المستتبطة) المظنونة.

## ٦- الإسلام ومبدأ التسليم:

هناك أشياء أوضح الإسلام أسبابها وعللها، وحين يفعلها المسلم يفعلها وهو يعلم سبب الحكم: لقد حرّم الشرع الخمر وقال - مبيّناً ومعدياً علته -: «ألا أيّها الناس، أنهاكم عن كلّ مسكر»<sup>(٧٣)</sup>، «ما أسكر كثيره فقليله حرام»<sup>(٧٤)</sup>.

بيد أنّ هناك - مما كلّف الشرع به - أموراً لم تُوضّح علتها تسمّى (الأحكام التعبدية والتوقيفية)، فلماذا كان الحج الأكبر في أيام معيّنة من ذي الحجة، ولماذا تُقدّم عرفة على مزدلفة، ومزدلفة على منى؟ ولماذا رمي الجمار في أيام معيّنة، وبعده محدّد من الحصى؟

ولماذا يُقدّم غسل الوجه في الوضوء على اليدين، وهذان معاً على غسل أو مسح الرأس والرجلين؟

ولماذا سُنت للصلاة أوقات معيّنة، وركعات معيّنة، وأذكار معيّنة، وكيفية معيّنة؟!

وإذا كان من فوائد الأحكام المعلّلة: أن يفعلها المكلف وهو عالم بسبب ونتيجة تشريعها، ويعلم أنّها غائية لا سبيل فيها للعبثية والاعتباطية، ويعملها رجاء ذلك الهدف، فإنّ من فوائد الأحكام التوقيفية معرفة مدى التسليم والانقياد والطاعة للمشرّع سبحانه، إنّها مثل الأوامر التي يصدرها الضابط لجنوده دون أن يحيطوا بتفاصيلها وعللها؛ ليعرف مدى انصياعهم وانقيادهم.

«وهذه الغيبية [التوقيفية] مرتبطة بالعبادات ودورها المفروض ارتباطاً عضوياً، ذلك لأنّ دور العبادات - كما عرفنا سابقاً - هو: تأكيد الإيمان والارتباط بالطلق [الله] وترسيخه عملياً، وكلّما كان عنصر

(٧٣) المصدر ١٧/ ٢٢٢، الباب ١، ح ٤.

(٧٤) المصدر ١٧/ ٢٢٢، الباب ١، ح ٥٥. ومسنّد الإمام أحمد ٤/ ٣٠٤.

الانقياد والاستسلام في العبادة أكبر كان أثرها في تعميق الربط بين العابد وربّه أقوى. فإذا كان العمل الذي يمارسه العابد مفهوماً بكل أبعاده، واضح الحكمة والمصلحة في كل تفاصيله - تضاءل فيه عنصر الاستسلام والانقياد، وطغت عليه دوافع المصلحة والمنفعة، ولم يعد عبادة لله بقدر ما هو عمل نافع يمارسه العابد لكي ينتفع به، ويستفيد من آثاره.

... الغيبية إنّما تبرز أكثر فأكثر في العبادات التي يغلب عليها الجانب التربوي للفرد كالصلاة والصيام<sup>(٧٥)</sup>.

غير أنّ هناك فرقاً بين التسليم والبلاهة، فالدين يدعو للأول، فيعمل المرء بالحكم التشريعي - وإن جهل علته - ما دام حكماً تشريعياً ثابت الصدور، لا أن ينقاد إلى كل شيء مدعى على الشرع في خضوع وبلاهة، ويقبل بكل شيء حتى لو لم يكن صحيحاً، أو كان منافياً للشرع أو العقل.

وفي قبال موقف البلاهة وتجميد العقل والمبالغة في تقديس كل شيء، هناك من يشكك في كل شيء، ولا يقبل بعمل شيء إلا إذا وافق مدركاته وتصوراته.

والإسلام يرفض كلا الموقفين، ويريد الشخص المتعقل الذي يعمل باليقين، فلا يغيب تسليمه للشرع الصادق، ولا يغيب عقله الواعي.

## ٧- الحل عند التعارض الظاهري:

حين يقع تعارض ظاهري بين العقل والنقل، بين العلم والدين...  
فما الحل؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال نؤكد على مركزية كلمة (ظاهري)، وعلى دلالتها على أنّ التعارض الحقيقي لا يمكن في عالم الإمكان النظري، فضلاً عنه في عالم الوقوع العملي وإن ظنّه البعض في عباراتهم المطلقة والعامة تعارضاً، وإن ظنّ بعضهم - كذلك - وقوع التعارض بين النصّ القرآني القطعي الذي وصلنا بالتواتر وبين أحكام

(٧٥) بحوث إسلامية، مصدر سابق / ٢٦٤ - ٢٦٥.

عقلية أو علمية، دون أن يلتفت إلى أنّ القرآن وإن كان قطعي الصدور إلا أنّه ظني الدلالة، وعلى هذا يعود التعارض المدعى مرة أخرى بين قطعي (العقل والعلم) وظني (الدلول القرآني)، أو بين مدلولين ظنيين، وليس بين قطعيين.

وقد طُرِحَ العديد من الحلول عند هذا التعارض الظاهري:

#### أ - الجمع:

«مهما أمكن الجمع فهو أولى من الطرح»<sup>(٧٦)</sup>.

كثيراً ما تغيب عنّا حلقة مفقودة هي الوصلة الجامعة بين الأمرين، والتي بإدراكها يُحلّ ذلك التعارض، كأن تُفسّر موقِعاً معيّنًا لهذا الحكم الشرعي، وآخر لذلك الحكم العقلي مختلف في مورده، أو تُفسّر أحدهما بالآخر، أو تستثني حكماً جزئياً لأحدهما من الآخر.

وقد يستدعي هذا الجمع ترك بعض المعاني الإفرادية المعجمية للفظ، وأخذ المعنى الذي يتناسب مع السياق أو المفهوم الجملي التركيبي منها.

«إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّهُ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّهُ، ألا وهي القلب»<sup>(٧٧)</sup>.

لقد فسّر البعض (المضغة/ القلب) في هذا الحديث بالقلب الماديّ الموجود في الصدر، وحين رأوا أنّه تمّ زرع قلب كافر لمسلم، ورأوا أنّ المسلم لم تتغيّر عقيدته حين أفاق، بل.. حين رأوا إمكانية وضع قلب خنزير للبشر دون تغيّر من أجريت له العملية عقلياً ودينيّاً ومعرفياً واجتماعياً، وجدوا أنّ ذلك تعارض بين النقل (الحديث) ومعطيات العلم والطبّ.

بينما يعود هذا التعارض إلى تفسير (المضغة) و(القلب) - الواردتين في الحديث - بهذا العضو الذي يضخّ الدم إلى جنبات الجسد،

(٧٦) الشيخ محمد جواد مغنية، علم أصول الفقه في ثوبه الجديد / ٤٣٤.

(٧٧) وهج الفصاحة، مصدر سابق / ٣٧٥، حكمة ٨٦٤.

دون الأخذ بالمفاد التطوري لمفهوم المفردة وتغيُّر دلالتها عبر مسيرها الزمني.

إنَّ غياب المعجم التطوريِّ عندنا أساساً - هو الذي جعلنا نسقط معنَى حديثاً على نصِّ قديم، ومن ثمَّ نخلق التعارض بين المدلولين، وإلا.. فالقلب والعقل يتداخلان كثيراً في نصوص اللغة العربية ويُعطى لكلِّ منهما ما يُنسب للآخر ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾<sup>(٧٨)</sup>، كما يربط القلب بالفهم ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾<sup>(٧٩)</sup>.

هذا فضلاً عن أنَّ الحديث يقول: «إذا صلحت صلح الجسد كلُّه»، فهو - على فرض كونه يعني (العضو الذي يضخ الدم) - ربطٌ بين ذلك (القلب) وبين (الجسد) المادي، وليس ربطاً بينه وبين الجانب المعنوي من الإنسان والذي منه الدين والمعرفة والعلاقات الاجتماعية، وهذا لبس آخر في التفسير قادهم إلى تصوُّر ذلك التعارض.

وهذا أشبه بمن يعلم يقيناً بعدم وجود السيارة (المركبة المعروفة) في زمان النبي يوسف عليه السلام، بل.. وحتى في زمان نزول القرآن الكريم، فيتساءل عن مدى مصداقية ورودها فيه ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾<sup>(٨٠)</sup>.

وإذا كان هذان المثالان مما يعود إلى الفهم الخاطئ لمفردة في النصِّ، وعدم إدراك المدلول التطوريِّ التاريخي، فقد نشاهد أمثلة ينشأ فيها التعارض المظنون من الفهم التجزيئي للنصِّ، حين تُبتر أعضاؤه، ويؤخذ بعضه منفصلاً عن سائر جسمه الذي يوضِّح موقعه، ومعزولاً عن سياقه التاريخي والتركيب.

(٧٨) سورة الحج / ٤٦.

والعقل - في النصِّ القرآني - لا يُراد منه الدماغ بمقدار ما يُراد به جهاز الإدراك والفهم والعمليات الأخرى التي نسميها اليوم بالعمليات العقلية كالتطبيق والتحليل والتركيب والتقويم.

(٧٩) سورة الأعراف / ١٧٩.

(٨٠) سورة يوسف / ١٩.



فبعد أن اتصل فكر المسلمين بالفكر الإغريقي وبالذات في مجال الهيئة البطليموسية التي كانت تتصوّر السماء من الجواهر غير القابلة للرتق والفتق اجتزأ بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾<sup>(٨١)</sup>، وقالوا: إنّه يستحيل على الإنس والجن أن يصعدوا إلى الأفاق؛ فإنّ ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ في الآية ظاهر في التحدي، أي أنكم لا تستطيعون أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض، وقطعوا ذلك عن قوله سبحانه ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾<sup>(٨٢)</sup>.

وهكذا فُرضت فكرة الجوهر البسيط غير القابل للنفذ والاختراق التي نُظر لها باعتبارها حكماً عقلياً على النصّ الديني، وصرنا في مواجهة واضحة بين العلم/ والنقل: الحقيقة العلمية في وصولهم إلى القمر/ والنفي القرآني، مع إنّ هذه التتمة تشير إلى أنّهم ينفذون ولكن بسلطان<sup>(٨٣)</sup>، والسلطان «هو العلم الذي يتحوّل إلى برنامج ففكرة فعلية»<sup>(٨٤)</sup>.

بينما التفت قسم ثان من المفسرين إلى تتمة الآية وإمكانية ذلك بشرط توفر سلطان القوة والقهر والغلبة، ثمّ أعقبوا كلامهم بالقول: «وأنتى لكم ذلك»<sup>(٨٥)</sup>، «وليس لكم قوة على ذلك»<sup>(٨٦)</sup>، «ولا قوة لكم على ذلك»<sup>(٨٧)</sup>، فارتدّ الأمر مرة أخرى إلى استحالة مطبقة!!

وغالباً ما ارتبط الرأي الثاني بقسم ثالث يرجّح أنّ هذه الآيات في سياق وصدد الحديث عن الآخرة لا الدنيا، ومن ثمّ فهي تتكلّم عن عدم إمكانية هروب الثقيلين (الإنس والجنّ) من المحكمة الإلهية في

(٨١) سورة الرحمن/ ٣٣.

(٨٢) سورة الرحمن/ ٣٣.

(٨٣) السيد محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن ١٤/ ٣٢١.

(٨٤) المصدر ١٤/ ٣٢٦.

(٨٥) الفضل بن الحسن الطبرسي، جوامع الجامع في تفسير القرآن المجيد ٢/ ٥٥٥.

(٨٦) فخر الدين الرازي، تفسير الرازي (التفسير الكبير ومفتاح الغيب) ١٥/ ١١٤.

(٨٧) السيد عبد الله شبّر، الجوهر الثمين في تفسير الكتاب المبين ٦/ ١٣٣.

ساحة المحشر والقيامة<sup>(٨٨)</sup>.

وعلى الرأي الثالث يكون صرف النفوذ المنفي في الآية إلى (النفوذ العلمي) من أقطار السماوات والأرض عزلاً وفصلاً عن السياق العام لها (الحشر والقيامة)، «وقيل: المراد بالنفوذ المنفي في الآية النفوذ العلمي في السماوات والأرض من أقطارهما. وقد عرفت أنّ السياق لا يلائمه»<sup>(٨٩)</sup>.

وعلى هذا فأصحاب التفسيرين الأول والثالث فصلوا جزءاً من الآية عن سياقها اللفظي والمعنوي بالبر أو فصل الدلالة، بينما أتر على الثاني السياق التاريخي الخارجي وكون ذلك محالاً في زمانهم؛ ليعطوه بعداً مطلقاً بوصفه محالاً في كلّ زمان.

وإذا عاد هذا - بأشكاله المختلفة - إلى المفسرين المسلمين، فقد تناول غير المسلمين الآية بشيء من التندرّ والسخرية، ف «حين وصل الإنسان إلى القمر اتخذ منه الصهاينة وغيرهم من أعداء الإسلام وسيلة للطعن بالقرآن؛ لأنّ هذه الآية تقول: لا ينفذ الإنسان من أقطار السماوات والأرض. وقد نفذ!»<sup>(٩٠)</sup>.

### ب - الطرح أو التوقف:

وحين لا يمكن الجمع بينهما؛ لتنافر الدلالة، فمع أنّ هذا لا يقع بين القطعيين (العقلي والنقلي)، وإنّما بين قطعي وغير قطعي أو بين ظنيين؛ يلجأ الأكثر للأخذ بالقطعي وترك ما سواه.

يقول الشيخ المفيد [٣٣٦-٤١٣هـ]، [٩٤٧-١٠٢٢م] - بعد أن حكم برّد الحديث المخالف للقرآن الكريم -: «وكذلك إن وجدنا حديثاً يخالف أحكام العقول أطرحناه؛ لقضية العقل بفساده»<sup>(٩١)</sup>.

(٨٨) تفسير الرازي، مصدر سابق ١٥ / ١١٤، والسيد محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان ١٩ / ١٠٦.

(٨٩) تفسير الميزان، مصدر سابق ١٩ / ١٠٧.

(٩٠) الشيخ محمد جواد مغنية، التفسير المبين / ٧١٠.

(٩١) الشيخ المفيد، تصحيح الاعتقاد / ١٤٩.

في حين يلجأ آخرون إلى الأخذ بالقطعي والتوقف في ردِّ الآخر،  
مفضلين اتهام فهمنا للنصّ على إسقاطه، قائلين: إننا لا نفهم حقيقة  
مراد النصّ هنا، ولعلّ الأيام القادمة تفسّره؛ حذراً من ردِّ حديث  
المعصومين عليهم السلام.

«فبالنسبة للروايات التي تفهمها عقولنا نأخذها، والتي لا تفهمها  
لا تنسفها ونقول: إنها ضعيفة، بل.. نتوقف ونقول لأنفسنا بتواضع:  
إننا لا نفهم، فعللّ غيرنا أو الذين يأتون بعدي [بعدنا] يفهمونها،  
أسنا في صغرنا كنا لا نفهم أموراً كثيرة ولما كبرنا عرفناها؟»<sup>(٩٢)</sup>.

لقد ترك كثير من العلماء رواية الخبر الذي يبشّر بأنه سيأتي  
على الناس زمان يمشون فيه في صناديق هادئة من غير أن تتزلزل  
أبدانهم، متسائلين: كيف يمكن لصندوق أن يحمل الإنسان من مكان  
إلى مكان؟، وجازمين بأنّ ذلك لا يتفق مع العقل تارة<sup>(٩٣)</sup>، ومفسرين  
(الصندوق) بأنّه (جِبُّ الجنِّ)، وأنّ ذلك نوع من السحر تارة ثانية.

لكنّ الزمن أثبت لنا أنّ ذلك ينطبق الآن على السيارة أو الطائرة،  
وأنّ ذلك الرفض لم يكن منطلقاً إلا من قصر النصّ على المعيش في  
الواقع الاجتماعي، وعدم إعطائه مدلولاً مستقبلياً ممكناً.

وبعبارة أخرى: أنّهم حكّموا (المحال عادة) في تفسير النصّ،  
ورأوا تعارضه معه، وإن كان في الحقيقة ليس (محالاً عقلاً)، وليس  
ممتنعاً على العلم، ولو في المستقبل الآتي.

### ج - التّأويل:

ويرى البعض أنّ الحلّ عند وجود التعارض الظاهري هو تأويل  
الظني وصرفه عن دلالاته المضادة للقطعيّ إلى دلالة أخرى تتلاءم معه.

ولأنّ الحقائق العقلية والعلمية ليست نظريات ظنية يمكن

(٩٢) السيد محمد تقي المدرسي، (الحديث)، الاستفتاءات (نشرة فقهية تصدر  
عن مكتب السيد المدرسي في السيدة زينب)، العدد ٦، السنة الأولى، ربيع  
الثاني، ١٤٢٣هـ/ ١٩٩٣م، ص ٢.

(٩٣) المصدر، ص ٢.

تأويلها، فسوف ينال التأويل - غالباً - ظاهر ما نطقت به الشريعة.

يقول ابن رشد: «ونحن نقطع قطعاً أنّ ما أدى إليه البرهان، وخالفه ظاهر الشرع: أنّ ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي. وهذه القضية لا يشكّ فيها مسلم، ولا يرتاب بها مؤمن، وما أعظم ازدياد اليقين بها عند من زاول هذا المعنى وجربّه، وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول.

بل.. نقول: إنّه ما من منطوق في الشرع مخالف بظاهره لما أدى إليه البرهان إلا إذا اعتُبر وتُصَفِّحت سائر أجزائه وُجد في ألفاظ الشرع ما يشهد بظاهره لذلك التأويل، أو يقارب أن يشهد.

ولهذا المعنى أجمع المسلمون على أنّه ليس يجب أن تُحمل ألفاظ الشرع كلّها على ظاهرها، ولا أن تُخرَج كلّها عن ظاهرها بالتأويل، واختلفوا في المؤول، فالأشعريون - مثلاً - يتأولون آية الاستواء وحديث النزول، والحنبلة تحمل ذلك على ظاهره»<sup>(٩٤)</sup>.

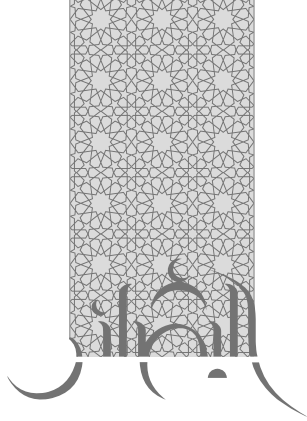
ويبادر ابن رشد لتوضيح المعنى الذي يقصده من (التأويل) وأنّه «إخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية إلى الدلالة المجازية من غير أن يخل ذلك بعادة لسان العرب في التجوُّز من تسمية الشيء بشبيهه، أو بسببه، أو لاحقه، أو مقارنه، أو غير ذلك من الأشياء التي عُدّدت في تعريف أصناف الكلام المجازي»<sup>(٩٥)</sup>،<sup>(٩٦)</sup>.

(٩٤) المصدر/ ٣٣.

(٩٥) المصدر/ ٣٢.

(٩٦) ولم نذكر (التخيير) من ضمن الحلول؛ لأنّه يُتصوّر في التعارض بين النقليين، لا بين نقلي وعقلي.





## التنوع المعرفي وثقافة البعد الواحد

- \* تحديد المصطلح.
- \* الإنسان والارتقاء المعرفي.
- \* دواعي التنوع المعرفي.
- \* سمات ثقافة التنوع.
- \* التنوع الاجتماعي والتنوع المعرفي.
- \* أسباب عقلية البعد الواحد.
- \* اتجاهات ذات بُعد واحد.
- \* النقد الأساس.



## التنوع المعرفي وثقافة البعد الواحد

### تحديد المصطلح:

تقف صفة (التنوع) كضد لصفة (الأحادية)، وقد فطر الله العالم الذي خلقه على سمة التنوع، وفطر الله الأشياء في العالم على ذلك سواء في شكلها الخارجي، أم في محتواها الداخلي، أم في بنيتها التركيبية، يظهر هذا في عالم المادة من الذرة إلى المجرة، على نحو ما يحكيه اختلاف البحار عن الأنهار، والنجوم عن الكواكب والسدم والمذنبات، بل.. على نحو ما تحكيه أفراد النوع الواحد نفسه.

كما يظهر في عالم الأحياء النباتية والحيوانية والبشرية، فكم هي فصائل الأشجار والحيوانات!، وقد نجد فصيلة حيوانية واحدة - كالنمل أو العناكب - هي بدورها تضم ملايين الأنواع.

وعلى سبيل المثال - لا الحصر - يقدر العلماء أنواع الحشرات ما بين ٢,٠٠٠,٠٠٠ - إلى ٤,٠٠٠,٠٠٠ نوع<sup>(١)</sup>، والنمل - وحده - ٣٥٠٠<sup>(٢)</sup>، وفرس النبي ٨٠٠<sup>(٣)</sup>، والعقارب ٥٠٠<sup>(٤)</sup>. والسماك ٣٠,٠٠٠<sup>(٥)</sup>، والبيغاء ٦٠٠<sup>(٦)</sup>.

(١) مجموعة من الكتاب، عالم الحيوان وجرائبه (الموسوعة العلمية المبسطة ٣) / ١٤.

(٢) المصدر / ٢٧٥. (٣) المصدر / ١٨٢.

(٤) المصدر / ١٨٦. (٥) المصدر / ١٠٠.

(٦) المصدر / ٢٩٨.



وهذا الأمر ينطبق كذلك على الجانب العلمي والمعرفي والتقني، فقد بدأت العلوم بسيطة ساذجة تحت مظلة الفلسفة، ثم أخذت تنمو وتستقل واحدة بعد أخرى، والعلم الواحد غدا يشهد تخصصات، فالطبّ راح يتمرّع إلى طبّ القلب، والعيون، والأنف والأذن والحنجرة، و...، بل.. والتخصص الواحد انبثقت منه فروع وفروع.

والذي ينطبق على الطبّ ينطبق تماماً على العلوم الأخرى، فعلم النفس مضت تخصصاته تتمايز بين علم النفس العام، والإرشادي، والوقائي، والعلاجي، والتربوي، وغير ذلك.

فجوانب المعرفة البشرية متعدّدة، وليست مقتصرة على جانب واحد، وهذا التعدّد هو ما نعنيه بـ(التنوّع المعرفي).

هناك من يفرّق بين (المعرفة) و(العلم)، ويرى أنّ الأولى هي كلّ ما يحصل لدى البشر من فكر وإن لم يكن منسّقاً ممنهجاً، بينما (العلم) هو: «تراكم المعرفة المنسّقة»<sup>(٧)</sup>، و«الطرق المنسّقة المنطقية التي يمكن عن طريقها الحصول على المعرفة»<sup>(٨)</sup>.

ومن الفروق بينهما نستطيع أن نسجل الآتي:

- ١- المعرفة قد لا تكون ممنهجة، والعلم تناسق ممنهج.
- ٢- المعرفة قد تكون ظنية، والعلم حقائق قطعية.
- ٣- المعرفة قد تكون ناتجاً للطرق والوسائل العلمية.

وهذا يعني أنّ قولنا (التنوّع العلمي) أدقّ في الإطلاق لو أُريد اختصاص البحث بالممنهج القطعيّ، بيد أنّنا لا نريد قصره على ذلك، وإنّما نريد مطلق ما ينتجه الفكر البشريّ وإن لم يصل إلى مستوى القطع والعلم، وبذلك فإنّ لفظة (المعرفي) - هنا - أدقّ تعبيراً؛ لتشمل غير القطعيّ، ولا تقتصر على خصوص العلميّ.

(٧) مدخل إلى علم الاجتماع، مصدر سابق/ ٢٨.

(٨) المصدر/ ٢٨.

وحين نتحدّث عن (التنوّع المعرفي) في دنيا البشر نلمحه بارزاً في حياتهم الجمعية، وفي بعض أطرافه ضمن الطموح المنشود في حياة الأفراد، وضمن دائرة هي أقلّ القليل في مستوى التطبيق الفردي، فالأكثريّة الساحقة - بما لا قياس - هم أحاديو الجانب، لا يتّسمون بشيء من التنوّع والشمول.

وهذا يدخلنا إلى (عقلية البعد الواحد):

فنحن نقصد من (العقلية): «مجموعة الصور الفكرية، والعادات النفسية، والاعتقادات الرئيسية في الفرد»<sup>(٩)</sup>.

كما نقصد من (البعد الواحد): «التأكيد على عنصر واحد من ظاهرة ذات عناصر متعدّدة: إدراكاً وتعاملاً وإبرازاً»<sup>(١٠)</sup>.

فقد تصل حالة إلى مرحلة الغلو بحيث لا يعرف صاحبها شيئاً خارج دائرة تخصصه، الأمر الذي حدا بـ (هربرت ماركوز) لنقد هذه الظاهرة في كتابه (الإنسان ذو البعد الواحد)، حين رأى أناساً في مصنع الساعات لا يعرف أحدهم إلا عن تخصصه الجزئيّ جداً، فهو لا يعرف إلا عن عقرب الساعة، أو عن زجاجتها فقط، دون أن يكون له أدنى فهم بشيء فوق ذلك حتى مما يتعلّق بالساعة، فضلاً عن التعرّف على أمور في حقول تخصصية أخرى كاللغة أو الزراعة.

### الإنسان والارتقاء المعرفي:

بدأ الإنسان مسيرته الاجتماعية على وجه الأرض بداية بسيطة، ثمّ ما لبثت تتطوّر وتتقدّم، مرّ خلالها بالأنواع التالية للمجتمع:

١- مجتمع الالتقاط.

٢- مجتمع الصيد.

٣- مجتمع الرعي.

٤- المجتمع القروي الزراعي.

(٩) الدكتور عبد الكريم بكار، فصول في التفكير الموضوعي / ٢١٢.

(١٠) المصدر / ٢١٢.

٥- المجتمع الريفي الحضري.

٦- المجتمع الحضري.

٧- مجتمع المدينة الكبيرة.

٨- مجتمع المدينة العظمى<sup>(١١)</sup>.

فقد كان - حتى يطفئ لهب جوعه - يلتقط ثمار الأشجار، ثم ما لبث أن تعلم كيف يصيد الحيوانات، ثم استأنس بعض تلك الحيوانات وتعلم حرفة الرعي، ثم أخذ هو بنفسه يستصلح الأراضي ويزرعها ويتعاهدها، ولا يكتفي بمجرد جمع الثمار الجاهزة من الطبيعة دون تدخله، وهكذا.. أخذت تتلاحق خطواته.

وإذا أخذنا (الصيد) مثلاً، فقد تدرّج الإنسان في طريقتيه من الحجر يليق به على الحيوان، أو الخشب أو حفر الحفائر وتغطيتها... إلى أحدث السفن القادرة على التعرف على أسراب الأسماك في البحار عبر الموجات الصوتية وغيرها، وصيدها بكم لا يقدر بعدد.

وإذا كانت تجاربه مع الطيران تبدأ بطموحات تجسدها أسطورة (أكاروس) الذي ربط أجنحة من ريش، وألصقها بجسمه بشمع، وطار إلى أن اقترب من الشمس، فذاب الشمع، وهوى.. ومات!!، ومروراً بمحاولات أولية مع عباس بن فرناس [ت ٢٧٤هـ/ ٨٨٧م]، ورسومات الطائفة الطوافة (الهيلوكبتر) للرسام الإيطالي الشهير ليوناردو دافنشي [١٤٥٢-١٥١٩م]، إلى نجاح الحلم مع الأخوان رايت في ١٩٠٣م، ثم تتلاحق الخطى الحديثة، وتصل إلى الطائرات التي تسبق الصوت - كالكونكورد -، وإلى المركبات الفضائية التي تسبر أغوار الفضاء.

فتلك الطفولة المعرفية لدى البشر ما لبثت تشبّت عن الطوق وتتنامى، وتتلاقح فكرياً بين العلوم والمعارف، وبين المجتمعات والشعوب، وبين الحضارات وثقافات الأمم؛ فتتوالد وتتكاثر حتى وصلت إلى العصر الذي يسميه البعض بعصر الانفجار المعرفي، أو عصر الاتصال،

(١١) مقدّمة في التربية، مصدر سابق/ ١١٧- ١١٩.

أو القرية الكونية، أو ثورة المعلومات، أو العولمة، أو...، حيث «تتضاعف المعرفة البشرية كل سبع سنوات.

إنَّه تسارع مذهل يكفي للتدليل عليه أنه سنوياً يُوضَع ٤٠ ألف مصطلح جديد في مختلف ميادين العلوم، وفي كلِّ دقيقتين يصدر مقال علمي في جهة ما.. من العالم»<sup>(١٢)</sup> عن سائر التخصصات والجوانب بما لا يستطيع - حتى القارئ النهم - ملاحظته ورصده، فضلاً عن إمكانية قراءته واستيعابه!!

## دواعي التنوع المعرفي:

هناك أمور كثيرة تبعث وتدفع إلى لزوم التنوع المعرفي، وعدم الاقتصار على ثقافة ذات بعد واحد، منها:

### ١- التأكيد الشرعي:

فالإسلام حين يتكلم عن المسلم والمؤمن:

أ- يدعو بعمق للتفاعل مع الكون وآياته ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ، وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>(١٣)</sup>.

وإلى جانب هذه الدعوة العامة، دعا تفصيلاً للنظر في الأمور المادية ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ؟ \* أَأَنْتُمْ تَرْعَوْنَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ؟ \* لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ\*... أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ؟ \* أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ؟ \* لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ \* أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ؟ \*

(١٢) الدكتور مهدي المنجرة، الحرب الحضارية الأولى: مستقبل الماضي، وماضي

المستقبل / ٣٥٥.

(١٣) سورة البقرة / ١٦٤.

أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ؟ ﴿١٤﴾، والتأمل في الأمور المعنوية ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؟﴾ ﴿١٥﴾.

ب- والقرآن الكريم موسوعة علمية نقلت لنا تاريخ الأمم السابقة، وحلّت عناصر قيامها وسقوطها، كما حكّت الأحداث المزامنة لنزول الوحي، سواء أكانت في دار المسلمين - كأحداث واقعة بدر وحنين -، أم في دار الآخر المختلف - كهزيمة الروم على يد الفرس -، وتجاوزت المستوى الوصفي إلى المستوى التحليلي، ولم تكتفِ بذلك، بل.. راحت تمُدّ المسلمين برؤية وبصيرة استشرافية مستقبلية: ﴿الْم \* غُلِبَتِ الرُّومُ \* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَعْلَبُونَ \* فِي بضع سِنِينَ﴾ ﴿١٦﴾.

وفي الوقت الذي تتحدّث فيه عن معارف الكون والوجود (عالم الأفاق)، تتحدّث عن النفس البشرية ومكوناتها (عالم الأنفس)، وربطت ذلك كلّه بالهدف النبيل الذي خُلق لأجله الإنسان، وبالتوحيد والإيمان، والهدف التربوي الذي جاء القرآن أساساً كتاباً له قبل أن يكون كتاب علوم ومعارف ونظريات: ﴿سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ؟﴾ ﴿١٧﴾.

ج- ويكفي أن تكون أول آيات القرآن الكريم نزولاً أمراً بالقراءة والعلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ \* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ \* الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ﴿١٨﴾.

كما يوازن بين طرفي الناس تجاه العلم؛ ليحكم بالتفوق المطلق

(١٤) سورة الواقعة/ ٦٤-٧٢.

(١٥) سورة الروم/ ٥.

(١٦) سورة الروم/ ١-٤.

(١٧) سورة فصلت/ ٥٣.

(١٨) سورة العلق/ ١-٥.

للذين يعلمون: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ؟﴾ (١٩).

وفي هذه الآية حذف القرآن الكريم المتعلق - المفعول به لفعلي (يعلمون) -؛ لإفادة الشمول والاستغراق، فهو لم يخص بالقول الذين يعلمون العقيدة أو الشريعة أو الطب أو اللغة أو الفضاء، أو غيرها، بل.. كل شخص يتصف بسمة العلم في أي حقل من الحقول أو جانب من الجوانب لا يستوي مع آخر لا يعلم ذلك.

وعندما ينفي الكفار عن رسول الله ﷺ أن يكون مرسلًا يأتي الدليل من الله - سبحانه - على صدق دعوة نبيه؛ ليضع شهادة العالم في صف شهادة الله تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا: لَسْتَ مُرْسَلًا. قُلْ: كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ (٢٠).

وكذلك الحال حين الحديث على وحدانيته - سبحانه وتعالى-: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَمَلَائِكَهُ وَأُوَلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢١).

وهو أمر عظيم يحكي الخاصية والشرف الرفيع للعلماء في القرآن الكريم.

د- توجيهات المعصومين (عليهم السلام) للعلم والتفقه لا تحدّد مصداقاً وحيداً له بوصفه المرّضي عنه دينياً، بل.. تُطلق ألفاظها؛ لتتسم بالسعة والشمول والاستغراق:

يقول الرسول الأكرم ﷺ: «اطلبوا العلم ولو بالصين» (٢٢).

وفي الوقت الذي أمر فيه ﷺ بهذا الحديث - وتأسيساً على قرينة تاريخية بأنّ العرب كانوا يعدّون (الصين) أبعد مناطق العالم

(١٩) سورة الزمر/ ٩.

(٢٠) سورة الرعد/ ٤٣.

(٢١) سورة آل عمران/ ١٨.

(٢٢) وهج الفصاحة، مصدر سابق/ ٣٢٧، ح ٢٥٦. و مع الرسول الأعظم في حكمه ووصاياه، مصدر سابق/ ٧٢.

المعمور من جهة المشرق - يكون للحديث مدلول جمالي خلاب يتجلى في لزوم طلب العلم ولو كان في أبعد (مكان).

كما يتجلى في أنه دعوة لاستلهام العلم بغض النظر عن عقيدة مصدره، حتى لو كان مختلفاً دينياً، فقد كانت الصين - عند بعثة رسول الله ﷺ - موزعة على ثلاث ديانات أساسية هي: اللاوتسوية، والكونفوشية، والبوذية<sup>(٢٣)</sup>.

إنَّ اختلاف العقيدة - في المفهوم الإسلامي - ليس حائلاً دون التلاقي العلمي والمعرفي، وتبادل الخبرات، بل .. وحتى التتلمذ والدراسة.

كما يتجلى بُعد ثالث في الحديث أنه دعوة لاستلهام العلم أياً كان ذلك العلم؛ إذ لم تكن الصين محطاً لدراسة العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية، بينما كانت - آنذاك - مشهورة بالطبِّ وصناعة ورق البردي.

ويشع الحديث ببعد رابع - أيضاً - حين يشكّل دعوة مفتوحة للاستفادة من خبرات الأمم وحضارات الشعوب، وعدم وضع سياج مانع من المثاقفة وتبادل العلوم والمعارف، ودعوة لتحطيم الغطرسة (الشوفينية) ونظرة الاستعلاء التي تشعر بها بعض الثقافات بحيث تعتقد أنها ليست بحاجة إلى الأخذ من أحد، أو أنّ الآخرين ليس لديهم ما يمكن أن يفيدوها به، فهم من الضائلة بمكان لا تسمح لهم بذلك!!

وبهذا يتسع مدلول الحديث ليشمل طلب العلم مع بعد المكان، واختلاف العقيدة، ودعوة للتنوع المعرفي والعلمي، وتفاعل خبرات الأمم والحضارات.

كما يقول ﷺ: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»<sup>(٢٤)</sup>.

وإذا كان الحديث السابق مكثِّفاً لدلالته على الزاوية المكانية «ولو بالصين»، فإنَّ هذا الحديث يكثِّف الدلالة على الزاوية (الزمانية)، فهو

(٢٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مصدر سابق/ ٤٤.

(٢٤) السيد الشهيد حسن الشيرازي، كلمة الرسول الأعظم/ ٤٠٣. ووهج الفصاحة/

أمر بطلب العلم «من المهد إلى اللحد»، من اللحظة الأولى للولادة - إلى أن يُوارى الإنسان الثرى، وهذا يغطي المرحلة العمرية كاملة، ويعني أنّ عملية التعلم عملية مستمرة لا انقطاع لها - كما أمست تؤمن بذلك التربية الحديثة -.

ويجمع الحديثين مع بعضهما يكون للطائر جناحاه اللذان لا يجوس مغاور الغيوم، ولا يكحل مقلة النجوم إلا بهما: العلم يُؤخذ من أي (مكان)، وعلى مدى (الزمان) كله.

ونحن نرتئي التفسير الزماني لهذا الحديث على الرغم من كون (المهد - اللحد) ذوي دلالة مكانية؛ لأنّهما في الاستعمال التركيبي واللغوي يوازيان كلمة (مطلق العمر).

ولعلّ من المفارقات الجميلة في هذا الحديث أنّه لم يقل (من المهد إلى الموت)، وهي الفترة التي يمكن الإنسان فيها أن يمارس عملية التعلم كما هو المتصوّر في التحديد البشري، وإنّما قال (من المهد إلى اللحد)، ليس لمجرّد التناغم الصوتي بين جرس (المهد/ اللحد)، وليس لفقر لغوي في مفردات المتكلم وهو رسول الله ﷺ، ولا لعدم إدراك فرق المعنى بين (اللحد/ الموت)، أو فرق الزمن بينهما، فنحن نعلم أنّ هناك مدة بين الموت/ واللحد، فقد يموت الإنسان ويظلّ زمناً حتى يُغسّل ويُكفّن ويُشيع ويُلحد، فهل يستطيع اكتساب علم بعد الموت وقبل اللحد؟!

في نصوص الدين ما يفيد ذلك...، وأنّ الإنسان يمكن أن يستفيد بعض المعارف بعد موته، وهذا ما يفسّر فلسفة (تلقين الميت)، وتلك الأحاديث التي كشفت لنا شيئاً من عالم الغيب نرى فيه الأرض وصخرة المغتسل تصبان جامّ عتابهما المرّ في مسامع الإنسان، ومنظر تقاطر أصوات المشيعين على أذنه المرهفة، وسماع الميّت خطوات المشيعين ترحل عنه وتسلمه لعالم الوحدة الكئيب.

وتؤكد التربية الحديثة على أنّ (التعلم عملية مستمرة طوال الحياة)، لكنّها لا تعطئها المدلول الزمني الموازي لما يحكيه الحديث (إلى اللحد).



ويمتد مجال الحثِّ والترغيب ليكون «طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم»<sup>(٢٥)</sup>، (العلم) - مطلق العلم - يصبح (فريضة على كلِّ مسلم)، كما أنَّ الصلاة والصيام والحجَّ والزكاة فريضة، وهذا ما يوافق (إلزامية التعليم) ضمن التربية الحديثة.

إنَّه واجب لا يُعذر على تركه، وليس مجرد (مستحب) الأفضل فعله، أو (جائز) يستوي فيه طرفا الفعل والترك.

وإذا كانت تلك التوجيهات مما يدخل في الإطار النظري، فإنَّ السلوك العملي للمعصومين عليهم السلام هو الآخر يوضِّح أنَّهم حووا كلَّ علوم عصرهم، وخالطوا أهل زمانهم - ولا سيما المختلف عنهم - مخالطة أثبتت لهم تسنُّم الذروة السماء، بحيث ينحدر عنهم السيل، ولا يرقى إليهم الطير، ومثَّلوا بجلاء حديث «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»<sup>(٢٦)</sup>.

ولم يقتصر ذلك معهم عليهم السلام عند الإحاطة المعرفية بالعلوم النظرية ومعرفة المذاهب والنحل والأديان، بل.. اتسع حتى للعلوم التطبيقية.

وهكذا نرى الرسول صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرسل مسلمين إلى اليمن لتعلم صناعة المنجنيق، ويحثُّ على تعلُّم علوم الصين، كالجراحة وصناعة الورق، كما نشاهد عليا عليه السلام يطبِّق الكثير من الأشياء مما لا يعرفها زمانه، ثمَّ تُكتشف فيما بعد، ونبصر الإمام الصادق عليه السلام يدرِّس في حوزته ما يدخل - ضمن تقسيمنا اليوم - في حقول العلوم الإنسانية والتجريبية.

ويمضي الإمام الرضا - عالم آل محمد - عليه السلام [١٥٣- ٢٠٣هـ]، [٧٧٠- ٨١٨م] في خوض مضممار الحوار مع المذاهب والأديان المختلفة بما يكشف بوضوح حفظه النصِّي للإنجيل، ومعرفته الشاملة بالتوراة ومعتقدات الصابئة، فضلاً عن المذاهب الإسلامية المتعدِّدة.

وطوال مسيرهم التاريخي ما سُئل أحد منهم عن شيء إلا أجاب.

(٢٥) بحار الأنوار، مصدر سابق / ١ / ١٧١. و كنز العمال، مصدر سابق / ١٠ / ١٣٠.

وهج الفصاحة، مصدر سابق / ٣٢٧ / ح ٣٥٦.

(٢٦) الكافي، مصدر سابق / ١ / ٢٦، ح ٢٤. بحار الأنوار، مصدر سابق / ٧٨ / ٢٦٩.

كما يكشف لنا رمي الباقرين عليهما السلام للسهام عن حذق فني في غاية الإتقان والتمرس.

هـ- لفظة (الفقه) في الإسلام شاملة لكل ما يدخل في دائرة الفهم العميق، سواءً أكان ذلك - في تصنيفنا الحاضر - داخلياً في الطب، أم الفيزياء، أم الكيمياء، أم الجيولوجيا، أم علوم الفضاء، أم...، أم علوم العقيدة والشريعة. في العلوم النظرية أو التطبيقية.

لذلك نشاهد كثيراً من الآيات تتحدث عن أمور كونية وغيرها...  
ثُمَّ نُخْتَمُ بِ﴿ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾<sup>(٢٧)</sup>، ﴿ لَقَوْمٌ يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٢٨)</sup>، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾<sup>(٢٩)</sup>، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾<sup>(٣٠)</sup>.

و- وتأتي أحاديث وروايات المعصومين عليهم السلام لتحت مباشرة على ضرورة التنوع المعرفي، وعدم الاقتصار على ثقافة ذات بُعد واحد، ولو كان العقيدة أو الأخلاق أو الشريعة - حسب التقسيم المتداول -.

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: « العلم أكثر من أن يُحصى، فخذ من كل شيء أحسن »<sup>(٣١)</sup>.

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: « خذوا من كل علم أحسنه، فإنَّ النحل يأكل من كل زهر أزينه، فيتولد عنه جوهرة نضيسان: أحدهما فيه شفاء للناس، والآخر يُستضاء به »<sup>(٣٢)</sup>، و« الحكمة ضالة المؤمن فخذوها ولو من أفواه المنافقين »<sup>(٣٣)</sup>، « خذوا الحكمة ولو من المشركين »<sup>(٣٤)</sup>، « خذ الحكمة أنى كانت... »<sup>(٣٥)</sup>.

(٢٧) سورة يس / ٦٨.

(٢٨) سورة البقرة / ٢٣٠.

(٢٩) سورة الأنعام / ٦٥.

(٣٠) سورة البقرة / ٢٢١.

(٣١) ميزان الحكمة، مصدر سابق ٥٢٨/٦.

(٣٢) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق ٣٥٨ / ١.

(٣٣) المصدر / ١ / ٩٢.

(٣٤) بحار الأنوار، مصدر سابق ٩٧ / ٢.

(٣٥) المصدر / ٢ / ٩٩.

«خذ من كل شيء»، «خذوا من كل علم»، وليس من علم واحد، وهي «ضالة المؤمن» التي يبحث عنها «أنى كانت»، وينشد - بما أوتي من قوة - تحصيلها.

ز- وكذلك الحال في حياة كثير من علمائنا الماضين، فقد كانت حياتهم تحكي التنوع المعرفي على أشده، وعدم الاقتصار على بعد واحد، كما يبدو واضحاً لدى الشيخ الطوسي [٣٨٥-٤٦٠هـ]، [٩٩٥-١٠٦٧م]، ونصير الدين الطوسي [٥٩٧-٦٧٢هـ]، [١٢٠٢-١٢٧٤م]، والعلامة الحلي [٦٤٨-٧٢٦هـ]، [١٢٥٠-١٣٢٥م]. وبعض علمائنا المتأخرين، كالشهيد الصدر [١٣٥٣-١٤٠٠هـ]، [١٩٣٣-١٩٨٠م]، والسيد الشيرازي [١٣٤٧-١٤٢٢هـ]، [١٩٢٦-٢٠٠١م].

فقد كان لسان حال هؤلاء «العالم من عرف كل شيء عن شيء، وشيئاً عن كل شيء»<sup>(٣٦)</sup>.

ح- وحين أقرّ الإسلام التنوع وقر له عوامل النجاح:

فقد حفظ للناس حريتهم الدينية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾<sup>(٣٧)</sup>، «أنزموهم بما أنزموا به أنفسهم»<sup>(٣٨)</sup>، فضلاً عن الحرية العامة التي أعطاهها الله للبشر - بما تركز عليه من عقل وقدرة واختيار - ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا \* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾<sup>(٣٩)</sup>.

كما فتح المجال للاجتهاد بما يبثّه من تنوع وتعدد في الآراء والاتجاهات، فالمتجهد «إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ الحقّ فله أجر واحد»<sup>(٤٠)</sup>، وفتح المجال لسيادة الشورى، وعرض الآراء المختلفة في سبيل الوصول إلى الأفضل، فجاءت النصوص لتأمر مصدر القرار (الراعي) بالمشاورة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾<sup>(٤١)</sup>، كما

(٣٦) فصول في التفكير الموضوعي، مصدر سابق / ٣٠.

(٣٧) سورة البقرة / ٢٥٦.

(٣٨) وسائل الشيعة، مصدر سابق / ١٧ / ٥٩٨، باب ٣، ح ٢.

(٣٩) سورة الشمس / ٨ - ١٠.

(٤٠) ميزان الحكمة، مصدر سابق / ٤ / ٤٣، وكنز العمال، ح ١٤١١٠.

(٤١) سورة آل عمران / ١٥٩.

تأمر الأمة (الرعية) بها ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (٤٢).

## ٢- طاقات الإنسان وحاجاته:

خلق الله الإنسان مكوّناً من عنصرين: عنصر مادي ترابي، وآخر معنوي رُوحِي ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ: إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ \* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (٤٣).

ولأنَّ الإنسان مركَّب من هذين العنصرين فحاجاته متعدّدة متسعة تصبّ في كلا المجالين، فله حاجات جسمية كالأكل والنوم والراحة، وله حاجات معنوية كالدين والمعرفة والأمن والحبّ والانتماء وتحقيق الذات.

من هنا زوّده الله - سبحانه وتعالى - بقوى وأجهزة تساعد في تحقيق حاجاته في الاتجاهين: فزوّده بالقوى الجسمية البدنية والأعضاء والعضلات؛ لبلوغ مآربه في الجانب المادي.

كما زوّده بقوى معنوية - كالعقل والروح -؛ لتساعده في بلوغ حاجاته المعنوية.

فالإنسان ذو قدرات جبّارة في المجال الجسيمي، والعقلي، والنفسي، والروحي، يستطيع تفجيرها، أو تفجير قسم كبير منها.

لقد أتاح العقل للإنسان فرصة تحويل وتحويل الأشياء من حوله، والسيطرة على الطبيعة والوجود بما فيه الحيوانات الأكبر منه، والأقوى منه، بينما كانت الفئران منذ القدم تصطاد بالمصيدة، ولا زالت، وستبقى...؛ لأنها لا تملك عقلاً تُعمله في حياتها ومواقفها.

إنَّ العقل ليس مجرد هذا الوجود المادي الصغير الذي نصلح عليه بـ(الدماغ)، بل.. هو «النور الذي يميّز به الإنسان الرشيد من الغي، والخير من الشر، والممكن من المستحيل، والحقّ من الباطل» (٤٤)،

(٤٢) سورة الشورى/ ٣٨.

(٤٣) سورة ص/ ٧١-٧٢.

(٤٤) الفكر الإسلامي مواجهة حضارية، مصدر سابق/ ١٤٠.

وبعث الله الأنبياء للناس؛ لكي «يثيروا لهم دفائن العقول»<sup>(٤٥)</sup>، ويحرّكوا مياهها الساكنة؛ لتفيض بمدخور كنوزها الجبارة.

يخاطبه أمير المؤمنين (عليه السلام) فيقول:

دواؤك فيك وما تشعرُ ودواؤك منك وما تُبصرُ  
وتحسب أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر  
وأنت الكتاب المبين الذي بأحرفه يظهر المضمُر  
فلا حاجة لك في خارج يخبر عنك بما سطوروا<sup>(٤٦)</sup>

.. هذا العقل الإنساني القادر على الحفظ، والفهم، والتطبيق، والتحليل، والتركيب، والتقويم... القادر على الحفظ، والاستبقاء، والاستذكار، وقدرات أخرى كثيرة.

فالدماغ يحوي أكثر من ١٢ بليون خلية ذاكرة<sup>(٤٧)</sup>، كل واحدة منها قادرة على تخزين ١٠٠,٠٠٠ معلومة مختلفة<sup>(٤٨)</sup>، فهو «قادر على تخزين ١٠٠ تريليون معلومة، أي أكثر ب ٥٠٠ مرة من حجم مجموعة كاملة من الموسوعة البريطانية»<sup>(٤٩)</sup>.

وحين يبلغ الفرد العادي الثلاثين من عمره يكون عقله الباطن قد خزّن ٣ تريليونات معلومة!!<sup>(٥٠)</sup>.

كما يحتوي العقل الإنساني على حوالي ١٢٠ قدرة خاصة، كالقدرة

(٤٥) نهج البلاغة، مصدر سابق/ ٤٣، الخطبة الأولى.

(٤٦) تقديم: عبود الخزرجي، روائع الحكم في أشعار الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) / ٢٠٠.

(٤٧) ألكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول/ ١١٤.

(٤٨) الدكتور عيسى بن علي الملا، (ما المقصود بالتفكير الاستراتيجي للمخططين؟)، مجلة (القافلة)، المجلد ٥٠، العدد ٣، ربيع الأول ١٤٢٢هـ/ مايو (يونيو) ٢٠٠١، ص ٢٠.

(٤٩) شيت مايرز، تعليم الطلاب التفكير الناقد/ ١٣.

(٥٠) (ما المقصود بالتفكير الاستراتيجي للمخططين؟)، مصدر سابق، مجلة (القافلة)، المجلد ٥٠، العدد ٣، ربيع الأول ١٤٢٢هـ/ مايو (يونيو) ٢٠٠١، ص ٢٠.

المعرفية، والحساسية للمشكلات، والأصالة، والطلاقة، والمرونة، وقد استطاع جيلفورد تحديد ٥٠ قدرة منها، يرجع بعضها إلى الذاكرة، وبعضها الآخر إلى التفكير<sup>(٥١)</sup>.

وهذا يعني أنّ الإنسان مستودع ثرّ من الطاقات الهائلة ما عليه إلا تحريكها ونقلها من مجرد مستوى الاستعداد والكمون إلى الفعلية والتّجّز.

بيد أنّ كثيراً من الناس يعطلون - كلياً أو جزئياً - عقولهم وقدراتهم الهائلة التي أودعها الله فيهم؛ فتكون ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾<sup>(٥٢)</sup>، إنّهم يملكون أدوات الحسّ وإمكانيات المعرفة، لكنّهم لا يحسنون توظيفها، لا يحسنون التعامل مع معطياتها؛ لأنّهم لا يتبحرون لعقولهم التأمّل في ذلك ومحاكمته والاستفادة العملية منه، كمن يسير في الظلام وبيده شمعة يستطيع أن يشعلها لتبهر له الدرب، لكنّه يفضّل إبقاءها مطفأة والتخبّط في متاهات الظلام.

كما تفيدنا معطيات علم النفس أنّ هناك فرقاً بين العمر العقلي والعمر الزمني، وأنّه ليس من الضرورة التوافق بينهما، فقد يكون العمر الزمني لشخص عشرين عاماً في حين يكون عمره العقلي سبعين عاماً أو ثمانين.

وعلى الطرف النقيض هناك مَنْ عمره الزمني سبعون عاماً أو ثمانون، لكنّ عمره العقلي قد يكون عشر سنين أو ما دون.

وهذا يدفعنا للشعور بالعمر العقلي، والعمل على تميّته.

كما تفيدنا بأنّ هناك نوعين من الذكاء عند الإنسان: ذكاء فطري، وذكاء صناعي، وأنّه بإمكانه تنمية ذكائه.

وأنّ مستوى الذكاء عند الإنسان يعينه كثيراً في مستوى التحصيل

(٥١) الدكتورة أميرة حلمي مطر، مقدّمة في علم الجمال / ١٢٩.

(٥٢) سورة الأعراف / ١٧٩.

المعرفي وتذليل العقبات.

غير أنّها تفيدنا - أيضاً - أنّ المستوى المعرفي لشخص أقلّ ذكاء قد يكون أكبر من آخر أكثر ذكاء متى كان الأول كادحاً في سبيل العلم، فيكون أكثر تفوّقاً من الناحية المعرفية وإن لم يكن أكثر تفوّقاً من ناحية الذكاء الفطري.

وهذا يعني أنّ لدى الإنسان القدرة على تغيير مستواه والسير نحو الأعلى، بخلاف ما تذهب إليه بعض الشرائع الهندية في فكرة الطبقات والمنبوذين، وعدم قدرتهم على تجاوز مستواهم والارتقاء، وكأنتنا أمام أسرار قدرية لا يمكن الانفلات من ربقتها ومخالبتها، وأمام تفسير جبري لا يمكن تخطيه.

أو على نحو ما يرّده البعض:

مشيناها خطى كُتبت علينا ومن كُتبت عليه خطى مشاها<sup>(٥٣)</sup>

هذا كلّهُ غير قدراته الروحية التي يشير إلى بعضها علم دراسة الخوارق أو القدرات الخفية (الباراسيكولوجيا)، واقتناعها بأنّ قدرات الإنسان ليست متوقفة عند حدود التنويم المغناطيسي، أو التخاطر عن بعد، أو الإدراك المسبق (توقع أحداث مستقبلية)، أو الاستشعار (اكتساب معلومات عن حادثة بعيدة أو جسم بعيد من غير تدخل أيّة حاسة من الحواس)، أو تحضير الأرواح، أو نزع الروح عن الجسد إلى حين.. فيما يُعرف - عند العرفانيين - بنظام (الخلسة)، أو تحريك الأشياء دون اعتماد على الحواس، بل.. تراه قادراً - ولو مستقبلاً - على أمور مثل تجميد الحياة - كما تفعل بعض الحيوانات في البيات الشتوي -، وغير ذلك<sup>(٥٤)</sup>.

وهذا بدوره - ولكي تتحقّق حاجات الإنسان المتنوّعة - يتطلّب - فيما يتطلّبهُ - تنوّعاً معرفياً يستطيع به التعرّف على الحاجات والرغبات

(٥٣) شهاب الدين الأبيهي، المستطرف في كلّ فن مستظرف / ٧٨٨.

(٥٤) يعيد علماء (الباراسيكولوجيا) الظواهر الخارقة إلى قسمين: الإدراك الحسي الخارق، والتحريك الخارق.

والنواقص - في الجانبين - كما يتعرّف على طريقة تحقيقها.

وهذه الاستعدادات والقدرات الهائلة لدى الإنسان تمكّنه من التنوّع، وتجاوز ثقافة البعد الواحد والاتجاه الواحد.

إنّ الذي يعرف لبلوغ مآربه طرقاً متنوّعة يتيح له ذلك إمكانية الاختيار والتفاضل بينها، والأخذ بأيسرها، أو أفضلها، أو أكثرها تحقيقاً لمراده، وحين يُسدّ أحدها يشعر بإمكانية الانفتاح والاستفادة من الطرق الأخرى المشرعة، فالموسوعي أمامه خيارات متعدّدة يقتنص من خلالها ما يناسب المشكل الذي يقع فيه.

ولعلّ هذا ما يدفعنا للقول: إنّ التخصص أمر مطلوب، لكن.. بحيث لا يغدو شرنقة قاتلة كلما تكاثفت كانت أشدّ خطراً على صاحبها، وأمست أداة تقوده نحو الموت، تماماً كحال دودة القزّ ونسيجها.

ولنا أن نستقي من واقعنا الخارجي مثلاً مبسّطاً لضرورة هذا التنوّع، فالأكاديمي الحاصل على أعلى الشهادات في اللغة أو الفلسفة أو الهندسة هل يستطيع بها - وحدها - تحقيق احتياجاته؟ ماذا لو مرّت أسرته بحاجة صحية تستدعي القيام بإسعافات أولية على جناح السرعة؟ وماذا لو كان يجهل طريقة التعامل مع الكهرباء أو الغاز؟ ألا يكفي ذلك للإجهاز على حياته، وتعرض أسرته للخطر بالرغم من تلك الشهادة المرموقة؟

إنّ كثيراً من حالات الوفاة أو الإعاقة سببها الجهل الأسري بالأوليات الصحية التي يمكن التعرّف عليها ببساطة؛ لتجاوز العقبات الكأداء.

### ٣- الحضور الفاعل في العالم:

إنّ سيادة أمة وتفوّقها أمر وراءه الأخذ بعناصر النجاح ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾<sup>(٥٥)</sup>، كما أنّ خلف تدهور الأمم عوامل هدامة كالترف والبطر، والظلم

(٥٥) سورة الإسراء/ ٢٠.



الاجتماعي، ومخالفة السنن الإلهية.

فالأمر ليس بالأمانى الوردية العذبة وأحلام اليقظة المخملية، وإنما هي بالعمل والأخذ بالأسباب ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْرَبْ بِهِ﴾<sup>(٥٦)</sup>، «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب»<sup>(٥٧)</sup>.

ومستوى حضور الأمم قد يكون سلبياً أو سكونياً أو إيجابياً، والذي يحدّد ذلك هو مدى حركيتها في الساحة، وفعاليتها في معترك الفكر والعمل.

وقد تستطيع أمة أو جهة ما.. الأخذ بأسباب النجاح فتتقدّم، وتفرض نفسها على الواقع والأخرين، في حين تتوارى أخرى بين حنايا الزوايا والتكاي، أو تتوارى الأمة ذاتها والجهة بعينها في زمان آخر؛ لأنّ الوصول إلى القمة يحتاج إلى عوامل، والبقاء على القمة هو الآخر يحتاج إلى عوامل.

فهناك عوامل للوصول، وأخرى للبقاء، وليس كلّ من وصل.. بقي، وإلا.. لظلت أول أمة تسنّمت مكانة حضارية أو مدنية إلى يومنا الحاضر، ولما شملتها عوامل الموت والتفسّخ، ولرأينا دولة الإسكندر المقدوني [٣٥٦-٣٢٤ ق م]، أو الدولة الرومانية، أو الأموية، أو العباسية، أو العثمانية... ماثلة إلى الآن!!

لقد استطاع النبي محمد ﷺ نقل المجتمع الجاهلي وتغييره، وإيصاله إلى المستوى الحضاري الذي تتهاوى عند أقدامه قصور كسرى وقيصر وهرقل، غير أنّ المسلمين - وبمرور الزمن - كانوا يتخلّون عن مقوّمات الرفعة، حتى ارتكسوا إلى الهوّة السحيقة.

إنّ تخلف المسلمين ليس تخلفاً ذا بعد واحد: سياسي، أو اقتصادي، أو اجتماعي، أو عسكري، في ميدان الزراعة، أو التصنيع، أو زيادة الفضاء. إنّه تخلف حضاري شامل في شتى الأبعاد.

ولذلك فعملية النهوض الحضاري للأمة الإسلامية تستدعي

(٥٦) سورة النساء / ١٢٣.

(٥٧) بحار الأنوار ٢ / ٩٠.

نهضة شاملة في كلِّ الجوانب.

إنَّ المسلمين أخذوا بمقوّمات النهوض فارتقوا، وتركوها فانهضوا، وكذلك غيرهم، وتلك سنة التاريخ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

وهذا ما يفسّر لنا دعوة الدين الدائمة لشحذ كلِّ سبل ومقوّمات النجاح على أرض الواقع، سواء كانت تلك السبل روحية أم فكرية أم عملية، في الحقل السياسي أم الاقتصادي أم الاجتماعي أم العسكري أم غير ذلك ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾<sup>(٥٨)</sup>، «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»<sup>(٥٩)</sup>، «أعرف الناس بالزمان من لم يتعجب من أحداثه»<sup>(٦٠)</sup>.

ولا يعني هذا استدعاء مقوّمات النجاح من التاريخ والتراث، والعيش على الماضي - استلهاماً وإنتاجاً - ضمن ماضيٍ ديني أو فكري أو اجتماعي أو غير ذلك، مع قطيعة كاملة عن الحاضر، بل.. يعني الاستلهام من التراث، والأخذ بعناصر القوة المستجدة مع الزمن، ولو كان بعض هذه السبل - في أصل منطلقه - آتٍ من الآخر المختلف، لا سيما في مجال الأساليب والأدوات.

فهي ليست من الجانب القيمي الذي يتحدّر كثيرون من استقائه من الآخر؛ حتى لا تقع في محذور قيم الآخر.

إنَّ واحدة من مشاكلنا أنّنا في حالة خدر لا نبعث فيها قيماً النهضة، ولا نريد الاستفادة من إيجابيات الآخرين، ولا نملك المصفاة (الفلتر) التي نستطيع بها فرز قيم الآخر؛ لنأخذ منها ما يتلاءم مع خصوصيتنا وواقعنا؛ لأنَّ الحركة والسعي - أتى كانا - يحتاجان إلى جهد فكري وعملي، ونحن نفضّل الراحة على ذلك.

إنّنا حتى لو تطلّعنا للنهوض ففي المخيال الجمعي لنا ستكون الأسباب سحرية يقوم بها عالم الغيب، أما نحن فسننتظر قطف

(٥٨) سورة الأنفال / ٦٠.

(٥٩) الكافي / ١ / ٢٦، ح ٢٤. بحار الأنوار / ٧٨ / ٢٦٩.

(٦٠) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق / ١ / ٢٠٣.

الثمار وأكلها. إنَّها الأمانى العذاب، والطموحات المجنحة!!

وعلى حدِّ تعبير موشي ديان - وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق -: «العرب أمة لا تقرُّ»<sup>(٦١)</sup>، أو كما يقول أحد المستشرقين مكملاً للعبارة السابقة: «العرب دعك منهم، فهم قوم لا يقرؤون، وإن قرؤوا لا يفقهون، وإن فقهوا لا يعملون، وإن عملوا فسرعان ما ينقطعون»<sup>(٦٢)</sup>.

فالعربي - حسب تقرير منظمة اليونسكو - يقرأ ٦ دقائق في السنة<sup>(٦٣)</sup>، ويعمل - كما يصرِّح إبراهيم قويدر مدير منظمة العمل العربية - ٥ دقائق في اليوم<sup>(٦٤)</sup>. وكلُّ ٢٠ عربياً يقرؤون كتاباً واحداً في السنة بينما يقرأ الأوروبي ٧ كتب، والطفل العربي لا يقرأ خارج المنهج الدراسي سوى ٦ دقائق في العام، ونسبة إنتاج الدول العربية مجتمعة تساوي ١٪ من معدل الإنتاج العالمي للكتاب<sup>(٦٥)</sup>.

(٦١) عبد الله بخيت، (العرب لا يعرفون القراءة، والغرب لا يقرأون المعرفة)، مجلة (المعرفة)، العدد ٥٢، رجب ١٤٢٠هـ/ أكتوبر ١٩٩٩م، ص ١٩٠.  
وفي مقابلة صحفية بعد حرب ١٩٦٧م سأل أحد الصحفيين موشي ديان: أليس من الخطأ والمخاطرة مجابهة الدول العربية بخطة حربية سبق استعمالها في حرب ١٩٥٦م؟ فقال ديان: «لا.. يا عزيزي، لقد أجاب على هذا السؤال تيودور هرتزل قبل ٨٠ سنة، فقد قال بأنَّ العرب لا يقرؤون، وإذا قرؤوا لا يفهمون، وإذا فهموا لا يتحرَّكون..، فهل فهمتَ يا عزيزي؟»، فأجابه الصحفي: ألا ترى - يا معالي الوزير - ما هي خطورة هذا التصريح إذا قرأه العرب؟ فقال ديان: «هل نسيتَ أنَّ العرب لا يقرؤون؟».

(٦٢) ظافر بن عبد الله العمري، (إن فقهوا لا يعملون..). رسالة الجامعة (تصدر عن جامعة الملك سعود بالرياض)، العدد ٨٠١، السنة ٢٩، السبت ٣٠/ ٣/ ١٤٢٤هـ، ص ٧. وقد ورد قريباً منه في كلام موشي ديان الذي نقله عن هرتزل (الهامش السابق).

(٦٣) الدكتور عبد العزيز الشعلان، (أرقام لها معنى.. فلا تصدقها)، مجلة (المعرفة)، العدد ٥٧، ذو الحجة ١٤٢٠هـ/ مارس ٢٠٠٠م، ص ٤٦.

(٦٤) هيئة التحرير، (قالوا..)، مجلة (العربي)، العدد ٤٩٨، محرَّم ١٤٢١هـ/ مايو ٢٠٠٠م، ص ٧.

(٦٥) أسماء المحمد، (إحصاءات: الطفل العربي لا يقرأ خارج المنهج الدراسي سوى ٦ دقائق طول العام)، جريدة الشرق الأوسط، العدد ٩٢٥٣، السنة ٢٦، الاثنين ٨/ ٢/ ١٤٢٥هـ، ٢٩/ ٣/ ٢٠٠٤م، ص ١٨.

ولا زال بعضنا يعيش بجسمه في القرن الواحد والعشرين، وعقله وعمله في عصور ما قبل التاريخ، ولا زال بعضنا يرفض مستجدات العلم مفضلاً الاحتما بدفاء التراث التليد، ويظل مقتنعاً بأن الأرض لا تدور؛ لأنَّ بها الكعبة الشريفة، ودورانها حول الشمس إهانة لها، ولو دارت لَشُنق التيس المشدود إلى حبل وسارية، ولتغيَّر باب المنزل في اتجاهه، ولنثرنا من الأرض!!

إنَّها إحدى ثمار ثقافة البعد الواحد، والعزوف عن المصادر المتنوعة للعلم والمعرفة. في حين يسعى الآخرون للأخذ بأكبر قدر من عناصر التفوق، فيصلون - بنسب متفاوتة - إلى أهدافهم.

فقد نجد الغربي منهمكاً في قراءة مجلِّد أو موسوعة عن أتفه الأشياء - عندنا - كالذباب، في حين لا نتعرَّف نحن حتى على أهمِّ ما يتصل بديننا ودنيانا، حاضرنا ومستقبلنا، في حياة الفرد والجماعة.

وراح الغربيون خلف سبل وأدوات التقانة المعرفية حتى ولجوا عصر الانفجار المعرفي والقرية الكونية، وأخذوا يوجِّهون أفكار الناس ومواقفهم بالفضائيات والإنترنت وغيرها..

«والهوة بيننا وبين الغرب آخذة في الاتساع. وتقدر بعض الجهات حجم تلك الهوة بالقول: إذا كان نمو الدول المتقدمة ٢,٥٪، وكان نمو الدول المتخلفة ٥٪ سنوياً، فإنَّ الأخيرة تحتاج لردم الهوة الفاصلة إلى ١٥٠ عاماً!!»<sup>(٦٦)</sup>.

واليابان التي تسكنها الزلازل طوال العام بما يزيد على عدد أيام السنة... الأرض ذات القشرة الأرضية المهترئة... الأرض التي تفتقر إلى أبسط المواد الخام، ينطلق شعبها بهمة ونشاط دائبين، حتى تصل إلى سدة الدول الصناعية في العالم، والتي تقلق - بنموها الدائم - الولايات المتحدة الأمريكية.

في اليابان، حيث في كلِّ مكان كتاب: في الحمام، والمطبخ، وغرفة النوم، والصالة، وحيث الشعب المحبُّ للعمل الراض للعلطة.

(٦٦) الدكتور عبد الكريم بكار، نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي / ٤٥ - ٤٦.

في اليابان حيث يقضي الطالب في الدراسة ٢٢٠ يوماً في السنة، بينما يقضي في أمريكا ١٨٠ يوماً فقط<sup>(١٧)</sup>.

في اليابان حيث تخرج المظاهرات مطالبة بإلغاء العطلة الأسبوعية؛ حباً للمعرفة والعمل!!

فضلاً عن اليهود، الأقلية التي طوّرت أساليبها، وأمسّت تؤثّر في قرار العديد من دول العالم وسياساتها.

إنّ العالم ذو أبعاد مختلفة، والحضور فيه غير ممكن التحقق دون تنوّع معرفي يأخذ على عاتقه الإمام بشتى المعارف ذات التأثير في ميدان الحضور الفاعل.

ولو اشتققنا مثلاً من المجال الإعلامي؛ لرأينا سيطرة الآخرين عليه: تقنية وإنتاجاً وتدويراً، بما يحقق لهم صنع الحدث ومصطلحاته ونشره، وإقناع المتلقي به وباحتضانه، وتشكيل الفكر والموقف وفقه.

إنّهم يسلّطون الضوء على ما يريدون، والتعتيم الإعلامي على ما لا يريدون..، مع اللجوء إلى سائر التقانات المؤثرة من أصوات وصور وألوان وأضواء، وفنيات إلقاء، وقدرة على الإقناع، بل.. وحتى الاهتمام بشكل الملقى ومكان التصوير وجاذبيتهما، ومكان إصدار التصريح السياسي: هل هو عن السلام ليُلقى من حديقة ذات مياه وزروع، أم عن الحرب ليلقى من مقرّ وزارة الدفاع أو من على ظهر بارجة حربية؟

وإذا كان هذا في المجال الإعلامي - أحد حقول المعرفة الإنسانية -، فهم يفعلون ذلك في شتى الحقول الأخرى.

إنّ واحدة من أسباب قوّة الغرب: قدرته على توفير العناصر الجاذبة للكفاءات والقدرات إليه، بحيث يدفعها إلى هجرة مواطنها والذهاب إليه فيما نسميه (هجرة العقول) أو (نزيف الأدمغة). وفي ذات الوقت الذي يوفر الغرب العناصر الجاذبة، توفّر أوطاننا عناصر

(٦٧) الشيخ حسن موسى الصفار، أحاديث في الدين والثقافة والاجتماع ٢ / ٥٢٥.

طاردة تقف مكملاً للدائرة.

لقد «هاجر خلال المدة من ٣٠ / ٦ / ١٩٦٧ حتى ٣٠ / ٦ / ١٩٦٨ نحو من ١٥,٩٧٣ من العلماء والمهندسين والأطباء العرب. وخلال المدة نفسها من العام التالي [١٩٦٨-١٩٦٩م] هاجر ١٢,٩٨١. أما العام الثالث [١٩٦٩-١٩٧٠م] فـ ١٦,٤٩٢ مهاجراً، وهذا إلى أمريكا وحدها، ومن المنطقة العربية من العالم الإسلامي وحدها، والتي لا تشكل سوى السدس من العالم الإسلامي!!<sup>(٦٨)</sup>. وفي العام [١٩٧٣م] بلغ ٤١,١٤٧ مهنيًا وفتياً<sup>(٦٩)</sup>.

وفي عام ١٩٧٦م هاجر من كفاءات العرب إلى الغرب ٢٤,٠٠٠ طبيب، و١٧,٠٠٠ مهندس، و٧٥٠٠ فيزيائي<sup>(٧٠)</sup>.

وخلال السبعينات هاجر - ومن سبع دول عربية فقط هي: العراق ولبنان ومصر والمغرب والجزائر وسوريا والأردن - أكثر من ١٥٠,٠٠٠ من الأدمغة.

كما أنَّ ٣٠-٥٠٪ من العقول العربية المدربة من أطباء ومهندسين وصيادلة تهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، وفي أمريكا - وحدها - ٢٥,٠٠٠ طبيب مصري، و٤٢٪ من علماء السودان<sup>(٧١)</sup>.

وكشفت الدراسات أنَّ ٧٠٪ من الكفاءات العربية التي تدرس في الغرب لا تعود إلى بلادها، وأنَّ ما تكبدته الدول العربية بين [١٩٦١-١٩٧٢م] جرَّاء هجرة عقولها بلغ ٤٦ مليار دولار، وخسرت في عام واحد هو ١٩٧١-١٩٧٢م ما يعادل ١,٨ مليار دولار<sup>(٧٢)</sup>.

وفي ١٩٨٠م هاجر ٥٠٪ من الحاصلين على الدكتوراه في العلوم،

(٦٨) الدكتور محمد عبد العليم مرسي، هجرة العلماء من العالم الإسلامي / ٥٣.  
(٦٩) الدكتور محمد رشيد الفيل، هجرة الكفاءات العربية ودور مجلس التعاون في الإفادة منها / ٧٠.

(٧٠) طارق عبد الفتاح شديد، (نزيف الأدمغة والأمن العلمي)، مجلة (القافلة)، المجلد ٤٦، العدد ١، محرَّم ١٤١٨هـ / مايو (يونيو) ١٩٩٧م، ص ٣٠.

(٧١) السيد محمد تقي المدرسي، المجتمع الإسلامي / ٧٠.

(٧٢) (نزيف الأدمغة والأمن العلمي)، مصدر سابق، مجلة (القافلة)، المجلد ٤٦، العدد ١، محرَّم ١٤١٨هـ / مايو (يونيو) ١٩٩٧م، ص ٣٠.

ومجموعهم ٢٧,٠٠٠، و٥٠٪ من حاملي الدكتوراه في الهندسة<sup>(٧٣)</sup>.

وفي الفترة ما بين [١٩٤٨-١٩٨٠م] بلغ عدد العقول العربية التي هاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وغرب أوروبا، واستراليا ٢,٠٠٠,٠٠٠ شخص.

وفي ١٩٩٠م هاجر ٩٠٪ من حملة الدكتوراه في المجالات العلمية والفنية<sup>(٧٤)</sup>.

والنسبة تزيد بمقدار ١٠-١٥٪ سنوياً، ومتوسط الهجرة يبلغ ١٠,٠٠٠ فني<sup>(٧٥)</sup>.

وفي عام ٢٠٠٢م هاجر أكثر من ١,٠٠٠,٠٠٠ خبير واختصاصي عربي من حملة الشهادات العليا والفنيين المهرة إلى الدول المتقدمة<sup>(٧٦)</sup>، وحسب الأرقام التي أبرزها ريفين برينر - الأستاذ في دراسات الأعمال في جامعة ماكجيل الكندية - «ففي كل عام يغادر ما يقدر عددهم بنحو ١,٨ مليون من المتعلمين ذوي المهارات والخبرات العالم الإسلامي إلى الغرب، وإذا افترضنا أن تعليم أحد هؤلاء المهاجرين يكلف في المتوسط عشرة آلاف دولار، فإن ذلك يوفر ١٨ مليار دولار من الأقطار الإسلامية إلى الولايات المتحدة وأوروبا كل عام»<sup>(٧٧)</sup>.

وفي دراسة عربية قُدِّرت تكاليف إعداد المهندس بنحو ٢٢٧,٠٠٠ دولار، و ١٩٨,٠٠٠ دولار لعالم الطبيعة، و ٥٣٥,٠٠٠ دولار للطبيب<sup>(٧٨)</sup>.

وإلى ٢٠٠٣م كانت دول أوروبا الغربية وأمريكا تحتضن أكثر من ٤٥٠,٠٠٠ عربي من حاملي الشهادات والمؤهلات العليا، وتُقدَّر الخسائر الاجتماعية من جرّاء ذلك بحوالي ٢٠٠ مليار دولار، ويشكّل

(٧٣) المصدر/ ٣٠.

(٧٤) المصدر/ ٣٠.

(٧٥) المصدر/ ٣٠.

(٧٦) الإنترنت، موقع: (www.iraqisciejournal.com) (المجلة

العلمية العراقية).

(٧٧) المصدر السابق.

(٧٨) الإنترنت، موقع: (المركز الفلسطيني للإعلام).

الأطباء العرب في بريطانيا وحدها حوالي ٣٤٪ من مجموع الأطباء العاملين فيها، وتستقطب ثلاث دول غربية غنية هي أمريكا وكندا وبريطانيا نحو ٧٥٪ من المهاجرين العرب<sup>(٧٩)</sup>.

وقد فقدت مصر - وحدها - حتى عام ٢٠٠٣م ما يبلغ ٨٢٤,٠٠٠ من ذوي التخصصات الحرجة والاستراتيجية وعقولها المتميزة، من بينهم ٢٥٠٠ عالم<sup>(٨٠)</sup>.

ومن منتصف الستينيات إلى منتصف السبعينات فقدت دول العالم الثالث - وعلى الأخص من دول العالم الإسلامي - قرابة ٤٠٠,٠٠٠ متخصص رحلوا إلى كندا وبريطانيا، وأن نسبة الكفاءات المهاجرة من العالم النامي إلى مجموع العقول المهاجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية من ٧٠-٨٠٪<sup>(٨١)</sup>.

وتلقّت كندا والولايات المتحدة الأمريكية ما بين ١٩٦٠-١٩٩٠م أكثر من ١,٠٠٠,٠٠٠ فني ومهني من الدول النامية<sup>(٨٢)</sup>.

«... ويقدر تقرير لإحدى منظمات الأمم المتحدة: أن أمريكا وكندا وبريطانيا هي أكثر الدول استفادة من هجرة العقول، وأنه هاجر من بلدان العالم النامي إلى هذه الدول عامي ١٩٧٠م - ١٩٧١م أعداد ضخمة سببت خسائر للدول النامية تُقدّر بنحو ٤٢ مليار من الدولارات، كما أنها تمثل وفراً للولايات المتحدة من الإنفاق على التعليم يقدر بنحو ١,٨ مليار دولار»<sup>(٨٣)</sup>.

«لقد أثبتت الإحصاءات أن عدد الأطباء الإيرانيين العاملين في مدينة واحدة من المدن الأمريكية هي (نيويورك) قد فاق عدد زملائهم

(٧٩) الإنترنت، موقع - (www.annabaa.org) (شبكة النبأ المعلوماتية).

(٨٠) الإنترنت، موقع (www.alwatan.com) (الوطن).

(٨١) (نزيف الأدمغة والأمن العربي)، مصدر سابق، مجلة (القافلة)، مصدر سابق، المجلد ٤٦، العدد ١، محرّم ١٤١٨هـ/ مايو (يونيو) ١٩٩٧م، ص ٣٠.

(٨٢) الهجرة وهجرة الكفاءات العربية والخبرات الفنية أو النقل المعاكس للتكنولوجيا، مصدر سابق/ ٤٣.

(٨٣) نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، مصدر سابق/ ٩٦.



من الأطباء العاملين على أرض إيران كلها!!، كما ثبت أيضاً أنّ عدد الأطباء المسلمين الجزائريين العاملين في منطقة (باريس) وحدها يفوق عدد زملائهم العاملين فوق التراب الجزائري كله!!<sup>(٨٤)</sup>.

إنّ عدداً لا بأس به من كفاءات الغرب ليست من جنور غربيّة، لكنّها لم تجد المناخ المناسب في بلدانها، فأضحت طيوراً مهاجرة تشكّل مركز قوة يتكئ عليه بناء الغرب.

ولا نريد من هذا توجيه سهام النقد لكلّ هؤلاء بمقدار ما نريد وصف الظاهرة فحسب.

## سمات ثقافة التنوع:

### ١- السعة والشمول:

السمة البارزة للتنوع المعرفي عدم اقتصره على ثقافة واحدة في اتجاه واحد، بل.. السعي للاطلاع الواسع في شتى المجالات.

فهي تتعرّف على الأشياء والأفكار في حقلها المعرفي، كما تتعرّف على الشيء الواحد في حقول معرفية مختلفة، فلو أردنا الإلمام بـ(الزكاة) فقد نجد آياتها في القرآن الكريم، وأحاديثها في كتب الحديث، وحكمتها في كتب الأخلاق، وفوائدها في كتب المجتمع، وأحكامها في كتب الفقه، وزمن تشريعها في كتب التاريخ.

وهذه النظرة الشمولية تؤهل صاحبها أكثر من غيره لتأليف أجزاء الصورة ولمّ شتاتها، والابتعاد عن الضبابية والقصور اللذين يتشكّلان عند إدراك جزء الصورة فحسب، ومن ثمّ سيكون ترتيب النتائج على النظرة الشاملة مختلفاً عنه مع النظرة الجزئية؛ لأنّ (جزء الصورة لا يعكس الصورة كاملة).

### ٢- الموضوعية والنزاهة:

وإذا كانت (السعة والشمول) سمة معرفية، فهناك سمة

(٨٤) هجرة العلماء من العالم الإسلامي، مصدر سابق/ ٦.

أخلاقية لثقافة التنوّع هي: الموضوعية والنزاهة.

فثقافة التنوّع تسعى لتلافي المركزية المرجعية والحكم على الآخرين من منطلقات ومعايير الذات دون الاطلاع على ما لديهم، وقراءته قراءة تفحصية تأملية حيادية.

إنّنا حين نتبّع أنماط عدم الموضوعية عندنا قد نشاهد لها مصاديق كثيرة، منها:

#### أ - البحث عن المؤيّدات، واستبعاد غيرها:

فعندما لا نأخذ بالتنوّع المعرفي كسمة تسكن الذات، وتتفاعل مع مكوّناتها، سنأخذ - مثلاً - بـ (الانطلاق إلى النصّ) بدلاً من (الانطلاق من النصّ).

فبدلاً من الذهاب إلى قراءة نصوص الدين قراءة نزيهة تشكّل أفكارنا ومواقفنا، نركّز أفكارنا ومواقفنا بوصفها النموذج المثال والصورة الأكمل، ثمّ نذهب إلى النصّ الديني؛ لتصيّد منه المؤيّدات، وحين نرى ما يعارضنا ندسّه في التراب.

وما نفعله في ثقافة الذات نفعله - كذلك - في ثقافة الآخر، فنحن نسعى لتشكيل منظومة فكرية عنه، تصفه بالتآمر والنفاق والخديعة، وتحاول القدح فيه بكلّ طريق، وبعد رسم هذه المنظومة عنه نعود لتصيّد المؤيّدات في مفاهيمه القيمية، وخطابه الفكري، وتصرفات بعض المنتمين إليه.

وحين نتحدّث - هنا - عن الآخر المختلف، وطريقتنا في قراءته، لا نخصّ المختلف السياسي، بل.. يعم ذلك المختلف الديني، والمذهبي، والفكري، والاجتماعي، و....

فهذه الطريقة مألوفة في قراءة الآخر: الخارجي والداخلي، فحتى قراءتنا كرجال للمرأة - كأخر داخلي - هي قراءة ذات أفكار مسبقة تبحث عن تصيّد المؤيّدات كبرهان على صحتها.

وإذا كنّا قد وقفنا قبل قليل مع اتجاهين ينطلق أحدهما من

النصّ، وينطلق الثاني إلى النصّ، فإنّ هناك اتجاهاً ثالثاً تستبدّ به الثقة بحيث يقوم بكامل (الدراسة خارج النصّ)، فهو يشكّل تصوراته وأفكاره منطلقاً من ذاته وأفكاره دون أن يعتمد النصّ الديني أو نصوص الآخر وخطابه - لا منطلقاً ولا عودة -، ثم يسمح لنفسه أن يصدر أحكامه الانطباعية التأثرية، وأن يعتبر ذلك منسجماً تمام الانسجام مع الموضوعية والأمانة العلمية.

ومن ثمّ فهو لا يبحث أصلاً عن مؤيدات خارجية، بل.. يكتبني أن يكون منطلقه داخلياً ذاتياً.

### ب - تجزئة النصوص والأحداث:

الموضوعية تستدعي النظرة الكلية للنصّ والحدث التي يوفّرها التنوّع المعرفي، وحين تتلاشى تُجزّأ النصوص والأحداث التاريخية؛ لالتقاط محطّ التأييد وترك ما عداه، وإن كان الأخذ به أو بالصورة المجموعية له مدخلة كبرى في تغيير الحكم.

إنّنا - في ميدان العقيدة والفكر - لا نتعجب من وجود ثقافات مؤسّسة على طريقة: إنّ القرآن يقول ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾<sup>(٨٥)</sup>، ﴿قَوْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾<sup>(٨٦)</sup> مع بتر باقي النصّ!!

ومن الناحية التاريخية قد نجد شخصية سامقة كعلي بن أبي طالب عليه السلام صاحب الحضور الباهر في كلّ حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومواقفه، ثمّ صاحب الحضور الكبير في زمن خلافته، نتفاجأ بأنّ مدة غير يسيرة من عمره لم يتمّ تغطيتها بشكل ملائم، إنّها المدة التي قضاها في خلافة الخلفاء الثلاثة قبله [١١ - ٣٥هـ]، إنّها ليست يوماً أو شهراً أو سنة، إنّها أربع وعشرون سنة لا نكاد نعثر فيها على دور لعلي عليه السلام سوى مسائل يسيرة تصبّ في باب القضاء، ومواقف خيرية متناثرة على طريقة حفر آبار وإيقافها للمسلمين!!

فأين دوره الفكري والاجتماعي والسياسي؟ هل فضّل عليّ

(٨٥) سورة النساء/ ٤٣.

(٨٦) سورة الماعون/ ٤.

الانزواء عن كلِّ شؤون الأمة في هذه الميادين المفصلية؟ أم هي غياب الموضوعية عند من كتب التاريخ لإرضاء الحاكمين؟!

### ج - فرض التأويلات التعسفية:

إنَّ ثقافة التنوّع المعرفي تسمى للتعرف على الموضوع، ثمّ التسليم التام بنتائجها دون تحريف النصّ، أو ليّ عنقه والتعسف في تأويله، وصرفه إلى دلالات لا تتسجم معه، ودون تحميل الآخرين وفكرهم ما لم يقُدْ إليه البحث والدليل، ودون فرض سلطة خارجية على الأحداث التاريخية والمزامنة تقرؤها وخلفياتها وفق فرض قسري يقودها لما يريد أن يلبّسها إياه، ويدمغها به شاعت ذلك أم أبيت.

أما ثقافة البعد الواحد فإنّها تتطلق؛ لتزوّل كلَّ ما لا يتناسب معه مهما كان ظهوره اللغوي والعرفي والتاريخي والاجتماعي، تفعل ذلك تجاه النصّ، والآخر، والفكر، والحدث.

ولنا أن ندرك في بعض ممارسات من تعامل مع النصّ الديني أو غيره مدى التأويلات المصرة على أن تبرزه مطابقاً لما تؤمن به، أو تطوّح به في أيّ مكان شاعت.

كما ندرك تلك التصورات الهائمة لدى البعض في تأويل أعمال الآخر المختلف حتى يبيده منسجماً مع الصورة النمطية التي يحملها عنه سلفاً، ولو أظهره بوصفه المتحلّل الكلي من ربقة الأديان والأخلاق والقيم والأعراف، أو عرض حياته كلّها في مشاهد سحرية (فانتازية) لا تخطر ببال.

والأمر نفسه يتم في حمل فكر الآخرين على مراكز هشة تتقاذفها الأمواج في بحر لجي من الأهواء والمصالح، وكم قال شخص فكرة نزيهة لفتت بمرادات لم يقصدها، ومن ثمّ جنى حنظل الفهم الخاطئ الذي اقتصره غيره، بما يوصله - أحياناً - إلى أن يدفع حياته ثمناً له، يدفع حياته ثمناً لفهم الآخرين لا لفكره هو!!:

إنّها آفة الفهم السقيم والفمّ المرّ المريض:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم<sup>(٨٧)</sup>  
ومن يكُ ذا فمٍ مَرٍّ مريضٍ يجد مرّاً به الماء الزلالاً<sup>(٨٨)</sup>

ويتم - كذلك - في تحميل الأحداث ما لا تحتل من معانٍ  
ومنطلقات وأهداف، لا تبصر كما جرت في الواقع الخارجي، بل..  
تُفرض عليها مسوح قراءة باطنية.

#### د - التسرّع في إصدار الحكم:

ثقافة التنوع المعرفي - وكمطلب للقراءة العميقة - لا تتعجّل  
إصدار النتائج والأحكام، بل.. تطبخ على نار هادئة، وبخلافها الثقافة  
التي تتطلق من بعد واحد تعدّه مرجعية معيارية، فالأحكام عندها  
شمولية جاهزة، تنال كلّ الثقافات الأخرى دون تريث وتأمل.

نقرأ مثلاً جلياً على هذا التسرّع في روح التكفير السائدة عند  
بعض المسلمين قديماً - كالخوارج -، وحديثاً - كجماعة التكفير والهجرة  
-، فمع رحابة مظلة الإسلام، ووجود نصوص كثيرة تعتبر كلّ من  
ينطق الشهادتين مسلماً، وكذلك من يأخذ بالظواهر الإسلامية.

«إنّ جبرئيل أتى الرسول ﷺ في صورة آدمي فقال له:  
ما الإسلام؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول  
الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ البيت، وصيام شهر رمضان،  
والغسل من الجنابة»<sup>(٨٩)</sup>.

كما يقول ﷺ: «وإنّكم إذا شهدتم أن لا إله إلا الله، وأنّ  
محمداً رسول الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، فإنّ لكم ذمة  
الله، وذمة رسوله على دمانكم وأموالكم»<sup>(٩٠)</sup>، «بني الإسلام على  
خمس: شهادة ألا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة،

(٨٧) المتنبّي، ديوان المتنبّي، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي ٢ / ١٦٢.

(٨٨) المصدر ٢ / ٣٧٩.

(٨٩) مستدرک الوسائل، مصدر سابق ١ / ٧٠.

(٩٠) وهج الفصاحة، مصدر سابق / ١١٢، رسالة ٧٦.

وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان»<sup>(٩١)</sup>، «من شهد له مسلم بإسلامه فإنه آمن بذمة محمد، وإنه من المسلمين»<sup>(٩٢)</sup>، «إن من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة الرسول»<sup>(٩٣)</sup>.

ومع عدم إعطاء الإسلام مقاليد لأحد ليصبح قيوماً على تفسير نصوصه كما يريد، ومع الإدراك البين لأثار هذه الأحكام ونتائجها النفسية والاجتماعية، وما تخلقه بدءاً من تعميم الشحنة والتباغض وانتهاء بسيول الدماء القانية.

مع ذلك كله نشاهد البعض لا يتورع عن تكفير الملايين من ذوي القبلة لا لشيء إلا لأنهم اختلفوا مع تفسيره أو تأويله للنص، وإن كانوا يأخذون بالنص نفسه ضمن تفسير آخر له.

إن هذا الضيق الفكري مصدره سيادة روح أحادية التوجه، لا تؤمن بالأخر الداخلي واحترام وجهات نظره، وتفهمها قبل الحكم عليها، فضلاً عن الآخر الخارجي.

لقد كان من نتيجة هذه الأحكام أن كثر الخوارج علي بن أبي طالب عليه السلام.. علياً الذي طالما كشف الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والذي قام الإسلام على جهوده وتضحياته، والذي بدأ حياته وختمها في بيت الله، وصرّج بدمه وهو يعانق الصلاة، وذكر الله ملء كيانه.

### ٣- المفتاح والحل:

وإذا كانت السمة الأولى (السعة والشمول) معرفية، والثانية (الموضوعية والنزاهة) أخلاقية، فإن هذه السمة الثالثة نفعية، فثقافة التنوع - على نحو ما قدّمنا - تجعل صاحبها أمام خيارات عدّة يمكن اللجوء إليها لتحقيق ما يصبو إليه.

(٩١) المصدر/ ٣٩٩، ح ١١١٦.

(٩٢) المصدر/ ٨٨، العهد ١٩.

(٩٣) المصدر/ ٦٨، رسالة ٣٥.

بينما ثقافة البعد الواحد قد توقف صاحبها أمام طريق واحد لا سواه يظهر بوصفه النور آخر النفق فإن أطفئ عمه الظلام الدامس.

## التنوع الاجتماعي والتنوع المعرفي:

بين التنوع الاجتماعي والتنوع المعرفي علاقة طردية، فكما كان المجتمع متنوعاً اجتماعياً في أعراقه وعلاقات أبنائه وأنماط معيشتة - سادته تنوع معرفي بتداخل ثقافات أهله وتمازجها وتبادلها، لا سيما حين يكون ذلك المجتمع منفتحاً على بعضه، لا تسوده علاقات العداة والاحتراب، متعوداً على الاستماع للرأي الآخر واحترامه، مما يدفعه إلى وعي أكبر عدد من الأفكار، وتلاقحها، والوصول إلى الأفضل.

أما المجتمع المنغلق الذي تسوده ثقافة أحادية فإنه يبقى أحادي الفكر، لا يعرف التنوع والتعددية.

وكذلك الحال مع المجتمع المتعدد الثقافات، الذي تعيش كل ثقافة فيه صراعاً وصداماً مع الأخرى، ويُعبئ أفرادها على الانغلاق عن الثقافات الأخرى وعدم الإصغاء لها، أو على تسخيفها ومواجهتها - فإنه كمن يعيش على روافد عذبة لنهر كبير لكنه يظل ظامئاً لا يستفيد منها.

وبهذا نصل إلى أن التنوع الاجتماعي يخلق تنوعاً معرفياً، وفي الوقت ذاته فإن التنوع المعرفي يخلق تعايشاً اجتماعياً، حين تقود كل ثقافة فيه إلى قبول الآخر لا إقصائه أو إلغاءه.

فالعلاقة بين التنوع الاجتماعي والمعرفي علاقة تبادلية في التأثير والتأثر، كلٌّ منها يسهم في الآخر.

إنّ الذي يحاول أن يستغل بثقافة أحادية يمنع عقله وعمله من الاستفادة من خيارات أخرى يتيحها له التنوع المعرفي أو الثقافات الأخرى.

كما أنّ سبغ القول بالحقيقة المطلقة على شيء يجعل صاحبه

يصاب بنكسة وخيبة حين يتضح له بأن ما وصفه بالحقيقة، وأعطاه كامل ثقته وولائه، لم يكن كذلك، وقد يدفعه هذا للانقلاب الكلي من الضد إلى الضد.

لقد آمن بعض علماء الفيزياء بأن المادة مجموعة جزئيات أصلية لا تتجزأ، ولا يمكن تفتيتها بحال إلى ما هو أقل منه، وحين تقدّم العلم، وأمكن تفجير المادة إلى ذرات «تفجّرت في الوقت ذاته ثقة الإنسان بعلمه الميكانيكي، وذهبت مسلماته هباء، فأصابت الأزمة النفسية بعض العلماء، وقالوا: ما دامت المادة لم تكن حجراً ثابتاً لبناء صرح العلم عليها - بينما كنّا نعتقد نحن أنّها كذلك - فمن يضمن لنا أن تثبت الذرة مكانها؟ أليس من الممكن أن يأتي العلم ليقول لنا يوماً: إنّ الذرة أيضاً وهم تقليدي؟!»<sup>(٩٤)</sup>.

ولو آمن هؤلاء الفيزيائيون - من بعد - بأنّ الذرة لا يمكن تفتيتها وأنّها (الجزء الذي لا يتجزأ)، - كما آمنوا بذلك للمادة - لأصابتهم الهزة مرة أخرى حين تمكن العلم من تفجير الذرة نفسها على يد (أرنست رذرفورد) [١٨٧١-١٩٣٧م] في ١٩١٩م، ومن ثمّ في القنابل الذرية والنووية، كتلك التي ألقيت على هيروشيما وناجازاكي في ١٩٤٥م.

## أسباب عقلية البعد الواحد:

### أ- فقر البيئة:

فالبيئة الطبيعية حين تكون فقيرة هشّة فإنّها تعكس فقرها على خيال أبنائها؛ إذ إنّ العقل لا يتمكن حينئذ من تركيب توافق كثيرة.

وهناك لون آخر من فقر البيئة هو أهم وأبعد أثراً، ذلك هو الفقر الثقافي؛ فالبيئة التي يسودها الجهل - والجهل فنون - لا تتمكن من إدراك أبعاد عديدة للأشياء، فتتصلب عقلية أبنائها في تعاملها مع

(٩٤) الفكر الإسلامي مواجهة حضارية، مصدر سابق/ ٩١.



الأشياء، وتكون الخيارات أمامها منعدمة أو ضعيفة.

ومن ثمَّ فإنَّ القدماء كانوا على حقٍّ حين أعطوا الرحلة في طلب العلم ما تستحقه من الاهتمام والتقدير.

ومن هذا الباب كان سكان السواحل - بصفة عامة - ألطف مزاجاً، وأكثر مرونة، وأقدر على التكيف من سكان المناطق الداخلية؛ لأنَّ مَنْ ترسو في بلده كلَّ يوم سفينة تحمل معها التجار ذوي الثقافات المختلفة والتجارب المتنوعة والبضائع المتعدّدة ليس كمن عاش في سجن كبير؛ فهو وإن كان يلتقي بعدد كبير من الناس إلا أنَّهم من نمط واحد أو متقارب؛ مما يجعلهم عاملاً في التمييز الأحادي بدل أن يكونوا عاملاً في التنوع والثراء.

وثمة نوع ثالث هو الفقر في الأدوات والوسائل، وهو ثمرة للفقر في النوعين السابقين؛ فالإنسان الذي يرى أنماطاً مختلفة يكون أقدر على إبداع الوسائل التي تمكّنه من الاندفاع في ميادين الحضارة المختلفة، وتلك الوسائل نفسها تدفع بالفكر إلى مزيد من الإبداع؛ لأنَّ التجربة مع المشاهدة لأنماط مختلفة سوف تؤدي إلى مفاضلات ومقارنات كثيرة.

وفكرة التطوير التي تلتصق التصاقاً كاملاً بكلِّ المصنوعات والأدوات قائمة أصلاً على الوعي بعدم امتلاك ناصية الحقيقة النهائية دفعة واحدة، وعلى مشاهدة أنواع وأنماط كثيرة للوسيلة الواحدة، وهذا لن يتأكد إلا من خلال الممارسة الواقعية النشطة والمنفتحة.

فحين تكون البيئة ذات بعد واحد ستترك بصمتها على أبنائها، ومن يرتبط ببيئته الفقيرة هذه دون أن يرتبط بالتنوع المعرفي التي قد تتيحه له بيئات أخرى سيكون ذا بعد واحد في فكره وخياره وعمله.

## ب - انعدام الحوار:

فالحوار يقوم على إدراك المحاور أن ليس كلَّ ما يراه قطعياً نهائياً في كماله وإصابته مفاصل الصواب، وأنَّه من خلال ذلك الحوار يستطيع أن يضيف شيئاً إلى ما عنده في صورة إثراء، أو في صورة تغيير وتبديل.

لكنَّ الحوار لن يكون ذا فائدة تُذكر إذا دار بين قوم (تهيكلت) ثقافتهم على التقليد والنقل لأقوال زيد وعمرو دون حظٍّ من النظر الخاصَّ القادر على استلال نماذجه الخاصة من أكداس المعلومات المتوافقة والمتضادة.

والذين تعوّدوا الاعتماد على غيرهم؛ ليفكّروا عنهم غير قادرين على الدخول في حوار جاد، وإذا دخلوه فإنَّهم غير قادرين على الاستمرار فيه؛ لأنَّ الحوار متصل بالاجتهاد والقدرة على التوليد، وأصحاب الكسل الذهني والتقليد المطلق غير قادرين على شيء من ذلك.

والمشكلة التي تسبق كلَّ ذلك هي نظر كثير من المثقفين إلى الحوار على أنَّه نوع من التنازل للمخالف قد يخدش صلابة المعتقدات ووثاقة الإنسان بما يحمل من أفكار، وبعضهم ينظر للحوار على أنَّه مضيعة للوقت، وفرار من ميادين العمل.

ولا ريب أنَّ الأمة التي لا تستطيع الدخول في حوار مع ذاتها ومع غيرها هي أمة تفتقر إلى الثقة بالنفس، وإلى الوعي بذاتها.

وسوف يترتب على العجز عن الحوار المزيد من التوتر الاجتماعي، والانقسام الداخلي، ووجود جُزُر فكرية داخل المجتمع الواحد، مما سيؤدِّي إلى طفرات متنوّعة تحوّل دون التواصل بين الأجيال في دائرتي الزمان والمكان.

وإذا كان الحوار صعباً أو مستحيلاً فهذا يعني أنَّ النقد سيكون أصعب؛ لأنَّ الذي يرفض الحوار سيكون رفضه للنقد أشدَّ؛ مما يضيع فرص عقد جلسات للنقد البناء والتناصح المخلص، وحينئذ لا مناص من الدخول تحت قوله - عزَّ اسمه -:

﴿فَنَقِطْعُوا أَمْرَهُم بِبَيْنِهِمْ زُبُرًا، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾<sup>(٩٥)</sup>.

فمن يندم عنده الحوار تثبت ذهنيته على مسلماته الذاتية وتحوّل لديه إلى حقٍّ ومقدّسٍ وحيد ليس ثمة سواه، فتترعرع لديه

عقليته ذات البعد الواحد، بينما من يدخل في معترك الحوار يسمع الفكر المخالف والدليل المخالف؛ فينشأ لديه التنوع المعرفي، ويتشرب بالسعة والشمول الثقافي.

ومن ينطلق من حبّ سماع النقد، والاستفادة من علوم وعقول الآخرين، ستنمو لديه عقلية التنوع المنفتحة على إدراك وجهات النظر الأخرى ومناطق القوة والخلل، ومن ثمّ فتح الباب مشرعة نحو الاستفادة المعرفية والعملية من ذلك.

### ج - التعامل مع الواقع على أنه كتلة واحدة:

الذين يفكّرون في اتجاه واحد ينظرون إلى كلّ المشكلات الكبرى التي تحيط بهم على أنها أحادية التركيب، عديمة المنافذ، مستحيلة التجزئة، فلا يمكن التعامل معها، فيلجؤون إلى تجاهلها أو ترميمها أو الخلاص منها.

ولكنّهم يكتشفون بعد مدة أنّ تبخير المشكلة كلّها غير ممكن، وتقسيماً أيضاً غير ممكن؛ والنتيجة هي القعود والجأ بالشكوى مع بقاء المشكلة على ما هي عليه، بل.. تفاقمها.

والتعامل مع الواقع على أنه كتلة واحدة له أسباب، منها:

- عدم النظر إلى بدايات المشكلة، وظروف نشأتها، والعوامل المؤثرة فيها؛ للوقوف على العناصر التي تتكوّن منها.
- قصر عمر الإنسان، فهو لا يدرك الكثير من أطوار المشكلة، بل.. قد لا يدرك إلا بعض طور.
- الغفلة عن سنة التدرج التي تحكم كلّ الظواهر الاجتماعية، فينشأ أولئك الذين يؤمنون بالحلول الطفرية.
- الغفلة عن سنة التدافع في الكون، التي لا تسمح بتجمهر الخير وحده أو الشرّ وحده، فمن خلال امتزاجهما تتوفر فرص العمل والنشاط.

وحين يمنّ الله على أمة بفكر قادر على رؤية كلّ أجزاء الصورة،

وكلّ عناصرها الفاعلة، وهو في الوقت نفسه قادر على إدراك العلاقات التي تربط بين تلك العناصر فإنّ أكثر المشكلات استعصاء تصبح ممكنة الحلّ ولو جزئياً، ولو حلاً غير مرض.

إنّ هذا الاعتقاد بأنّ الواقع كتلة واحدة يجعل العقل يدركه باتجاه واحد، ويشكّل الثقافة فيه على ذلك البعد الواحد المظنون، وينمّط الذهن على حلّ أوحده لا سواه، بخلاف من يراه قابلاً للتجزئة.. قابلاً لحلول، ويبصر عناصر التعدد والتنوع الكامنة فيه؛ فإنّه يخلق في ذهنه تفاصيل لذلك الواقع يلمّ بها من خلال سبره العميق الفاحص له، ويمكّنه من وضع حلول للمشكلات وللمشكلة الواحدة، وليس حلاً واحداً إن تمّ وإلا.. فقد انسدّ الدرب وتوقف المسير، كما يهبه قدرة استعمال عناصر لصالح أخرى، وذلك من خلال «تغيير علاقات السيطرة فيها، وتبديل وضعها بالكشف عن عناصر القوة فيها، واستثمار الإمكانيات القائمة في تناقضاتها ذاتها....» فمن خلال تبديل موقع العناصر في تركيبة معيّنة يمكن الوصول إلى علاقات ووحدات ووظائف جديدة تستجيب أكثر لحاجات العصر، أو النظام العام الذي تدخل فيه هذه الوحدات»<sup>(٩٦)</sup>.

وهكذا يؤسّس في ذهنه لثقافة الانفتاح والتنوع في قراءة الواقع ومعطياته وحلوله.

فالعناصر الكيميائية والفيزيائية في هذا الوجود ثابتة، ولكن من خلال إدراك العلاقات بين تلك الثوابت أمكن إيجاد عشرات الألوف من الصناعات. هذا من طرف الاستفادة من عقلية التنوع.

ومن طرف آخر - ونتيجة لهيمنة عقلية البعد الواحد - سادت في الأوساط الإسلامية مقولة (لن يدعوك تعمل)، و(لن يدعوك تربي)، و(لن يدعوك تمسي عملاقاً)، وهذه (النافيات) تأتي عقب إسقاط كلّ الاحتمالات الأخرى للتغيير، وهذه المقولة أدت إلى تهيبّ كثير من الخيرين من الإقدام على أيّ عمل كبير، والزهادة في الأعمال الصغيرة مع أنّ الإنسان يملك قدرة هائلة على التكيف مع أقسى الظروف التي يمرّ بها.

(٩٦) برهان غليون، اغتيال العقل / ٥٨.

## د - الميل إلى التبسيط:

من أركان (عقلية البعد الواحد) الميل إلى تبسيط الأمور، يدفعها لذلك عوامل كثيرة منها:

- إدراك جزء من الأسباب الفاعلة، وغياب بقية الأسباب؛ لأنَّ الإدراك الكلي يحتاج إلى وعي ومتابعة واستقراء، وغالباً ما يقتصر نظر الناس إلى الأسباب القريبة الظاهرة.

- الفقر في المفردات اللغوية، فمن يتحدّث عن موضوع معقّد لا تسعفه مفرداته على التفصيل، سيضطر للإجمال.

- الرغبة في سهولة تصوّر الأشياء والأحداث، فالناس يميلون إلى انتقاد المواقف لا المبادئ؛ لأنَّ إدراك الخطأ في المواقف أسهل، مع أنّ المبادئ والمناهج هي التي تملّي المواقف.

فنحن نعدم إلى الإيجاز وضغط التفاصيل طلباً للحفاظ والتداول والانتقال، أو لإشباع حاجة نفسية واجتماعية، حين يبدو لنا بذلك أننا توصلنا إلى قانون ينطبق على عدد كبير من الجزئيات.

إنَّ التعامل مع الأشياء على أنها كتلة صلدة، والميل إلى التبسيط يؤديان إلى (عطالة الفكر)؛ لأنَّ التفكير في الحالة الأولى لا فائدة منه، وفي الثانية لا حاجة إليه.

## هـ - الرؤية النصفية:

إنَّ أخطر ما يشكّل (عقلية البعد الواحد) أن يرى المرء نصف الحقيقة، ويحجب عنه النصف الآخر، فحين يبصر ما يراه كاملاً تتشكّل لديه (العقلية الترجيحية)، فتري - ولو بشكل تقريبي - الحسنات والسيئات والإيجابيات والسلبيات، وحينئذ تكون أحكامه موضوعية متوسطة، بعيدة عن التفاؤل المفرط؛ لأنَّه يرى الجانب السلبي، وبعيدة عن التشاؤم؛ لأنَّه يلمح الجوانب المشرقة.

ومن أهم الأسباب التي تؤدي إلى استفحال هذه الظاهرة: (القهر السياسي):

فحين تملك الدولة (ذهب المعزّ وسيفه) فإنّ ظهور آثار تراجع القيم يكون صارخاً، فهي - من خلالهما - تستطيع تكوين دوائر متسعة من الخائفين من الجهر بالحقّ، ومن المدارين، ومن المرتزقة الذين تنمو لحومهم على حساب دينهم وكرامتهم، وتؤدي هذه الأنماط الثلاثة دوراً متكاملًا في إخفاء النصف الذي لا ينبغي أن يظهر من الحقيقة!!

وكذلك من الأسباب: ما تركه فنّا المديح والهجاء في ماضيها وحاضرنا من آثار سيئة في تركيبنا العقلي، ودفعنا إلى قمة التحيز، وما فعله كتاب التراجم من أثر سلبي، وما فعله المتأخرون من تجريد كتب الفقه من الأدلة؛ الذي جعل القارئ يطّلع على أحكام جازمة قاطعة دون معرفة مصادرها، ولا معرفة أدلة الأقوال المخالفة، مما أوجد الغلو والانغلاق والرؤية الناقصة، كما أوجد آلية التصلب، وإيراد الظنيات مورد القطعيات.

ومن أسبابها: حملات الدعاية الواسعة المنظمة التي تستهدف حمل الناس على اعتقادات خاطئة، والانصراف عن كثير من المشكلات الحقيقية، والتلهي بالقشور والتوافه.

وتظهر نتائج كلّ تلك المؤثرات في ردود أفعال الشعوب الإسلامية - مثلاً - تجاه أحداث عصرها، فكلّما وقع حدث جلل انقسمت الأمة إلى قسمين متناحرين، وما ذلك إلا لضعف قاعدة المعلومات التي يُحرمون من الحصول عليها، وإلا لتشوّه الحقائق في أذهانهم.

إنّ رؤية نصف الحقيقة شرّ من الجهل بها؛ لأنّها توجد إنساناً يظنّ أنّه يعرف كلّ شيء، وهو لم يعرف إلا الجزء الذي يجعله مسماراً في آلة كبيرة، دون أن يعرف شيئاً عن تلك الآلة!!

## و - الانغلاق:

ويساهم الانغلاق مساهمة فعّالة في تشكيل (عقلية البعد الواحد)، متخذاً صوراً كثيرة، فقد يكون بضرب ستار حديدي دون تمازج ثقافي بين دولة وأخرى، وقد يكون انغلاقاً على مستوى التخصص العلمي،

وقد يكون عبارة عن شكّ المرء في كلّ ما حوله، وقد يكون على مستوى حزب سري يعمل تحت الأرض، و...، وأنى كان نوعه فهو عامل من عوامل تكوين عقل لا يفكر إلا في اتجاه واحد.

إنّ الوعي بالذات كثيراً ما يتوقف على الوعي بالآخر، والجهل بما عند الآخرين يحرماننا من جزء من وعينا بذاتنا.

والانفتاح ليس ضرورياً للوعي بالذات فحسب، ولكنّه ضروري - كذلك - من أجل حلّ الأزمات الداخلية؛ لأنّ كلّ ثقافة أو تخصص علمي يواجه أزمات داخلية نشعر معها أنّه استنفد كلّ طاقاته التجديدية الخاصة، وحينئذ فلا مخرج إلا بإضافة عناصر تمكّننا من تقديم إمكانيات أوسع للتغيير نحو الأفضل.

هذا الانغلاق قد يكون متعمداً في كثير من الأحيان من قبل جهات لا ترى إمكانية لاستمرارها في ظلّ الانفتاح على الآخرين؛ لأنّ وجودها غير مشروع، أو لأنّها تحمل ثقافة هشّة، أو أفكاراً غير مشروعة، وحين تتعدم أجهزة الاتصال فإنّ التلاعب بالناس يصبح سهلاً.

إنّ الانطلاق يولد الخبرة، والخبرة تولد الثقة بالنفس، والمنغلقون على ما لديهم لا يستطيعون إلا أن يكونوا خائفين، ولا يستطيعون إلا أن يكونوا غرباء، والخوف والغربة عاملان من عوامل الاضمحلال<sup>(٩٧)</sup>.

### ز - القناعات الراسخة:

ومما يؤسس عقلية البعد الواحد تلك القناعات التي تمكنت في الإنسان، وأخذت تحكم على الأفكار الجديدة التي تريد منافستها أو إزاحتها، إنّها تمثّل (المسلّمة البديهية) التي لا يمكن الشكّ فيها.

وهذه القناعات قد تعود إلى ما ورثه الإنسان من والديه، أو التربية، أو الأصدقاء، أو المدرسة، أو البيئة الجغرافية أو الثقافية، قد تعود إلى أسباب واعية مدركة يمكن رصدها والتعامل المناسب معها

(٩٧) النقاط من (أ - و) في (أسباب عقلية البعد الواحد) مأخوذة - بتصرّف - من: الدكتور عبد الكريم بكار، فصول في التفكير الموضوعي/ ٢١٢-٢٢٨.

عبر القيام بعملية حضرية تفكيكية فيها، وقد تعود إلى أسباب لا واعية يصعب العثور عليها.

لقد رفض الكثير من الناس تعاليم الأنبياء التي تتناغم مع العقل والفطرة والروح، مقدّمين ما ألفوه عند آبائهم، ووجدوهم عليه عاكفين ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ \* قَالَ: أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٩٨﴾، ومن ثم أقفلوا مسامع قلوبهم عن سماع هذا الجديد الناقض لما ترسّخ في قلوبهم من أشجار معمرة ضاربة.

فمن الأسباب التي تجعلهم يقدّمون (الألفة الأبائية): أنّهم معها يعفون عقولهم من عناء التفكير، ويفرّون من مسؤولية اتخاذ موقف وقرار، وبيقون في عملية ودّ مع المجتمع الموافق من حولهم، وبذلك يفلتون من عملية تستلزم تخطئة الآباء والأقربين، بل... وتجريم الذات، وحملها على اقتلاع تلك الأشجار الراسخة وما يتصل بها، وزرع أشجار جديدة.

ولعلّ هذا واحداً مما يفسّر السبب في كون أكثر أتباع الأنبياء والمرسلين من فئة الشباب، فقلوبهم بعدّ صافية كالزجاج، بياض كالثلج.

يقول الرسول ﷺ: «أوصيكم بالشبان خيراً، فإنهم أرق أفئدة، وإنّ الله بعثني بشيراً ونذيراً، فخالفتني الشبان، وخالفتني الشيوخ. ثم قرأ: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ، فَحَسَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٩٩)» (١٠٠).

والقناعات قد تتمكن من صاحبها حتى تصبح القوقعة التي يتم الاحتماء بدفئتها التليد، والتي تعلي الأسوار المانعة من إطلالة الروح على المروج الفيحاء النضرة، فينشأ الانغلاق على فكر أحادي الاتجاه تُعطى له القداسة، ويحول دون التنوع المعرفي.

(٩٨) سورة الزخرف/ ٢٣- ٢٤.

(٩٩) سورة الحديد/ ١٦.

(١٠٠) فريد وجدي، روايات من مدرسة أهل البيت (عليه السلام) / ١ / ٣٤٩.



## ح - الميول والرغبات:

من الطبيعي أن تكون للإنسان ميول ورغبات تهزّه وتحركه نحو تحقيقها، وقد تتوجّه نحو شخص أو شيء أو مهنة أو هواية أو كتاب أو غير ذلك.

هناك من يميل إلى كاتب معيّن، أو نوع خاص من الكتب (كالقصص مثلاً)، أو خطّ فكري أو معرفي محدّد، وهذا بحدّ ذاته أمر طبيعي لا غضاضة فيه، بيد أنّ المشكلة تنشأ حين يقصر الإنسان اهتمامه على ذلك فحسب؛ فتتخلّق عنده ثقافة البعد الواحد.

وتتجلى المشكلة واضحة عند هؤلاء حينما يُنزع الواحد منهم عن ميدانه الذي يصل فيه كالفراس المجلي، وإذا به خارجه شخص أشلّ أخرس ليس لديه مجداف يحرك قاربه الساكن.

إنّ واحدة من أزمت بعض من يمارس الفكر الديني تتبدّى حين يعتقد أولئك أنّ الدين كلّه يمكن اختزاله في المسائل الفقهية كما تبدو في كتب الأحكام والرسائل العملية، أو حين يظنون أنّ نصوص الدين تفسيراً واحداً هو تفسيرهم، دون الحاجة إلى الاطلاع على سواه، أو حين تصل النوبة إلى تكفير من يخالفهم التفسير أو وجهة النظر.

إنّ هؤلاء يعيشون على أحادية ضيقة يظنونها الكون بأكمله، وأنّه (ليس خلف عبادان قرية)، وما يرونه من ثقب الإبرة الذي ينظرون منه يعطونه مطلق الصلاحية ليؤسس أفكارهم ومواقفهم.

وقد يُبرّر ذلك الانكفاء بخوف الضلال والانحراف الذي قد يتسرّب - واضحاً أو خفياً - حين يُقرأ أو يُسمَع لهذا وذاك، وشيوع ظاهرة (دسّ السمّ في العسل)، وغياب (الحصانة) التي تؤهّل المتلقي لذلك، وشمولية أحكام الفقه للحياة بما لا يُحتاج معه إلى غيرها... فضلاً عن ضرورة (تقديم الأهم على المهم)، أو ضيق العمر الذي لا يتسع لإضاعته في التوافه، ومحاسبة الله تعالى للإنسان على إهداره زمنه في ذلك.

وحين نتحدّث عن هؤلاء في الحقل الديني، فإنّنا لا نقصر الأزمة عليهم، فهي تتعداهم لتشمل بعض من يعيش في الحقل الأكاديمي

والمعرفي، والحقل العملي والاجتماعي، بتعدد جنباتهما واتجاهاتهما، فكم فيهما من ضليع في اتجاهه لا يكاد يعرف مسألة في أبجديات الوضوء والصلاة!!

إذن.. هناك من يبالغ في ميل أو رغبة أو تخصص، ويعطيه كامل ولائه، بحيث يجعله بُعداً أحادياً لا يصح تجاوزه.

### ط - القصور والتقصير في الاطلاع:

قد تتعد بالإنسان ظروفه البيئية أو العقلية أو غيرها عن إمكانية الانفتاح على التنوع المعرفي، فيمسكه (القصور) عن بلوغ ذلك.

وقد تتوفر له كامل الإمكانيات، لكنه يفضل السكون على الحراك، فيكون (التقصير) منه هو المارد الطليق الذي ربض على صدر تلك الطاقات والقوى، وكبّلها عن الانطلاق.

فالفرق بين (القصور) و(التقصير) - من ناحية المنبع والمنطلق - فرق كبير، ففي الأول تقف دون بلوغ المرام أمور ليست داخلة تحت إرادة صاحبها، فهو طير يتمنى أن يسبر أغوار الكون لولا القفص الذي يجهض قواه.

أما في الثاني، فالأمور رهن إرادته، لكنّ المرء نفسه يقف حائلاً دون أن يسمح لقدراته أن تتجوّل بين أفياء البساتين، وتنتشي بأرج الزهور. ومن ثمّ، فهو مع (القصور) معذور، لكنّه مع (التقصير) يتحمل وزر ما تؤول إليه الأمور.

هناك من يُحرّم نعمة التنوع المعرفي لأنّ إمكانياته التي خلقه الله عليها أو فيها لا تؤهله لذلك، وهناك من يجلس على نهر عذب لكنّه يمنع نفسه أن يلتدّب بمائه الزلال.

ولنا أن نبصر نموذجاً في أولئك الذين يؤطرون حياتهم بإطار خانق، والمعرفة منهم على ضربة معول، ولكنّهم لا يضربونها.

كما نبصره في أولئك الذين يضعون مصير فكرهم وغذائهم المعرفي أو العقدي أو العملي بيد شخص يتولى عملية الحجر على العقول،

ويقول بهم ضمن فكر أحادي الاتجاه، ربّما لم يطلّع هو على غيره، أو لا يريد أن يطلّع، ويسيرهم وفق الرغبة العملية التي تتسجم مع تصوراتهم.

وقد يظهر هذا الشخص القيّم على الفكر والعمل في صورة أب أو صديق أو أستاذ أو عالم دين أو غير ذلك، يختلف المظهر، ويبقى جوهر الفعل واحداً هو تكريس ثقافة البعد الواحد.

وقد تختلف الوسيلة والآلية إلى بلوغ ذلك، من ترويح التهم ضد الآخر وتشويه فكره، إلى منع كتبه وتحريم قراءتها، إلى النهي عن الاستماع له ومجادلته ومنع الجلوس معه ومحاورته، إلى نفيه من البلاد، وانتهاء بالسجن أو التصفية الجسدية.. آليات متنوعة تطلّج (الآخر المختلف)، و(الفكر المختلف)، ويبقى مضمونها واحداً هو ترسيخ ثقافة البعد الواحد.

### اتجاهات ذات بعد واحد:

وحين نراجع المعرفة البشرية في مسارها الطويل الممتد، نرى بجلاء ووضوح سيادة اتجاهات وتفسيرات أحادية البعد، تعمّم تفسيراً واحداً، وتقصي ما عداه.

وهذه الاتجاهات والتفسيرات لم تظهر في حقل معرفي واحد، بل.. تكاد تغطي كلّ الحقول، سواء في نظرية المعرفة، أو العقيدة، والتفسير، والتاريخ، والاقتصاد، وتفسير حياة المعصومين (عليهم السلام)، أو غير ذلك.

### ١ - مصدر المعرفة البشرية:

ما هو مصدر المعرفة عند البشر؟

إنّه سؤال بسيط للإجابة عليه ظهرت مدارس أحادية التفكير، كلّ منها يعزو السبب إلى مصدر واحد فرد:

أ- النظرية الاستنكارية: لقد ذهب (أفلاطون) إلى أنّه (الاستنكار)، وأنّ الإنسان رأى الحقائق كلّها في عالم قبل هذا العالم

هو عالم المثل، وحين ألبست روحه الجسد نسيها، وهو حين يراها الآن لا يتعلمها ولا يدركها من جديد، وإنما يستذكر ما مرَّ عليه سابقاً.

ب- النظرية الانتزاعية: وخالفه تلميذه (أرسطو) فقال بـ(التقشير والانتزاع)، وأنَّ الإنسان يرى الأمور الجزئية الخارجية، فيزيح ما بها من خصوصيات، وينتزع منها مفهوماً عاماً مشتركاً.

ج- العقل: وآمن (المعتزلة) بـ(العقل) مصدراً للمعرفة، يُقدِّم على الوحي والنقل.

د - النقل: في حين آمن (الأشاعرة)، بـ(النقل)، وتقديمه على العقل.

هـ- القلب: وراح (المتصوفة) و(العرفانيون) و(الفلاسفة الإشرافيون) يفرِّقون بين الدليل العقلي البرهاني، والدليل القلبي الإشرافي، وأنَّ (القلب) هو مصدر المعرفة الحقة.

و- الطبيعة: ولا يقتصر الاختلاف في مصدر المعرفة ودورانه بين النقل أو العقل على الاتجاهات التاريخية كالأشاعرة والمعتزلة، فقد ظلت أوروبا تخوض ذلك الجدل المحموم على مرِّ قرون متطاولة، وقدِّمت على مسرحه آلاف القرابين!!

لقد ظلَّ الرأي في مصدر المعرفة عندها يدور بين (النقل - والعقل - والطبيعة)، فقد فرض الحكم الكهنوتي المسيحي إبان العصور الوسطى [٤٧٦-١٤٥٣م] (النقل) المجدِّد في نصوص الكتاب المقدَّس مصدراً وحيداً للمعرفة، ومعاقة العلماء والمكتشفين على آرائهم الميانية، الأمر الذي دفع للثورة عليها، وحلول عصر النهضة، ثمَّ ذهب فلاسفة عصر التنوير إلى الأخذ بـ (العقل) مصدراً فرداً أحداً، ورأوا أنَّه الذي يشكِّل فهمنا للطبيعة من حولنا، في حين راح فلاسفة عصر الوضعية إلى تنويع (الطبيعة) مصدراً أوحدها ملهماً للمعرفة، وأنَّه الذي يطبع العقل ويشكِّله!!

ز- النظرية الحسية التجريبية: وفي العصر الحديث عدَّ (جون لوك) [١٦٣٢-١٧٠٤م] (الحسَّ والتجربة)، الطريق الأوحده

للمعرفة، ورفض كلِّ مصدرٍ غيره.

وإذا اشتهر عن ديكرات - من الفلاسفة العقلانيين - قوله «أفكر، إذاً أنا موجود»<sup>(١٠١)</sup>، فقد راح أندريه جيد [١٨٦٩-١٩٥١م] - من الحسين - يناقضها مردداً «أحس، إذاً أنا موجود»<sup>(١٠٢)</sup>.

## ٢ - مناهج دراسة العقيدة:

أ- المنهج النظري: يغلب على أكثر كتب العقيدة عند المسلمين (المنهج النظري) في طريقة دراسة العقيدة، ذلك المنهج الذي يهتم بالبراهين والأدلة التي تستهدف إثبات المدعى، وإفحام الخصم وإسكاته وتفنيده حججه، فهي تفرض المخاطب منكرًا أو شاكًا وتسعى لإقناعه.

وقد تأثر هذا المنهج كثيراً بطبيعة الاستدلال المنطقي والفلسفي والكلامي.

ومن أشهر الكتب القديمة في هذا الجانب: (الألفين)، و(النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر)، للعلامة الحلبي.

ب- المنهج الحضاري: بينما يأخذ آخرون - ومنهم الشهيد الشيخ مرتضى المطهري [١٣٢٨-١٣٩٩هـ]، [١٩٠٩-١٩٧٩م] - بـ (المنهج الحضاري)، وهو الذي يعرض العقيدة الإسلامية «باعتبارها أصولاً لحضارة كاملة تهتم بالإنسان من جوانبه الحياتية كافة»، فهذا المنهج يتناول الأبعاد العملية للعقيدة، كما يتناول الإنسان وموقعه في هذا الكون، وعلاقته بالطبيعة، ودوره في عملية التغيير الاجتماعي. يتناول كلُّ هذه المسائل مقارنة بالحضارة الغربية والشرقية الحديثة.

ج- المنهج التربوي: في حين يركّز قسم ثالث - منهم الشهيد السيد عبد الحسين دستغيب [١٣٣٣-١٤٠١هـ]، [١٩١٤-١٩٨١م] - على (المنهج التربوي) بمحاولة تسليط الضوء على الجانب الأخلاقي في العقيدة في محاولة لإلهاب الوجدان ليتفاعل حامله قلبياً وسلوكياً.

(١٠١) المعجم المفصّل في اللغة والأدب، مصدر سابق / ٢٤٢.

(١٠٢) المصدر / ٢٤٢.

فهذا المنهج يهتم «بعرض العقيدة الإسلامية عرضاً تربوياً مؤثراً بهدف إحداث تغيير روحي في السامع والقارئ أكثر مما هو بهدف البرهنة العلمية على صحة المعتقد الإسلامي، أو كمال الحضارة الإسلامية وجدارتها».

وهو يعدّ مخاطبه مقتنعاً بالعقيدة، مؤمناً بها، فلا يسعى للتركيز على البراهين الإثباتية لها، والنقضية لغيرها<sup>(١٠٣)</sup>.

### ٣ - تفسير حياة المعصومين عليهم السلام:

فمناهج العرض وأساليب الطرح لسيرة المعصومين - الرسول صلوات الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام - تختلف من خطيب إلى آخر، ومن كاتب إلى آخر حسب اختلاف التوجهات، ومن أبرز تلك المناهج:

أ- المنهج التاريخي: حيث يتم عرض حياة المعصوم منذ ولادته - وحتى وفاته في الجانب الشخصي، كالحديث عن زوجاته وأولاده ومواليه، وطريقته في العيش. وفي الجانب الاجتماعي، كتلامذته، وعلاقته مع حكام عصره، ومراكز القوى في مجتمعه، وما لقي من الحوادث والمشاكل.

ب- المنهج العاطفي: ويتكوّن هذا المنهج من بعدين:

الأول: الغيبي: التركيز على مسألة الكرامات والمعاجز والجوانب الغيبية في حياة النبي صلوات الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام؛ للتأكيد على المكانة الخاصة التي يحضون بها عند الله - سبحانه وتعالى -.

الثاني: المأساوي: إبراز ما حلّ بأهل البيت عليهم السلام من المصائب والمآسي من قبل أعدائهم الظالمين الحاسدين لهم؛ لإظهار مظلوميّتهم؛ ذلك أنّ الإنسان بطبيعته السوية يتعاطف مع المظلوم، وخاصة إذا كان من العظماء والصالحين، كما أنّ ذلك يبيّن سوء الطرف المناوئ لأهل البيت عليهم السلام، وكيف أنّه تجاوز الحدود والموازن الإسلامية والإنسانية في عدوانه

(١٠٣) المناهج الثلاثة في دراسة العقيدة ملخصة من: المقدّمة التي كتبها السيد صدر الدين القبانجي لكتاب (التوحيد والعدل)، للسيد عبد الحسين دستغيب/ ٨ - ١٠

عليهم، مما يعبئ جمهور المستمعين ضده، ويؤكد نفورهم منه.

ج- المنهج العلمي الحضاري: فالنبي ﷺ وأهل بيته الكرام (عليهم السلام) إنما يعبرون بسيرتهم وأقوالهم عن مشروع إلهي يستهدف تنوير البشرية، ودفعها نحو مستوى حضاري أرفع، فهم ليسوا مجرد عبّاد زهّاد ولا أصحاب طريقة صوفية، وليسوا زعامات سياسية تصارع من أجل المواقع والمناصب، بل.. هم حملة رسالة إلهية ومشروع حضاري.

إنّه تقديم أهل البيت (عليهم السلام) من خلال مشروعهم الحضاري، وعطائهم العلمي والمعرفي؛ لتجاوز زواج التخلف، والانطلاق نحو آفاق الحضارة<sup>(١٠٤)</sup>.

#### ٤ - مناهج التفسير:

حين نلقي نظرة على مناهج المفسرين المتبّعة في كتبهم نجدها هي الأخرى - عادة - تغلب منهجاً على غيره، وتأخذ بمعطياته:

أ- التفسير بالمأثور (النقلي): ويفسّر القرآن بما ورد في (الأثر)، أي السنة المباركة، أو بإضافة أقوال الصحابة والتابعين والشعر العربي، كما هو الحال مع تفسيرات ابن عباس [٣ ق هـ - ٦٨هـ]، [٦١٩-٦٨٧م].

ومنه (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، لمحمد بن جرير الطبري، و(الدر المنثور في التفسير بالمأثور)، لجلال الدين السيوطي [٨٤٩هـ - ٩١١هـ]، [١٤٤٥-١٥٠٥م]، من التفاسير السنوية.

و(تفسير القمي)، لأبي الحسن علي بن إبراهيم القمي [ت ٣٠٧هـ / ٩٢٠م]، و(تفسير العياشي)، لمحمد بن مسعود بن عياش [ت ٣٤٠هـ / ٩٥١م]، و(الصافي)، للمولى محسن فيض الكاشاني

(١٠٤) الشيخ حسن موسى الصفار، سيرة الأئمة ومناهج العرض (باختصار)، محاضرة الجمعة رقم (١٠٩) في ١١/١١/١٤٢٢هـ، الإنترنت، موقع (WWW.saffar.org) (الصفار).

[١٠٠٨-١٠٩١هـ]، [١٦٠٠-١٦٨٠م]، وتفسير (البرهان) للسيد هاشم البحراني [ت ١١٠٧هـ / ١٦٩٥م] من التفسيرات الشيعية<sup>(١٠٥)</sup>.

ب- التفسير العقائدي (الكلامي): ويركز كثيراً على الجانب العقائدي الخلافي بين السنة والشيعية، كما في (لطائف الغيبة والعواطف)، لأحمد بن زين العابدين العلوي، و(لوامع التأويل)، لمحمد المعصوم الاسترآبادي.

ج- التفسير الفلسفي: ويركز كثيراً على القوانين والقواعد العقلية الفلسفية، ومحاولة تطبيقها على آيات القرآن الكريم، وغلب على تفسير (مفتاح الغيب) - المعروف باسم (التفسير الكبير) للفخر الرازي [٥٤٤-٦٠٦هـ]، [١١٥٠-١٢١٠م]، و(تفسير القرآن الكريم) للسيد مصطفى الخميني [١٣٤٩-١٣٩٧هـ]، [١٩٣٠-١٩٧٧م].

د- التفسير الصوفي (العرفاني): ويجعل تفسير القرآن الكريم محطاً للإشارات والفيوض القلبية المرتبطة بطهارة القلب وحركة السالك إلى الله، وقد ظهر بارزاً في (حقائق التفسير)، للسلمي [ت ٤١٢هـ / ١٠٢١م]، و(لطائف الإشارات)، لأبي القاسم القشيري [ت ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م]، و(جواهر القرآن)، لأبي حامد الغزالي، و(الكبريت الأحمر)، لمحيي الدين بن عربي.

هـ- التفسير الفقهي: ويضع جلَّ اهتمامه بآيات الأحكام، وما يُستنبط منها من معانٍ وتشريعات، كما الأمر مع (أحكام القرآن)، لأبي بكر الجصاص [٣٠٥-٣٧٠هـ]، [٩١٧-٩٨٠م]، و(الجامع لأحكام القرآن)، للقرطبي [ت ٦٧١هـ / ١٢٧٣م]، و(الإكليل في استنباط التنزيل)، لجلال الدين السيوطي، و(كنز العرفان في فقه القرآن)،

(١٠٥) ولعلَّ أكبر تفسيرين إسلاميين بالمأثور هما: (بحر العرفان ومعدن الإيمان)، و(كنز العرفان في تفسير القرآن)، - مخطوطان - وكلاهما للشيخ محمد صالح البرغاني (من الإمامية)، ويبلغ الأول ١٧ مجلداً حجرياً، والثاني ٢٧ مجلداً حجرياً، وإذا علمنا أنَّ بحار الأنوار للعلامة المجلسي كان في ١٧ مجلداً حجرياً، وعندما طُبِع وصل إلى ١١٠ مجلد، فهذا يعني أنَّ (بحر العرفان) يقاربه أو يساويه، بينما (كنز العرفان) ينوف عليه!!



للشيخ مقداد السيوري [ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م]، و(زبدة البيان في آيات القرآن)، للشيخ المقدس أحمد الأردبيلي [ت ٩٩٣هـ / ١٥٨٥م].

و- التفسير اللغوي (والبلاغي): ويركز على الكلمات، ووجوه نطقها وإعرابها، كما يركّز على الجانب الصرفي والبلاغي في القرآن الكريم، وهو السائد في تفسير (الكشاف)، لجار الله الزمخشري [٤٦٧هـ - ٥٣٨هـ]، [١٠٧٥ - ١١٤٤م]، كما يُعدُّ منه تفسير (في ظلال القرآن)، لسيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٧هـ]، [١٩٠٦ - ١٩٦٦م].

ز- التفسير العلمي: ويحاول تفسير القرآن الكريم من خلال استنطاق آياته التي تتحدّث عن العلم، وتفسيرها وفق المعطيات العلمية، كما في (تفسير جزء عمّ)، للشيخ محمد عبده، وتفسير (الجواهر)، للشيخ طنطاوي جوهرى.

ح- التفسير التاريخي: ويعرض التفسير على طريقة أحداث وقصص تاريخية ترتبط بالأمم والأنبياء على نحو ما سار تفسير الثعلبي [ت ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م] (الكشف والبيان عن تفسير القرآن) الذي «ليس له شغل إلا القصص واستيفاؤها، والأخبار عن سلف، سواءً كانت صحيحة أو باطلة»<sup>(١٠٦)</sup>.

ط- التفسير الحركي: ويفسّر القرآن الكريم محاولاً التركيز على ما يبعث الحيوية والنشاط والفاعلية في الأمة المسلمة والجماعة المسلمة، أي محاولة رسم منهج (تنظيمي) للعمل الديني والاجتماعي، وقد تأثر به سيد قطب في تفسيره (في ظلال القرآن)، والسيد محمد تقي المدرسي في تفسيره (من هدى القرآن).

## ٥ - نظريات القيمة:

ما هو الشيء الذي يعطي للسلمة قيمتها، ويؤدى إلى تفاوت الأسعار؟

أ- المنفعة الذاتية: آمن بعض الاقتصاديين أنّ السبب هو

(١٠٦) دائرة المعارف الإسلامية، مصدر سابق ٣ / ٥٥.

(المنفعة الذاتية) للسلعة، فقيمتها تتحدد بالمنفعة التي تمنحها، والمصلحة التي تقدمها.

ب- المنفعة الحدية: ورأى آخرون أنه (المنفعة الحدية)، فالسلعة الأولى تعطي منفعة تتناقص حتى تتلاشى، وتسير نحو السلب والعدّ العكسي، ونقطة الصفر هي حدّ الإشباع، محدثاً الميل الحدي.

ومع هذه المنفعة، وسيرها نحو التناقص يسير - طردياً - السعر.

ج- العمل: ورأى آدم سميث [١٧٢٣- ١٧٩٠م] في كتابه (ثروة الأمم) أنّ القيمة تأتي من (العمل) المنفق على السلعة، فقيمة الأشياء تختلف وفق ما يبذل فيها من عمل وجهد.

د- الإنتاج: بينما اعتقد آخرون أنّ السبب يكمن في (الإنتاج)، فالكلفة والنفقة والمال المبذول على إنتاج سلعة ما.. هو الذي يحدّد قيمتها.

هـ- العرض والطلب: ورآه البعض ماثلاً في (العرض والطلب)، فكّلما زاد العرض قلّت الأسعار، وكلّما زاد الطلب زادت الأسعار، حتى نصل في شيء إلى مستوى الندرة فيصل إلى أعلى الأثمان.

## ٦ - فلسفة التاريخ:

ما الذي يحرك التاريخ؟ وما السبب وراء قيام الحضارات؟

هناك الكثير من الإجابات، منها:

أ- الجنس السامي (الراقي): وترى أنّ السلالات والأعراق البشرية متفاوتة من حيث العوامل الأنثروبولوجية، ففيها الرفيع الراقي السامي القادر على صنع الحضارات، وإنتاج العلوم والفلسفات والأخلاق والصناعات، وفيها المنحطّ الخسيس الذي لا يُنتظر منه ذلك، وما هو إلا مستهلك فقط.

فالحضارة تقوم على عنصر (الجنس) والدم، والتاريخ تحركه

أجناس خاصة، لها يعود فضل جميع ما حققته البشرية من أعمال وتقدّم، وذلك انعكاس لخصائصها الذاتية، فالجنس الشمالي (الأوروبي) قادر على بناء الحضارة، بخلاف الجنوبي.

وشهدت هذه النظرية ظهورات متفاوتة زمنياً، فقد نادى بها (أرسطو) للعرق الأبيض الأوروبي.

كما نادى بها (آرثر دي جوبينو) [١٨١٦-١٨٨٢م] في (فصل المقال في لا تساوي الأجناس البشرية) للإنسان الأشقر الذي يشكّله الجنس الهندو - أوروبي، فقد راحت نظريته تركز على الآتي:

أولاً: أنّ الأعراق البشرية منها ما هو نقي راق، ومنها ما هو منحط رديء!!:

فالأوروبيون البيض أرقى من الزوج والشرقيين، والرجل الأبيض لديه توافق أعظم بين مكوّنات القوة الجسدية والذكاء والأخلاق، ومن بين كلّ الأجناس الموجودة يظلّ هو الأكثر حيوية،.. تلك الحيوية التي هي قوّة حياة أو جوهر تنتقل إلى ذريته، وهي أساس الحضارة والإبداع الإنساني.

ثانياً: النشاط العقلي للإنسان يتأثر بالخصائص العرقية، فالعرق الرفيع يمتاز بالذكاء دون غيره.

ثالثاً: العرق الآري هو أرقى الأعراق، والعرق الزنجي أدناها، وهناك أعراق وسطى، والتاريخ الإنساني هو تاريخ القيادة والحضارة الآرية!!

رابعاً: عزل الأعراق، ووضع كلّ منها في الموضع المناسب لدرجة رقيّه أو انحطاطه.. ضرورة حضارية.

ونادى بها (ألفرد روزنبرج) [١٨٩٣-١٩٤٦م] في (أسطورة القرن العشرين) [١٩٣٤م]، للعرق الأزرق الجيرمني (الألماني)، وكذلك (هتلر) [١٨٨٩-١٩٤٥م].

ب- نفسية الأمة: واعتقد (غوستاف لوبون) [١٨٤١-١٩٣١م]

في مؤلفه (فلسفة التاريخ) بأن لكل أمة خصائص نفسية تحدّد مسار تطوُّرها التاريخي، والتاريخ نتيجة للمزاج النفسي للأعراق، وأنّ الأمة لا تستطيع أن تتفكّت من مزاجها، ولو انفطت فذاك إلى وقت قصير كالرمل الذي تثيره الزوبعة فيفكّت من أسار الجاذبية إلى حين.

ج- الجغرافيا: فالبيئة الطبيعية هي صانعة الحضارات، فإذا كانت ذات مناخ معتدل سادت العقول المعتدلة البانية للحضارة، أما ذات المناخ الحارّ فتسودها الانفعالية وعدم القدرة على بناء الحضارة. وإذا كانت البيئة على شاكلة مناطق صغيرة بين سلاسل جبلية (كاليونان) يسود الحكم الديمقراطي؛ لأنّ البيئة أقسام صغيرة تستطيع أن تحكّم نفسها. وحين تكون سهلية منبسطة فسوف يسود فيها الحكم الملكي الإمبراطوري كتلك التي سادت في مصر والهند وبلاد فارس. أما حين تكون جبلية أو واحات منعزلة فيسود الحكم القبلي.

وقد آمن بهذه النظرية الفيلسوف الفرنسي (مونتسكيو) [١٦٨٩-١٧٥٥م] - كما في كتابه (روح القوانين) أو (روح الشرائع) -، والسير (جون هالفورد)، كما ناصرها المؤرخ العربي ابن خلدون [٧٣٢-٨٠٨هـ]، [١٣٣٢-١٤٠٦م] في تاريخه الشهير (العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر).

وقد بلغ الأمر منتهاه عند (ماكندر) - وتبعه الدكتور جمال حمدان في كتابه (استراتيجية الاستعمار والتحرير) -، فراح يختزل تاريخ الصراع في العالم على أنّه بين (قوّة البحر، وقوّة البرّ، وقوّة برمائية بينية)، ويكرّر نفسه ضمن ثنائية الصراع بين (الرعاة والمزارعين)، (الرمل والطين)، (الجبل والسهل)، (الاستبس والغابة).

د- البطل: فحضارات الأمم يعود صنعها دوماً إلى (بطل) - أو أبطال قلائل - ظهر فيها، واتسم بمستوى من النبوغ يفوق معاصريه، أما بقية الناس فهم أتباع لا يملكون تلك القدرة.

وقد آمن بها (توماس كارليل) [١٧٩٥-١٨٨١م] في كتابه (في الأبطال وتقديس البطولة وعنصر البطولة في التاريخ) [١٨٤١م].

كما آمن بها شبنجلر [١٨٨٠-١٩٣٦م] في (أقول الغرب) أو (انحطاط الغرب) أو (تدهور الحضارة الغربية) - حسب اختلاف عناوين الترجمات -.

هـ- صراع النقائض: ويرى الفيلسوف الألماني (هيجل) [١٧٧٠-١٨٣١م] أنَّ كلَّ شيءٍ يحتوي في داخله على نقيضه، وأنَّ هذا النقيض سيبرز ويتغلَّب، ثمَّ ينشأ عنه نقيض له يتغلَّب - هو بدوره - عليه، وهكذا يتحرَّك التاريخ والحضارات ضمن سيرٍ تتابعيٍ لصراع النقائض بتطورها الثلاثي (الوضع، النقيض، نقيض النقيض).

و- الاقتصاد: ويرى (كارل ماركس) في كتابه (نقد الاقتصاد السياسي) أنَّ (الاقتصاد) هو العامل الذي يحرك التاريخ، وأنَّ جميع الجوانب الأخرى تابعة له، وأنَّ تطوُّر وسائل الإنتاج وعلاقاته في مجتمع ما.. هو الذي يغيِّر ذلك المجتمع.

وبعبارة أخرى، فالاقتصاد يمثِّل (البنى التحتية) التي يؤدي تغيُّرها إلى تغيُّر حتمي في (البنى فوقية) التي تمثِّل الأمور العقيدية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والعسكرية وغيرها..

ز- الحرية: وتسود لدى الغرب الرأسمالي قناعة أنَّ أساس حركة التاريخ هو (الحرية) بما تبثه من منافسة تنتج الأصلاح والأفضل، فالحرية تنتج المنافسة، والمنافسة تنتج الأصلاح.

وجاءت هذه الفكرة مؤسسة على الأفكار المنبثقة عن الثورة الفرنسية [١٧٨٩م]، ومبدؤها الذي قامت عليه ودعمت له (الحرية والعدالة والمساواة)، وشعار (دعه يعمل، دعه يمرّ).

ح- الروح الكلي للعصر: ورأى (ولتر شوبرت) في كتابه (أوروبا وروح الشرق) أنَّ الحضارة في كلِّ عصر تبنيها الروح السائدة فيه والتي تميِّزه.

ط- التحدي: ويعتقد المؤرخ الإنجليزي (جون أرنولد توينبي) [١٨٨٩-١٩٧٥م] أنَّ الشعوب والأجناس يواجهها (التحدي) البيئي بعوامله: الجغرافية والبشرية، وتحتاج - لكي تبني الحضارة -

إلى (استجابة) ورد عليه، وهي هنا أمام خيارات ثلاثة: إما التقدم والانطلاق، أو التوقف والجمود، أو الفناء والزوال.

ي- الصراع أو التدافع: ويعتقد بعض الإسلاميين أن الحياة قائمة على (الصراع)، وأنه الذي يؤدي إلى ظهور الحضارات وغلبتها، واندثار أخرى.

بينما يميل قسم آخر منهم إلى تخفيف حدة المصطلح من (الصراع) إلى (التدافع)، ويرون أن حركة المجتمعات والحضارات تعتمد على دفع بعضها لبعض، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١٠٧)</sup>، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَادَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾<sup>(١٠٨)</sup>.

ك- الفكرة الدينية (المبدأ الأخلاقي): ويرى (كسر لنج) أن الفكرة الدينية - أو (المبدأ الأخلاقي) كما يسميه - هو سبب انطلاق المجتمعات، فالعقيدة المسيحية بروحها الخلقية تمكنت من القبائل الجرمانية، وبعثت فيها الروح الفعالة التي بنت الحضارة المسيحية، فهذه الحضارة قامت على (روح) المسيحية و(تقاليد) الجرمانية.

كما نادى بها من قبله المؤرخ الفرنسي (جيزو) [١٨٧٩-١٩٤٩م].

ويشترط مالك بن نبي [١٣٢٣-١٣٩٣هـ]، [١٩٠٥-١٩٧٣م] تفاعل هذا السبب مع عناصر الحضارة الثلاثة؛ ليتم بناؤها؛ لأن «الوسيلة إلى الحضارة متوافرة ما دامت هنالك فكرة دينية تؤلف بين العوامل الثلاثة: الإنسان، والتراب، والوقت، لتركب منها كتلة تُسمى (حضارة)»<sup>(١٠٩)</sup>؛ لأن الفكرة الدينية تبني الإنسان، وهو يقوم بدوره في بناء الحضارة<sup>(١١٠)</sup>.

ل- الإرادة الإلهية: فمنذ القدم اعتقد (بوليبوس) [حوالي ٢١٠-

(١٠٧) سورة البقرة/ ٢٥١.

(١٠٨) سورة الحج/ ٤٠.

(١٠٩) شروط النهضة، مصدر سابق/ ٦٤.

(١١٠) المصدر/ ٦٩.

١٢٥ ق م [ أنَّ القدر هو الذي يسيّر التاريخ، وهو مبدأ وغاية العالم.

ويعيد الأسقف الفرنسي (بوسيه) [١٦٢٧- ١٧٠٤م] - تغيّر التاريخ والحضارات إلى المشيئة الإلهية المتصرّفة.

فحركة التاريخ لا ترجع إلى أسباب ضمن الطبيعة أو عمل البشر، بل.. تتصل بيد الغيب المهيمنة.

م- الطاقة الجنسية: وعزا (سيجموند فرويد) [١٨٥٦- ١٩٣٩م] إلى الطاقة الجنسية عند الإنسان كلّ نشاطاته، ومنها بناء الحضارة وتحريك التاريخ، والمعرفة والاقتصاد والسياسة والدين.

ورأى أنَّ الغرض الأساس لكلّ فكرة وعمل يقوم به الإنسان - خيراً كان أم شراً -، وكلّ ما يتحرّك ضمن دائرة (الشعور) إنّما هو إشباع للحاجات الحسية والشهوة المختزنة في داخله في (اللاشعور)، غاية الأمر أنّه تعبير محرّف عن تلك الحاجات.

فالشاب الذي عشق فتاة بهية فاتنة، وتحطمت طموحاته دون بلوغ المرام، وسعى إلى تناسي الخيبة، والتخلص من سعيير العذاب المشتعل في جواه - يقوم ذهنه بتحويل لهيب وهجه الجنسي من الشعور إلى اللاشعور، وفيما يبدو أنّ الدافع خمد وانطفأ يظلّ يعمل بضراوة ونشاط في مكانه الجديد، وسيسرّ تصرّفات ذلك الشاب الذي قد يتوجّه إلى رعاية الأيتام أو المحتاجين أو العجزة كصورة محرّفة عن غرامه العائثر!!

## ٧- مناهج النقد الأدبي:

أ- التاريخي: فقد انتحى البعض - ومنهم سانت بيف [١٨٠٤- ١٨٦٩م] - منحى اختراق المادة التاريخية، والتعرّف على حياة كاتب النصّ وظروفه وسيرته الذاتية وعصره؛ لإدراك المؤثرات التاريخية في النصّ الذي راحوا يعتبرونه (وثيقة تاريخية)، فالملتقي (الناقد أو القارئ) يسبر التاريخ للتعرّف على مكانم النصّ، ويفسّره تفسيراً تاريخياً.

ب- الاجتماعي: وانتهج آخرون التفسير الاجتماعي، فراح هيبوليت تين [١٨٢٨- ١٨٩٣م] بثلاثيته الشهيرة يدعو لتسليط الضوء

في قراءة النصّ وتفسيره على: الجنس (العرق)، والبيئة (الوسط)،  
والعصر (الزمن)، فهذه الأمور تؤثر في إنتاج النصّ؛ لأنّ قيم الجمال  
- مثلاً - التي يبنيها المبدع في عمله تختلف من عنصر بشري إلى آخر،  
ومن بيئة إلى أخرى، ومن زمن إلى آخر..

ثمّ جاء الماركسيون؛ ليضيفوا بعداً رابعاً هو: عنصر الإنتاج  
والاستهلاك، فالنصّ لأبدّ أن يحقق المنفعة الاجتماعية شأنه شأن أيّ  
سلعة أخرى.

وحمل معتقو هذا المنهج شعار (الفنّ.. للحياة) تعبيراً مكثفاً  
بيّن وجهة نظرهم في إنتاجية الفنّ وقروئيته، مفهومه ووظيفته،  
صدوره وتفسيره ونقده.

ج- النفسي: ومضى قسم ثالث يفسّر النصّ باعتباره كاشفاً  
عن نفسية صاحبه التي تستتر خلفه، وراح أصحاب هذا المنهج يستقون  
من مدرسة (التحليل النفسي)، وما قدّمه فرويد من أفكار حول  
الوعي واللاوعي الفردي والعصاب والнерجسية والتعويض والإسقاط  
وغيرها...؛ ليوحدوا بين الفنان والمريض والحالم.

كما استفادوا من إضافات إدلر في (مركب النقص)، وأنّ شعور  
الفنان والأديب بالنقص ينعكس على ما ينتجه.

وكذلك من آراء كارل يونج [١٨٧٥- ١٩٦١م] في اللاشعور  
الجمعي والصور العليا أو النماذج البدائية (الأساطير) التي ترسبت  
منذ القدم في الدماغ الإنساني، ويحكيها الفنّ.

وهكذا أصبح الفنّ تعبيراً عن اللاشعور الفردي والجمعي، وما  
تكتنزه نفسية المبدع من أمراض وإحباطات وعقد ونقائص.

د- الفني: وإزاء تلك المناهج السابقة انتفض آخرون - وفي  
واجهتهم الشكلانيون ودعاة (الفنّ.. للفنّ) - ليصفوها بأنّها مناهج  
خارج نصية (خانصية)، تسلط الضوء على خارج النصّ، وتضيق  
الإمساك بحقيقة العمل التي تتجلى في نظرهم في الجانب الفني  
الجمالي في النصّ (داخل النصّ)، وما يحمله من وجوه لغوية وبلاغية

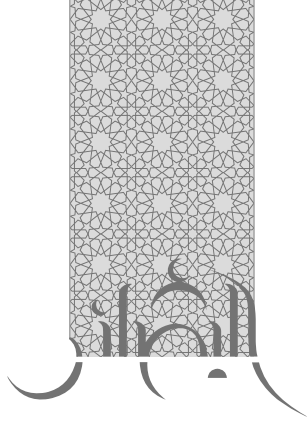


وأسلوبية وغيرها..

### النقد الأساس:

وأهم نقد تقدّمه لاتجاه البعد الواحد - وفي أيّ حقل ظهر - هو ما ظللنا نردّده طوال البحث: من اعتماده على بعد واحد يُدعى أنّه - وحده - المتربّع على العرش، والمتصرّف في الأمور، والمحرّك لدفة الأشياء.

وبعبارة أخرى، فالاعتراض على عزل عامل واحد من العوامل، وعدّه (المصدر الأوحد) للظاهرة، وتفسيرها به، وإن كنّا لا نعترض على كونه (أحد المصادر) لها.



الفصل الثامن:

## ثقافة الحياة.. الثقافة الغائبة

- \* أهمية الثقافة.
- \* المجتمعات واختلاف الحاجة الثقافية.
- \* ماذا نعني بـ(ثقافة الحياة)؟
- \* كيف نحصل على ثقافة الحياة؟
- \* مظاهر ثقافة الحياة.



## ثقافة الحياة.. الثقافة الغائبة

### أهمية الثقافة:

تمثل الثقافة بصعيديها، الفردي والاجتماعي العمود الفقري الذي يستلهم منه السلوك صبغته العملية وحركته، فالسلوك ما هو إلا انعكاس عملي للثقافة، فبمقدار ما يملك الفرد أو المجتمع من رصيد ثقافي تصبح أعماله رشيدة.

ومن هنا تسعى جميع دول العالم للحفاظ على تراثها الفكري ومعالم حضارتها الفنية والعمرائية وغيرها، وكذلك على ملامح الحضارات المتعاقبة التي مرّت عليها، حتى تثبت للأمم الأخرى أسبقيتها في اللحاق بركب التطور، وحصولها على تراكم معرفي يسبق ويفوق الآخرين، كما توضح مدى التلاقح والتبادل الثقافي الذي تمّ بين تلك الحضارات في سبيل التثاقف بينها.

### المجتمعات واختلاف الحاجة الثقافية:

حينما يخطب البعض أو يكتب، يتصوّر وكأنّه يجرّ قلمه ليحلّ مشاكل المجتمعات جميعاً بخطاب واحد ونفس واحد وأفكار واحدة، ناسياً أنّ الفكرة التي تنهض مجتمعاً قد لا تنهض آخر، وأنّ الحاجة الماسة لمجتمع ربّما يصبح مجرد نقاشها في مجتمع آخر نوعاً من الترف الفكري، وأنّ الفكرة الرائدة في زمن قد تكون فكرة سحيقة في

القديم علتها أتربة القرون الماضية في زمن آخر.

لقد نجحت تجربة الاقتصادي الكبير البروفسور (شيخت) في إنفاذ الاقتصاد الألماني الذي لازمه الدمار الشامل بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م - ١٩٤٥م)؛ فأصبحت ألمانيا من البلدان الرائدة في التطور الاقتصادي، ونفس هذه الأفكار ونفس البروفسور نقل نظريته وأفكاره إلى إندونيسيا لخلق التنمية الاقتصادية فيها، ولكننا نرى الفشل الذريع الذي مرّت به تلك التجربة<sup>(١)</sup>؛ لأنها لم تأخذ بعين الاعتبار خصوصية المجتمع الإندونيسي والثقافة العملية التي تتفاعل وتتحرّك في وعيه.

وفي الهند تجد الأطروحة التي تناقش شؤون الهندوس أو الشيخ صدّي فعلاً واسعاً لكونها حاجة حياتية ملحة، فهل تجد الصدى نفسه في بلدان الوطن العربي الخالية من الهندوس والشيخ؟!

كما أنّ فكرة صنع ورق الكتابة من أوراق نبات البردي التي كانت متداولة في الزمن القديم في الصين ومصر، هل تحاكي عقلية اليوم القائمة على صنع الورق الفاخر المتطور؟!

فالحاجة الثقافية لمجتمع هي تعبير صادق عن الثغرة والنقص اللذين يعيشهما، وقد لا يتفق فيهما مع المجتمعات الأخرى؛ لذلك تتفاعل ثقافة كلّ مجتمع مع نفسيته وعقيده وظروفه، فيأبى قبول الثقافات الوافدة التي لا تأخذ بخصوصيته الثقافية، ولا يلبث أن يلفظها ويطردها؛ لأنّه لا يطمئن إليها ولا يركن لها.

### ماذا نعني بـ(ثقافة الحياة)؟

عندما نريد وضع نظرية ما.. في أي حقل من حقول الحياة، فنحن بين طريقين وصورتين، فإما أن نتخذ النظرية صورة التنظير المكتبي، وإما أن تتحلّى بالتنظير الميداني.

التنظير المكتبي سهل وبسيط، يضع الحلّ من وراء الطاولة

(١) أسامة الخفاجي، (مشكلة التخلف والتنمية في العالم الإسلامي)، مجلة (البصائر)، السنة الخامسة، العدد ٩، خريف ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، ص ١٢٩.

والمكتب بعيداً عن تعقيدات الواقع وصعوبة التطبيق، لكنّه ينتج نظريات مثالية هائلة تشهق وتموت عند وصولها مرحلة التطبيق.

جمهورية أفلاطون، والمدينة الفاضلة للفارابي، أمثلة يعيشها كلّ محب للأخلاق والإنسانية الصافية، وعندما يقرؤها يتلهف للوصول إلى مكان وجودها، وتصدر أنفاسه زفرات الحنين والحسرة تطلماً لها وترقباً، لكنّه لا يكاد ينتهي من قراءتها حتى يدرك أنّها ضرب من المثالية، لا يمكن تحقيقه وتحقيقه في الخارج؛ إذ (ما أسهل الكلام، وما أصعب العمل!).

أما التنظير الميداني المعتمد على الأرض وما تنبته من أساليب عملية من استقراء ومسح وإحصاء وتجربة وغيرها...، فإنّه يتعرّف على المشكلة ونتائجها ووسائل حلّها من الواقع والتطبيق، فيلمس الواقع كما هو دون تجميل وتحوير وتجاهل وتوظيف و...، ومن ثمّ يحرز نسبة أكثر ضماناً لنجاح التطبيق، وتشكيل الثقافة الحية المتحرّكة والمتفاعلة مع الواقع ومتطلباته.

ثقافة الحياة هي: الثقافة العملية الميدانية التي تنبسط على شتى مجالات الحياة، وتسائر حاملها في كل شؤونها، في نومها ويقظتها، في حركاته وسكناته، في أكله وشربه ولباسه، وكيفية ترتيبه للإغراض في خزانته (دولابه)، وكيفية تعامله مع الكتاب والجريدة اللذين يقرؤهما، والإناء الذي يأكل فيه، والكأس التي يشرب فيها... مع نظافة بيته ورتابته وستارة غرفته، مع الناس والزمن والأشياء.

إنّها ثقافة قد لا تُوجد في كتاب، لكنّها تُدرّك من مدرسة الحياة، ثقافة تعني من الأهمية ما قد لا تعنيه ولا تحقّقه أيّ ثقافة أخرى؛ لأنّها في أحيان كثيرة تسخر من جاهلها وتصفعه بما يوصله إلى الموت، كما إذا لم يعرف التعامل مع الكهرباء أو السموم أو الحيوانات المفترسة، وإذا لم توصله إلى الموت فسوف تلحق به الخسران الكبير.

ومن المؤسف حقاً أن تمثّل ثقافة الحياة الثقافة الغائبة عنّا كأمة مسلمة، وكخبة تقف في أعلى سدة الهرم الاجتماعي، وكمجتمعات وأفراد.

«وليس من الصحيح طرح النظريات العامة التي تسبح في فراغ

كأنّها كليات (أبو البقاء)؛ إذ أن طرح النظريات هكذا ومن دون تحويلها إلى برامج عملية لا بدّ أن يتم لواحد من عاملين:

أ - فإما لأنّ النظرية ذاتها غير واقعية، وتشبه نظريات المدينة الفاضلة للفارابي في أنّها تصلح أن تكون أمنيات حلوة، ولكن لا تصلح أن تصبح خطأ وأنظمة للتطبيق.

ب- وإما لأنّ صاحب تلك النظريات لا يعرف كيف يجب أن تُنفذ على متغيّرات الحياة.

ويبدو أنّ أكثر الكتابات الدينية العامة هي من النوع الثاني.

وإذا كان صاحب النظرية - والمفروض فيه أن يكون اختصاصياً في أمرها - لا يعرف طريقة تنفيذها، إذأ.. فكيف ينتظر من الناس العاديين أن يعرفوها؟!<sup>(٢)</sup>.

هذا في كفة الأمة المسلمة البالغة (١,٤٩١,٣٧١,٣٢٥) أو للملياردين نسمة<sup>(٣)</sup>، وفي الكفة الأخرى تتحوّل دول ومجاميع عرقية ودينية إلى رقم صعب في هذا العالم، لا يمكن فيه تجاوزها؛ لأنّها أخذت - ولو بشيء - من ثقافة الحياة، وإن كان بعضها في بداية نموّه لم يكن يملك إمكانات المسلمين، وأكثرها إلى الآن لا يملك الكمّ العددي الذي يملكه المسلمون.

لقد تحوّل اليهود البالغ عددهم (٩,٠٠٠,٠٠٠) نسمة<sup>(٤)</sup>، أو ١٥,٠٠٠,٠٠٠<sup>(٥)</sup> من يهود شتات منبوزين لعنصريتهم وعزلتهم إلى كيان مؤسسي هائل يسيطر على الكثير من شرايين العالم الحيوية ومراكز القوة والنفوذ واستطاع أن يؤثر على مصدر القرار حتى في دول كبرى كالولايات المتحدة الأمريكية، بحيث أضحت الفتاة المدللة التي يخطب الجميع ودها ورضاهها، ويخشى غضبها وسخطها.

(٢) المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه، مصدر سابق/ ص ١٠ - ١١.

(٣) ناصر حسين الأسدي، شورى الفقهاء المراجع/ ١٢١، ١٢٢.

(٤) المصدر/ ٢٢٨.

(٥) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة/ ٥٧٤.

## كيف نحصل على ثقافة الحياة؟

من الأشياء التي تحقق ذلك:

### ١- روح حب الجمال:

الجمال في كل شيء يتحقق بأخذه موقعه الطبيعي سواء أكان ذلك في أمور التكوين أم أمور التشريع، وذلك في سبيل تحقيق الغرض والهدف المنشود منه، وحينما لا يتسم بالوسطية والاعتدال وأخذ المكانة الطبيعية فيميل لأحد طرفي الإفراط أو التفریط؛ يخرج عن الجمال ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ، وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾<sup>(٦)</sup>.

إنَّ الأسدُ وُهب من الإمكانيات ما يُصيّره ملكاً للغابة تخاف الحيوانات منه، فلو أصبح الغزال - بإمكاناته الحاضرة - يجري خلف الأسد، والأسد يهرب منه لاختل ميزان الجمال.

وكذلك الحال مع العجوز والطفل، فقد هَيَّئ الأول للرزانة والوقار والسكينة، بينما الطفل السويّ السليم هو من يقفز هنا وهناك ويمرح ويرتع ويلعب، ولو أخذ العجوز حُلُق الطفل أو العكس لكان ذلك خروجاً عن جمال كل منهما.

فالجمال في كلِّ بحسبه وموقعه، ولا بدّ لاكتساب ثقافة الحياة من مراعاة ذلك، فهي الانعكاس العملي لروح حبِّ الجمال.

الحياة تعلمنا أنّ مكان حفظ الأشياء يتباين ويتغيّر، فالمكان الذي تُوضع فيه الوردة الباسمة الفوّاحة يختلف عن مكان وضع البهائم، كما أنّ المكان الذي تُوضع فيه الوثائق الرسمية (كجواز السفر) والأموال غير مكان وضع لعب الأطفال ومكان الكتب، وأماكن هذه الأشياء تختلف عن مكان حفظ البنزين و(الجاز) و(الكوركس)، وهكذا..

وصحيح أنّ الجمال أمر نسبي يدرك عبر المقارنة بين الأشياء

(٦) سورة الإسراء / ٢٩.



المشتركة فيه، لكنَّ إمكانية العقل في التعرف على الجمال ومواقفه، يرفع عنصر الصعوبة والشدة.

والقرآن الكريم الذي يحثُّ على ضرورة الأخذ بالجمال ﴿يَا بَنِي آدَمَ، خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ \* قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ: هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٧)</sup>، ﴿وَالْمَالِ وَالنَّيُّونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾<sup>(٨)</sup>، يخبرنا أنه إذا لم يُؤخذ بوجهة الجمال سيتحوّل إلى قبح ﴿وَيَلْ لَكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ \* الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ \* يُحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ \* كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾<sup>(٩)</sup>، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ \* يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ، هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾<sup>(١٠)</sup>، و﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١١)</sup>.

وإذا أهمل المسلمون الأخذ بمبدأ الجمال فليس لأنّ دينهم لم يراعه ولم يؤكد عليه بإلحاح، وإنما لوجود الفارق بين ثقافة الإسلام من جهة، وثقافة المسلمين من جهة أخرى.

تقول السنة المباركة:

«إنَّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، ويحبُّ أن يَرى أثرَ نعمته على عبده، ويبغضُ البؤسَ والتبؤسَ»<sup>(١٢)</sup>.

(٧) سورة الأعراف/ ٣١ - ٣٢.

(٨) سورة الكهف/ ٤٦.

(٩) سورة الهمزة/ ١ - ٤.

(١٠) سورة التوبة/ ٣٤ - ٣٥.

(١١) سورة التغابن/ ١٥.

(١٢) ميزان الحكمة، مصدر سابق ٧٦/٢ - ٧٧.

و«إنَّ الله يحبُّ الجمال والتَّجمل، ويكره البؤس والتَّبؤس، فإنَّ الله - عزَّ وجلَّ - إذا أنعم على عبد نعمة أحبَّ أن يرى عليه أثرها، قيل: وكيف ذلك؟ قال ﷺ: ينظف ثوبه، ويطيب ريحه، ويحسن داره، ويكنس أفنيتَه، حتى أنَّ السراج قبل مغيب الشمس ينفي الفقر، ويزيد في الرزق»<sup>(١٣)</sup>.

«غسل الإِناء وكنس الفناء مجلبة للرزق»<sup>(١٤)</sup>.

«لا تبيِّتوا القمامة في بيوتكم، وأخرجوها نهاراً فإنَّها مقعد الشيطان»<sup>(١٥)</sup>.

«نظِّفوا بيوتكم من حوك العنكبوت، فإنَّ تركه في البيت يورث الفقر»<sup>(١٦)</sup>.

أبصر رسول الله ﷺ رجلاً شعناً شعر رأسه، وسخَّة ثيابه، سيئة حاله، فقال ﷺ: «من الدين المتعة وإظهار النعمة»<sup>(١٧)</sup>.

وينظر البعض إلى الجمال نظرة تفكيكية، فيشتري ثوباً جميلاً، ومعطفاً جميلاً، وجوراباً جميلاً، وحذاءً جميلاً، ناظراً إلى كلِّ على حدة، دون أن يعرف الشكل العام عند جمعها جميعاً عليه ليرى مدى تناسب الألوان وعدم تنافرها، أو كونها من ملبوسات الصيف أو الشتاء أو أنها خليط بين ذلك!!

نقلوا أنَّ أحد المطاعم التي تعجَّ بمرتابيها رأى مرة أنَّهم قَلَّوا وصاروا في تناقص مستمر، ولم يُعرف سبب ذلك، فجاء أصحاب المطعم بلجنة تحقيق، وقد بدأت بفحص الأمور بدقة، وأدهشها حين فتشت كلَّ شيء فلم تدرك السبب، وأخيراً وصلت إلى أنَّ السبب يكمن في أمر واحد هو لون الصبغ الجديد الذي طُلي به المطعم، وهو اللون

(١٣) المصدر ٢ / ٧٧.

(١٤) المصدر ١٠ / ٩٣.

(١٥) المصدر ١٠ / ٩٣.

(١٦) المصدر ١٠ / ٩٢.

(١٧) المصدر ١٠ / ٩٣.

الأخضر، والأنوار الخضراء التي تصحبه، اللذان كانا يعكسان اللون الأخضر على المأكولات من لحم وغيره، وأن ذلك اللون يرتسم في أذهان مرتادي المطعم بلون العفونة، ثم لما بدلوا لون الصبغ والألوان بدأ المطعم ينتعش مرة أخرى حتى عاد إلى مكانته وشعبيته.

إنّ مراعاة البعض لمبدأ الجمال، وعدم مراعاة آخرين له، من شأنه سيرورة المجتمع بين بناء وهدم، وبالتالي إضاعة جهود ومقدّرات، فماذا لو زرع البعض شوارع مدينة في حين لم يتمتع آخرون عن إرسال البهائم لأكلها، أو تسيخها ورمي القاذورات فيها؟!

إنّ المدينة - أية مدينة كانت - إنما هي مؤلفة من مجموعة بيوت، و( لو نظف كلّ شخص أمام منزله لنظفت المدينة) - كما في المثل -.

## ٢ - الموازنة بين عالمي الغيب والشهادة:

يؤمن الإسلام بأنّ الأمور الجارية في هذا الكون تأخذ أحد طابعين، فإما غيب، وإما شهادة: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾<sup>(١٨)</sup>، لكنّ الخطأ يكمن في عدم الموازنة بين الجانبين والإغراق في أحدهما.

الإسلام يؤكد وبشدة على ضرورة الأخذ بالأسباب ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ، وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾<sup>(١٩)</sup>، ﴿كُلًّا تُمِدُّ هُوَ لَهُ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾<sup>(٢٠)</sup>، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾<sup>(٢١)</sup>، « لكل شيء سبب»<sup>(٢٢)</sup>، «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب، فجعل لكل شيء سبباً»<sup>(٢٣)</sup>.

(١٨) سورة الحشر/ ٢٢.

(١٩) سورة الكهف/ ٨٤ - ٨٥.

(٢٠) سورة الإسراء/ ٢٠.

(٢١) سورة الرعد/ ١١.

(٢٢) ميزان الحكمة، مصدر سابق ٤/ ٣٥٥.

(٢٣) المصدر ٤/ ٣٥٤.

من أعقد المشاكل التي تواجهنا هي مسألة الفرق بين الثابت والمتحول، فالبعض يعتقد أن الأساليب والآليات لبلوغ الأهداف هي من الثابت الذي لا يتبدل، فيعكف على مجموعة من الأساليب القديمة رافضاً كلَّ جديد.

كما أنَّ الوسيلة لا بدَّ أن تتلاءم (كماً وكيفاً) مع الأهداف التي تتوخى بلوغها، فالمرء لا يصبح عالماً أو مهندساً أو... إلا إذا أخذ بألية بلوغ ذلك.

وحتى نحصل على ثقافة الحياة، لا بدَّ من الأخذ بالأسباب الغيبية في الجانب الغيبي والشهودية في الجانب المادي، دون خلط بين الأوراق.

التوكُّل على الله - سبحانه وتعالى - أمر إيجابي يعني الأخذ بالوسيلة وانتظار التوفيق الإلهي لبلوغ الغاية، أما الانتظار دون عمل وسعي فهو أمر سلبي (تواكل) ليس من شأنه تحقيق المرتجى.

قال رجل للرسول ﷺ بشأن دابة عنده: يا رسول الله أعقلها (أربطها) وأتوكَّل، أو أطلقها وأتوكَّل؟ فقال له ﷺ: «أعقلها وتوكَّل...» (٢٤).

حينما لا نوازن بين الأمور الغيبية والمادية، فننتصِّر أنَّ كلَّ الأسباب تقع في دائرة الغيب المطلق، فسوف لن نحرك ساكناً لنطوِّر من حالنا نحو الأفضل والأصلح، وسنترك المجال لعلَّ سحري ينتشلنا من واقعنا البئيس إلى غد مشرق زاهر.

فالدعاء - مثلاً - هو خطوة من خطوات الطريق، تحتاج إلى أن تتفاعل مع العمل، لا أن تكون بديلاً عنه، فما فائدة أن ترتفع الأصوات وتتعالى دون أن تتناغم مع طموح عملي وسعي جدي على أرض الواقع؟!:

فأنت - إلهي - مع السائرين إلى الشمس حيث يطوف الضياء

ولست مع الخانعين الكسالى وإن بُحَّ منهم إليك النداء  
ولست لمن يغزلون الهوى لذاتك فيما يجنُّ الخفاء  
تهمهم أصواتهم بالخشوع ويشهق بالحسرات الدعاء  
ولكنهم يقتلون الحياة بأفكارهم وتسيل الدماء  
كأنك أوحيت للأنبياء بأن يترك الساحة الأتقياء  
ويبقى لنا الدرب مهما استطلال ليكتب تاريخه الأشقياء<sup>(٢٥)</sup>

إنَّ في الحياة سنناً وأسباباً، فالأهم السابقة - والتي عرض القرآن الكريم سيرة بعضها - لقيامها وقوتها أسباب، ولهزيمتها وفنائها عوامل، ومن هنا تتبع ضرورة التعرّف عليها ﴿فَدَ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ، فَمَ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾<sup>(٢٦)</sup>، و(التاريخ يعيد نفسه) باختلاف الأماكن والشخصيات.

### ٣ - مراعاة سلّم الأولويات:

فإدراك ثقافة الحياة والحصول عليها يحتاج إلى تصنيف الأولويات ضمن سلّم مرتّب، ثم البدء بالأهم فالمهم، لأنَّ «من اشتغل بغير المهم ضيّع الأهم»<sup>(٢٧)</sup>، والدخول في الهامشيات يفوّت الأمور الضرورية والهامّة.

وفي الجانب الفقهي عند تعارض الأهم والمهم (التزاحم)، يقدم الأهم - كما في مثال ضيق الوقت ودوران الأمر بين إنقاذ الغريق أو الصلاة -، كما أنّ الأحكام الأولية الاختيارية، قد تتبدل وتأخذ حكماً ثانوياً اضطرارياً عندما تواجهها مصلحة أهم من شأنها التقديم، فالحلال يصبح حراماً إذا أدى إلى تقويت واجب، والمستحب كالنافلة يحرم إذا كان إتيانه مفوّتاً للصلاة الواجبة «إذا أضرت النافلة بالفرائض فافرضوها»<sup>(٢٨)</sup>، «لا قرية بالنوافل إذا أضرت

(٢٥) السيد محمد حسين فضل الله، قصائد للإسلام والحياة/٢٢.

(٢٦) سورة آل عمران/١٣٧.

(٢٧) ميزان الحكمة، مصدر سابق ٢٤/٦.

(٢٨) المصدر ١٩٥/١٠.

(٢٩) المصدر ١٩٥/١٠.

بالبضائض»<sup>(٢٩)</sup>، كما أنّ الحرام يصبح واجباً لو توقفت الضرورة عليه ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾<sup>(٣٠)</sup>، فلو توقفت حياة شخص مسلم على شرب الخمر أو أكل الميتة أو غير ذلك من الأمور المحرّمة فإنّها لا تصبح جائزة الارتكاب فحسب، وإنّما تتعدى ذلك إلى الوجوب الشرعي الذي يُحاسَب على تركه، لأنّ دفع المفسدة (كموته لو لم يفعل الحرام) أولى من جلب المصلحة (كالفائدة المترتبة عن ترك الحرام).

وهذا الكلام كما يأتي في الجانب الفقهي التشريعي، يأتي في الجانب الشخصي والاجتماعي، فمن لم يُقِم أسس بنيان بيته، لا ينشغل بالفرعيات من صبغ وتجميل وغيره، والمجتمع الذي لم يوفّر الأسس الأولية والأساسية لاقتصاده، لا ينشغل بالأمور التكميلية.

فمن يعيش في بلد يصيبه الفيضان، أو يقرب من البحر فيتعرض أهله إلى الغرق، هل يتعلّم السباحة أولاً، أم الرماية وسباق (الهجن) و(الرايسز)؟

هل يتعلّم طالب العلوم الدينية أو مَنْ هو في حاجة إلى العقائد والفقهِ ما يحتاجه؟ أم يبدأ بعلم الحروف وكَم تساوي؟ أم بجزئيات الصرف والنحو؟ أم بالطلسمات ورسمها؟!

وعندما نجلس مع من يحتاج إلى تركيز الكلام عليه (كمن تُراد هدايته إلى الحق) هل نتمحور حول أنفسنا، ونستدير على بعضنا منشغلين بالكلام عنه، أم نبدأ بالكلام معه؟ وهل نتكلم معه عن الجنّ أو مثلث برمودا أو جبال الهمالايا وقمة إيفرست أو جبال الألب؟ أم نتكلم فيما يخصّه ويحتاجه؟

هل نبدأ بما يثيره ويهيج أعصابه فيقفل الباب أمامنا؟ أم نتمثل قول الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾<sup>(٣١)</sup>؟

(٢٩) سورة البقرة/ ١٧٣.

(٣١) سورة النحل/ ١٢٥.

هل نصبّ جام عتابنا عليه بتكثيف الكلام عن الأمور (الشكلية) من طريقة حلاقة ولباس وحلق لحية و...، أم نبدأ بكسب قلبه وثقته، وترسيخ الوازع النفسي، و(مضامين) الدين الحنيف، معتمدين على أنّ أمور الشكل ستأتي تبعاً لأمر المضمون؟

هل ننشغل بالكلام مع من نراه دائماً ويرافقنا طوال الوقت؟ أم مع ذلك الذي لا نراه إلا قليلاً، أو لن نراه بعد اليوم؟

هل ننشغل بالأمور العلمية التفصيلية الزائدة عن الحاجة كالمسائل الافتراضية في الفقه والتي لا واقع لها خارج الذهن والفرس، أو الألفاظ الفقهية التي يدأب على تكرارها كبار السنّ في بلادنا؟!، أم نفكر بهمّ بناء المجتمع، وتحريك عجلته نحو المجتمع المؤسسي؟

هل يربّي الأستاذ تلميذه على العودة إليه في كلّ شيء؟ أم من الأفضل أن يربّي مجموعة على قواعد عامة تنطلق بهم في العالم الرحب، ويتقاسمون الجهد والوقت؟

وإذا كان الكلام الجدي والمباشر يجرح البعض وينفّرهم، فلماذا لا نأخذ بالمفاكهة والمزح، مع تضمينها الجد وما نصبو إليه على طريقة (جد في مزح)؟

#### ٤ - التجربة ووعي الزمن:

يخرج الطفل من بطن أمه وهو لا يعلم شيئاً، لكنّ حواسه وإدراكاته تبدأ ومنذ اليوم الأول بالتقاط المعلومات والمدركات، فيعرف - شيئاً فشيئاً - أمه وأباه، وكيف يتعامل مع الجوع والعطش والخوف و...، وهكذا يكبر وتكبر معه معلوماته وتصرفاته التي اكتسبها من تجاربه الحياتية.

وكلّما دخل الإنسان ميدان التجارب أكثر، نما أكثر، ورشدت تصرفاته، لأنّ «الأمور بالتجربة والأعمال بالخبرة»<sup>(٣٣)</sup>، و«الأيام تصيد التجارب»<sup>(٣٣)</sup>، و«في كلّ تجربة موعظة»<sup>(٣٤)</sup>، وكلّما عرف

(٣٢) ميزان الحكمة، مصدر سابق ٢/٢٤.

(٣٣) المصدر ٢/٢٤.

(٣٤) المصدر ٢/٤٥.

للمسألة والمشكلة وجوهاً أكثر لحلّها، مما يعني تعدّد الطرق أمامه لاختيار الطريق الأنسب «ثمرة التجربة، حسن الاختبار»<sup>(٢٥)</sup>، «من حفظ التجارب أصابت أفعاله»<sup>(٢٦)</sup>.

كما أنّ «رأي الرجل على قدر تجربته»<sup>(٢٧)</sup>، فصاحب المقدار الأكبر من التجارب، رأيّه أقرب إلى الصواب من صاحب المقدار الأقل؛ لأنّه يحكي عن تجربة عملية أثرى للتغلب على المشكل، أما صاحب النظرية - دون تجربة - فإنه يعطي تصوراً ذهنياً لم يلقَ حظاً من الممارسة الميدانية، ولعله لم يأخذ في حساباته المشاكل والمعوقات التي تنشأ أثناء التطبيق.

كان المعتصم العباسي يستطلع أحوال جيشه؛ إذ كانت جيوشه قد توقفت عند منطقة (عمورية) دون أن تستطيع فتحها، فكان يتجوّل بين قواته سراً من أجل أن يكتشف السبب، وإذا به في إحدى الليالي يمرّ على مقرّ أحد الحدادين - حيث كان الحدادون يُؤخذون آنذاك مع الجيوش لإصلاح سيوفهم ورماحهم - فسمع شخصاً كان يضرب بمطرقة الحديدية يقول: يا ليت ضربتي هذه على رأس المعتصم!، فدخل المعتصم عليه - وهو متنكر - فقال له: سمعتُ ما قلته في المعتصم فما سبب ذلك؟ أليس هو خليفة المسلمين وقائد الجيش؟ قال: بلى، ولكننا منذ شهر كامل دون أن يحلّ مشكلتنا، فقواتنا تتدهور، والأمراض أخذت تسري في الجيش، ومعنويات هذا الجيش بدأت بالنزول، بينما العدو متحصّن في قلعته، وأمره يسير على ما يرام، فلماذا لا يستشير المعتصم قاداته ورؤساء جيشه في طريقة للخلاص، ولعلّ هناك من عنده حلّ لهذه المشكلة.

ثم سأله المعتصم: وهل عندك أنت حلّ؟ فقال الحداد: نعم عندي، ولكن.. من يسمع كلامي؟ فسكت المعتصم، وخرج مباشرة إلى غرفة القيادة، ارتدى الملابس الرسمية ثم أمر بإحضار الحداد، فلما دخل عليه قال: أأنت قلت في المعتصم كذا وكذا؟ فأنكر الحداد خوفاً

(٢٥) المصدر ٢/٢٥.

(٢٦) المصدر ٢/٢٥.

(٢٧) المصدر ٢/٢٥.



من بطشه، ولكنه لم يجد بدأ من الاعتراف، ثم سأله المعتصم عن رأيه في الخلاص من هذه المحنة، فقال: إِنَّ قِلاع العدو بُنيت على أسس خشبية من نوع سريع الاشتعال، فإذا أمرنا النبالين أن يضعوا رؤوساً حديدية على نبالهم، وأن يعرضوها للنار قبل أن يطلقوها على تلك الأعمدة الخشبية، انتهبت ناراً، فتسقط القلاع، وحينئذ نبدأ هجومنا عليهم. وفعلاً فقد نُمِّدَتْ هذه الخطة، ونجح الجيش في فتح تلك البلاد بفضل تفكير ذلك الحداد..<sup>(٣٨)</sup>.

لقد استفاد المعتصم من فكرة الحداد التي أدركها من تجربته في عمله بين الحديد والنار.

وثقافة الحياة تولدها التجارب، وتزيدها رشداً وعمقاً؛ لأنَّ من يقع في مشكلة تستقطب كامل وعيه، فيفكر فيها بكله، ويسعى للخروج منها، ومن ثم يجب أن يسعى لعدم الوقوع فيها مرة أخرى، «فالعاقل من وعظته التجارب»<sup>(٣٩)</sup>.

ولكنَّ نقل وتطبيق تجربة الآخرين دون وعيها ودراستها وملاحظة خصوصية الزمان والمكان والمجتمع، من شأنه فشل التطبيق.

ففي بريطانيا (بلاد الضباب)، حيث الشمس محبوبة الجماهير الأولى، هناك لا بدَّ أن تُبنى البنايات بشكل تستوعب نوافذها أكبر كمية ممكنة من أشعة الشمس، وحينما طُلبَ من مهندسي إحدى الدول الحارة أن يتولوا مهمة بناء المدارس فيها، وبحكم تخرُّجهم من جامعات بريطانيا، ومشاهدتهم لروعة وبهجة إطلالة الشمس من النوافذ الكبيرة، وبشر الناس وسرورهم لذلك لطول احتياجها عنهم، طبَّقوا ذات التصميم، بكلِّ حذافيره، فإذا بالشمس تقرض الطلاب بأشعتها المتأججة، وتلفحهم بحرارتها، وتمنعهم من الدراسة، وإذا بالمدرسة تضحي فرن نار ملتهباً..<sup>(٤٠)</sup>.

(٣٨) السيد محمد تقي المدرسي، التمدن الإسلامي أصوله ومبادئه / ٤٧٢ - ٤٧٣.

(٣٩) ميزان الحكمة، مصدر سابق ٢/٢٦.

(٤٠) المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه، مصدر سابق / ١٥ (بتصرف).

## مظاهر ثقافة الحياة:

ولا نريد - هنا - استقصاء جميع مفردات تلك المظاهر؛ لأنّ كثيراً منها مرّ - بطريقة أو بأخرى - ضمن مطاوي الحديث، بل.. سنقتصر مفردتين اثنتين من المفردات المهمة جداً، واللّتين تتعكس ثقافة الحياة انعكاساً واضحاً ومباشراً عليهما.

### ١- التعامل مع أدوات الحضارة:

لكلّ حضارة أو مدنية مجموعة من الأدوات التي تعبّر عن مدى التقدم المدني والتكنولوجي الذي بلغته، وكلّما كانت الحضارة متقدمة أكثر انعكس ذلك - طردياً - على أدواتها.

ففي الماضي السحيق، استعمل الإنسان الحجارة سلاحاً للصيد، ونام على الأشجار خوفاً من الحيوانات المفترسة، ولبس أوراق الشجر ليستر عورته..، فهذه بعض مفردات حضارته، ومدنية اليوم شيّدت القصور وناطحات السحاب، واستقلّت طائرة (الكونكورد) التي تسبق سرعتها الصوت، واستعملت الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية و...، وسيشهد الزمن تطوراً وتقدماً باهراً ما دام العقل البشري بفعاليته وحيويته<sup>(٤١)</sup>.

إنّ ثقافة الحياة تعلّم صاحبها كيف يتعامل مع أدوات الحضارة لبلوغ الهدف المنشود منها، فالسيارة إنما صُنعت لتيسير وتسهيل عملية النقل والتنقل، لا للسرعة الجنونية والمطاردة (أو التحفير والتفحيط والمجاعة والتخميس!)، مع ما تتركه هذه الأفعال من خسائر مادية وبشرية، وتقليل العمر الذي ينبغي أن تعيشه تلك الأدوات.

والتلفزيون والراديو والمسجلة، جاءت لتفي بمجموعة من

(٤١) يفرّق البعض بين مصطلحي (الحضارة) و(المدنية). فيطلق الثاني على التقدم التكنولوجي والازدهار العلمي والعمرائي، أما مصطلح (الحضارة) فلا يطلقه إلا على المجتمع القيمي الإنساني الذي تطبّق فيه المبادئ الإنسانية؛ لأنه يرى أنّ مصطلح (الحضارة) مأخوذ من حضور الإنسان عند أخيه الإنسان، وذلك لا ينطبق على المجتمع المزدهر صناعياً المتدهور إنسانياً.

الأغراض كالاطلاع على مستجدات العالم، والاستفادة العلمية والثقافية. لا لقتل الزمن وإضاعة الوقت أمامها، أو لتحويلها إلى أداة إزعاج للآخرين، أو إيصالها إلى أيدي الأطفال لتكون لهم لعبة سهلة المنال، شأنها شأن ألعابهم الأخرى.

والهاتف وضع لتقصير المسافات وطبّيها، وتسهيل عملية التخاطب، لا للهدر والكلام عديم الجدوى، أو للمشاكسة والمغازلة.

والكتاب - الأنيس المخلص الذي لا يُملّ، والصديق الوفي السخي الذي يعطي دون منّ - لم يأت لتُكَدِّس العشرات منه فوق بعضها حتى يعلوه الغبار وتأكله السوس، أو ليكون أداة تفاخر بين هواة جمع الكتب، فمن يجمع أكثر؟ أو لتلوى بعض أوراقه علامة على أنّ القارئ وصل إلى هذا المكان، مما يعجّل له بالتلف.

## ٢- الاستفادة من المحيط:

يمثّل المحيط الخاص القريب من الإنسان كمدينته أو دولته، أو العام كالأرض عموماً مصدرراً حيويّاً بالأشياء، وبما يمكن الاستفادة منه في الجانب العلمي أو العملي، الثقافي أو القانوني، الشخصي أو الأسري أو الاجتماعي، لكنّه بحاجة إلى من يدرسه دراسة تفحصية دقيقة ليستفيد من الإمكانيات المفتوحة المتوفرة فيه.

والشيء الذي لا يمكن تحصيله أو القيام به في بلد، يمكن القيام به في بلد آخر، فلماذا لا يُؤخذ به ما دام منسجماً مع روح الدين وقناعات الفرد؟

اليهودي حينما يدخل لجامعة من الجامعات، فقبل مباشرته أي عمل ونشاط فيها، يطّلع على القانون الذي تسير عليه، والذي يحدّد حقوق الطلاب وواجباتهم، ومن ثم يمارس نشاطه مستغلاً ذلك القانون والفقرات التي تخدمه فيه.

فإذا أُريد نشر الإسلام أو الكتاب الإسلامي في الغرب، فلماذا لا نستفيد من أنّ الدول الغربية تؤمن بضرورة فتح المجال للحريات (ومنها الحرية الثقافية) أن تأخذ مجالها الواسع، وأنّها لا تمنع من

دخول أيّ كتاب إليها؟

ويمكن الاستفادة من اللجان الحقوقية والدولية لمناصرة أية قضية عادلة، لا يتطلّب فيها إلا السعي وتوفير الأدلة الكافية لإثبات المدعى.

كما أنّ المزارع الذي يمكنه الاستفادة من (دينمو الماء)، لماذا يعتمد السقي اليدوي وأتاعبه؟، ولماذا لا يستثمر دعم وزارة الزراعة للحصول على اللقاحات والأدوية الجديدة ضد الأمراض، والاستفادة من الإمكانيات والتسهيلات المتاحة؟

وبالنسبة لمن يعيش في جوّ وعنده كامل الوقت والقدرة على الاستفادة من ذلك الجوّ في الجانب العلمي أو العملي كدخول دورات كمبيوتر أو لغة أو...، أو أن يستفيد من زميل قريب منه في علم العروض أو أي علم آخر أو حرفة عملية أخرى، فلماذا يهمل الفرصة؟!

إنّ مما يدعوننا للاستفادة من الجوّ المحيط، أن تلك الإمكانيات فرص لا تدموم، وتوفرها في يوم لا يعني توفرها مدى الأيام، والدين يعلمنا أنّ «الفرصة تمرّ مرّ السحاب، فانتهزوا فرص الخير»<sup>(٤٢)</sup> وأنّ «من فُتِح له باب من الخير فلينتهزه، فإنّه لا يدري متى يُغلق عنه»<sup>(٤٣)</sup>، و«إضاعة الفرصة غصة»<sup>(٤٤)</sup> و«من أحرّ الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها»<sup>(٤٥)</sup>، و«من وجد مورداً عذباً يرتوي منه فلم يغتنمه، يوشك أن يظماً ويطلبه فلا يجده»<sup>(٤٦)</sup>؛ لأنّ «الأمور مرهونة بأوقاتها»<sup>(٤٧)</sup>.

(٤٢) ميزان الحكمة، مصدر سابق ٧ / ٤٤٢.

(٤٣) المصدر ٧ / ٤٤٤.

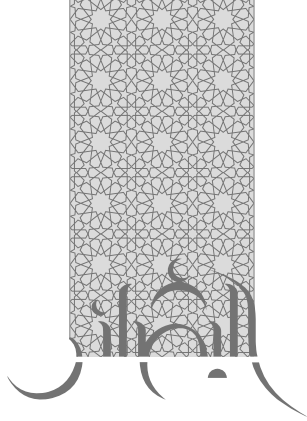
(٤٤) المصدر ٧ / ٤٤٤.

(٤٥) المصدر ٧ / ٤٤٤.

(٤٦) غرر الحكم ودرر الكلم، مصدر سابق / ٤٠٨.

(٤٧) ميزان الحكمة، مصدر سابق ٧ / ٤٤٤.





## التبادل الثقافي والغزو الثقافي

- \* عمليات متضادتان.
- \* بين التبادل والغزو.
- \* ضرورة التبادل.
- \* خطورة الغزو.
- \* الخيط الرفيع بين الثقافات.
- \* من سبل الاختراق.
- \* لمواجهة الاختراق الثقافي: المنع أم المناعة؟  
(وسائل الإعلام نموذجاً).
- \* سلاح ذو حدين.
- \* منهجان.
- \* المناعة أجدى.
- \* كيف نحقق المناعة؟
- \* المزيج والنمذجة.



## التبادل الثقافي والغزو الثقافي

### عمليتان متضادتان:

من الظواهر الطبيعية التي تتم بين الثقافات عمليتان متضادتان، هما: التبادل الثقافي، والغزو الثقافي، بحيث لا نستطيع أن نجد ثقافة - مهما ادعت لنفسها الأصالة - لم تتأثر وتقتبس من غيرها، إما في المناهج أو الأفكار أو التصويرات أو الأساليب والآليات.

فالتجاور الجغرافي أو الثقافي بين الأمم، والأسفار، والتزواج، وحواضر العلم، والحروب، والاستعمار، وغيرها.. عوامل سعت لإيجاد تينك العمليتين، ورفدهما دوماً.

لقد قامت الدولة الرومانية على أنقاض اليونانية، لكنّها تأثرت بعلومها وأدبها - لا سيما في الشعر -، كما تأثرت - فيما بعد - بالمسيحية.

والدولة الإسلامية التي أخذت تتوسع وتمتد، ويدخل تحت طيها حضارات وثقافات، هي الأخرى تناوبت وتقاسمت التأثير والتأثير: فقد أثر الشعر العربي وأوزانه في الأدب الفارسي، وانتشرت العربية في ذلك المجتمع، فضلاً عن سيادة الدين الإسلامي: عقيدة، وأخلاقاً، وتشريعاً.

وعلى الطرف المقابل تأثر العرب كثيراً بالنثر الفني الفارسي، وأسلوب الرسائل الذي قدّمه لهم عبد الحميد الكاتب [حوالي ٦٠-١٣٢هـ]، [حوالي ٦٧٩-٧٥٠م]، وبلغ ذروته على يد ابن العميد [٢٩٧-٣٢٧هـ].



٣٦٠هـ]، [٨٩٢-٩٧٠م]، و(الكاتب) من أصل فارسي أو آرامي، و(ابن العميد) من أصل فارسي، وقد بلغت شدة إعجاب العرب بفنهما أن سارت مآثوراتهم تشني على جهودهما، وتلهج قائلة «بُدَّت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد»<sup>(١)</sup>، «فُتحت الرسائل بعبد الحميد، وخُتمت بابن العميد»<sup>(٢)</sup>.

وأسلوب القصّ هو الآخر دخلهم مع عبد الله بن المقفع [١٠٦هـ-١٤٢هـ]، [٧٢٤-٧٥٩م]، وترجمته لـ(كليلة ودمنة) عن الفارسية التي استلهمته بدورها من الأدب الهندي، كما دخلهم مع (أف ليلة وليلة) المستدعى من كتاب (هزار أفسانه) الفارسي، وهذا غير ما تأثرت به نظمهم الإدارية في البريد والبيمارستانات.

وحركة الترجمة في العصر الأموي والعباسي أدخلت معارف الهند واليونان إلى العرب والوطن الإسلامي، وخصوصاً في حقول الطبّ والمنطق والفلسفة والهيئة، وظهر أثر ذلك عند بعض النحويين بشكل بارز في المصطلحات والعلل والتقسيمات وغيرها، كما ظهر في الفقه والأصول.

وفيما بين المسلمين والغرب، مثّلت (الأندلس) أوثق جسر لانتقال المعارف الإسلامية لأوروبا، فقد كان الوجود الإسلامي فيها، والذي ناف على ثمانية قرون [٩٢-٨٩٨هـ]، [٧١١-١٤٩٢م] ينعم في بحبوحة العلم والمعرفة والأدب، وكان الأوروبيون ينتهلون ذلك من حياضها المترعة، عبر الدراسة المباشرة في معاهدها، وعبر الاختلاط والتزاوج والطرق غير المباشرة.

وراح الأوروبيون يأخذون منهم العلم والطبّ وأكثر من ذلك، فقد وجدوا جنّورهم التراثية الكامنة في المعارف اليونانية لدى المسلمين صافية، بل.. وأسديت لها الكثير من الخدمات الجليلة بالشرح والتوسيع، فتسلّموها، ومضوا يشيدون عليها عرش حضارتهم الجديدة.

لقد استمرّت ترجمات الكتب العربية تُدرّس في الجامعات الأوروبية طوال ستة قرون من الزمن!!

(١) الأعلام، مصدر سابق ٦/ ٩٨.

(٢) المصدر ٣/ ٢٩٠، وأحمد حسن الزيات، تاريخ الأدب العربي/ ١٦٩.

كما أمست (صقلية) جسراً آخر انتقلت معارف العرب والمسلمين عبره إلى (إيطاليا)، ومنها إلى أوروبا.

والحروب الصليبية [١٠٩٩- ١٢٥٤م]، وما أتاحتها من احتكاك وتجاور وتعرف على شيء من ملامح القوة لدى الجانبين، وفُرت مناخاً خصباً لتناقل المعارف والتصنيع والتقانات الحربية، وجسراً ثالثاً لانتقال المعارف.

يقول الكاتب الأسباني بلاسكو إيبانز - المغرم بالحضارة العربية -: «ولا جدال أنّ الحضارة الأوروبية تدين بعصر نهضتها للعرب الذين عرفوا كيف يوفرّون الشروط اللازمة لتبرعم عصر النهضة وازدهاره»<sup>(٣)</sup>.

ويقول الأديب الألماني هرذر «أول شرارة بالنسبة للحضارة الأوروبية انبثقت من إسبانيا، وكانت من صنع العرب»<sup>(٤)</sup>، «إنّ أغاني (غايا سيينسيا) في الشعر البروفتسالي قد أخذها هؤلاء من جيرانهم العرب. وبفضلها بدأت أوروبا تتذوق فنّ الشعر الأصيل تدريجاً إنما ببطء شديد وبصورة أولية»<sup>(٥)</sup>.

ويقول المفكر الفرنسي روجيه غارودي: «لقد أخصبت الحضارة العربية الماضي، وهيأت المستقبل خلال ألف عام، وتحملت طوال هذه المدة مسؤولية هذه الثقافة التي نقلتها إلى أوروبا عبر إسبانيا وصقلية.

لقد مارست الثقافة العربية الإسلامية تأثيرها على الغرب بواسطة ترجمة المؤلفات الإسلامية في (طليطلة) إلى اللاتينية على يد الأسقف ريمون [١١٢٦- ١١٥١م].... فطُبعت هذه المؤلفات القادمة من إسبانيا ومن صقلية انعطاف نظرة الغرب إلى العالم بطابعها الخاص.

وُلدَ الغرب الحديث في إسبانيا تحت حكم الفونس السادس، وفي صقلية تحت حكم فريديريك الثاني، وكلاهما معجبان شغوفان بالثقافة

(٣) ف. ر. كوول، التاريخ والحضارة / ٤٠.

(٤) الدكتور أحمد الحموي، (صورة الأدب العربي في ألمانيا)، مجلة (القافلة)، المجلد ٥٣، العدد ٦، شوال - ذو القعدة / ١٤٢٥هـ، نوفمبر - ديسمبر / ٢٠٠٤، ص ٧٢.

(٥) المصدر / ٧٢.

الإسلامية، فكانت الحضارة العربية قابِلَتُهُ أو أمه المُرَضِعُ»<sup>(٦)</sup>.

وفي القرن الخامس عشر الميلادي وما تلاه عندما أفاقَت أوروبا من سباتها الطويل، وراحت تَمَسِّحُ عن وجهها كَثْبَانُ ظلام العصور الوسطى، وسبرت عصر النهضة، وعصر التنوير، وعصر الوضعية، والثورات الثقافية والصناعية، وصولاً إلى عصر العولمة والثورة المعرفية وغيرها، وأسَّرعَت نحو العلوم والاكتشافات، غَدَّتْ الثقافات والأمم الأخرى - ومنها العرب والمسلمون - تَعَبُّ من فلسفتها ومناهجها وتصنيعها، وتجلس على مقاعد الدرس في جامعاتها.

وهكذا.. أَمْسِينَا نَشْهَدُ التَّنَاوُبَ فِي الإِمْسَاكِ بِدَوْرِ البَطْلِ الفَاعِلِ المنتج، والمتلقي الحيوي أو المستهلك، فالثقافة إرث تراكمي اشتركت الإنسانية جمعاء في صنعه، والتلمذة عليه: تصنعه في فترات قوتها، وتستقي منه حين تنزعمه أمة أخرى.

لقد استقى العرب والمسلمون من سقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وزينون القبرصي [ت حوالي ٢٦٤ ق م]، وأبيقور [٣٤١ - ٢٧٠ ق م]، وبطليموس [نحو ٩٠ - ١٦٨ م]، وجالينوس [نحو ١٣١ - ٢٠١ م].

.. والغرب تتلمذ على كتب وشروحات ونظريات جابر بن حيان [ت ٢٠٠هـ / ٨١٥ م]، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، والخوارزمي [ت ٢٣٥هـ / ٨٤٩ م]، والرازي [٢٥١ - ٣١٣هـ]، [٨٦٥ - ٩٢٥ م]، وابن الطفيل [٤٩٤ - ٥٨١هـ]، [١١٠٠ - ١١٨٥ م]، وابن الهيثم [٣٥٤ - نحو ٤٣٠ هـ]، [٩٦٥ - نحو ١٠٢٨ م]، والبيروني [٣٦٢ - ٤٤٠هـ]، [٩٧٣ - ١٠٤٨ م]، وابن البيطار [ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨ م]، وابن النفيس [٦٠٦ - ٦٨٧هـ]، [١٢١٠ - ١٢٨٨ م]، وغيرهم.

ثمَّ عاد العرب والمسلمون ثانية يأخذون من ديكارت، وكانت، وجون لوك، وإسحاق نيوتن [١٦٤٢ - ١٧٢٧ م]، وأوجست كونت [١٧٩٨ - ١٨٥٧ م]، ومندل [١٨٢٢ - ١٨٨٤ م]، وأينشتاين [١٨٧٩ - ١٩٠٠ م]، ودوسوسير [١٨٥٧ - ١٩١٣ م]، وأديسون [١٨٤٧ - ١٩٣١ م]، ورولان بارت [١٩١٥ - ١٩٨٠ م]، وغيرهم.

(٦) روجيه غارودي، الإسلام دين المستقبل / ١٠٦.

وفي حين شغف جوته [١٧٤٩-١٨٣٢م] - شاعرُ ألمانيا - بالشرق، والقرآن، والنبى محمد ﷺ، ورواية المعراج، والشعر العربي والفارسي، وحافظ الشيرازي، وبرز ذلك كله في ديوانه الشهير (الديوان الشرقي للمؤلف الغربي)، و(مسرحية محمد)، و(نشيد محمد) اللتين أثنى فيهما ثناء عظماً على الرسول الأكرم ﷺ، وبلغ هيامه بالإسلام حدًّا قال فيه: «إذا كان الإسلام هو التسليم لله لا للأهواء والأغراض ففي الإسلام نحياء، وعليه نموت»<sup>(٧)</sup>.

كما يقول عن الشرق العربي المسلم: «من أراد أن يفهم الشعر فليذهب إلى أرض الشعر»<sup>(٨)</sup>، «من أراد أن يفهم الشاعر فليذهب إلى أرض الشعراء سيسره في الشرق أن القديم هو الجديد»<sup>(٩)</sup>.

شُغف طه حسين [١٣٠٦-١٣٩٣هـ]، [١٨٨٩-١٩٧٣م] بأستاذه مرجليوث [١٢٧٤-١٣٥٩هـ]، [١٨٥٨-١٩٤٠م]، وراح يعيد إنتاج أفكاره في الانتحال والشعر الجاهلي.

وشُغف الفيلسوف العربي الدكتور زكي نجيب محمود [١٣٢٣-١٤١٣هـ]، [١٩٠٥-١٩٩٣م] بالفكر الأوروبي إلى مستوى قال فيه عن نفسه: «فهو واحد من ألوف المثقفين العرب الذين فُتحت عيونهم على فكر أوروبي - قديم أو جديد - حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه؛ لأنَّ عيونهم لم تُفَتَّح على غيره لتراه»<sup>(١٠)</sup>.

ويعني ما مضى - فيما يعنيه - أن أخذ الأمم عن بعضها لا يقتصر على الوقت الذي تكون فيه إحداها متقدمة فتأخذ الأخرى عنها، كما أخذت أوروبا قديماً عن المسلمين، وكما يأخذ المسلمون

(٧) الشيخ محمد جواد مغنية، نفحات محمدية/ ١٩٠.

(٨) الدكتور أحمد الحموي، (صورة الأدب العربي في ألمانيا)، مجلة (القافلة)،

مصدر سابق، المجلد ٥٣، العدد ٦، شوال - ذو القعدة/ ١٤٢٥هـ، نوفمبر -

ديسمبر/ ٢٠٠٤م، ص ٧٣.

(٩) المصدر/ ٧٣.

(١٠) الدكتور زكي نجيب محمود، تجديد الفكر العربي/ ٥.

اليوم عن الغرب، بل.. يتعدى الأمر ذلك فتأخذ الأمم حتى في زمن ترفها الفكري من غيرها، على نحو ما شهدنا من استقاء العرب والمسلمين من الفكر اليوناني، وهم في أوج حضارتهم أيام العصر العباسي، حين كانت الدنيا تسجد عند أقدامهم.

ولا نريد من بيان تبادل التأثير أن نحكم دوماً بصحة الفكر المستقى، وسلامة تزيقه في جسد الأمة والثقافة، أو أن ننكر أنه قد يصاحب ظواهر كالاستلاب والاختراب والاختراق، بمقدار ما نريد الإشارة إلى أنه مسألة واقعة لا سيما مع تواصل الثقافات والشعوب، وأن طبيعة التواصل هي التي تحدّد نوع العلاقة، وهل هي تبادل ثقافي أم غزو ثقافي؟

## بين التبادل والغزو:

ولجلاء مفهومي الغزو الثقافي والتبادل الثقافي يمكن تسجيل الفروق التالية:

١- التبادل الثقافي ضرورة حضارية في سبيل إيجاد التلاحق بين الثقافات، أما الغزو فهو خطر على الأمة المعرضة إليه.

٢- هدف التبادل هو ترميم ثقافة الأمة وسدّ الفجوة والخلل - على فرض وجودها -، أما هدف الغزو فهو اجتثاث أصول الثقافة المغزّية والقضاء عليها.

٣- في التبادل تكتسب المجتمعات والأمم القيم والأبعاد الإيجابية (كمغامرة الغربيين من أجل الجديد، وحيوية الشرق الآسيوي في العمل والاهتمام بالوقت)، وفي الغزو تُغرّز في الأمة المعرضة للغزو القيم السلبية (كالتحلل الجنسي).

٤- في التبادل تختار الأمة أو المجتمع ما تريده وما تحتاجه من الثقافة، أما في الغزو فيزف القوي المنتفذ (الغازي) ما يريده من ثقافة.

٥- التبادل يتم بين الأمم القوية، وهو علامة قوة الأمة، وكونها قادرة ليس على استهلاك الأفكار فقط، بل.. والمشاركة في إنتاجها والتفاعل مع الثقافات الأخرى لدى الآخر، أما الغزو فدليل على ضعف

الأمة التي تُغزَى وقوة الأمة الغازية<sup>(١١)</sup>.

## ضرورة التبادل:

للتبادل الثقافي ضرورات، منها:

### ١- اكتساب الثقافة:

الثقافة إرث إنساني مشاع تملكه البشرية جمعاء، لا يمكن حده بالحدود الجغرافية أو العرقية أو السياسية، ولم تَبْنِه أمة واحدة فقط، بل.. اشترك فيه الجميع، وهو موزع بين الأمم.

ومن ثمَّ فالتبادل ضرورة لتكتسب كلُّ أمة ما لدى الأخرى من المعرفة.

### ٢- المثاقفة:

ولا تقتصر أهمية الثقافة على اكتساب أمة لها، بل.. تتعدى ذلك، لتسعى كلُّ ثقافة إلى إفادة الأخرى، والقيام بعملية تفاعلية لخدمتها، والخروج من الأنانية الثقافية.

ولا تستطيع أمة - مهما أُوتيت من سبل الرفعة - أن تدعي أنَّها وصلت إلى الكمال، وعدم الحاجة إلى ما لدى غيرها، سواءً من ثقافات ماضية أم قائمة.

### ٣- التضم:

والانغلاق الثقافي يسدل على الثقافة الفردية والجمعية صورة ضبابية أو خاطئة عن الثقافات الأخرى، بما يصل أحياناً إلى مستوى الأسطورة والاحتراب.

---

(١١) خالد توفيق، (الفوارق بين الغزو الثقافي والتبادل الثقافي)، جريدة (كيهان العربي)، العدد ٢٣٩٤، في ٢٦ / ١١ / ١٤١٤هـ، ص٥، وقد استخلص الكاتب هذه الفروق من خطابات للسيد علي الخامنئي، ثم جمعها مع مواضيع أخرى، ونشرها في كتاب بعنوان (الغزو الثقافي).

ولتجنب (صدام الحضارات) الذي يتوقعه (صامويل هانتفتون)، ويتوقع قيامه على الأسس الثقافية المميزة بين الحضارات، فإنَّ تعارف الحضارات وحوارها يوفر فيما بينها عملية التفهم، ومدِّ جسور العلاقات.

#### ٤- البدائل والمتغيّرات:

والتبادل الثقافي يفتح عين الأمة على اختيارات عديدة في مقام العمل يمكن أن تستفيد منها، ويضع أمامها وسائل وأدوات تطبيقية بما يجعل العملية لا تقتصر على الجانب النظري المعرفي.

#### خطورة الغزو:

أما الغزو الثقافي فتكمن إحدى أهم مخاطره في أنه يسعى لخلخلة هوية الأمة وقيمها، وتقويض الأسس والمرتكزات التي يقوم عليها بناؤها.

وهنا ينبغي ألا نضع في حسابنا بأنَّ أية عملية تلاقي بين الأمم والثقافات هي - بالضرورة - عملية غزو ينبغي الوقوف في وجهها؛ فيكون ذلك عاملاً مؤسّساً للانغلاق.

وفي نفس الوقت ينبغي ألا تقبل الثقافة كلِّ فكرٍ آتٍ يحتوي على ما يمسخ شخصيتها.

ومعنى هذا أن تؤصل الأمة ثقافتها، وتنبّه عقليتها الواعية ورشدها الفكري، وتفتح على الثقافات الأخرى؛ لتستمد منها عناصر الإيجاب والقوة.

ومن أهم إفرازات الغزو:

#### ١- الاغتراب: (استلاب الذات):

بأن يعيش الإنسان «الانهزام أمام الآخر ومحاكاته وتقليده والتماهي معه على حساب الذات تحت ذرائع شتى تبرّر هذا النزوح»<sup>(١٢)</sup>.

(١٢) الشيخ حسين صالح آل الشيخ، (الاستلاب والثقافة الكونية)، مجلة (البصائر)، العدد ١٦- ١٧، السنة الثامنة، صيف وخريف ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص ٦٥.

إنَّه «الاعتراب عن الذات، وفقدان الجوهر الإنساني، والانسحاق تحت وطأة إيديولوجيا مناقضة لواقع فرد ما...، أو جماعة ما...، ومتعارضة مع المصلحة الحقيقية لذلك الفرد أو تلك الجماعة»<sup>(١٣)</sup>.

وتكمن الخطورة - هنا - حين يفقد الشخص أو الجماعة ثقته في ذاته الفردية أو الجمعية، الدينية أو المذهبية أو الاجتماعية أو الوطنية أو القومية أو...، وبهيم بعشق ذات أخرى يمثلها الآخر المختلف. إنَّه استلاب لم يقع على المال والمادة، بل.. وقع على العقل والمعنى.

ولن تضحي العملية عملية مثقفة وتبادل؛ لأنَّه لا ذات هنا لتتولى عملية المثاقفة، فقد انسحقت وتلاشت، ولم يعد في الميدان إلا الآخر يصول ويجول دون منافس.

## ٢- التغرب: (الارتقاء في أحضان الآخر):

وحينما يعايش شخص أو جماعة اغتراباً واستلاباً، ويفقدون ثقتهم بذاتهم الفردية أو الجمعية يتطلعون إلى الآخر بوصفه البديل المُحلَّ محلَّ الذات، وتُجلب منه المناهج والأدوات، الأفكار والتطبيقات، وهكذا يدخل فكر الآخر (الغازي) إلى البنى المعرفية والإجرائية والعملية.

وحين نتحدَّث عن الغرب فإنَّنا لا نقصر (الآخر) عليه وحده، فهو مجرد نموذج للآخر الخارجي، وهناك آخر خارجي غيره بمناهجه وأدواته المباشرة - هو الآخر الشرقي -، فضلاً عن الآخر الداخلي وخطوط الطيف التي يتدرَّج بينها، وإنَّما نعرضه بوصفه المثال الأعلى صاحب الثقافة المهيمنة المستقطبة في الآن الحاضر، والتي استطاعت - بمستواها المعرفي والتقني والعمراني - أن تجتذب عقول كثير من المثقفين، وتصوغ سلوكياتهم.

لقد درس بعض هؤلاء في جامعات الغرب حيث تنهَّل عليهم أحدث النظريات المعرفية، ورأوا - بأب أعينهم - ناطحات السحاب ومركبات الفضاء، ثمَّ عادوا لبلادهم فرأوا بيوت الصفيح والطين، وأبصروا أبناء مجتمعهم - إن تنقلوا بسيارات وقطارات وطائرات -

(١٣) المعجم المفصل في اللغة والأدب، مصدر سابق ١ / ١٨٣.



فهي صناعة غربية!!، فماذا لدى الذات حتى تُصبح المعشوق الأكبر!؟ وهل لديها ما يُقارن بـ (نهاية التاريخ ونموذج الإنسان الأخير) !؟

### الخيطة الرفيع بين الثقافات:

والأمر في الفكر والثقافة ليس ببساطة ما ندرکه في الحقل الاقتصادي والسلع، حين نستطيع أن نفرز الداخلي والخارجي، أو المنتج الوطني وغيره، ومراقبة مرور البضائع.

ففي الثقافة قد تميّز ثقافة ذات وثقافة آخر، وقد تتعدّد ثقافات غير متجانسة في الذات أو الآخر، وقد يأخذ أناس من إحدهما ويجعلونها - ضمن قناعاتهم أو فروضهم - من ثقافة الذات.

ومن ثمّ فبين الثقافات خيط رفيع قد لا تسهل عملية رؤيته وتحديد وفرضه، فليس بالضرورة أن نجد الفكر الديني في مكان، والماركسي في آخر، بل.. قد نجد (فكر ماركسي - ديني)، أو (ديني - ماركسي)، وشحن طاقة أحد الفكرين لخدمة الآخر، أو إيجاد تركيبة واحدة منهما معاً بحيث لا يكون هناك أساس أولي وثانوي.

فعدنا «في السابق كان هناك أربعة اتجاهات فكرية معدودة بحسب التقسيم التقليدي، وهي: الماركسية المنقرضة، والرأسمالية المسيطرة اليوم على العالم، والإسلام بفرعيه: السني والشيوعي.

أما اليوم فهناك تقسيمات كثيرة للاتجاهات الفكرية: فإلى جانب الاتجاهات التقليدية قد تشاهد إسلاماً شيعياً بحالة ليبرالية، أو تشاهد إسلاماً سنياً بحالة متطرّفة، أو تشاهد اتجاهاً اشتراكياً لديه حالة من الاهتمام بالرؤى الرأسمالية المضادة له في التفكير وغير ذلك.

وهذه الفوضى الفكرية في الاتجاهات قد تشكّل إشكالية مهمة يجب أن ننظر إليها في البين.

اليوم هناك فوضى معرفية، لا تستطيع معها أن تقول: هذا يشكّل إسلاماً شيعياً أو سنياً على وجه الحقيقة، فهناك من يدعو إلى

تشيع أو تسنن برؤية ليبرالية»<sup>(١٤)</sup>.

## من سبيل الاختراق:

يحلو للبعض أن يقسم الفترة التي عاشها العالم الإسلامي والنامي - بصورة عامة - في علاقته مع الآخر المختلف الغربي إلى مراحل ثلاث:

١- الاستعمار المباشر (العسكري).

٢- الاستعمار شبه المباشر (شبه العسكري، الانتداب).

٣- الاستعمار الخفي (الثقافي).

وفي حين حكم الغرب البلاد في المرحلة الأولى بجلبة الخيل والعسكر والدبابة والمدفع، حكمها في المرحلة الثانية عبر عملائه في الأقطار، وفي كليهما كان يسهل تحديد المستعمر والإشارة إليه.

بيد أنه في المرحلة الثالثة تزيأ بزّي الثقافة، وحمل الكتاب والقلم، وانتقل - بواسطة أساليبه الدقيقة وتقاناته العالية - من (الغزو في عقر الدار) إلى (الغزو في عقر الذات)!!

لقد بدأ الغرب مرحلته الثالثة بالتركيز على وسائل التربية والتعليم، فأخذ أبناء البلاد ليدرسوا فكره في جامعاته التي بناها في بلادهم - كلبان ومصر -، أو في البلاد الغربية عبر البعثات التعليمية؛ لكي يمتنقوا فكره ومناهجه وأساليبه وأدواته، ثم ليعودوا إلى أوطانهم رسلاً مبشرين به ومنذرين، وليضعوا مناهج التربية والتعليم والإدارة في أوطانهم مستوحاة من الفكر الذي اعتنقوه، وأمسى جزءاً تقويمياً من بنية عقولهم ووجدانهم.

ولأنّ تدريسه في جامعاته يجعله يخسر الأموال الطائلة عليهم - وإن كانت معوّضة أضعافاً مضاعفة -، فقد ابتكر طريقة أسهل له، وتوّتي الثمار بمستوى أفضل، هي: التركيز على وسائل الإعلام

(١٤) الأستاذ محمد أمين أبو المكارم، أفتدة وجراح/ ٨٦. من مقال (آفاق أخرى للعمل الثقافي)، للشيخ حسين صالح آل الشيخ.

الحديثة، القدرة على التأثير عليهم وهم في غرف نومهم!!

وأمتت عملية الاختراق الثقافي من السهولة بمكان، ويبادر المرء إليها بنفسه، ويدفع ثمنها من ماله.

بيد أننا حين نتحدّث عن هذه السبل، لا نريد أن نحكم عليها بأنّها مصدر اختراق دائماً، ولكلّ متعاطيها، بل.. نريد القول أنّها قد تُستعمل كذلك، كما يمكن الاستفادة منها للتبادل الثقافي ونشر ثقافة الذات ربّما بمستوى يفوق كلّ الطرق التقليدية المألوفة في المجتمع.

فهي مسألة يعود الدور الأكبر فيها إلى (الإنسان) في طبيعة تعامله معها، أي أنّ العامل البشري فيها هو العامل الأساس الغالب على سائر جوانبها الأخرى التقنية وغيرها، والقادر على توجيهها الوجهة التي يريد.

### لمواجهة الاختراق الثقافي: المنع أم المناعة؟ (وسائل الإعلام نموذجاً)

سعى الإعلام - وعلى طول المراحل التاريخية - أن يحقق غرضين هامين هما: تحصين الذات وبيان ملامحها ونشر أفكارها، واختراق الآخر والتأثير عليه.

ومن هنا يمكن التعرف على سرّ اهتمام البشرية به منذ فجر التاريخ، وتناميه على مرّ الزمن، وتوسع أطره وآلياته وغاياته.

كما سعى أن يوسّع - كماً وكيفاً - من وسائله حتى يخاطب أكبر قدر ممكن من الشريحة الاجتماعية، والتأثير عليها، وأخذ يجدّد وينوّع سبله - لمعرفته بتنوّع مصادر اهتمامات الناس - بين وسائل مقروءة، ومسموعة، ومرئية.

وهكذا لم يكتف بالجرّيدة، والمجلة، والتلفزيون، والراديو، و...، بل.. راح يسعى إلى تحويل العالم إلى قرية صغيرة، تهمني عليها سيولٌ من القنوات الفضائية بوابل هتّان قد يُنبت، وقد يُعرق.

ولم يكف بذلك، بل ربط العالم بأكمله عبر شبكة (الإنترنت)، ووضع الثقافات المتباعدة أو المتصارعة جنباً إلى جنب، بحيث تسهل عمليات الاطلاع، والمقارنة، والنقد، والانتقال، وتبادل التأثير والتأثير.

ودخلت الأسرة الكونية عصر الثورة المعرفية، وثورة الاتصالات، والانفجار المعرفي، الذي أفقد حتى الدول السيطرة على تدفق المعلومات.

وبما تحويه وسائل الإعلام من تقانة عالية أخذت تنازع الأسرة والمدرسة اللتين أخذتا تخليان مكانهما لها؛ رضوخاً للمنازح الأقوى الذي راح يستبد بالساحة، لاسيماً وسط الانشغالات الأسرية، وزحمة المدنية المعاصرة.

ففي دراسة لمنظمة اليونسكو تبيّن أنّ الأطفال في البلاد العربية يقضون ما بين ١٢ إلى ٢٤ ساعة أسبوعياً أمام التلفزيون<sup>(١٥)</sup>.

«إنّ الأبحاث والدراسات أثبتت أنّ بعض التلاميذ في البلاد العربية عندما يتخرّج من الثانوية العامة يكون قد أمضى أمام التلفزيون خمسة عشر ألف ساعة، بينما لا يقضي في حجرات الدراسة أكثر من عشرة آلاف وثمانمائة ساعة على أقصى تقدير»<sup>(١٦)</sup>.

وفي الجامعات السعودية - مثلاً - يقضي الطالب ٦٠٠ ساعة في السنة، في حين يقضي الفرد أمام التلفزيون ما معدّله ١٠٠٠ ساعة سنوياً<sup>(١٧)</sup>.

## سلاح.. ذو حدّين:

وتشكّل وسائل الإعلام هذه سلاحاً ذا حدّين:

فهو يحوي البرامج الأخبارية، والعلمية، والأدبية، والرياضية، و...، فبإمكاننا أن نرى متحف (اللوفر) في الإنترنت، ربّما بصورة أكثر وضوحاً وإشباعاً للنهم المعرفي من رؤيته على أرض الواقع.

(١٥) عبد الرحمن إبراهيم عسيري، البث المباشر: التحدي الجديد / ٩٨.

(١٦) المصدر / ٩٨.

(١٧) المصدر / ٩١.

وفي نفس الوقت يحوي بين جوانحه مشاهد العنف والجريمة،  
وما يتنافى مع الدين والقيم والأخلاق.

يقول تقريرٌ لمنظمة اليونسكو:

«التلفزيون في البلاد العربية هدم الدين والأخلاق..»<sup>(١٨)</sup>.

ومن خلال إحدى الدراسات التي أُجريت على ٥٠٠ فيلم طويل  
تبين أن موضوع الحبّ والجريمة والجنس يشكّل ٧٢ ٪ منها.

وبيّنت دراسة لباحث أمريكي أن ٢٩ ٪ من البرامج الموجهة  
للأطفال تتناول مواضيع جنسية.

كما أفادت دراسة أُجريت حول الجريمة والعنف في ١٣ فيلماً،  
وجد فيها ٧٣ مشهداً للجريمة<sup>(١٩)</sup>.

وعندما تلقى نظرة خاطفة على أكثر برامج الأطفال نشاهد أنّها  
تقوم على فكرة الصراع والعنف.

### منهجان:

إزاء القوة المتعاضمة لوسائل الإعلام وغيرها من سبل التأثير،  
أمام الأسرة والمجتمع منهجان:

يتمثل الأوّل في (المنع): بأن تمنع الأسرة أبناءها عن كل شيء:  
الجرائد، المجلات، الراديو، التلفزيون، الدش، الإنترنت، ...، وتشكيل  
«حصن خارجي» منيع يحول دون وصولهم لذلك، أو وصول ذلك  
إليهم. وينصب المجتمع والدولة الحوائل والعوازل بين رعيتهما ومصادر  
التأثير.

بينما يتمثل الآخر في (المناعة)، وخلق «تحصين داخلي» ذاتي  
يحاكي الوجدان.

(١٨) المصدر / ٩٧.

(١٩) المصدر / ٩٨.

## المناعة أجدى:

والأسرة والمجتمع - وإن كنا بحاجة بنسبة معينة إلى المنع - إلا أنّ خلق المناعة هو المنهج الأصوب.. لماذا؟

١- المنع أمرٌ خارجيٌّ، والمناعة أمرٌ ذاتيٌّ أشدُّ أثرًا وعملاً في الإنسان، ولا يستطيع الأمر الخارجي أن يأخذ مكانته ما لم تكن هناك (قابلية) له، تمثلها الذات.

٢- المنع يستطيع الإنسان أن يتخلَّص منه، ويفلت من أساره، أمّا المناعة فهي شيءٌ يعتمل في الضمير، ولا يمكن الفرار منه.

٣- المنع يُذهب المحاسن والمساوئ، والمناعة لمقاومة المساوئ، والاستفادة من المعطيات الإيجابية.

٤- لا أحد يقبل المنع؛ لأنّه فرضٌ خارجيٌّ يتدخَّل في حرية الإنسان، ويمارس سلطة (النظام الأبوي الشمولي) عليه.

أمّا المناعة فهي رقابة ذاتية، فتاعة متجدِّرة في النفس، وليست خارجية.

٥- يصعب المنع، لاسيّما إذا كانت الأسرة مغرمة بوسائل الإعلام، وإذا امتعت الأسرة، فأين الأقارب، والجيران، والأصدقاء، والمدرسة، والمحيط، و...؟، إنّ وسائل الإعلام كالهواء، موجودةٌ في كلِّ مكان.

أمّا المناعة فهي ممارسة ذاتية يملئها المرء على نفسه بحريته واختياره، ويستطيع أن يتملأها في سلوكه، وإن خالفه الجميع.

٦- يصعب وضع (معيار) يحدّد المقبول والمرفوض، وفي حال وجوده قد يستغله البعض لتنفيذ مآربه باسمه، والتضييق على الآخرين وحررياتهم، بينما (معيار) المناعة داخلي يسهل على صاحبه تأسيسه، يفرضه الفرد على نفسه، وفي حال خطئه يمسّ شخصيته هو.

٧- لا يمكن أن يقيم الدينُ أو الفردُ أو الجهة (استراتيجته)

- لاسيما في مواجهة الأعداء والمشكلات والثقافات - على المنع؛ لأنّ ذلك من شأنه أن يفاقم الأمور ضده أكثر، ويزيد الجبهات المناوئة إليه، لكنّه يمكن أن يقيّمها على المناعة، ثمّ يكون لديه موارد محدودة استثنائية تدخل في المنع<sup>(٢٠)</sup>.

٨- المنوع مرغوب: المنع يخلق لدى الفرد حبّاً للاستطلاع، والمغامرة من أجل الاكتشاف، ويشحذ - في كثير من الأحيان - روح التحديّ والمواجهة.

إنّ التحريم المطلق للأشياء يخلق الجرأة حتى على انتهاك الحكم الشرعي؛ لأنّ الناس سيرون أنّه حكمٌ غير واقعي، وسيرون أنّهم السابقون إلى التفاعل مع الجديد (المحرّم!) الذي سيدعن له الجميع في حلّ توفيقيّ فيما بعد، وسيصبح عادياً، إن لم نقل من متطلبات الحياة!!

بينما المناعة تفقد الشيء قيمته والرغبة فيه وإن عجّ به المكان، ومن ثمّ لن يكون أكثر من وجود خارجي لا أثر له، ولا يحرك المطامح نحوه.

## كيف نحقق المناعة؟

### ١- إنماء الوازع الذاتي:

لم يترك الله - سبحانه - عباده سُدى، بل أرسل لهم ١٢٤,٠٠٠ نبي، وفي قول آخر ٣٠٠,٠٠٠ نبي حتى يُنمّوا فيهم الإيمان، ويعلموهم الطريق الأمثل (الحكم الشرعي) الذي ينظّم علاقة الإنسان بالله، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وبالطبيعة.

وأنزل - سبحانه - ١١٤ سورة في القرآن الكريم، منها ٨٦ سورة مكية، تركز على العقيدة الصالحة، وخلق الوازع الديني، وتبشّر بالجنة، وتذرر بالنار...، و٢٨ سورة مدنية خطّت للمجتمع الإسلامي أسس

(٢٠) النقطنان (٧٦) مأخوذتان - بتصرّف - من السيّد محمد خاتمي، بيم موج: المشهد الثقافي في إيران: مخاوف وآمال / ١٢٤.

الدولة الإسلامية، لكنّها مع ذلك لم تغفل الجانب الروحي.

لقد سعى القرآن الكريم جاهداً لخلق الضمير الحيّ الملتهب بحرارة الإيمان، الذي يلزم صاحبه، ويقوده إلى الخير، وينهاه عن الشرّ، ويحاسبه لو صدر منه: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ \* وَلَا أُقْسِمُ بِأَنْفُسِ اللّٰوَامَةِ﴾<sup>(٢١)</sup>.

وسعى برياضاته الروحية والعملية وبزخمه الفكري إلى بناء صرح (التقوى) في القلب، وتوفير هذه الملكة النفسية الراسخة التي تجعل بين حاملها وبين المحرمات (وقاية) تحول دون سقوطه فيها حتى لو كانت متوفرة في المحيط الخارجي، وظلّ يهيب بأتباعه ألاّ يحوموا حول حمى الضياع؛ خوف الوقوع فيه.

وأوجد برامج تدعم الروح وتقويها، كالدعاء، والمناجاة، والصلاة، والصوم، وقراءة القرآن، و...

وسنّ تشريعات حكيمة تحفظ الفرد والمجتمع المسلم من الانزلاق خلف متاهات الظلام وسبله الوعرة، ومن تلك التشريعات ما يدعو إلى التزام العقيدة الصالحة، ومكارم الأخلاق، وتطبيق الفقه.

ومن ذلك دعوته الحثيثة لعفة البصر والفرج كطريق عملي لمعالجة المنطلق والسبب قبل وقوع النتيجة المرّة ﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ، وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ حَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ \* وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُنْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾<sup>(٢٢)</sup>، إنّه قطع جذر البذرة قبل أن تنمو منها شجرة الانحراف.

وهكذا نجد الإسلام يبسط رداء العفة في كلّ حياة الإنسان وعلاقاته، في سكونه وحركته، في حلّه وترحاله: عفة الكسب والإنفاق، المأكل والمشرب، الملبس والمسكن، الصداقة والصحبة، اللسان واليد، الدرس والتدريس، و...

(٢١) سورة القيامة/ ١-٢.

(٢٢) سورة النور/ ٣٠-٣١.



وغني عن القول: إِنَّ هذه الصفات التي تعود إلى العفة تعود - كذلك - إلى الإيمان أو التقوى أو العقيدة، فالإسلام كلُّ متواشج العلاقات والأصـر.

وكلُّ ذلك يتمحور ويدور حول مركز تأسيسي ينطلق من (النفـس) و(الذات) وتوفير عناصر المناعة فيها بحيث تستطيع مقاومة (الخارج) متى كان مختلفاً مـبـايـناً.

«لم يرض الإسلام على مدى تاريخه الباهر باستراتيجية المنع في الميدان الثقافي والفكري، وإذا كانت هذه الاستراتيجية قد مُورست يوماً ما... - وباسم الإسلام!! - بحق المجتمع؛ فإنها انتهت إلى الهزيمة ملحقة أضراراً لا دافع لها.

لقد كان الإسلام يستقبل الأفكار المخالفة والمعارضة بـصدر رحب، وكان المفكرون العظام وأبناء المجتمع يواجهون أفكار الآخرين برحابة صدر وثقة عالية بالنفس، ويستفيدون من محاسنها، ويدعون مساوئها تنسحق وتتلاشى في حركة النظام الفكري والقيمي الإسلامي، وبذلك استطاعوا أن يزدوا من استحكام البنية الفكرية للمجتمع الإسلامي.

... إِنَّ ما ذكرته لا يعني أن لا حقاً للنظام الإسلامي في أن يمارس أي نوع من المنع والردع...، ولكن.. هناك فرق بين نظام يقيم سياسته الاستراتيجية على المنع، وآخر يستفيد من المنع كخطوة تكتيكية تقتصر على حالات معينة.

إنَّ الإسلام لم يأخذ - على مدى تاريخه - بمبدأ المنع استراتيجية سوى في مثل هذه الأحوال التكتيكية، حيث تكتنفه الأخطار، وتحقيق به المحن»<sup>(٣٣)</sup>.

وهذا يعني أنَّ الإسلام استخدم خيار (المنع) في حالات معينة، لكنّه يقيم سياسته العامة ومنهجه على دعائم (المناعة).

(٣٣) بيم موج: المشهد الثقافي في إيران: مخاوف وآمال، مصدر سابق / ١٢٤ - ١٣٦.

## ٢- النضج الفكري:

ولكي تُخلق المناعة، يلزم أن تُوجد في عقولنا الحصانة، عبر توفير النضج الفكري في كل أبعاده: العقيدية، الثقافية، السياسية، و...

إِنَّا أُمَّةٌ ﴿۲۴﴾ اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿۲۴﴾، ﴿ن، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ﴿۲۵﴾، ﴿لَا يَأْتِي لَأُولَى الْأَبَابِ﴾ ﴿۲۶﴾، كما نهتم بالجسم وغذائه نحتاج إلى الاهتمام بالعقل وغذائه.

نحتاج إلى القراءة، وسماع الأخبار والبرامج الثقافية والعلمية، وممارسة التفكير، والاستنتاج الحرّ، وتزويد العقل بالأفكار الحية الناهضة، والقيام بعملية تحليل وتركيب للأفكار قبل اعتناقها؛ حتى لا نقبل أيّ (صرعة فكرية) تظهر في السوق، وحتى لا ينطبق علينا قول موشي ديّان: «العرب أمة لا تقرأ» ﴿٢٧﴾.

إنّ كثيراً ممن يقبل الأفكار البرّاقة يقبلها لأنّها لم تُعرض كما هي، بل.. ألبست لباس الجميل الفتّان، الذي يسبي الأنظار، ويخطف القلوب.

إنّ (الخواء الفكري) يجعل الإنسان كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شيءٍ إلاّ قبلته، ويدفع فيما بعد إلى ظاهرة (الاستلاب الفكري)، والانهيار بكلّ ما يفد من الآخر المختلف، ولو كان خاطئاً وعلى حساب الذات والمؤتلف، بل.. يصل إلى إضفاء المسحة الدينية عليه، وفرضه على النصّ الديني، الأمر الذي نراه كلّما ظهرت نظرية علمية جديدة، حين يذهب المنبهورون بها إلى فرضها على آية قرآنية، أو حديث شريف.

(٢٤) سورة العلق / ١.

(٢٥) سورة القلم / ١.

(٢٦) سورة آل عمران / ١٩٠.

(٢٧) (العرب لا يعرفون القراءة، والغرب لا يقرأون المعرفة)، مصدر سابق،

مجلة (المعرفة)، العدد ٥٢، رجب ١٤٢٠هـ / أكتوبر ١٩٩٩م، ص ١٩٠.

### ٣- الرشد الاجتماعي:

مما تقوم به وسائل الإعلام أنها تجعل غير المألوف اجتماعياً مألوفاً ومقبولاً ضمن التداول الاجتماعي (حشراً مع الناس عيد).

وهذا واحدٌ من الأسباب التي تُعَلِّل تحوُّل ما يُشاهد إعلامياً إلى مجسِّدٍ ضمن الممارسة الاجتماعية؛ لأنَّه حين عُرض وجد من يتقبَّله، ويهضمه، ويعيد تمثيله على أرض الواقع.

حين عُرض فيلم (قتلة بالهوية) أو (قتلة بالسليقة) في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي شهرٍ واحدٍ فقط، تمَّت ثلاث عمليات قتلٍ قام بها أطفالٌ على ذات الطريقة التي رأوها في الفيلم، ولما سُئلوا عن سبب قيامهم بالجريمة، أجابوا: أردنا أن نكون مشهورين كالذين في الفيلم (!)؛ وذلك ما دعا فرنسا إلى منع عرضه في دور السينما فيها.

موضات اللباس، الشعر، التعاملات الاجتماعية، و... تصرُّفاتٍ اعتنقها كثيرون عبر ما يرونه في وسائل الإعلام، ثم الصمت الاجتماعي تجاهها.

تفيد الإحصائيات أنَّ ٩٨٪ من الأطفال يشاهدون الإعلانات بصورة منتظمة، وأنَّ ٩٦٪ منهم يتعرَّفون بسهولة على المشروبات المعلن عنها<sup>(٢٨)</sup>.

والحصول على الرشد الاجتماعي يحتاج إلى المخالطة، والتجربة، والذكاء الاجتماعي، وحسن التصرُّف...؛ حتى يُصدر المرء التصرُّف الحكيم، ولا يكون (إمَّعة) يقول: إن أحسن الناس أحسنُ، وإن أسوأ...أسأتُ.. مع المتدينين حيناً، وحيناً مع غيرهم، تارة مع استثمار الزمن (والرزانة) والتصرُّفات الرشيدة، وأخرى مع التقليد الأعمى لكل ما لا يتناسب مع خصوصيتنا الثقافية.

### ٤- توفير البدائل الناجعة:

في الثقافة هناك عموميات (عالميات) يتفق عليها البشر، وهناك

(٢٨) البث المباشر، مصدر سابق/ ٩٨.

ثقافة الإسلام وثقافة المسلمين  
(خصوصيات) تتميز بها ثقافة عن أخرى، أو فئة مهنية أو اجتماعية  
أو غيرهما، وتشكّل ثقافة فرعية ضمن الثقافة الأصلية العامة، وهناك  
(بدائل ومتغيّرات) تتحرّك مع الزمن.

وحين يعايش المجتمع حاجة مادية - كالحاجة للتغلب على  
ارتفاع درجة الحرارة في المنزل - سوف يبحث عن حلٍّ ومخرج لها،  
وسوف ينتخب أفضل البدائل المتاحة أمامه (ترطيب المكان، مروحة،  
مكيّف...).

وكما يصحّ ذلك في الجانب المادي من الثقافة، فهو يصحّ - أيضاً -  
في الجانب المعنوي منها، فحين يصطدم بمشكلة معرفية سيفتش لها  
عن حلٍّ، وسيختار أحد البدائل، بما ينسجم مع اقتناعه به، أو توافقه  
مع مرتكزاته الدينية أو الإيديولوجية، وغيرها، أو بمدى إشباعه له.  
والثقافة حين يواجهها تحدٍ ما.. فهي إما أن تضع له حلاً ناجماً،  
أو هزياً بالمقارنة بغيره من البدائل المتاحة، أو لا تضع له شيئاً.

وفي الحالة الأولى تستطيع الثقافة أن تحصّن نفسها، وتكسب  
ولاء أتباعها لها، أما في الحالتين الأخريين فسوف تتيح المجال لثقافات  
أخرى ذات بديل أقوى أن تخترقها.

«.. وسبقى خطر الاختراق قائماً ما لم تتم عملية الاستبدال  
ببدائل فريدة حقيقية؛ لأنّ ما نسميه بالإعاقة أو الأجزاء الميّتة [في بنية  
الأمة] ليس سوى التناقض بين حاجة الإنسان والواقع القائم...»

ولهذا فإنّ العنصر المتفوّق يفرض نفسه بقوة الحاجة الاجتماعية  
إلى البديل، الأمر الذي يقودنا إلى التأثير على حدود المسموح، والذي  
لا يتقرّر من خلال الوعي وحده، بل.. الوعي إلى جانب الحاجة  
الاجتماعية....

من هنا سيكون شرط منع الاختراق هو تقديم البدائل المتفوّقة،  
ليست داخل نفس الحضارة، بل.. متفوّقة مطلقاً، وبغير توفر هذا  
الشرط سيكون الحديث عن الأصالة، ومنع الاختراق أو الذوبان، بلا  
طائل؛ لأنّ الحركة وانتقال الفريد أو المتفوّق هو قانون الحضارة، ولن

توقفه رغبة أو إرادة الناس» (٢٩).

## المزيج والنمذجة:

### ١- المزيج:

لا نستطيع أن ننظر إلى وسائل الإعلام والتقانات الثقافية الأخرى بوصفها جهنم الحالكة السوداء، كما لا يمكن أن ننظر إليها بوصفها جنة الفردوس والصفحة البيضاء المشرقة، بل.. هي مزيج، فيه الحسن والسيء.

وإذا كانت تساعد على إيجاد حالة من التأزم النفسي، وعلى نشر قيم وعادات اجتماعية لا تتوافق مع الدين والمجتمع، فإنَّ فيها آثاراً معرفيةً ساميةً.

لقد قاربت وسائل الإعلام بين لهجات العالم العربي، وأغدقت على الأطفال سيلاً من الكلمات العربية الفصيحة، التي تسلت إلى ألسنتهم بشكلٍ عفويٍّ مع الرسوم الكارتونية، فضلاً عن بثِّ شيء من الثقافة هنا وهناك.

وينبغي علينا استثمار وسائل الإعلام والتقنيات الحديثة الأخرى في التنمية المعرفية والفكرية، والاطلاع على ثقافات الأخر وأنماط تفكيره، والاستفادة من إيجابياته، واختصار المسافة بين الدول والمجتمعات، ونشر ثقافة الذات.

ولكي نقوم بعملية التنمية المعرفية الواعية نحتاج إلى اطلاع وتريث وعدم التعجُّل في قبول الأفكار الأخرى، وإنَّما أخذها من باب إجراء (مقاييس الصدق) عليها، فإن صمدت وصحَّت أخذنا بها، وإلا.. فهي مجرد ثراءٍ فكريٍّ لن يجد طريقه إلى قناعاتنا وواقفنا التطبيقي.

(٢٩) عبد الله الفريجي، (جدلية الثابت والمتحرك وحدود الممنوع والمسموح في الحضارة والتفاعل الحضاري)، مجلة (الكلمة)، العدد ١٩، السنة الخامسة، ربيع ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م، ص ٤٥-٤٦.

## ٢- النمذجة:

وقد قصدنا من وسائل الإعلام مجرد نموذج قد يُستغل للاختراق الثقافي، لكنّه أحد النماذج، وليس النموذج الأوحيد، فربّما جاء الاختراق الثقافي عن طريق صديق يحمل فكراً مؤثراً ومبائناً، ويسعى للتأثير وتشكيل عقلية صديقه، وقديماً قيل: (قل لي: من تصادق. أقل لك من أنت).

وربّما جاء عن طريق المحيط الاجتماعي وشخصياته الفاعلة والتقانات والأساليب الموجهة للفكر والسلوك فيه حتى لو لم تكن جليلة واضحة، فالمجتمع يطبع أبناءه بطابعه، وعبر التوافق الاجتماعي قد يشد أفكارهم وسلوكياتهم إلى حدّ التطابق والتماثل.

وقد يأتي محمولاً على أكتاف المدرسة التي تلعب دوراً كبيراً في هذا المضمار، لا سيما حين تكون فيها مناهج موجهة، ومدرسون ذوو شخصية جاذبة وقدرة على تزويق الأفكار والقيم.

والأسرة نفسها يمكن أن تكون وسيلة اختراق!!، لا سيما حين يحمل الأب ذاك الدور وتلك الراية، ويغدو مبشراً لفكر مسموم ينفثه بين أبنائه ومن يعول، وحينما يكون (ربّ البيت بالدّف مولعاً) سيوفر أفضل المناخات المؤهّلة لتضحى (شيمة أهل البيت كلّهم الرقص)!!، وهنا يكون (المنهج الخفي في التربية) الذي تمارسه الأسرة بسلوكها أشدّ تأثيراً - بما لا قياس بينهما - من (المنهج العلني) الذي تبديه عبر نصائحها وتوجيهاتها اللفظية وادعاءاتها.

وإذا كان ما مضى مما يندرج - بشكل أو بآخر - ضمن (البيئة الاجتماعية)، فإننا لا نغفل (البيئة الثقافية) ودورها النشط، فالكاتب المقروّء، والمحاضرات المسموعة وأوعية تقديم الفكر والمعرفة هي الأخرى ذات اتجاهات ومدارس تبتغي التأثير على المتلقي: فكراً وسلوكاً، وقد تتسلل إلى الذهن منقولة على سفن مشيدة من وسائل الإقناع: من روعة في الألفاظ، ومتانة في السبك، ووهج عاطفي دافق، وإحصائيات و.....، بل.. ومن آيات وأحاديث!!

وهنا ندكّر بأننا لا نريد القول بأنّ كلّ فكر هو هكذا؛ فنعيش

الانغلاق والتفوق، ولا أن كل فكر مختلف هو - بالضرورة - مناوئ وهدام، وينبغي بناء السدود دونه؛ فتقع بين برائن ثقافة البعد الواحد!، وإنما نريد التأكيد على الوعي وحضور العقل عند المثاقفة؛ لنكون من ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَبَابِ﴾<sup>(٢٦)</sup>.

## المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإمام علي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ / ٦٦١م). نهج البلاغة. جمع الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ / ١٠١٥م). ضبط الدكتور صبحي الصالح. ط ١. بيروت/ لبنان: دار الكتاب اللبناني، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

### الكتب المطبوعة:

(أ):

- الأبشيهي، شهاب الدين بن محمد (ت ٨٤٩هـ / ١٤٤٦م). المستطرف في كل فن مستظرف. ط ١. بيروت/ لبنان: مؤسسة عزّ الدين، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- ابن الأثير، عزّ الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م). الكامل في التاريخ. ط ١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٩م.
- الأسدي، الشيخ ناصر حسين. شورى الفقهاء المراجع. ط ١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الفكر الإسلامي، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- الأعلمي، علاء الدين. وهج الفصاحة في أدب النبي صلوات الله عليه وآله وسلم. ط ١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- أنيس، الدكتور إبراهيم. وآخرون. المعجم الوسيط. ط ٢. استانبول/ تركيا. المكتبة الإسلامية، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.



(ب):

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ/٨٧٠م).  
صحيح البخاري. د ط. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي،  
د ت.
- البعلبكي، منير. موسوعة المورد العربية. ط ١. بيروت/ لبنان: دار  
العلم للملايين، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- بكار، الدكتور عبد الكريم. فصول في التفسير الموضوعي. ط ١.  
دمشق/ سورية: دار القلم، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- بكار، الدكتور عبد الكريم. نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي. ط ١.  
الرياض/ السعودية: دار المسلم، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(ت):

- التميمي، عبد الواحد بن محمد الأمدي (ت ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م).  
غرر الحكم ودرر الكلم. ط ١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي  
للمطبوعات، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- التونجي، الدكتور محمد. المعجم المفصل في الأدب. ط ١. بيروت/  
لبنان: دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(ج):

- الجابري، الدكتور محمد عابد. المثقفون في الحضارة العربية:  
محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد. ط ١. بيروت/ لبنان: مركز  
دراسات الوحدة العربية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- الجابري، الدكتور محمد عابد. وجهة نظر: نحو إعادة بناء قضايا الفكر  
العربي المعاصر. ط ١. بيروت/ لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية،  
والدار البيضاء/ المغرب: المركز الثقافي العربي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- الجزائري، نور الدين بن نعمة الله الحسيني الموسوي (ت ١١٥٨هـ/  
١٧٤٥م). فروق اللغات. ط ٢. طهران/ إيران: مكتب نشر الثقافة  
الإسلامية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(ح):

- الحاكم النيسابوري، الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن

- حمدويه بن نعيم الضبي (ت ٤٠٥هـ / ١٠١٤م). المستدرک علی الصحیحین. د ط. بیروت/ لبنان: دار المعرفة، د ت.
- أبو حجر، أحمد عمر. التفسیر العلمی بالقرآن فی المیزان. ط ١. بیروت/ لبنان. دار قتیبة، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- ابن أبي الحديد، عبد الحمید بن هبة الله (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م). شرح نهج البلاغة. د ط. بیروت/ لبنان: دار مكتبة الحياة، د ت.
- الحرّاني، أبو محمد الحسن بن علي بن شعبة (ت القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي). تحف العقول عن آل الرسول ﷺ. ط ٥. بیروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمی للمطبوعات، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- الحرّ العاملي، الشيخ محمد بن الحسن (١١٠٤هـ / ١٦٩٢م). وسائل الشيعة إلى تحصيل الشريعة. تحق: عبد الله الرباني الشيرازي. ط ٦. بیروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- الحسن، كريم جبر. عملية النهوض الحضاري. ط ١. بیروت/ لبنان: دار الهادي، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.
- الحسيني، السيد محمد رضا. كيف نفهم القرآن؟. ط ١. بیروت/ لبنان: دار الفردوس، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- حكيمي، الشيخ محمد رضا. المدرسة التفكيكية. (سلسلة قضايا إسلامية معاصرة ٨). تصدر عن مجلة (قضايا إسلامية معاصرة) التي يشرف عليها عبد الجبار الرفاعي. د ط. إيران: مؤسسة الأعراف للنشر، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- ابن حنبل، الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ / ٨٥٥م). مسند الإمام أحمد بن حنبل. ط ١. بیروت/ لبنان: مؤسسة التاريخ العربي، ودار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- الحيدري، السيد كمال. التوحيد. ط ١. بیروت/ لبنان: دار الأضواء، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

(خ):

- خاتمي، الدكتور السيد محمد. بيم موج: المشهد الثقافي في إيران: مخاوف وآمال. ط ١. بیروت/ لبنان: دار الجديد، ١٩٩٧م.
- الخراساني، الأخوند الشيخ محمد كاظم (ت ١٣٢٩هـ / ١٩١١م). كفاية الأصول. ط ١. قم/ إيران: مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء

- التراث، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- الخزرجي، عبود أحمد. روائع الحكم في أشعار الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام). د ط. بغداد/ العراق: المكتبة العالمية، د ت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م). مقدّمة ابن خلدون. د ط. بيروت/ لبنان: دار الفكر، د ت.
- خليف، الدكتور يوسف. في الشعر الأموي: دراسة في البيئات. د ط. القاهرة/ مصر: مط مكتبة غريب. ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- الخوند، مسعود. الموسوعة التاريخية الجغرافية. د ط. بيروت/ لبنان: دار رواد النهضة، ١٩٩٨م.

(د):

- دستغيب، السيد الشهيد عبد الحسين (ت ١٤٠١هـ / ١٩٨١م). التوحيد والعدل (سلسلة أصول الدين). ترجمة: السيد أحمد القبانجي. ط ١. بيروت/ لبنان: الدار الإسلامية، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.

(ذ):

- الذهبي، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ابن قايماز (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م). تذكرة الحفاظ. تصحيح: عبد الرحمن بن يحيى العلمي. د ط. بيروت/ لبنان: دار الكتب العلمية، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م.

(ر):

- الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين عمر (ت ٦٠٦هـ / ١٢١٠م). تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير ومفتاح الغيب). ط ٣. بيروت/ لبنان: دار الفكر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت ٥٩٥هـ / ١١٩٨م). فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال. تحق: الدكتور محمد عمارة. ط ٢. بيروت/ لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- الرومي، الأستاذ الدكتور فهد بن عبد الرحمن. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري. ط ٣. بيروت/ لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- الرويلي، الدكتور ميجان، والدكتور سعد البازعي. دليل الناقد

الأدبي. ط ٢. الدار البيضاء/ المغرب، وبيروت/ لبنان: المركز الثقافي العربي، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

- الري شهري، الشيخ محمد محمد محمدي. ميزان الحكمة. ط ٢. إيران: مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(ز):

- الزركلي، خير الدين (ت ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م). الأعلام. ط ١٣. بيروت/ لبنان: دار العلم للملايين، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٩م.

- الزيّات، أحمد حسن (ت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م). تاريخ الأدب العربي. ط ٧. بيروت/ لبنان: دار المعرفة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(س):

- سالم، الدكتور محمد رشاد. المدخل إلى الثقافة الإسلامية، ط ٩. الصفاة/ الكويت: دار القلم، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- السبحاني، الشيخ جعفر. الإلهيات. بقلم: الشيخ حسن محمد مكي العاملي. ط ١. بيروت/ لبنان: الدار الإسلامية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م). سنن أبي داود. تحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. د ط. د ب. د ت.

- سعيد، إدوارد (ت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م). صور المثقف. ترجمة: غسان غصن. ط ١. بيروت/ لبنان: دار النهار، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(ش):

- شبّر، السيد عبد الله (ت ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م). الجواهر الثمين في تفسير الكتاب المبين. تقديم: السيد محمد بحر العلوم. ط ١. الكويت: مكتبة الألفين، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

- شرّابي، الدكتور هشام. المثقفون العرب والغرب. ط ١. بيروت/ لبنان: دار النهار، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

- الشهرستاني، أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م). الملل والنحل. تحقق: عبد العزيز محمد الوكيل. د ط. بيروت/ لبنان: دار الفكر، د ت.

- الشهيد الثاني، زين الدين بن أحمد العاملي (٩٦٥هـ/ ١٥٥٩م). منية المرید في آداب المفيد والمستفيد. ط ٢. بيروت/ لبنان: دار

- المنتظر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- شيخ أمين، الدكتور بكري. مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني. ط ٥. بيروت / لبنان: دار العلم للملايين، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- الشيرازي، السيد الشهيد حسن (ت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م). كلمة الرسول الأعظم. د ط. بيروت / لبنان: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- الشيرازي، السيد الشهيد حسن. كلمة الله. د ط. بيروت / لبنان: مؤسسة الوفاء، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- الشيرازي، السيد محمد (ت ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م). الصياغة الجديدة لعالم الإيمان والحرية والرفاه والسلام. ط ٣. بيروت / لبنان: مؤسسة الفكر الإسلامي، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- الشيرازي، السيد محمد. الفقه: القواعد الفقهية. ط ١. د ب. د ن، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
- الشيرازي، السيد محمد. الوصول إلى كفاية الأصول. ط ٢. قم / إيران: دار الإيمان، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

(ص):

- صافي، الدكتور لؤي. أعمال العقل: من النظرة التجزئية إلى الرؤية التكاملية. ط ١. دمشق / سورية وبيروت / لبنان: دار الفكر، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- الصدر، السيد الشهيد محمد باقر (ت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م). بحوث إسلامية. ط ٤. بيروت / لبنان: دار الزهراء (عليها السلام)، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م.
- الصدر، السيد الشهيد محمد باقر. دروس في علم الأصول (الحلقات). ط ١. بيروت / لبنان: دار المنتظر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- الصدر، السيد الشهيد محمد باقر. المدرسة القرآنية. ط ٢. بيروت / لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- الصدر، السيد موسى. الإسلام عقيدة راسخة ومنهج حياة. د ط. بيروت / لبنان: دار التعارف، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
- الصفار، الشيخ حسن موسى. أحاديث في الدين والثقافة والاجتماع. ط ١. بيروت / لبنان: مؤسسة البلاغ، ودار الوحدة، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- صليبيا، الدكتور جميل. المعجم الفلسفي. د ط. بيروت / لبنان: دار الكتاب اللبناني. والقاهرة / مصر: دار الكتاب المصري، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

(ض):

- ضيف، الدكتور شوقي. العصر العباسي الأول. ط ٨. القاهرة/ مصر: دار المعارف، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

(ط):

- الطباطبائي، السيد محمد حسين (ت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م). الميزان في تفسير القرآن. ط ١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- الطبرسي، أحمد بن علي بن أبي طالب (ت حوالي ٦٢٠هـ/ حوالي ١٢٢٢م). الاحتجاج. ط ٢. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

- الطبرسي، الشيخ الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م). جوامع الجامع في تفسير القرآن المجيد. ط ٢. بيروت/ لبنان: دار الأضواء، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

- الطبرسي، الشيخ ميرزا حسين النوري (ت ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م). مستدرک الوسائل ومستنبط المسائل. ط ٥. بيروت/ لبنان: دار الهداية، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٣م). تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك). ط ٤. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري). ضبط وتعليق: محمود شاکر. ط ١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

- الطريحي، الشيخ فخر الدين بن محمد (ت ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م). مجمع البحرين. د ط. بيروت/ لبنان: دار الهلال، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- طه، جمانة. الجمان في الأمثال. ط ١. دمشق/ سورية: د ن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

- طويق، دار نشر (إعداد). هل تعلم؟ ط ٣. الرياض/ السعودية: دار طويق، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(ع):

- عاصي، الدكتور ميشال. والدكتور إميل بديع يعقوب. المعجم المفصّل في اللغة والأدب. ط ١. بيروت/ لبنان. دار العلم للملايين، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- العاملي، الشيخ ياسين عيسى. الاصطلاحات الفقهية في الرسائل العملية. ط ١. بيروت/ لبنان. دار البلاغة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- عبده، الشيخ محمد (ت ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م). الإسلام والنصرانية.. مع العلم والمدنية. ط ٦. مصر: مطبعة نهضة مصر، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.
- العسّال، الدكتور أحمد محمد. الإسلام وبناء المجتمع. ط ٨. الصفاة/ الكويت: دار القلم، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن سهل (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م). الضروقات في اللغة. ط ٥. بيروت/ لبنان: دار الآفاق الجديدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- العسكري، السيد مرتضى. معالم المدرستين. ط ٢. بيروت/ لبنان: مؤسسة النعمان، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- عسيري، عبد الرحمن إبراهيم. البث المباشر.. التحدي الجديد. الرياض/ السعودية: طويق للخدمات الإعلامية والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- العمري، الدكتورة نادية شريف. أضواء على الثقافة الإسلامية. ط ٩، بيروت/ لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(غ):

- غارودي، روجيه. الإسلام دين المستقبل. د ط. بيروت/ لبنان، ودمشق/ سورية: دار الإيمان للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ/ ١١١٢م). تهافت الفلاسفة. تقديم وتعليق: الدكتور صلاح الدين الهوّاري. د ط. صيدا وبيروت/ لبنان: المكتبة العصرية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- الغزالي، الشيخ محمد (ت ٤١٦هـ/ ١٩٩٦م). ليس من الإسلام. ط ١. دمشق/ سورية، وبيروت/ لبنان: دار القلم، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- غليون، الدكتور برهان. اغتيال العقل. ط ١. القاهرة/ مصر: مكتبة مدبولي، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- الغوري، إبراهيم حلمي. لؤلؤة الشرق وبلاد الشمس المشرقة: اليابان. ط ١. بيروت/ لبنان، و حلب/ سورية: دار الشرق العربي، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(ف):

- فتح الله، الدكتور أحمد. معجم أفاضل الفقه الجعفري. ط ١. الدمام/ السعودية: مطابع المدوخل، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

- فضل الله، السيد محمد حسين. قصائد للإسلام والحياة. ط ١. بيروت/ لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/ ١٤١٥م). القاموس المحيط. ط ١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- الفيصل، الدكتور محمد رشيد. هجرة الكفاءات العلمية العربية ودور مجلس التعاون في الإفادة منها. (سلسلة حوليات كلية الآداب/ الحولية التاسعة). تصدر عن جامعة الكويت. الرسالة الحادية والخمسون، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- الفيصل، الدكتور محمد رشيد. الهجرة وهجرة الكفاءات العلمية العربية والخبرات الفنية أو النقل المعاكس للتكنولوجيا. ط ١. عمان/ الأردن: دار مجدلاوي، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(ق):

- القزويني، السيد محمد كاظم (ت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م). الإمام علي من المهدي إلى اللحد. د ط. بيروت/ لبنان: مؤسسة النعمان، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

- قطب، سيد (ت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٦م). خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. ط ٩. بيروت/ لبنان، والقاهرة/ مصر: دار الشروق، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

- قطب، سيد. العدالة الاجتماعية في الإسلام. ط ٩. بيروت/ لبنان، والقاهرة/ مصر: دار الشروق، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.



(ك):

- كاريل، ألكسيس (ت ١٩٤٤م). الإنسان ذلك المجهول. تعريب: شفيق أسعد فريد. د ط. بيروت/ لبنان: مكتبة المعارف، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- كاظم، جواد. القيادة الإسلامية. ط ٢. د ب. دن، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني (١٠٩٤هـ/ ١٦٨٣م). الكليات. تحق: الدكتور عدنان درويش، ومحمد المصري. ط ١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.
- الكليني، الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ/ ٩٤١م). أصول الكافي. تحق: محمد جعفر شمس الدين. د ط. بيروت/ لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- كوول، ف. ر. التاريخ والحضارة. ترجمة: أحمد الشيباني. (سلسلة عكاظ الثقافية). ط ١. جدة/ السعودية: مؤسسة عكاظ للصحافة والنشر، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(ل):

- لطفي، الدكتور طلعت إبراهيم. مدخل إلى علم الاجتماع. ط ٢. مصر: مكتبة غريب، د ت.

(م):

- مايرز، شيت. تعليم الطلاب التفكير الناقد. ترجمة: عزمي جرار. مراجعة تربوية: الدكتور تيسير النهار. إشراف وتوجيه: الدكتور: فكتور بله. د ط. عمان/ الأردن: مركز الكتب الأردني، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- المبارك، الدكتور محمد. الثقافة الإسلامية: نظام الإسلام.. الحكم والدولة. د ط. مكة المكرمة/ السعودية: المكتبة الفيصلية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٤م.
- المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين عبد الملك البرهان فوري (ت ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م). كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال. ضبط وتفسير: الشيخ بكري حيّاني. تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا. ط ١. حلب/ سورية: منشورات دار الكتاب الإسلامي، د ت.
- المتنبّي، أبو الطيّب أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفي الكندي الكوفي (ت ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م). ديوان المتنبّي. تحق: عبد الرحمن

- البرقوقي. ط ١. مصر: المطبعة الرحمانية، ١٣٤٨هـ / ١٩٣٠م.
- المجلسي، العلامة محمد باقر (ت ١١١١هـ / ١٦٩٩م). بحار الأنوار. ط ٤. بيروت / لبنان: مؤسسة أهل البيت (ع)، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- مجموعة من الكتاب. دائرة المعارف الإسلامية. د ط. بيروت / لبنان: المؤسسة الإسلامية، د ت.
- مجموعة من الكتاب. عالم الحيوان وغرائبه. سلسلة (الموسوعة العلمية المبسطة ٣). ط ١. بيروت / لبنان: دار العودة، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- مجموعة من الكتاب. نظرية الثقافة (سلسلة عالم المعرفة ٢٢٣). ترجمة: الدكتور علي سيد الصاوي. مراجعة وتقديم: الأستاذ الدكتور الفاروق زكي يونس. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، صفر ١٤١٨هـ / يوليو (تموز) ١٩٩٧م.
- محمود، الدكتور زكي نجيب (ت ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م). تجديد الفكر العربي. ط ١. القاهرة / مصر: دار الشروق، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- المدرسي، السيد محمد تقي. الإسلام ثقافة الحياة. ط ١. طهران / إيران: انتشارات مدرسي، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
- المدرسي، السيد محمد تقي. التمدن الإسلامي أسسه ومبادئه. ط ١. بيروت / لبنان: دار البيان العربي، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.
- المدرسي، السيد محمد تقي. العرفان الإسلامي بين نظريات البشر وبصائر الوحي. ط ٣. بيروت / لبنان: دار البيان العربي، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- المدرسي، السيد محمد تقي. الفكر الإسلامي مواجهة حضارية. ط ٥. بيروت / لبنان: دار البيان، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٨م.
- المدرسي، السيد محمد تقي. المجتمع الإسلامي متطلباته وأهدافه. ط ٥. بيروت / لبنان: دار الكتب الطيبة، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
- المدرسي، السيد محمد تقي. المنطق الإسلامي أصوله ومناهجه. ط ٢. بيروت / لبنان: دار الجيل، د ت.
- المدرسي، السيد محمد تقي. من هدى القرآن. ط ١. بيروت / لبنان: دار البيان العربي، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- مرسي، الدكتور محمد عبد العليم. هجرة العلماء من العالم الإسلامي. ط ٢. الرياض / السعودية. دار عالم الكتب، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.
- المزني، زهير بن أبي سلمى (ت ١٣ ق هـ / ٦٠٩م). شرح شعر زهير

- ابن أبي سلمى: صنعة أبي العباس ثعلب. تحق: الدكتور فخر الدين قباوة. د ط. بيروت/ لبنان: دار الأفاق الجديدة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م). مروج الذهب. ط ٢. قم/ إيران: دار الهجرة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- المصطفوي، السيد محمد كاظم. القواعد: مائة قاعدة فقهية. ط ٣. قم/ إيران: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- مطر، الدكتورة أميرة حلمي. مقدّمة في علم الجمال. د ط. القاهرة/ مصر: دار النهضة العربية، د ت.
- المظفر، الشيخ محمد رضا (ت ١٢٨٣هـ/ ١٩٦٣م). أصول الفقه. ط ٢. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- المظفر، الشيخ محمد رضا. المنطق. ط ٣. بيروت/ لبنان: دار التعارف للمطبوعات، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- معهد الإنماء العربي، الموسوعة الفلسفية العربية. رئيس التحرير: الدكتور معن زيادة. ط ١. د ب. دن، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- مغنية، الشيخ محمد جواد (ت ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م). التفسير المبين. د ط. بيروت/ لبنان: مؤسسة عزّ الدين، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- مغنية، الشيخ محمد جواد. عقليات إسلامية. ط ٢. بيروت/ لبنان: دار الجواد، ودار التيار، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- مغنية، الشيخ محمد جواد. علم أصول الفقه في ثوبه الجديد. ط ٢. قم/ إيران. انتشارات ذو الفقار، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- مغنية، الشيخ محمد جواد. نضجات محمديّة. د ط. بيروت/ لبنان: دار ومكتبة الهلال، ودار الجواد، د ت.
- المفيد، الشيخ محمد بن محمد بن نعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م). تصحيح الاعتقاد. ط ١. قم/ إيران: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- المقرّم، السيد عبد الرزّاق بن محمد الموسوي (ت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، مقتل الحسين (عليه السلام). ط ٥. بيروت/ لبنان: دار الكتاب الإسلامي، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- أبو المكارم، الأستاذ محمد أمين. أفئدة وجراح: الشيخ حسين..

- وميض حياة وعزيف رحيل. ط ١. بيروت/ لبنان: دار المكارم لإحياء التراث، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- المنجرة، الدكتور مهدي. الحرب الحضارية الأولى: مستقبل الماضي وماضي المستقبل. ط ١. الدار البيضاء/ المغرب: دار عيون، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م). لسان العرب. تسيق: علي شيري. ط ١. بيروت/ لبنان: دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت ٥١٨هـ/ ١١٢٤م). مجمع الأمثال. تحق: محمد محيي الدين عبد الحميد. د ط. د ب. د ن، د ت.
- الميلاد، الشيخ زكي. الفكر الإسلامي بين التأسيس والتجديد. ط ١. بيروت/ لبنان: دار الصفاة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- الميلاد، الشيخ زكي. محنة المثقف الديني مع العصر. ط ١. بيروت/ لبنان: دار الجديد، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- (ن):
- ناصر، الدكتور إبراهيم. التربية وثقافة المجتمعات. ط ١. بيروت/ لبنان: دار الفرقان، ومؤسسة الرسالة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.
- ناصر، الدكتور إبراهيم. مقدّمة في التربية. ط ٥. عمّان/ الأردن: جمعية عمّال المطابع التعاونية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- ناصر، أحمد. الثقافة الرسالية. ط ٢. بيروت/ لبنان: دار الصفاة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- الناصري، محمد باقر. مع الرسول الأعظم في حكمه ووصاياه. ط ١. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- ابن نبي، مالك (ت ٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م). شروط النهضة. ترجمة: عمر كامل مستقوي، و عبد الصبور شاهين. ط ٤. دمشق/ سورية: دار الفكر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- الندوة العالمية للشباب المسلم. الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة. ط ٢. الرياض/ السعودية، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- الندوي، السيد أبو الحسن علي الحسيني (ت ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ ط ٨. بيروت/ لبنان: دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
- النديم، محمد بن إسحاق (ت ٤٣٨هـ / ١٠٤٧م). الفهرست. تعليق: الشيخ إبراهيم رمضان. ط ٢. بيروت/ لبنان: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- النراقى، الشيخ محمد مهدي (ت ١٢٠٩هـ / ١٧٩٥م). جامع السعادات. ط ٣. النجف الأشرف/ العراق: مطبعة النجف، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.
- النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت ٢٦١هـ / ٨٧٤م). الجامع الصحيح (صحيح مسلم). د ط. بيروت/ لبنان: دار المعرفة، د ت.

(هـ):

- ابن هشام، أبو محمد جمال الدين عبد الله بن يوسف (ت ٧٦١هـ / ١٣٦٠م). مغني اللبيب عن كتب الأعراب. ط ٥. قم/ إيران: انتشارات سيد الشهداء، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب (ت ٢١٣هـ / ٨٢٨م). سيرة النبي ﷺ. تحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. د ط. القاهرة/ مصر: دار الفكر، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(و):

- وايفي، علي عبد الواحد. الحرية في الإسلام. (سلسلة اقرأ ٣٠٤، تصدر أوّل كلّ شهر، يرأس تحريرها: عادل الغضبان). د ط. القاهرة/ مصر: دار المعارف بمصر، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

(ي):

- اليوسف، الشيخ عبد الله أحمد. شرعية الاختلاف. ط ١. بيروت/ لبنان: دار الصفاة، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

### الجرائد والمجلات:

- آل الشيخ، الشيخ حسين صالح (ت ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م). (الاستلاب والثقافة الكونية). مجلة البصائر [بيروت/ لبنان]. ع ١٦- ١٧.

- السنة الثامنة. صيف وخريف ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م.
- آل موسى، الشيخ علي. (التعددية المرجعية.. ضرورة أم مشكلة؟).  
مجلة (البصائر). [بيروت/ لبنان]. ع ١٥. السنة الثامنة. شتاء  
١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- إبراهيم، زينب. (المتقف والسيرورة الاجتماعية: قراءة في المهمة  
والمستلزمات). مجلة (المنطلق) [بيروت/ لبنان]. تصدر عن  
الاتحاد اللبناني للطلبة المسلمين. ع ٩٩. شعبان - رمضان ١٤١٣هـ/  
فبراير (شباط) - مارس (آذار) ١٩٩٣م.
- بخيت، عبد الله. (العرب لا يعرفون القراءة، والغرب لا يقرأون المعرفة)،  
مجلة (المعرفة) [السعودية]، ع ٥٢، رجب ١٤٢٠هـ / أكتوبر ١٩٩٩م.
- توفيق، خالد (التيارات الفكرية في الساحة الإيرانية). جريدة  
(كيهان العربي) [إيران]. ع ٢٤٢١. السنة الخامسة عشرة. السبت  
٨ / جمادى الثانية / ١٤١٥هـ، ١٢ / تشرين الثاني / ١٩٩٤م.
- توفيق، خالد. (الغزو الثقافي وسبل مواجهته)، مجلة (الثقافة  
الإسلامية) [دمشق/ سورية]. ع ٦٧. ذو الحجة - محرم ١٤١٦هـ -  
١٤١٧هـ / أيار - حزيران ١٩٩٦م.
- توفيق، خالد. (الفوارق بين الغزو الثقافي والتبادل الثقافي).  
مستخلصة من خطابات السيد علي الخامنئي. جريدة (كيهان العربي)  
[إيران]. ع ٢٣٩٤. في ٢٦ / ١١ / ١٤١٤هـ.
- الحمود، الدكتور أحمد. (صورة الأدب العربي في ألمانيا). مجلة  
(القافلة) [السعودية]. المجلد ٥٣، ع ٦، شوال - ذو القعدة / ١٤٢٥هـ،  
نوفمبر - ديسمبر / ٢٠٠٤م.
- جروان، فتحي عبد الرحمن. (تعليم التفكير.. تعليم الإبداع).  
مجلة (المعرفة) [السعودية]. ع ٨٣. صفر ١٤٢٣هـ / مايو ٢٠٠٢م.
- الخفاجي، أسامة. (مشكلة التخلف والتنمية في العالم  
الإسلامي). مجلة (البصائر) [بيروت/ لبنان]. ع ٩. السنة  
الخامسة. خريف ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- رافع، شوقي. (الجريمة والثقافة). مجلة (العربي) [الكويت].  
ع ٤٤٢. ربيع الآخر ١٤١٦هـ / سبتمبر (أيلول) ١٩٩٥م.
- الرميحي، الدكتور محمد. (ضالة المؤمن: لماذا تأخر المسلمون

- ولماذا تقدّم غيرهم؟)، مجلة (العربي). [الكويت]. ع ٤٦٤. صفر ١٤١٩هـ/ يوليو (تموز) ١٩٩٧م.
- الرميحي، الدكتور محمد. (الطريق إلى المستقبل: هل يمكن اكتشاف القوى الكامنة في التخلف العربي؟). مجلة (العربي). [الكويت]. ع ٤٥٩. رمضان ١٤١٧هـ/ فبراير (شباط) ١٩٩٧م.
- زكريا، الدكتور فؤاد. (الغرب: ذلك المتأمر الأزلي). مجلة (العربي) [الكويت]. ع ٤١٥. ذو الحجة ١٤١٣هـ/ يونيو (حزيران) ١٩٩٣م.
- شديد، طارق عبد الفتاح. (نزيف الأدمغة والأمن العلمي). مجلة (القافلة) [السعودية]. المجلد ٤٦. ع ١. محرّم ١٤١٨هـ/ مايو (يونيو) ١٩٩٧م.
- الشعلان، الدكتور عبد العزيز. (أرقام لها معنى فلا تصدقها). مجلة (المعرفة) [السعودية]. ع ٥٧. ذو الحجة ١٤٢٠هـ/ مارس ٢٠٠٠م.
- ضاهر، الدكتور مسعود. (خصوصية الثقافة.. في مواجهة الثقافة الكونية). مجلة (العربي). [الكويت]. ع ٤٢٨. ذو الحجة ١٤١٥هـ/ مايو (آيار) ١٩٩٥م.
- العمري، ظافر بن عبد الله، (إن فقهاء لا يعملون..). جريدة (رسالة الجامعة) [السعودية]. تصدر عن جامعة الملك سعود بالرياض. ع ٨٠١. السنة ٢٩. السبت ٣٠/٣/١٤٢٤هـ، ٣١/٥/٢٠٠٣م.
- العوّامي، الشيخ فيصل. (الثابت في عصر المنعطفات: نظرة اجتماعية لأطروحة الولاية). مجلة (البصائر) [بيروت/لبنان]. ع ٢١. السنة التاسعة. خريف ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
- الفريجي، عبد الله. (جدلية الثابت والمتحرك وحدود الممنوع والمسموح في الحضارة والتفاعل الحضاري). مجلة (الكلمة) [بيروت/لبنان]. ع ١٩. السنة الخامسة. ربيع ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- المحفوظ، الأستاذ محمد. (التجديد في الفكر الإسلامي لا يعني التكييف التعسفي بين وقائع العصر والنصوص الشرعية). مقابلة أجراها معه الأستاذ حسن عبد العلي آل حمادة. جريدة (الوطن) [السعودية]. ع ٥٥٥. السنة الثانية. الأحد ٢٤/ محرّم/ ١٤٢٣هـ، ٧/ أبريل/ ٢٠٠٢م. صفحة ٢٨ (دنيا ودين).
- المحمد، أسماء. (إحصائيات: الطفل العربي لا يقرأ خارج المنهج

المدرسي سوى ٦ دقائق طول العام). جريدة (الشرق الأوسط) [السعودية]. ع ٩٢٥٣. السنة السادسة والعشرون. الاثني ٨ / ٢ / ١٤٢٥هـ، ٢٩ / ٣ / ٢٠٠٤م.

- الملا، الدكتور عيسى بن علي. (ما المقصود بالتفكير الاستراتيجي للمخططين؟) مجلة (القافلة) [السعودية]. المجلد ٥٠. ع ٣. ربيع الأول ١٤٢٢هـ/ مايو (يونيو) ٢٠٠١م.
- هيئة التحرير، (قالوا..). مجلة (العربي). [الكويت]. ع ٤٩٨. محرّم ١٤٢١هـ/ مايو ٢٠٠٠م.

### المحاضرات:

- اللامي، الدكتور مهنا. (أسس المناهج)، المحاضرة الثالثة في مادة (أسس المناهج). جامعة الملك فيصل - الأحساء/ السعودية، أقيمت بتاريخ ٦ / ٦ / ١٤١٩هـ.

### الاستفتاءات:

- المدرسي، السيد محمد تقي. (حديث). الاستفتاءات. نشرة فقهية تصدر عن مكتب السيد المدرسي في السيدة زينب عليها السلام. العدد ٦. السنة الأولى، ربيع الثاني ١٤٢٣هـ/ ١٩٩٣م.

### الإنترنت:

- آل حمادة، الأستاذ خليل عبد العلي. تطبيقات النظرية الصدرية على المشروع الإحيائي لكتاب (أفكار هادفة). موقع: (www.qateefiat.com) (قطيفيات).
- أمين، محمد. (مسلسل نزيه العقول العربية ما زال مستمراً). موقع: (www.alwatan.com) (الوطن).
- الجراد، الدكتور خلف محمد. (الأمن القومي العربي والتحدي العلمي). موقع: (www.palestinian center for media.com) (المركز الفلسطيني للإعلام).
- شبكة النبأ المعلوماتية. (هجرة العقول العربية تؤكّد المناخ الطارد للإبداع والتطوير في البلدان العربية). موقع: (www.annabaa.org) (النبأ).



- الصفار، الشيخ حسن موسى، (سيرة الأئمة ومناهج العرض)،  
محاضرة الجمعة رقم (١٠٩) في ١١ / ١١ / ١٤٢٢هـ، موقع: (www.saffar.org) (الصفار).
- الصفار، الشيخ حسن موسى. (المشاكل بين الآهات والمعالجات).  
محاضرة الجمعة في ٨ / ٤ / ١٤٢٢هـ. موقع: (www.saffar.org) (الصفار).
- كريم، نايف. (الوطن العربي ونزيف الأدمغة). موقع: (www.iraqisciejournal.com) (المجلة العلمية العراقية).

## عنوان المؤلف

المملكة العربية السعودية

المنطقة الشرقية - القطيف

الرمز البريدي / ٣١٩١١

العوامية

ص. ب / ١٠٣٠٥

علي علي محمد آل موسى

# ALBASA'ER BOOK

ISLAMIC IDEOLGIC MAGAZINE

**Book (1) 1426h-2005m**

*Islamic Ideologic Magazine Issued by: Islamic Studies & Resarches Center In the Univeriy of Imum ka'am*

## هذا الكتاب:

يضم بين دفتيه فكراً رسالياً يحمل هم الأمة والنهوض، يناقش فيه الكاتب رؤى فكرية متعددة، ينتقد ويحلل ويؤسس وكل ذلك بروح علمية أكاديمية مسؤولة، لا يقف عند حاجز من العرف أو ما هو مسكوت عنه ما دام الأمر يدخل ضمن التأسيس لوعي نهضوي يسهم من خلاله الكاتب في التشكيل لعقل عربي خال من أوهام التاريخ أو الأعراف والتقاليد.